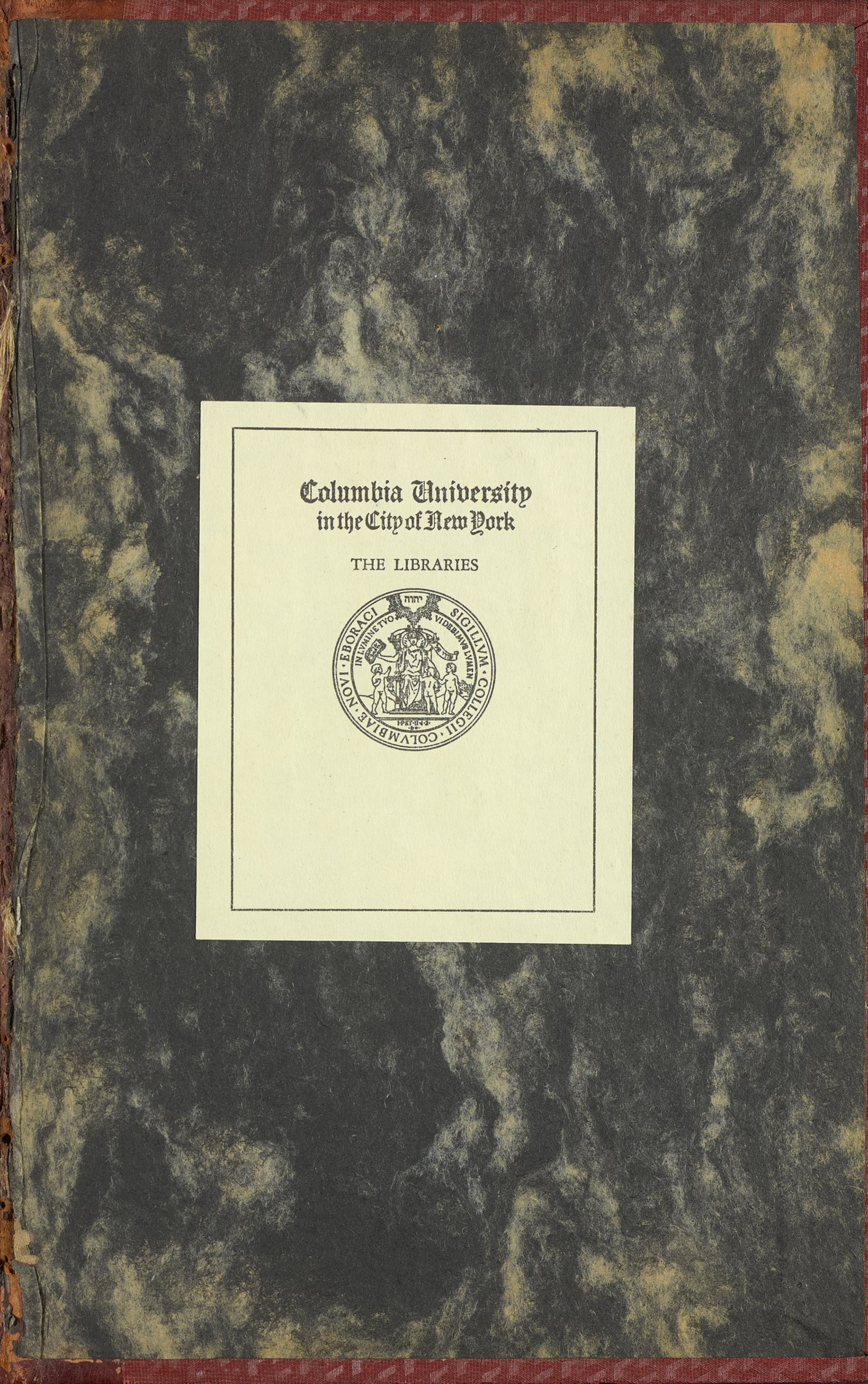
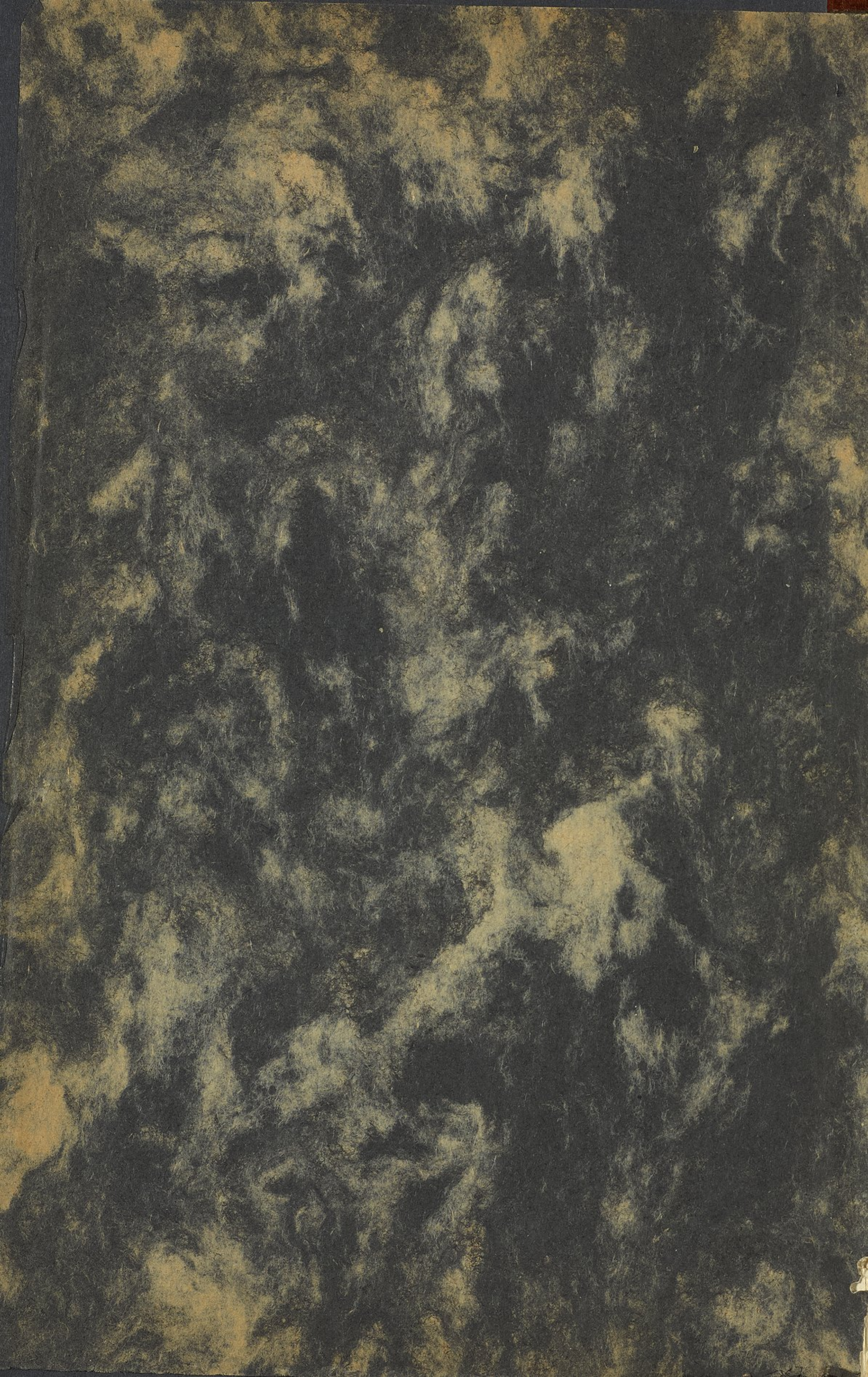
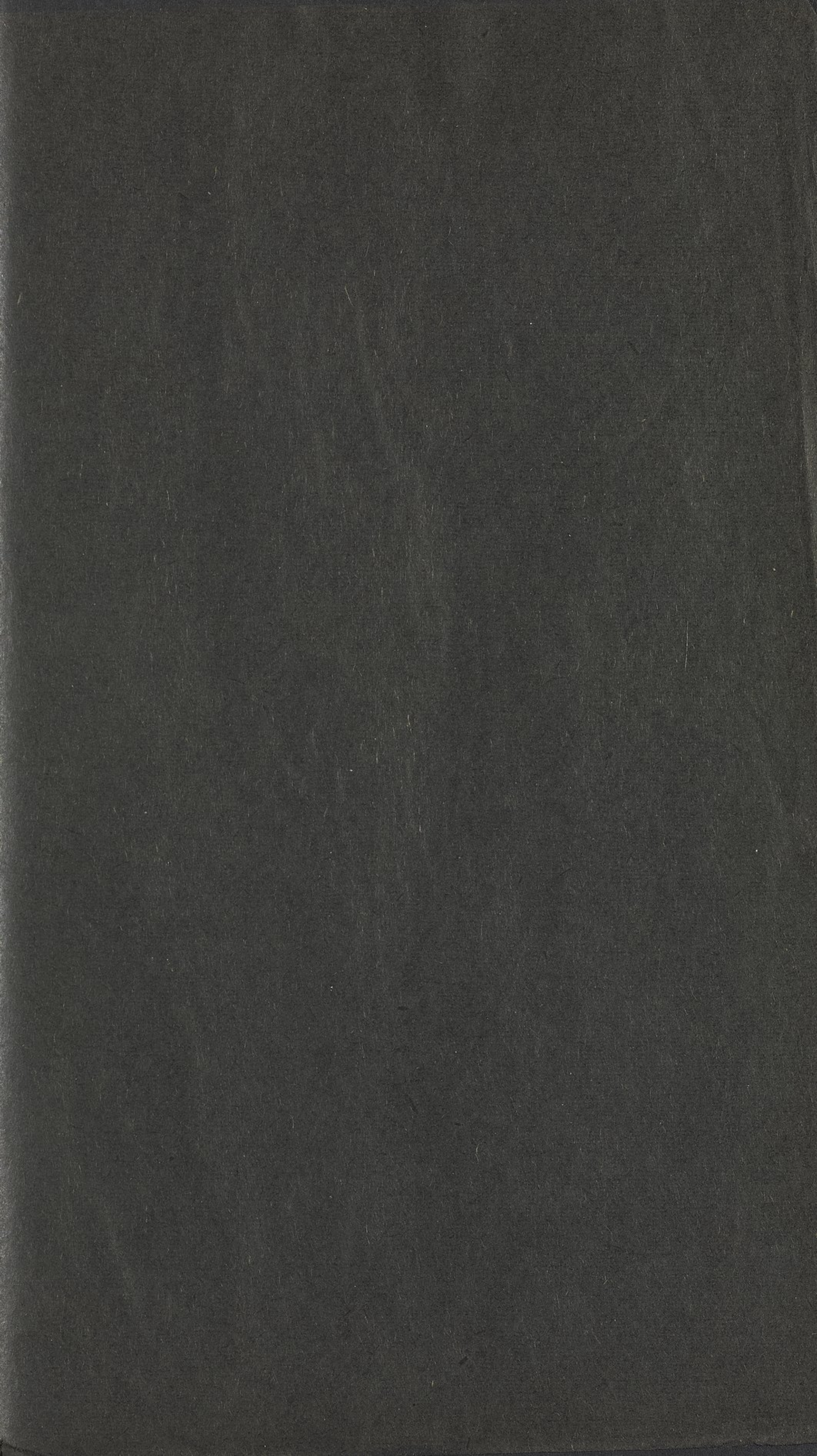
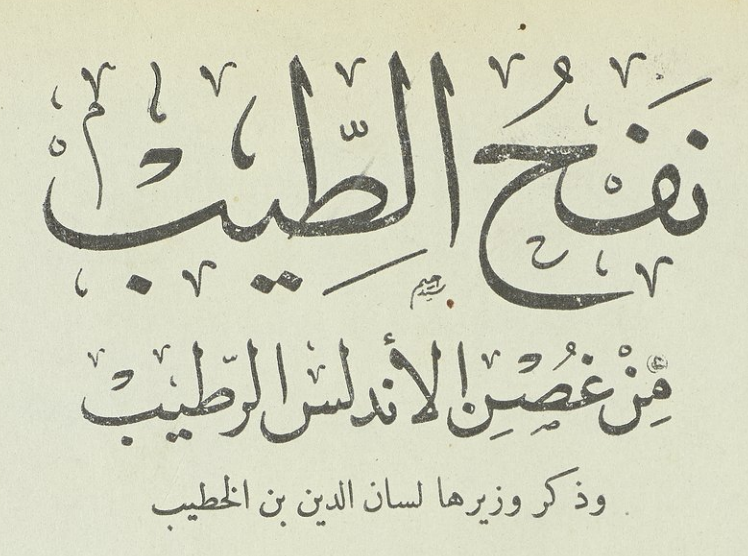



Columbia University
in the City of New York
THE LIBRARIES





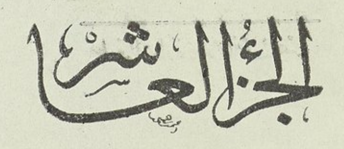


وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى فى عام ١٠٤١ من الهجرة

حققه ، وضبط غرائبه ، وعلق حواشيه
محمد محيي الدين عبد الحميد
عفا الله تعالى عنه !



الطبعة الأولى

في عام ١٣٦٩ هـ — ١٩٤٩ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى ، بشارع محمد على ، بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رُسُلِ الله ، وعلى آلهم وأصحابهم .

الباب السابع

فى ذكر بعض تلامذته الآخذين عنه المستدلين به على المنهاج ، المستفيدين أنواع العلوم منه والمقتبسين أنوار الفهوم من سراجه الوهاج .

اعلم أن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى كثيرون ، إلا أنه لم يرزق السعادة فى كثير منهم ، بل بارزوه بالعداوة ، واجتهدوا فى إيصال المكروه إليه .

أبو عبد الله ابن زمرك

فمن أشهرهم الوزير الكاتب أبو عبد الله ابن زَمْرَك ، وارث مرتبته من بعده ، ومقتعد أريكة سعده ، وقد ألمع به فى « الإحاطة » وكان إذ ذاك من جملة أتباعه ، إذ قال ما محصله : محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الصريحى يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن زَمْرَك .

أصله من شرقى الأندلس ، وسكن سلفه روض البيازين من غرناطة ، و به ولد ونشأ ، وهو من مفاخره .

حاله ـ هذا الفاضل صَدْر من صدور طلبة الأندلس ، وأفراد نُجَبائها ، مختصر[1] مقبول ، هش ، خلوب ، عذب الفكاهة ، حلو المجالسة ، حسن التوقيع ، خفيف الروح ، عظيم الانطباع ، شره المذاكرة ، فطن بالمعاريض ، حاضر الجواب ، شعلة من شعل الذكاء ، تكاد تحتدم جوانبه ، كثير الرقة ، فكه ، غزل مع حياء وحشمة ، جواد بما فى يده ، مشارك لإخوانه ، نشأ عفا طاهراً ، كلفا بالقراءة ، عظيم الدُّؤُوب ، ثاقب الذهن ، أصيل الحفظ ، ظاهر النبل ، بعيد مدى الإدراك ، جيد الفهم ، فاشتهر فضله ، وذاع أرجه ، وفشا خبره ، واضطلع بكثير من الأغراض ، وشارك

---

(١) كذا فى ب و ط ، وفى الإحاطة « مختص » ولو قرأت « محتضر » لكان لها وجه ، ومعناه أن له مجلسا يحضره الناس ، وتكررت هذه اللفظة في ترجمته الآتية (ص ٢٤) عن ابن الأحمر ، بمعنى صغير الحجم .

فى كثير من الفنون، وأصبح متلقف كرة البحث[١] ، وصارخ الحلقة ، ومظنة الكمال ، ثم ترقى فى درجة المعرفة والاضطلاع ، وخاض لجة الحفظ ، وركض قلم التقييد والتسويد والتعليق ، ونصب نفسه للناس متكلما فوق الكرسي المنصوب ، وفوق المحفل المجموع ، مستظهراً بالفنون[٢] التى بَعُدَ فيها شأوه من العربية والبيان ، وما يقذف به فى لج النقل من الأخبار والتفسير ، متشوفا مع ذلك إلى السلوك ، مصاحباً للصوفية ، آخذاً نفسه بارتياض ومجاهدة ، ثم عانى الأدب ، فكان أملك به ، وأعمل الرحلة فى طلب العلم والازدياد ، فترقى إلى الكتابة عن ولد السلطان أمير المسلمين بالمغرب أبى سالم إبراهيم ابن أمير المسلمين أبى الحسن على بن عثمان ابن يعقوب ، ثم عن السلطان ، وعرف فى بابه بالإجادة ، ولما جرت الحادثة على السلطان صاحب الأمر بالأندلس ، واستقر بالمغرب ، أنس له ، وانقطع إليه ، إليه ، وكر فى صحبة ركابه إلى استرجاع حقه ، فلطف منه محله ، وخصه بكتابة سره ، وثابت الحال ، ودالت الدولة ، وكانت له الطائلة ، فأقره على رسمه معروف الانقطاع والصاغية ، كثير الدالَّةِ ، مضطلعاً بالخطة خطاً وإنشاء ولسنا ونقدا ، فحسن منابه ، واشتهر فضله ، وظهرت مشاركته ، وحسنت وساطته ، ووسع الناس تخلقه ، وأرضى للسلطان حمله ، وامتد فى ميدان النظم والنثر باعه ، فصدر عنه من المنظوم فى أمداحه قصائد بعيدة الشأو فى مدى الإجادة ، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد ، أعانه الله تعالى وسدده !

شيوخه ـ قرأ العربية على الأستاذ رحلة إلى المغرب فى فنها أبى عبد الله ابن الفخار ، ثم على القاضى الشريف إمام الفنون اللسانية أبى القاسم محمد بن أحمد الحسنى ، والفقه والعربية على الأستاذ المفتى أبى سعيد بن لب ، واختص بالفقيه

---

(١) كناية عن غلبته وسبقه

(٢) استظهر فلان بكذا : أى تقوى به

الخطيب الصدر المحدث أبى عبدالله بن مرزوق . فأخذ عنه كثيراً من الرواية ، ولقى القاضى الحافظ أباعبد الله المقرى عندماقدم من الأندلس ، وذاكره ، وقرأ الأصول الفقهية على أبى على منصور الزواوى ، ويروى عن جماعة منهم القاضى أبو البركات ابن الحاج ، والمحدث أبو الحسين بن التلمسانى ، والخطيب أبو عبدالله بن اللوشى ، والمقرى أبو عبد الله بن بيبش ، وقرأ بعض الفنون العقلية بمدينة فاس على الشريف الرحلة الشهير أبى عبد الله العلوى التلمسانى ، واختص به اختصاصا لم يخل فيه من استفادة مران وحنكة فى الصنعة .

شعره – وشعره مترام إلى هدف الإجادة ، خفاجى النزعة[1] ، كلف بالمعانى البديعة والألفاظ الصقيلة ، غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبنى به ، وهو من أوّل ما نظمه قصيدة مطلعها :

* أما وانصداع النور من مطلع الفجر *

وهى طويلة .

ومن بدائعه التى عقم عن مثلها قياس قيس ، واشتهرت بالإحسان اشتهار الزهد بأوَيْس ، ولم يحل مجاريه ومباريه إلا بويْح وويْس ، قوله فى إعذار الأمير ولد سلطانه ، المنوه بمكانه ، وهى من الكلام الذى عنيت الإجادة بتذهيبه وتهذيبه ، وناسب الحسن بين مديحه ونسيبه :

مُعاذ الهوَى أن أصحبَ القلبَ ساليا ... وأن يشغل اللوّام بالعذل باليا
دعانىَ أعْطِ الحب فضل مَقَادتى ... ويقضى علىّ الوجد ما كان قاضيا
ودون الذى رام العواذلُ صبوة ... رمت بى فى شِعْبِ الغرام المراميا
وقلب إذا ما البرق أومض مَوْهنا ... قدحت به زندا من الشوق واريا[2]

---

(١) نسبة إلى « ابن خفاجة » شاعر الطبيعة الأندلسى

(٢) الموهن : القطعة من الليل

خليلىَّ إنى يوم طارقة النوى شقيت بمن لو شاء أنعم باليا
وبالخيف يوم النفر يا أم مالك تخلفت قلبى فى حبالك عانيا (١)
وذى أشَرٍ عذب الثنايا مخصَّر يسقى به ماء النعيم الأقاحيا
أحُومُ عليه مادَجَا الليل ساهرا وأصبح دون الوِرْد ظمآن صاديا (٢)
يضىء ظلام الليل ما بين أضلعى إذا البارق النجدىُّ وَهْنا بداليا
أجيرتنا بالرمل والرمل منزل مضى العيش فيه بالشبيبة حاليا
ولم أر رَبْعًا منه أقْضَى لبانة وأشجى حمامات وأحلى مجانيا
سقت طلهُ الغر الغوادى ونظمت من الطر فى جيد الغصون لآليا
أبثكم أنى على النأى حافظ ذمام الهوى لو تحفظون ذماميا
أناشدكم والحر أوفى بعهده ولن يعدم الإحسان والخير جازيا
هل الود إلا ما تحاماه كاشح وأخفق فى مسعاه من جاء واشيا
تأوبنى والليل يذكى عيونه ويسحب من ذيل الدجُنَّة ضافيا (٣)
وقد مثلت زهر النجوم بأفقه حبابا على نهر المجرة طافيا
خيال على بعد المزار ألم بى فأذكرنى من لم أكن عنه ساليا
عجبت له كيف اهتدى نحو مضجعى ولم يبق منى السقم والشوق باقيا
رفعت له نار الصبابة فاهتدى وخاض لها عرض الدجنة ساريا
ومما أجدَّ الوجد سربٌ على النقا سوانح يصقلن الطلا والتراقيا
نزعن عن الألحاظ كل مسدد فغادرن أفلاذ القلوب دواميا
ولما تراءى السرب قلت لصاحبى وأيقنت أن الحب ماعشت دائيا
حذارك من سقم الجفون فإنه سيعدى بما يعيى الطبيب المداويا

---

(١) تخلفت ، هنا : أي تركته خلفى
(٢) الصادى : العطشان
(٣) الدجنة ـ بضم الدال والجيم وتشديد النون مفتوحة ـ شدة الظلام

وإن أمير المسلمين محمدا ... ليعدى نداه الساريات الهواميا(١)

تضىء النجومَ الزاهراتِ خلالُه ... وينفث فى روع الزمان المعاليا

مَعَالٍ إذا ما النجم صوب طالباً ... مبالغها فى العز حَلّقَ وانيا

يسابق عُلْوِيَّ الرياح إلى الندى ... ويفضح جدوى راحتيه الغواديا

ويغضى عن العوراء إغضاء قادر ... ويرجح فى الحلم الجبال الرواسيا

همام يروع الأسد فى حومة الوغى ... كما راعت الأسد الظباء الجوازيا(٢)

مناقب تسمو للفخار كأنما ... تجارى إلى المجد النجوم الجواريا

إذا استبق الأملاك يوما لغاية ... أبيت وذاك المجد إلا التناهيا

بهرت فأخفيت الملوك وذكرها ... ولا عجب فالشمس تخفى الدراريا

جلوت ظلام الظلم من كل معتد ... ولا غرو أن تجلو البدور الدياجيا

هديت سبيل الله من ضل رشده ... فلا زلت مهدياً إليه وهاديا

أفدت وَحِيَّ الملك مما أفدته ... وطوّقت أشراف الملوك الأياديا(٣)

وقد عرفت منها مَرِينٌ سوابقا ... تقر لها بالفضل أخرى اللياليا

وكان أبو زيان جِيداً معطلا ... فزينته حتى اغتدى بك حاليا

لك الخير لم تقصد بما قد أفدته ... جزاء ولكن همة هى ماهيا

فما تكبر الأملاك غيرك آمرا ... ولا ترهب الأشراف غيرك ناهيا

ولا تشتكى الأيام من داء فتنة ... فقد عرفت منك الطبيب المداويا

وأندلسا أوليت ما أنت أهله ... وأوردتها وردا من الأمن صافيا

تلافيت هذا الثغر وهو على شفًى ... وأصبحت من داء الحوادث شافيا

ومن بعد ما ساءت ظنون بأهلها ... وحاموا على ورد الأمانى صواديا

---

(١) السوارى : جمع سارية ، وأراد السحائب ، والهوامى : أى الممطرة

(٢) الجوازى : جمع جازية ، وأصلها الهمزة ، وهو الوحش بأسره ، ووقع فى ب « الجواريا » تحريف

(٣) وحى الملك : سريعه

فما يأملون العيش إلا تعللا ولا يعرفون الأمْنَ إلا أمانيا
عطفت على الأيام عطفة راحم وألبستها ثوب امتنانك ضافيا(١)
فآنَسَ من تلقائك الملكُ رشده ونال بك الإسلام ما كان راجيا
وقفت على الإسلام نفسا كريمة تصد عدوّا عن حماه وعاديا
فرأىٌ كما انشق الصباح ، وعزمة كما صقل القينُ الحسامَ اليمانيا(٢)
وكانت رماح الخط خمصا ذوابلا فأنهلت منها فى الدماء صواديا
وأوردت صفح السيف أبيض ناصعا فأصدرته فى الروع أحمر قانيا
لك العزم تستجلى الخطوب بهديه ويُلْفَى إذا تنبو الصوارم ماضيا
إذا أنت لم تفخر بما أنت أهله فما الصبح وضاح المشارق عاليا
ويهنيك دون العيد عيد شرعته نبث به فى الخافقين التهانيا
أقمت به من فطرة الدين سنة وجددت من رسم الهداية عافيا
صنيع تولى الله تشييد فخره وكان لما أوليت فيه مجازيا
تود النجومُ الزهر لو مثلت به وقَضَّتْ من الزُّلْفَى إليك الأمانيا
ومازال وجه اليوم بالشمس مشرقا سرورا به والليل بالشهب حاليا
على مثله فليعقد الفخر تاجه ويسمو به فوق النجوم مَرَاقيا
به تغمر الأنواء كل مفوّه ويحدو به من كان بالقفر ساريا
ويوسف فيه بالجمال مقنع كأن له من كل قلب مُنَاجيا
وأقبل ما شاب الحياء مهابة يقلب وجه البدر أزهر باهيا
وأقدم لاهَيَّابَةَ الحفل واجماً ولا قاصرا فيه الخُطَا متوانيا
شمائل فيه من أبيه وجده ترى العز فيها مستكنا و باديا

(١) ضفا يضفو : سبغ

(٢) القين ـ بالفتح ـ الحداد ، وصانع السيوف

فيا علقا أشجى القلوب لو أننا فديناك بالأعلاق ما كنت غاليا
جريت فأجريت الدموع تعطفا وأطلعت فيها للسرور فواشيا
وكم من ولى دون بابك مخلص يُفَدِّيه بالنفس النفيسة واقيا
وصِيدٍ من الحيين أبناء قَيْلة تكف الأعادى أو تبيد الأعاديا(١)
بهاليل غر إن أعدوا لغارة أعادوا صباح الحى أظلم داجيا
فوالله لولا أن توخيت سنة رضيت بها أن كان ربك راضيا
لكان بها للأعوجيّات جولة تشيب من الغُلْب الشبابَ النواصيا
وتترك أوصال الوشيج مُقَصَّدا و بيض الظبا حمر المتون دواميا
ولما قضى من سنة الله ما قضى وقد حسدت منه النجومُ المساعيا
أفَضْنَا نهنّى منك أكرم منعم أبى لعميم الجود إلا تواليا
فيهنى صفاح الهند والبأس والندى وسُمْرَ العوالى والعتاقَ المذاكيا
ويهنى البنود الخافقات فإنها سيعقدها فى ذمة النصر غازيا
كأنى به قد توّج الملك يافعا وجَمّع أشتات المكارم ناشيا
وقَضّى حقوق الفخر فى مَيْعَة الصِّبَا وأحسن من دَيْن الكمال التقاضيا(٢)
وماهو إلى السعد إن رمت مطلعا وسددت سهما كان ربك راميا
فلا زلت يا فخر الخلافة كافلا ولا زلت ياخير الأئمة كافيا
ودُمْتَ قرير العين منه بغبطة وكان له رب البرية واقيا
نظمتُ له حر الكلام تمائما جعلت مكان الدر فيها القوافيا
لآلٍ بها تبأى الملوك نفاسة وجَلَّتْ لعمرى أن تكون لآليا
أرى المال يرميه الجديدان بالبلى وما إن أرى إلا المحامد باقيا

---

(١) أبناء قيلة — بفتح القاف وسكون الياء — الأنصار
(٢) فى ب « منعة الصبا » تحريف

وورد على السلطان أبى سالم ملك المغرب رحمة الله تعالى عليه وَفْدُ الأحابيش بهدية من ملك السودان ، ومن جملتها الحيوان الغريب المسمى « بالزرافة » فأمر من يُعَانى الشعر من الكتاب بالنظم فى ذلك الغرض ، فقال وهى من بدائعه :

لولا تألق بارق التذكار ما صاب واكفُ دمعىَ المدرار
لكنه مهما تعرض خافقا قدحت يد الأشواق زند أوارى [1]
وعلى المَشُوق إذا تذكر معهدا أن يُغْرِىَ الأجفان باستعبار
أمذكرى غرناطة حلت بها أيدى السحاب أزرةَ النوّار
كيف التخلص للحديث وبيننا عرض الفلاة وطافح الزّخار [2]
هذا على أن التغرب مركبى وتولجُ الفِيحِ الفساح شعارى [3]
فلكم أقمت غداة زُمَّتْ عيسهم أبغى القرار ولات حين قرار
وطفقت أستقرى المنازلَ بعدهم يمحو البكاء مواقع الآثار
إنَّا بنى الآمال تخدعنا المنى فنخادع الآمال بالتسيار
نتجشم الأهوال فى طلب العلا ونروع سِرْبَ النوم بالأفكار
لا يحرز المجد الخطير سوى امرئ يعطى العزائم صهوة الأخطار
إما يُفَاخَرْ بالعتاد ففخره بالمشرفيــة والقنا الخطَّار
مستبصر مرمى العواقب واصل فى حمله الإيرادَ بالإصدار
فأشد ما قاد الجهول إلى الردى عَمَهُ البصائر لا عمى الأبصار
ولربّ مربدّ الجوانح مزبد سبح الهلال بلُجِّه الزخار
فتقت كمائم جنحه عن أنجم سفرت زواهرهن عن أزهار
مثلت على شاطى المجرة نرجسا تصطف منه على خليج جارى

---

(١) الأوار ـ بضم الهمزة ، بزنة غراب ـ حرقة الباطن
(٢) فى ب « وطافح زخار » وعليه يكون فى البيت الإقواء
(٣) الفيح : جمع فيحاء ، وهى الواسعة ، وأراد الصحراء

وكأنمـــا بدر التمام بجنحه وجه الإمام بجحفل جرار
وكأنما خمس الثريا راحــة ذرعت مسير الليل بالأشبار
أسرجت من عزمى مصابيحا بها تهدى السراة لها من الأقطار
وارتاع من بازى الصباح غرابه لمـــا أطلّ فطار كلّ مطار

ومنها :

وغريبة قطعت إليك على الوَنَى بِيدًا تبيد بها هموم السارى[1]
تنسيه طِيَّتَـــهُ التى قد أمها والركب فيها ميت الأخبار[2]
يقتادها من كل مشتمل الدجى وكأنما عيناه جـذوة نار
تشدو بحمد المستعين حُدَاتها يتعللون به على الأكوار
إن مسهم لفح الهجير أَبَلَّهم منـــه نسيم ثنائك المعطار
خاضوا بها لجج الفلا فتخلصت منها خلوص البدر بعد سرار
سلمت بسعدك من غوائل مثلها وكفى بسعدك حاميا لذمار
وأتتك يا ملك الزمان غريبةً قيـد النواظر نزهة الأبصار
مَوْشية الأعطاف رائقة الحلى رقمت بدائعها يَدُ الأقدار
راق العيون أديمها فكأنه روض تفتح عن شقيق بهار
ما بين مبيض وأصفَرَ فاقع سال اللجَيْنُ به خلال نُضار
يحكى حَدَائق نرجس فى شاهق تنساب فيـــه أراقم الأنهار
تحدو قوائم كالجذوع وفوقها جبـل أَشَمُّ بنوره متوار
وسَمَتْ بجيد مثل جذع مائل سهـل التعطف لين خوّار
تستشرف الجدرات منه ترائبا فكأنما هو قائم بمنـار

(١) البيد : جمع بيداء ، وهى الصحراء ، وتبيد : تهلك .
(٢) الطية — بكسر الطاء — النية والوجهة .

نَاءَتْ بكلكلها وأتلع جيدها ومشى بها الإعجاب مشى وقار (١)

خرجوا لها الجم الغفير ، وكلهم متعجب من لطف صنع البارى

كل يقول لصحبه قوموا انظروا كيف الجبال تقاد بالأسيار

ألقت ببابك رحلها واطالما ألقى الغريب به عصا التسيار

علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابقت لرضاك فى مضمار

يتبوّؤن به وإن بعد المدى من جاهك الأعلى أعز جوار

فارفع لواء الفخر غير مدافع واسحب ذيول العسكر الجرار

واهنأ بأعياد الفتوح مخوّلا ما شئت من نصر ومن أنصار

و إليكها من روض فكرى نفحة شف الثناء بها على الأزهار

فى فصل منطقها ورائق رسمها مستمتع الأسماع والأبصار

وتميل من أصغى لها فكأننى عاطيته منها كؤس عُقار

وأنشد السلطان فى ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب ما فرغ من البنية الشهيرة ببابه رحمه الله تعالى :

تأمَّلَ أطلال الهوى فتألما وسيما الجوى والسقم منها تعلما

أخو زفرة هاجت له منه ذكرة فأنجد فى شعب الغرام وأتهما

وسَرَدَ لسانُ الدين هذه القصيدة بطولها ، وهى تقارب التسعين بيتا ، ثم قال ما نصه : وأنشد السلطانَ فى وجهة للصيد أعملها ، وأطلق أعنة الجياد فى ميادين ذلك الطراد وأرسلها ، قوله :

حَيَّاكِ يا دارَ الهوى من دار نَوْءُ السِّماك بديمةٍ مِدْرَارِ

وأعاد وجه رباك طَلْقًا مشرقا متضاحكا بمباسم النوّار

---

(١) فى ب « تاهت بكلكلها » تحريف ، وأصل هذا قول امرىء القيس :

فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

أمذكرى دار الصبابة والهوى حيث الشباب يرفّ غصن نضار
عاطيتنى عنها الحديث كأنما عاطيتنى عنها كؤس عُقَار(١)
إيه وإن أذكيت نار صبابتى وقَدَحتْ زند الشوق بالتذكار(٢)
يا زاجر الأظعان وهى مَشُوقة أشبهتها فى زفــرة وأوار
حنت إلى نجد وليست دارها وصَبَتْ إلى هنــديه والغار
شاقت به برق الحمى واعتادها طيف الـكرى بمزارها المزوار
هل تبلغ الحاجات إن حملتها إن الوفاء سجيــة الأحرار
عرض بذكرى فى الخيام وقل إذا جئت العقيق مُبَلِّغَ الأوطار
عار بقومك يا ابنة الحيين أن تلوى الديون وأنتِ ذاتُ يسار
أمنعت ميسور الكلام أخا الهوى وبخلت حتى بالخيال السارى ؟
وأبان جارى الدمع عذر هيامه لـكن أضعت له حقوق الجار
هـذا وقومك ما علمت خلالهم أوفى الـكرام بذمة وجـوار
الله فى نفس شَــعَاع كلمـا هب النسيم تطير كل مطار
بالله يا لمياء ما منع الصَّــبَا أن لا تهبَّ بعرفك المعطار
يا بنت من تشدو الحداة بذكره متعللين به على الأكوار(٣)
ما ضر نسمة حاجر لو أنهـــا أهدت لنا خبراً من الأخبار ؟
هل بَانُهُ من بعدنا متأوّد متجاوب مـــترنم الأطيار ؟(٤)
وهـل الظباء الآنسات كعهدنا يصرعن أسد الغاب وهى ضوَار ؟
يفتكن من قاماتها ولحاظها بالمشرفيــة والقنــا الخطار
أشعرت قلبى حبهن صبابة فرميْنَنِى من لوعتى بجمـار

(١) العقار — بالضم ، بزنة غراب — الخمر .

(٢) « إيه » اسم فعل معناه زدنى من حديثك .

(٣) تشـدو : تغنى ، والحـداة : جمع حاد ، وهو سائق الإبل .

(٤) البان : ضرب من الشجـر ، ومتأود : متثن .

وعلى الكثيب سوانح حمر الحلى — بيض الوجوه يُصَدْنَ بالأفكار[1]
أدنى الحجيج جمارهن ثلاثة — بمنى لَوَ أنْ منى بدار قرار
لكن يوم النفر جُدْنَ لنا بما — عوّدننا من جفوة ونفار
ياابن الألى قد أحرزوا خصل العلا — وسَمَوْا بطيب أرومة ونجار
وتنوب عن صوب الغمام أكفهم — وتنوب أوجههم عن الأقمار
من آل سعد رافِعِي علم الهدى — والمصطفين لنصرة المختار
أصبحت وارث مجدهم وفخارهم — ومشرف الأعصار والأمصار
وجه كما حَسَرَ الصباحُ نقابه — ويد تمد أناملا ببحار
جدّدت دون الدين عزمة أروع — جدّدْت منها سنة الأنصار
حُطْتَ البلاد ومن حوته ثغورها — وكفى بسعدك حاميا لذمار
لله رحلتك التى نلنا بها — أجر الجهاد ونزهة الأبصار
أوردتنا فيها لجودك مورداً — مستعذب الإيراد والإصدار
وأفضت فينا من نَدَاكَ مواهبا — حسنت مواقعها على التكرار
أضحكت ثغر الثغر لما جئته — وخصصته بخصائص الإيثار
حتى الفلاة تقيم يوم وردتها — سنن القرى بثلاثة الأنوار
وسرت عقاب الجو تهديك الذى — تصطاد من وحش ومن أطيار
والأرض تعلم أنك الغوث الذى — تُضْفِي عليها واقىَ الأستار
ولرب ممتد الأباطح موحش — عالى الربا متباعد الأقطار
همل المسارح لا يراع قنيصه — إلا لنبأة فارس مغوار
سرحت عنان الريح فيه وربما — ألقت بساحته عصا التسيار

---

(١) الكثيب : ما اجتمع وتراكم من الرمل ، و « يصدن » - بالبناء للمجهول — وأراد أنه لاسبيل إليهن ، وإنما يخطرهن العاشق بخياله وفكره

باكرته والأفق قد خلع الدجى مسحا ليلبس حلة الإسفار
وجرى به نهر النهار كمثل ما سكب النديم سلافةً من قار
عرضت به المستنفرات كأنها خيل عِراب جُلْن فى مضمار
أتبعتها غرر الجياد كواكبا تنقض رَجْما فى سماء غبار
والهاديات يؤمها عَبْلُ الشَّوَى متدفق كتدفق التيار
أزجيتها شقراء رائقة الحلى فرميته منها بشعلة نار
أثبتُّ فيه الرمح ثم تركته خضب الجوانح بالدم الموّار
حامت عليه الذابلاتُ كأنها طير أوت منه إلى أوكار[1]
طفقت أرانبه غداة أثرتها تبغى الفرار ولات حين فرار
هل ينفع الباع الطويل وقد غدت يوم الطراد قصيرة الأعمار
من كل منحفز بلمحة بارق فاتَتْ خُطَاه مداركَ الأبصار
وجوارح سبقت إليه طلابها فكأَنما طالبنه بالثار
سود وبيض فى الطِّراد تتابعت كالليل طارده بياض نهار
ترمى بها وهى الحنايا ضمرا مثل السهام نزعن عن أوتار
ظنت بأن ينجو لها ، كلا ! ولو ولو أغريته بأرانب الأقمار
وبكل فَتْخاء الجناح إذا ارتمت فكأَنها نجم السماء السارى
زَجِل الجناح مصفق كمن الردى فى مخلب منه وفى منقار[2]
أجلى الطريد من الوحوش وإن رمى طيراً أتاك به على مقدار
وأريتنا الكسب الذى أعداده ملأت جمالا أعين النظار
بيض وصفر خِلت مَطْرح سَرْحها روضاً تفتّح عن شقيق بهار

---

(١) الذابلات : أراد بها الرماح ، والأوكار : جمع وكر ـ بالفتح ـ وهو عش الطائر
(٢) زجل الجناح : أراد أن لجناحه حفيفا وصوتا .

من كل مَوْشى الأديم مُفَوف … رقمت بدائعــــه يد الأقدار
خلط البياض بصفرة فى لونه … فترى اللجين يشوب ذوب نضار
أو أشعل راق العيون كأنه … غَلَسٌ تخالط ســـدفه بنهار
سرحت بمخضر الجوانب يانع … تنساب فيــه أراقم الأنهار
قد أرضعتــــه الساريات لبانها … وحللن فيـــه أزرةَ النوار
أخذت سعودك حذرها فلحكمة … أغرت جفون المزن باستعبار
لما أرتك الشمس صفرة حاسد … لجبينــــك المتألق الأنوار
نفثت عليك السحب نفثة معوذا … من عينها المتوقع الإضرار
فارفع لواء الفخر غير مدافع … واسحب ذيول العسكر الجرار
واهنأ بمقدمك السعيد مُخَوَّلا … ما شئت من عز ومن أنصار
قد جئت دارك محسنا ومؤملا … متعت بالحسنى وعقبى الدار
و إليكها من روض فكرى نفحة … شَفَّ الثناء بهــا على الأزهــار

ومن شعره فى غير المطولات قوله :

لقد زادنى وجدا وأغرى بى الجوى … ذُبالٌ بأذيال الظلام قد التفـــا(١)
تشير وراء الليـــل منه بنانة … مُخَضَّبة والليل قد حجب الكفا
تلوح سنانا حين لا تنفح الصبا … وتُبْدِى سواراً حين تَثْنى له العطفا
قطعت به ليلا يطارحنى الجوى … وآونة يبـــدو وآونة يخفى
إذا قلت لا يبدو أشـــال لسانه … و إن قلت لا يخفى الضياء به كفا
إلى أن أفاق الصبحُ من غمرة الدجى … وأهدى نسيم الروض من طيبه عَرْفا
لك الله يا مصباح أشبهت مهجتى … وقد شفها من لوعة الحب ما شفا

---

(١) الوجد ـــ بالفتح ـــ شدة العشق ، وأغراهم به : حرضهم عليه ، والذبال ـــ بالضم ، بزنة الغراب ـــ أراد به المصباح .

ومما ثبت له صدر رسالة :

أزور بقلبي معهد الأنس والهوى وأنهب من أيدى النسيم رسائلا

ومهما سألت البرق يهفو من الحمى يبادره دمعى مجيبا وسائلا

فياليت شعرى والأمانى تَعَلَّلٌ أيرعى لى الحى الكرام الوسائلا

وهل جيرتى الأولى كما قد عهدتهم يُوَالون بالإحسان مَنْ جاء سائلا

ومن أبياته الغراميات :

قيادى قد تملكه الغرام ووجدى لا يطاق ولا يرام

ودمعى دونه صَوْب الغوادى وشجوى فوق ما يشكو الحمام

إذا ما الوجد لم يبرح فؤادى على الدنيا وساكنها السلام

وفى غرض يظهر من الأبيات :

ومشتمل بالحسن أحْوَى مُهَفهف قضى رجع طرفى من محاسنه الوطر(١)

فأبصرت أشباه الرياض محاسنا وفى خده جرح بدا منه لى أثر

فقلت لجلاسى خذوا الحذر إنما به وَصَب من أسهم الغَنْج والحور

ويا وجنة قد جاورت سيف لحظه ومن شأنها تَدْمَى من اللمح بالبصر

تخيل للعينين جرحا وإنما بدا كَلَفٌ منه على صفحة القمر

ومما يرجع إلى باب الفخر ، ولعَمْرى لقد صدق :

ألا أنّة فى الجود والجود شيمة جُبِلْتُ على إيثارها يوم مولدى

ذرينى فلو أنّى أُخَلَّدُ بالغنى لكنت ضنينا بالذى ملكت يدى

وقال :

لقد علم الله أنى امرؤ أجرر ذيل العفاف القشيب

---

(١) الأحوى : الوصف من الحوى ــ بالفتح مقصورا ــ وهو من كانت به الحوة ــ بضم الحاء وتشديد الواو ــ وهى سمرة إلى الخضرة ، وقيل : حمرة إلى السواد ، وهي أيضا سمرة الشفة ، والأنثى حواء ، والجمع حو

فكم غمَّضَ الدهر أجفانه وفازت قِدَاحى بوصل الحبيب
وقيل رقيبك فى غفلة فقلت أخاف الإلهَ الرقيب

وفى مدح كتاب « الشفاء » طلبه الفقيهُ أبو عبد الله بن مَرْزُوق عند ما شرع فى شرحه :

ومسرى ركاب للصَّبا قد وَنَتْ به نجائب سحب للتراب نزوعها
تسلُّ سيوف البرق أيدى حُدَاتها فتنهلُّ خوفا من سطاها دموعها
تعرض غربا يبتغين معرسا فقلت لها مراكش وربوعها
لتسقىَ أجداثا بها وضرائحا عِياضٌ إلى يوم المعاد ضجيعُها(١)
وأجدر من تبكى عليه يراعة بصفحة طرس والمداد نجيعها(٢)
فكم من يد فى الدين قد سلفت له يُرَضِّى رسولَ الله عنه صنيعُها
ولا مثل تعريف الشفاء حقوقه فقد بان فيه للعقول جميعها
بمرآة حسن قد جَلَتْها يد النهى فأوصافه يلتاح فيه بديعها
نجوم اهتداء والمداد يجنها وأسرار غَيْبٍ واليراع تذيعها
لقد حُزْتَ فضلا يا أبا الفضل شاملا فيجزيك عن نصح البرايا شفيعها
ولله ممن قد تصدى لشرحه فلباه من غر المعانى مُطِيعها
فكم مجمل فصلت منه وحكمة إذا كتم الإدماج منه تشيعها
محاسنُ والإحسان يبدو خلالها كما افْتَرَّ عن زهر البطاح ربيعها
إذا ما أجَلْتَ العين فيها تخالها نجوما بآفاق الطروس طلوعها
معانيه كالماء الزلال الذى صرى وألفاظه در يروّى نصيعها
رياض سقاها الفكر صَوْبَ ذكائه فأخصب للوراد منها مَريعها

---

(١) أراد القاضى عياض بن موسى اليحصبى مؤلف كتاب « الشفا ، بالتعريف بحقوق المصطفى »

(٢) النجيع ، فى الأصل : الدم

تفجر عن عين اليقين زلالها فَلَذَّ لأرباب الخلوص شروعها

ألا يا ابن جار الله يا ابن وليه لأنت إذا عُدَّ الكرام رفيعها

إذا ما أصول المرء طابت أرومة فلا عجب أن أشبهتها فروعها[1]

بقيتَ لأعلام الزمان تنيلها هدى ، ولأحداث الخطوب تروعها

مولده رابع عشر شوّال من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، انتهى كلام لسان الدين في الإحاطة في ترجمة تلميذه أبي عبد الله بن زَمْرَك .

قلت : ورأيت بخط أبي الحسن على بن لسان الدين — رحمهما الله تعالى ا — على هامش هذه الترجمة من « الإحاطة » كلاما في حق ابن زمرك رأيت أن أذكره بجملته الآن ، وإن تقدم بعضه في هذا الكتاب .

فمن ذلك أنه كتب على حاشية أول الترجمة ما صورته : اتبه الله تعالى خزيا ! وعامله بما يستحقه ! فبهذا ترجمة والدى مولاه الذى رفع من قدره فيه ، ولم يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شر من أحسنا إليه ! انتهى .

وكتب على قوله « نشأ عفا طاهراً إلى آخره » ما نصه : هذا الوَغْدُ ابن زمرك من شياطين الكتاب ، ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضربا فمات من ذلك ، وهو أخس عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة ، وأخملهم شكلا ، استعمله أبي في الكتابة السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شر ، وهو كان السبب في قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذى رباه وأدبه واستخدمه ، حسبما هو معروف ، وكفانا الله تعالى شر من أحسنا إليه وأساء إلينا ! انتهى

وكتب على قول والده « فترقى إلى الكتابة إلى آخره » ما صورته : على يد سيدى أبي عبد الله بن مرزوق . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، اهـ .

---

(١) الأرومة — بضم الهمزة وفتحها — أصل الشجرة ، ويستعار للحسب

وكتب على قوله «معاذ الهوى أن أصحب القلب ساليا - إلى آخره» مانصه : هذه القصيدة نظم له مولاى الوالد تغمده الله تعالى برحمته منها النسيب كله ، وهكذا جرت عادته معه فى الأمداح السلطانية حضرة الملك ، والله المطلع على ذلك ، قاله ابن المصنف على ابن الخطيب ، انتهى .

وكتب على قوله «لولا تألق بارق التذكار - إلى آخره» ماصورته : هذا الرجس الشيطان كثيراً ما ينظم فى هذا الوزن ، ويتبع حمارة هذه الراء ، حتى لا يتركها جملة ، إذ الرجل ابن حمار مكارى حداد ، فالنفس تميل بالطبع ، انتهى .

وكتب على قوله «حياك يادار الهوى من دار - إلى آخره» ما صورته : انظر إلى كثرة تحريكه لحمارة هذه الراء ، علقت له بها ماخوليا ، انتهى .

وكتب على قوله « وجوارح سبقت إليه طلابها - إلى آخره » ماصورته : سرق طردية إبراهيم بن خفاجة [1] ، فانظرها تجده سرق المعانى والألفاظ ، مع أن والدى نظم له أكثرها على حسب عادته معه ، قاله على بن الخطيب ، انتهى

وكتب على قوله « يامصباح » ما نصه : كان يحب صبيا اسمه مصباح ، وهو الآن مجنون العقل بتونس يحترف بالحياكة ، انتهى .

وكتب على قوله « ألأئمة فى الجود إلى آخره » ما صورته : كذبت يا نجس ، من أين الفخر لك ولبيتك ، لست والله من الجود فى شىء ، نعم سخنته عين الجود

وكتب على قوله « لقد علم الله أنى امرؤ - إلى آخره » مامعناه : لا والله ، فأنت مشهور بكذا ، ياقرد ، فمن أين العفاف وأنت بالأندلس كذا وكذا ؟ إلى أن قال : وأنحسهم بيتا ، قاله مولاك الذى ربيت فى نعمته ونعمة الله على بن الخطيب بالقاهرة ، انتهى .

---

(١) يشير إلى هذا قول لسان الدين عنه فى أول ترجمته « خفاجي النزعة» وقد نبهنا هناك على هذه النسبة

وقد نسبه إلى ما لا يليق، فالله أعلم بحقيقة الأمر.

وكتب غيره على قول ابن زمرك «أزور بقلبي - الأبيات المتقدمة» عند قوله «سائلا» في موضعين: هما من السؤال، فحصل على الإيطاء المذموم، انتهى.

قلت: أما ماذكره ابن لسان الدين من أن أباه كان ينظم لابن زمرك فذلك والله أعلم كان في ابتداء أمره، وإلا فقد جاء ابن زمرك في آخر أيام لسان الدين وبعد موته بالبدائع التي لا تنكر، كما سنذكره، وأما كونه سعى في قتل لسان الدين مع إحسانه إليه فقد جوزي من جنس عمله، وقتل بمرأى من أهله ومسمع، وأزهقت معه روح ابنيه، حسبما نذكره، وهذا قصاص الدنيا، وعفو الله تعالى في الآخرة منتظر للجميع.

ترجمة ابن زمرك عن ابن الأحمر

ولنذكر ترجمة ابن زمرك من كلام ابن السلطان ابن الأحمر في مجلد ضخم رأيته بالمغرب جميع فيه شعر ابن زمرك وموشحاته، وعرف به في أوله، إذ قال ما نصه: أما بعد ما يجب من حمد الله تعالى في كل حال، وشكره على ما أولى ويسر من صلاح الأحوال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفوة الأنبياء وسيد الأرسال، والرضا عمن له مِنْ صَحْب وأنصار وآل، فإن من المعلوم أن الأدب له بالنفس علاقة تؤديه إلى الاستحسان، وتؤثر من اشتهر به من الملاحظة بلحظ الحظ مع تعاقب الأحيان، ولا خفاء أن أيام مولانا الجد المقدس الغنى بالله - تولاه الله تعالى برضوانه! - كانت غرراً في وجوه الأيام، ومواسم تجمع الطِّم والرِّم (١) من الرؤساء الأعلام، الآخذين بأعِنّة الكلام، السابقين في حلبه النثار والنظام، وأن الفقيه الرئيس المدرك الناظم الناثر أبا عبد الله محمد بن يوسف بن زَمْرَك - عفا الله تعالى عنه! - وحسبك بمن ارتضاه مولانا الجد رحمه الله تعالى لكتابته،

---

(١) يقولون «جاء فلان بالطم والرم» بكسر أولهما، أما الطم فيريدون به البحر، وأما الروم فيريدون به الثرى والتراب، وكأنهم قلوا: جاء بالثرى وبالماء

وصرفه فى الوجوه المتعددة من رسالته وحجابته ، وكان بذلك خليقا ، لما جمع من أدوات الكمال علما وتحقيقاً ، وإدراكا ونبلا وفقها وأصولا وفروعا وأدبا وتحصيلا ، وبيانا وتفسيرا ونظما وترسيلا ، لما كان قد أخفت الأيام سَنَى صبحه ، وخابت وسائل نصحه ، وعادت بعدوانها بعد فوزقدحه ، وعثر بين أقدام أقوام لا يعرفون أى ذخر فقدوا ، ولا أى مطلق عن تصريفاته الجميلة قيدوا ، مستبصرين بالجهل فى دَيَاجى غيهم ، معجبين بما ارتكبوه من جياد بغيهم ، جميعهم يلحظه بمُقَل دامية ، وألفاظ حامية ، يصاحبونه بأوجه خلت عن الوجاهة سيماها الحسد ، وضميرها السخط بما قدره الواحد الصمد

فخر على الألَاءَةِ لم يوسد　　　كأن جبينه سيف صقيل

فيا لله من أشلاء هنالك ضائعة ، وأعلاق غير مصونة ، ووسائل مخفورة ، وأذِمَّة قطعت أرحامها ، ولم يرع ذمامها ، وعاثت الأيدى الفاتكة حينئذ على بنيه ، وارتكبوها شنعاء فى أهله وذويه :

هل كان إلا حَياً تحيا العبادُ به　　　هل كان إلا قَذًى فى عين ذى عور[١]

إن قال قولا ترى الأبصار خاشعة　　　لما يخبر من وحى ومن أثر

يا لهف قلبيَ لو قد كنت حاضره　　　غداة جرّعه أدهى من الصَّبِرِ

لما تركت له شلوا بمَضْيَعة　　　ولا تولى صريع الناب والظفر

(وكان ما كان مما لست أذكره　　　فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر)

وإن سأل سائل عن الخبر الذى ألمعنا بذكره ، وضمنا هذا البيت رزأ من فظيع أمره ، فذلك عند ما نَسَب صاحبُ الأمر إليه ما راب ، وتَلَّه[٢] وابنيه للجبين مُعَفرين بالتراب ، وصدمه فى جنح الليل والمصحف بين يديه يتوسل بآياته ،

---

(١) الحيا — بالفتح مقصورا — المطر ، والقذى : مايقع فى العين من غمص ونحوه

(٢) تله للجبين : أوقعه على وجهه .

ويتشفع بعظيم بركاته ، فأخذته السيوفُ ، وتعاورته الحتوف[١] ، وأذهبه سليبا قتيلا ، مصيراً مصراع منزله كثيبا مَهِيلا ، وكنا على بعد من هـذه الآزفة التى أورثت القلوب شَجَنًا طويلا ، وذكرتنا بعناية مولانا الجد الغنى بالله لجانبه أعظم ذكرا ، فأغرينا برثائه خَلَدا وفكرا ، وارتجلنا عند ذكره الآن هذه الأبيات إشارة مقنعة وكناية فى السلوان مُطْمعة ، وأرضينا بالشفقة أوِدَّاءه ، وأرغمنا بتأبينه أعداءه ، ولما تبلج الصبح لذى عينين ، وتلقينا راية الفرَج بالراحتين ، عطفتنا على أبنائه عواطفُ الشفقة ، وأطلقنا لهم ما عاثت الأيدى عليه صلةً لرحم طالما أضاعها مَنْ جهل الأذِمَّة ، وأخفر عهود تخدّمه لمن سَلَف من الأئمة ، وصرفنا للبحث والتفتيش وجوه آمالنا ، وجعلنا ضم ما نثرته الحوادث من منظوماته من أكيدِ أعمالنا ، وكان تعلّق بمحفوظنا جملة وافرة من كلامه ، مشتملة على ما راق وحَسُن من نثاره ونظامه ، فأضفنا ذلك إلى ما وقع عليه اجتهادُنا من رقاعه[٢] الحائلة المنتهبة بأيدى النوائب ، الدائرة المستلبة بتعدى النواصب ، فخلص من الجملة قلائدُ عِقْيان ، وعقود در ومرجان ، ترتاح النفوس النفيسة لإنشادها ، وتحضر الأبصار والأسماع عند إيرادها ، إلى ما يتخللها من تخليد مآثر سلفنا ، والإشارة بعظيم ملكنا ، فشرعنا فى تقييد أو ابدها الشاردة ، وإحياء رسومها البائدة ، كلفا بالأدب لوضوح فضله ، وتأدية لما يجب من رعاية أهله ، ولنبدأ بالتعريف بحال هذا الرئيس المنبه عليه ، ونظهر ما كنا نضمره من الميل إليه ، فى كل ماله أو عليه ، فنقول :

هو الفقيه الكاتب ، الفذ الأوحد ، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن يوسف الصريحى ، ويعرف بابن زَمْرَك .

أصله من شرق الأندلس ، وسكن سلفه بالبيازين من غرناطة ، وبها ولد ،

(١) تعاورته : تداولته ، والحتوف : جمع حتف ، وهو الموت والهلاك .

(٢) الرقاع : الصحف التى كتب فيها ، والحائلة : المتغيرة .

فنشأ ضئيلا كالشهاب يتوقَّد ، مختصر الجرم[١] والأعين بإطالة فواضله تشهد ، ومكتب الفئة القرآنية يؤثره بالجناب الممهد ، فاشتغل أوّل نشأته بطلب العلم والدؤب على القراءة ، وأخذ نفسه بملازمة حلقات التدريس ، ولم يبلغ حد وجوب المفترضات إلا هو متحمل الرواية ، وملتمس لفرائد[٢] الدراية ، ومُصَابح كل يوم أعلام العلوم ، ومستمد بمصابيح الحدود العلمية والرسوم ، فافتتح أبواب الكتب النحوية بالإمام أبى عبد الله بن الفخار الآية الكبرى فى فنّ العربية ، وتردد الأعوام العديدة إلى قاضى الجماعة أبى القاسم الشريف فأحسن الإصغاء ، و بذ النحاة البلغاء[٣] ، بما أوجب رثاءه عند الوقوف على ضريحه بالقصيدة الفريدة التى أوّلها :

* أغرى سَرَاة الحى بالإطراق *

واهتدى فى طريق الخطبة ومناهج الصوفية بالخطيب المعظم أبى عبد الله بن مرزوق الوافد على مولانا الجد أبى الحجاج رضى الله تعالى عنه فى عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، و إليه جنح[٤] ، و إياه قصد عند تغربه إلى المغرب فى دولة السلطان أبى سالم ، فتوجه بالعمامة التى ارتجل بين يديه فيها :

توجتنى بعمامهْ ... تُوِّجْتَ تاج الكرامه

فروض حمدك يُزْهَى ... منى بسجع الحمامه

وأخذ علم الأصلين عن الحافظ الناقد أبى على منصور الزواوى ، و برع فى الأدب ، أثناء الانقطاع وأوّل الطلب لأبى عبد الله بن الخطيب ، ولكن لم يحمد بينهما المآل ، واقتدى فى العلوم العقلية بالشريف أبى عبد الله التلمسانى قدوة الزمان ، وحصلت له الإجازة والتحديث بقاضى الجماعة وشيخ الجملة أبى البركات بن الحاج ، و بالخطيب البليغ أبى عبد الله اللوشى ، و بالخطيب الورع أبى عبد الله بن بيبش

---

(١) انظر ص ٤ من هذا الجزء   (٢) فى ب « لفوائد الدراية »

(٣) بذ النحاة : فاقهم .   (٤) جنح : مال

العبدرى ، رضى الله تعالى عنه وعن جميعهم ، و بواجب محافظتنا على عهودهم ، إذ نحن وردنا بالإجازة التامة عَذْبَ ورودهم ، وصَل سببنا بهم الكثير من شيوخنا مثل الإمام المعظم أبى محمد عبد الله بن جزى ، ومعلمنا الثقة المجتهد أبى عبد الله الشريشى ، والقاضى الإمام أبى عبد الله محمد بن على بن علاق ، وغيرهم ، رحمة الله تعالى عليهم ! لذلك صار صدرا فى نوادى طلبة الأندلس وأفراد نجبائها ، فما شاءه المحاضر يجده فى خضله ، و يتلقاه من باهر فضله ، فكاهة ومجالسة أنيقة ممتعة ومحادثة أريضة مزهرة ، وجواباً شافياً للمعضل ، وذهنا سابقاً لإيضاح المشكل ، مع انقياد الطبع ، و إرسال الدمعة فى سبيل الخشوع والرقة ، ورشح الجبين[1] عند تلقى الموعظة ، وصون الوجه بجلباب الحياء ، ومقابلة الناظر إليه بالاحتشام ، والمبادرة للاستدعاء ، على طهارة و بذل وسع وكرم نفس ، لم يعهد أجمل مشاركة منه لإخوانه ، ولا أمتع منه بجاهه ، إلى مبالغة فى الهَشَّة والمبرة والإيثار بما منح ، وجُنوح إلى حب الصالحين ، وذلك بالانضواء إلى شيخ الفرق الصوفية الولى أبى جعفر بن الزيات ، وأخيه الفاضل الناسك شيخنا أبى مهدى ، قدس الله تعالى مغناه ! وسواهما من أهل الأندلس والعُدْوة ، وحمله أشد الحمل على كل ملبس كأبى زكريا البرغواطى وسواه .

ومن تنديراته ـ زعموا ـ على أبى الحسن المحروق لميله عنه :

ولد الفقر والرباط ولكن نَفْسُه للسلوك ذات افتقار

وخطب الأدب يافعاً وكهلا[2] ، وحاز علمه إدراكا ونبلا ، ولما كانت الحادثة على مولانا الجد ـ رحمه الله تعالى ! ـ واجتاز إلى المغرب كما تقرر فى غير هذا ، كلف به ،

---

(١) رشح جبينه : أراد أنه يعرق .

(٢) يريد أنه لم يترك طلبه حياته كلها .

وأنس إليه ، لحلاوة منطق ورفع استيحاش ومراوضة خلق ، ثم كر فى صحبة ركابه فعلت منزلته ، ولطف محله .

وقفنا على رقعة من رقاعه وهو يبدئ فيها و يعيد ، و يقول: خدمته سبعا وثلاثين سنة : ثلاثة بالمغرب ، و باقيها بالأندلس ، أنشدته فيها ستا وستين قصيدة فى ستة وستين عيدا ، وكل ما فى منازله السعيدة من القصر والرياض والدشار والسبيكة من نظم رائق ، ومدح فائق ، فى القباب والطاقات والطرز وغير ذلك ، فهو لى ، وكنت أواكله وأواكل ابنه مولاى أبا الحجاج ، وهما كبيرا ملوك أهل الأرض ، وهنأته بكذا وكذا قصيدة ، وفوّض لى فى عقد الصلح بين الملوك بالعُدْوتين ، وصلح النصارى عقدته تسع مرات ، أنخسَّةٍ فوّض إلىَّ ذلك ؟

قلنا : صدق فى جميع ما ذكره ، والعقود بذلك شاهدة له ، وخصه عام ثلاثة وسبعين بكتابة سره ، واستعمله بعد أعوام فى السفارة بينه و بين ملوك عصره ، فحُمِد مَنَابُه[1] ، ونمت أحواله ورَغِدَ جنابه ، وكان هنالك بعض تقوّلات تشين وجه اجتهاده ، وتومىء بما احْتَقَبه[2] من سوء مقاصده وماصرفه من قبيح أغراضه ، وهاجت الفتنة ، فكانت سفارته أعظم أسبابها .

وعند الأشُدِّ من عمره عرضت لأفكاره تقلبات ، وأقعدته عن قداح السياسة آفات مختلفات ، وأشعرته حدة ذهنه أن يتخبط فى أشراك وقعات ، فقعد بجامع مالَقَة ثم بمسجد الحمراء ملقيا على الكرسى فنونا جمة ، وعلوما لم يزل يتلقاها عن أولياء التعظيم والتجلة ، فانحاز إلى مادة أمم بمالقة طما منهم البحر ، وتراءى لأبصارهم و بصائرهم الفخر ، وكان التفسير أغلب عليه لفرط ذكائه ، وما كان قيده وحصله أيام قراءته و إقرائه ، فما شئت من بيان ، و إعجاز قرآن ، وآيات توحيد

---

(١) منابه : مصدر ميمي فعله « ناب عنه ينوب »

(٢) احتقب فلان إثما : ارتكبه ، وحرفيته أنه جعله فى حقيبته .

و إخلاص، ومناهج صوفية تؤذن بالخلاص ، يوم الأخذ بالنواص[1] ، ومراراعدة سمع ما يلقيه ولىُّ الأمر ، و ياشدة البلوى التى أذاقه مرّها ، وأمطاه إلى طِيَّةِ الهلاك ظَهْرَها ، و يا قرب ما كان الفوت ، والحسام الصَّلْت ، من متباعد هذا القرب التى ألغيت .

قلنا : لقد جمح جواد القلم فأطلقنا ونحن نشير إلى هذا الرئيس وتبدل طباعه ، بعد انقضاء أعوام شاهدة باضطلاعه ، و إحراز شيم أدت إلى علو مقداره ، واستقامة مَدَاره ، فآل عمر مولانا جدنا إلى النفاد ، ورمت رئيسَ كتابه هـذا أسهمُ الحساد ، فظهر الخفى ، وسقط به الليـل على سِرْحَان ، وقد طالما جرب الوفى والصوفى ، وكان من شأنه الاستخفاف بأولياء الأمر من حُجَّاب الدولة ، والاسترسال فى الرد عليهم بالطبع والجِبِلَّة ، مع الاستغراق فى غمار الفتن أندلسا وغَرْبا ، ومراعاة حظوظ نفسه استيلاء وغصبا ، أما الجراءة فانتضى سيوفها ، وأما إكفاء السماء على الأرض فقواصم نوّع صنوفها ، وأما المجاهرة فوقف بميدان الاعتراض صفوفها ؛ وأما المجاملة فنكر معروفها ، أداه هذا النبأ العظيم إلى سكنى المعتقل بقصبة المرية ، وعلى الأثر كان الفرج قريبا ، وسطور المؤاخذة قد أوسعها العفو تضريبا ، ونالته هذه المحنة عنـد وفاة مولانا الجد الغنى بالله ، وكانت وفاته غرة شهر صفر عام ثلاثة وتسعين وسبعمائة ، لأسباب يطول شرحها أظهرُها شَرَاسة فى لسانه ، واغترار بمكانه ، وتضريب بين خدام السلطان وأعوانه ، فـكبَا لليدين والفم ، إلى أن من الله تعالى بسَرَاحه ، وأعاده إلى الحضرة فى أول شهر رمضان المعظم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة ، فـكان ما كان من وفاة مولانا الوالد رحمه الله تعالى ! وقيام أخينا محمد مقامه بالأمر ، فاستمر الحالُ أياما قلائل ، وقدم للـكتابة الفقيه

(١) يوم يؤخذ بالنواصى : يوم القيامة ، وهذا من تعبيرات القرآن الكريم ، والنواصي : جمع ناصية وهي هنا الرأس

ابن عاصم لمدة من عام ، ثم أعاد المذكور إلى خُطته وقد دَمِثَتْ بعضُ أخلاقِه ، وحمدت شراسته وحلا بعض مذاقه ، فما كان إلا كلا وليت[١] و إذا به قد ساء[٢] مشهدا وغَيْبا ، وأوسع الضمائر شكا ورَيْبا ، وغلبت الإحَنُ عليه ، وغلت مراجلها لديه ، فصار يتقلب على جمر الغَضَى ، و يتبرَّم بالقضا ، و يظهر النصح وفى طيه التشفِّى ، و يَسِمُ نفسَه بالصلاح ، و يعلن بالخشوع ، و يشير بأنه الناصح الأمين ، و يتلو قوله تعالى (ولـكن لا تحبون الناصحين) ورتب على المشتغلين كبيرهم وصغيرهم ذنوبًا لم يقترفوها ، ونسب إليهم نسبا من التضييع لم يعرفوها ، وأنهم احتجنوا الأموال ، وأساؤا الأعمال والأقوال ، فلم يظفر من ذلك بكبير طائل ، ولا حَصَل على تفاوت أعداده على حاصل ، هذا على قلة معرفته بتلك الطريقة الاشتغالية ، وعدم اضطلاعه بالأمور الجبائية ، فمن نفس يروّع سِرْبُها ، و يكدر بالامتحان والامتهان شربها ، ومن ضارعة خاشعة لله تعالى سلبت ، وطولبت بغير ما اكتسبت ، وتعدت الأيدى إلى أقوام جلة سعدوا بشقائه ، وامْتُحِنوا وهم المبرؤن من تزويره واعتدائه ، وسيسئلون يوم لا يغنى مال ولا بنون ، وصار يصرف أغراضه ، و يظهر أحقاده ، بين إفصاح بما كان الإعجامُ خيرا من إلقائه ، و إن عمر المسكين المستضعف لا حاجة فى طول بقائه ، إلى مجاهرة عهد منه أيام شبيبته نقيضُها ، وانعكس فى شاخته تصريحُها المنغص وتعريضها ، لا يريح نفسه من جَهْد ، ولا يقف من اللجاجة عند حد ، وقد كان ثقل سمعه فساءت إجابته[٢] ، وطغت أخلاقه فسئمت وساطته ، ور بما استحلف فلم يكن بين اللازمة واللازمة إلا الحنث عن قصد وغير قصد ، ودعا على نفسه وأبنائه بإنجاز وَعْد ، وأن يقيض الله[٣] ولهم قاتل عمد ، فسبحان القاهر فوق عباده ، الرحيم بهذا الشخص و بالأموات

(١) المشهور أن يقال عند إرادة السرعة « كلا ولا »

(٢) هذا من مثل ، يقولون : « أساء سمعا فأساء إجابة » و « أساء سمعا فأساء جابة » بغير همزة فى « جابة » مثل طاعة من أطاع .

(٣) قيض الله ذلك الأمر : قضاه وهيأ أسبابه ومكن منه .

من شيعته وأولاده ، فاستمرّ على ذلك إلى إحدى الليالى ، فهلك فى جنح الليل فى جوف داره على يد مخدومه ، تلقاه زعموا عند الدخول عليه ، وهو بالمصحف رافع يديه ، فجدلته السيوف ، وتناولته الحتوف ، فقضى عليـه ، وعلى من وجد من خدامه وابنيه ، كل ذلك بمرأى عين من أهله و بناته ، ولم يتقوا الله فيه حَقَّ تُقَاته ، فكانت أنكى الفجائع ، وأفظع الوقائع ، وساءت القالة ، وعظم المصاب ، وكل شىء إلى أجل نافذ وكتاب ، انتهى كلام ابن الأحمر فى مقدمة كتابه .

وقد اطلعت منه على تصاريف أحوال ابن زَمْرَك ، وقتله على الوجه الذى يعلم منه أن ثأر لسان الدين بن الخطيب لديه لا يترك ، بل قتلته أفظع من قتلة لسان الدين ، لأن هذا قتل بين عياله وأهله ، وقتل معه أبناه ومن وجد من خدمه ، ولسانُ الدين رحمه الله تعالى خنق بمفرده ، وعند الله تجتمع الخصوم ، وهو العفو الغفور .

وقد فهم من مضمون ما سبق أن قتل ابن زمرك بعـد عام خمسة وسبعين وسبعمائة ، ولم أقف من أمره على غير ما تقدم .

ولا بأس أن نلم بشىء من نظمه البارع مما كنت انتقيته بالمغرب من تأليف ابن الأحمر المذكور ، وأوردت كثيرا منه فى « أزهار الرياض »

لابن زمرك فى التهنئة بالعيد

فمن ذلك قوله فى ذكر غَرْناطة العلية ، وتهنئة سلطانه الغنى بالله ببعض المواسم العيدية ، ووَصْف كرائم جِياده ، وآثار ملـكه وجهاده :

يا من يحن إلى نجد وناديهـا غرناطة قد ثَوَتْ نَجْدٌ بواديها[١]

قف بالسبيكة وانظر ما بساحتها عقيـلة والـكثيب الفرد جاليها

تقلدت بوشاح النهر وابتسمت أزهارها وَهْى حَلْى فى ترافيهـا[٢]

---

(١) ثوت : أقامت .

(٢) التراقى : جمع تَرقوة ، وهو العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق ، وأراد هنا النحر ؛ إذ هو موضع الحلى .

وأعين النرجس المطلول يانعة ترقرق الطل دمعا فى مآقيها(١)

وأُفْتَرَّ ثغر أقاح من أزاهرها مقبلا خَدَّ ورد من نواحيها

كأنما الزهر فى حافاتها سحرا دراهم والنسيم اللَّدْن يجبيها(٢)

وانظر إلى الدَّوْح والأنهار تكنفها مثل الندامى سواقيها سواقيها(٣)

كم حولها من بدور تجتنى زَهَرا فتحسب الزهر قد قبلن أيديها

حصباؤها لؤلؤ قد شف جوهرها والنهل قد سال ذَوْبًا من لآليها

نهر المنجم والزهر المطيف به زهر النجوم إذا ما شئت تشبيها

يزيد حسنا على نهر المجرة قد أغناه در حَبَاب عن دراريها

يدعى المنجم رائيه وناظره مسميات أبانتها أساميها

إن الحجاز مغانيه بأندلس ألفاظها طابقت منها معانيها

فتلك نجد سقاها كل منسجم من الغمام يحييها فيحييها

وبارق وعُذَيب كل مبتسم من الثغور يحليها محليها

وإن أردت ترى وادى العقيق فَرِدْ دموع عشاقها حمرا جواريها

وللسبيكة تاج فوق مفرقها تود در الدرارى لو تحليها

فإن حمراءها والله يكلؤها ياقوتة فوق ذاك التاج يعليها

إن البدور لتيجان مكللة جواهر الشهب فى أبهى مجاليها

لكنها حسدت تاج السبيكة إذ رأت أزاهره زهرا يجليها

بروجها لبروج الأفق مخجلة فشبهها فى جمال لا تضاهيها

تلك القصور التى راقت مظاهرها تهوى النجوم قصورا عن معاليها

لله لله عينا مَنْ رأى سَحَرا تلك المنارة قد رقت حواشيها

---

(١) المطلول : الذى أصابه الطل وهو خفيف المطر .

(٢) النسيم اللدن : أراد الهواء الرطب الذى لا حر فيه

(٣) الدوح : الأشجار العظيمة ، والأنهار تكتنفها : تحيط بها .

والصبح فى الشرق قد لاحت بشائره والشهب تَسْتَنُّ سبقا فى مجاريها[١]
تهوى إلى الغرب لما غالها سحر وغَمَّضَ الفجر من أجفان واشيها
وساجع العود فى كف النديم إذا ما استوقف الطير يدنيها ويقريها
يبدى أفانين سحر فى ترنمه يصبى العقول بها حسنًا ويسبيها
بجسه ناعم الأطراف تحسبها لآلئا وَهْىَ نور فى تلاليها
مقاتل بلحاظ قوس حاجبها ترمى القلوب بها عمدا فتُصْميها[٢]
فباكر الروض والأغصان مائلة يثنى النفوس لها شوقا تَثَنِّيها
لم يرقص الدوح بالأكمام من طرب حتى شدا من قيان الطير شاديها
وأسمعتها فنونَ السحر مبدعةً وُرْقُ الحمام وغناها مغنيها
غرناطة آنس الرحمن ساكنها باحت بسر معانيها أغانيها
أعدى نسيمُهم لطفا نفوسَهم فرقة الطبع طبع منه يعديها
فخلد الله أيام السرور بها صُفْرا عَشِيَّاتها بيضا لياليها
وروض المحل منها كل منبجس إذا اشتكت بغليل الجدب يرويها
يحكى الخليفة كفا كلما وكفت بالجُودِ فوق مَوَاتِ الأرض يُحْييها
تغنى العفاة وقد أمت مكارمهُ عن السؤال وبالإحسان يغنيها
لها بنان فلا غيث يساجلها جودا ولا سحبه يوما تدانيها
فان تَصُبْ سُحْبُه بالماء حين همت بعسجد ولجين صاب هاميها
ياأيها الغيث أنت الغوث فى زمن ملوكه تلفت لولا تلافيها
إن الرعايا جزاك الله صالحة ملكت شرقا وغربا من يراعيها
إن الخلائق فى الأقطار أجمعها سوائم أنت فى التحقيق راعيها

---

(١) « تستن » أصله أن يقال في الفرس إذا عدا من النشاط
(٢) رماه فأصماه : أى أصاب منه مقتلا .

فكل مصلحة للخلق تحكمها — وكل صالحة فى الدين تنويهـا
إذا تيممت أرضا وهى مجـدبة — فرحمة الله بالسقيا تحييهـا
يا رحمـة بَثَّتِ الرُّحمى بأندلس — لولاك زلزلت الدنيا بمن فيهـا
فى فضل جودك قد عاشت مشيختها — فى ظل أمنك قد نامت ذَرَاريها
فى طول عمرك يرجو الله آملهـا — بنصر ملكك يدعو الله داعيها
عوائد الله قد عوّدت أفضلها — لتبلغ الخلق ما شاءت أمانيها
سُلَّ السعود وخل البِيضَ مُغمَدة — واضرب بها فرية التثليث تفريها[1]
لله أيامك الغـر التى اُطردت — فيها السعود بما ترضى ويرضيها
لله دولتك الغراء إن لهـا — لكافلا من إلٰهِ العرش يكفيها
هيهات أن تبلغ الأعداء مأربة — فى جريها وجنـود الله تحميها
هذى سيوفك فى الأجفان نائمة — والمشركون سيوفُ الله تُفْنيها
سريرة لك فى الإخلاص قد عرفت — حسنى عواقبهـا حتى أعاديها
لم يحجب الصبح شهب الأفق عن بصر — إلا وهَدْيُك للأبصار يبديهـا
يا ابن الملوك وأبنـاء الملوك إذا — تدعو الملوك إلى طَوْع تلبيها
أبنـاء نصرٍ ملوكٌ عز نصرهم — وأوسعوا الخلق تنويها وترفيها
هم المصابيح نور الله موقدها — تضىء للدين والدنيا مَشَاكيها[2]
هم النجوم وأفق الهدى مطلعها — فوزا لمهديها عزا لهاديهـا
هم البـدور كمال ما يفارقها — هم الشموس ظلام لا يواريها
قضت قواضبها أن لا انقضاء لها — وأمْضَتِ الحكم فى الأعدا مواضيها
وخلدت فى صفاح الهند سيرتها — وأسندت عن عواليها معاليها

---

(١) الفرية — بكسر الفاء وسكون الراء — الكذب ، وتفريها : مضارع «فرى الشىء يفريه فريا» — مثل رمى — إذا قطعه وشقه .

(٢) المشاكى : جمع مشكاة ، وهى الكوة غير النافذة ، وهى أيضا الأنبوبة فى وسط القنديل ، وفى القرآن الكريم (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح)

وأورثتك جهادا أنت ناصره والأجر منك يُرضيها ويحظيها
كم موقف ترهب الأعداء موقعه والخيل تَرْدَى ووقع السيف يُرْدِيها
ثارت عجاجته واليوم محتجب والنقع يؤثر غيما من دياجيها(١)
وللأسنة شهب كلما غربت فى الدارعين تجلت من عواليها
وللسيوف بروق كلما لمعت تزجى الدماء وريح النصر يُزْجِيهَا(٢)
أطلعت وجها تريك الشمسَ غرته تبارك الله ما شمس تساميها
من أين للشمس نُطْق كله حكم يفيدها كل حين منك مبديها
لك الجياد إذا تجرى سوابقها فللرياح جياد ما تجاريها
إذا انبرت يوم سَبْق فى أعنتها ترى البروق طِلاحا لا تباريها
من أشْهَب قد بدا صبحا تراع له شهب السماء فإن الصبح يخفيها
إلا التى فى لجام منه قيدها فإنه سامها عزا وتَنْويهـا
أو أشقر مرعب شقر البروق وقد أبقى لها شفقا فى الجوّ تنبيها
أو أحمر جمرهُ فى الحرب متقد يعلو لها شرر من بأس مذكيها
لون العقيق وقد سال العقيق دما بعطفه من كُمَاةٍ كاد يدميها
أو أدهم ملء صَدْر الليل تنعله أهلة فوق وجه الأرض يبديها
إن حارت الشهب ليلافى مُقَلَّده فصبيح غرته بالنور يهديهـا
أو أصفر بالعشيات ارتدى مرحا وعرفه بتمادى الليـل ينبيها
مموّه بنضارٍ تاه من عجب فليس يعـدم تنويها ولاتيها
ورب نهر حسام رقَّ رائقُهُ متى ترده نفوس الـكفر يرديها
تجرى الرؤس حبابا فوق صفحته وما جرى غير أن البأس يجريها

---

(١) العجاجة — بالفتح كسحابة — الغبار ، والنقع : ما ثار من التراب من أثر حوافر الخيل ، والدياجى : الظلم ، واحدها ديجاة

(٢) يزجيها : يسوقها ويدفعها

وذابل من دم الـكفار مَشْرَبه يجنى الفتوح وكف النصر تجنيها
وكم هلالٍ لقوسٍ كلما نبضت ترى النجوم رجومًا فى مراميها
أئمة الـكفر ما يممتَ ساحتها إلا وقد زُلزلت قسرا صَياصيها(١)
يا دولة النصر هل من مبلغ دولا مَضَيْن أنك تحييها وتنسيها
أو مبلغ سالفَ الأنصار مألُـكةَ والله بالخلد فى الفردوس يجزيها(٢)
إن الخلافة أعلى الله مظهرها أبقت لنا شرفا والله يبقيها
يا ابن الذين لهم فى كل مكرمة مفاخر ولسان الدهر يمليها
أنصار خير الورى مختار هجرته جيران روضته، أَكْرِمْ بأهليها
سمتهم الملة السمحاء تكرمة أنصارها، وبهم عزت أواليها
ففى حُنَين وفى بَدْر وفى أحُـد تلفى مفاخرهم مشهورة تيها
ولتسأل السير المرفوع مُسْنَدُها فعن مواقفهم تروَى مغازيها
مآثر خَلَّد الرحمن أثرتها ينصُّها من كتاب الله قاريها
ماذا يجيـد بليغ أو ينمقه من الـكلام ووحى الله تاليها
له الجهاد به تسرى الرياح إلى ممالك الأرض من شَتَّى أقاصيها
تُحْدَى الركاب إلى البيت العتيق به فمـكة عمرت منـه نواديها
بشائر تسمع الدنيا وساكنها إذا دعا باسمك الأعلى مناديها
كفى خلافتك الغراء منقبةً أن الإله يوالى من يواليها
وقد أفاد بنيه الدهرُ تجربة أن السعود تعادى من يعاديها
إذا رميت سهام العزم صائبة فما رَمَيْتَ، بل التوفيق راميها
شكرا لمن عظمت منا مواهبه وإن تُعَـدّ فليس العد يحصيها

---

(١) يممت : قصدت ، والصياصي : الحصون ، واحدها صيصة أو صيصية

(٢) مألـكة : رسالة

عما قريب ترى الأعياد مقبلة   من الفتوح ووَفْدُ النصر حاديها
وتبلغ الغاية القصوى بشائرها   فقد أظلت بما تَرْضَى مباديها
فأُهنأ بما شئت من صنع تسر به   وأُنو الأمانىَّ فالأقدار تدنيها
مولاى خذها كما شاءت بلاغتها   ولو تُبَاع لكان الحسن يَشْريها
أرسلتها حيثما الأرواح مرسلة   نوادرا تنشر البشرى أماليها
جاءت تهنيك عيد الفطر معجبة   بحسنها ولسان الصدق يطريها
البشر فى وجهها ، واليمن فى يدها ،   والسحر فى لفظها ، و الدر فى فيها
لو رصع البدر منها تاج مفرقهِ   لم يرض در الدرارى أن تحليها
فإن تكن بنتَ فكرى وهو أوجدها   نعماك فى حجره كانت تربيها
فى روض جودك قد طوقتنى مِنَنًا   طوقَ الحمام فما سجعى مُوَفِّيها
ولو أعرت لسان الدهر يشكرها   لكان يقصر عن شكر يوفيها
بقيت للدين والدنيا إمام هدى   مبلغ النفس ما ترجو أمانيها
والسعد يجرى لغايات تؤملها   مادامَتِ الشهب تجرى فى مجاريها

لابن زمرك فى الشكر

وقال رحمه الله تعالى شاكراً لنعَمٍ وصلته من المذكور فى عاشوراء :

مولاى يا ابن السابقين إلى العلا   والرافعين لواءها المنشورا
إن لوحظوا فى المَعْلَوات فإنهم   طلعوا بآفاق العلاء بدورا[1]
أو فوخروا فى المكرمات فإنهم   نظموا بأسلاك الفخار شذورا
أبناء أنصار النبى وصحبه   فى الذكر أصبح فخرهم مذكورا
والمؤثرين ، وربنا أثنى بها   فى الحشر خَلَّد وصفهم مسطورا
فاضت علينا من نداك غمائم   وتفجرت من راحتيك بحورا

(١) المعلوات : المعالى ، واحدها معلاة ، وكان القياس أن يقال « المعليات » لأن الألف الرابعة تقلب فى التثنية وجمع السلامة ياء

من كف شفاف الضياء تخاله … لصفاء جوهره تجسد نورا
نِعَم منوعة تعدد وَفْرها … أعجزت عنها شكرى الموفورا
فى موسم للدين قد جددته … وأقمت فينا عيده المشهورا
أضعاف ما أهديتنا من منة … تهدى إليك ثوابها عاشورا
وعلى الطريق بشائر محمودة … ألقاك جذلانا بها مسرورا

لابن زمرك يصف زهر القرنفل

وقال يصف زهر القرنفل الصعب الاجتناء بجبل الفتح ، وقد وقع له السلطان الغنى بالله المذكور بذلك ، فارتجل قطعا منها :

أتونى بنوّار يروق نضارة … كخدِّ الذى أهوى وطيب تنفُّسِهْ
وجاؤا به من شاهق متمنِّع … تمنع ذاك الظبى فى ظل مكْنِسِه[1]
رعى الله منى عاشقا متقنعا … بزهر حكى فى الحسن خدمؤنسه
و إن هب خفاق النسيم بنفحة … حكت عَرْفَه طيبا قضى بتأنسه

ومنها :

رعى الله زهرا ينتمى لقرنفل … حكى عَرْفَ من أهوى و إشراق خده
ومَنْبِتِه فى شاهق متمنع … كما امتنع المحبوب فى تيه صده[1]
أميل إذا الأغصان مالت بروضة … أعانق منها القضب شوقا لقدهِ
وأهفو لخفاق النسيم إذا سرى … وأهوى أريج الطيب من عَرْف نَدِّه

ومنها :

أقر بعينى أن أرى الزهر يانعا … وقد نازع المحبوب فى الحسن وصفه
وما أبصرت عينى كزهر قرَنْفُلٍ … حكى خد من يَسْبى الفؤاد وعَرْفَه
تمنع فى أعلى الهضاب لمجتنٍ … تمنعه منى إذا رمت إلفه

---

(١) الشاهق : أراد به الجبل العالى الشديد الارتفاع ، والمكنس ، ومثله الكناس بزنة الكتاب ــ مسكن الظباء

وفى جبل الفتح اجتنوه تفاؤلا بفتحٍ لبابِ الوصل يمنح عَطفَه[١]
وما ضر ذاك الغصن وهو مرنح إذا ماثنى نحو المتيم عِطْفَه[٢]

قال ابن الأحمر فى الكتاب المذكور فيما مر : ومن قصائده التى يود الصبح سَناَها، والنسيم اللدن رقة معناها ، يهنىء مولانا الجد رضى الله تعالى عنه عند وصول خالصة مقامه ، وكبير خدامه ، القائد خالد رحمه الله تعالى من تلمسان بالهدية ، وتجديد المقاصد الوُدِّية ، ووافق استئناف راحة من الذات العلية ، ومن بعض فروع دَوْحتها الزكية :

لابن زمرك يمدح ويهنىء

أدرها ثلاثا من لحاظك واحبس فقد غال منها السكر أبناء مجلس
إذا ما نهانى الشيبُ عن أكؤس الطلا تدير علىَّ الخمر منها بأكؤس
عذيرى من لحظ ضعيف وقد غدا يحكم منا فى جسوم وأنفس
وروض شباب ماسَ غصنُ قوامه وفتح فيه اللحظ أزهار نرجس
وما زال ورد الخد وهو مضعف يعير أقاح الثغر طيبَ تَنَفُّس
وكم جال طرف الطرف فى روض حسنهِ يقيده فيه العذار بسندس
أما وليالى الوصل فى روضة الصبا ومألف أحبابى وعهد تأنسى
لئن نسيَتْ تلك العهودَ أحبتى فقلبىَ عهدَ العامرية ما نسى
وحاشى لنفسى بعدما افترّ فَوْدُها من الشيب عن صبح به متنفس
وألبسها ثوبَ الوقار خليفةٌ به لبس الإسلام أشرف ملبس
وجدد للفتح المبين مواسما أقام بها الإيمان أفراح معرس
وأورثه العلياء كل خليفة نماه إلى الأنصار كل مُقدَّس
فيا زاجر الأظعان وهى ضَوَامر بغير الفلا والوحش لم تتأنَّس

---

(١) العطف — بالفتح هنا — الميل
(٢) العطف — بالكسر هنا — الجانب

إذا جئت من دار الغنى بربه مُنَاخ العلا والعز فاعْقِلْ وعرّس[١]

فإن شئت من بحر السماحة فاغترف وأن شئت من نور الهداية فاقبس

أمولاى إن السعد منك لآية أنارت بها الأكوان جذوة مقبس

إذا شئت أن ترمى القَصِىَّ من المنى[٢] تدور لك الأفلاك مرفوعة القسى

فترمى بسهم من سعودك صائب سديد لأغراض الأمانى مُقَرْطِسِ

أهنيك بالإبلال ممن شفاؤه شفاؤك فاشكر من تلافى وقدس

ودعنى أرِدْ يمناك فهى غمامة تُبَخِّلُ صوب العارض المتبجس

أقبل منها راحة إثر راحة أتتك بها الركبان من بيت مقدس

ومن نسب الفتح المبين ولادة إليه بغير الفخر لم يتأسَّسِ

فيا أيها المولى الذى بكماله خلائف هذا العصر فى الفخر تأتسى

لأَمَنْتَ موسى من عوادى سميه ولولاك لم يبرح بخيفة مُوجِسِ

بعثت بميمون النقيبة فى اسمه خلود لعز ثابت متأسس

فجاءك بالمال العريض هدية بها الدين أثوابَ المسرة يكتسى

وشفعها بالصافنات كأنها وقد راق مرآها جآذر مكنس

تنص من الإشراف جيد غزالة وترنو من الإيجاس عن لحظ أشْوَسِ

لك الخير موسى مثل موسى ، كلاهما بغير شعار الودِّ لم يتلبس

فلا زلت فى ظل النعيم وكل من يعاديك لا ينفك يشقى بأبؤس

عليك سلام مثل حمدك عاطر تنفس وجه الصبح عنه بمعطس

وقال فى مولد عام سبعة وستين وسبعمائة وألم فى أخرياتها بوصف المشور الأسنى ، الرفيع المبنى :

---

(١) عقل دابته : ربطها . وعرس فلان : نزل ليلا ليستريح

(٢) القصى : البعيد المنال ، والمني : جمع منية — بالضم — وهو ما يتمناه الإنسان

تهنئة لابن زمرك فى المولد النبوى

زار الخيـــال بأيمن الزوراء فجلا ســناه غياهب الظلماء[1]
وسَرَى مع النسمات يسحب ذيلهُ فأتت تنم بعنـــبر وكِبَاء[2]
هـــذا وما شيء ألذ من المنى إلا زيارته مع الإغفـــــاء
بتنـــا خَيَالين التحفنْا بالضنى والسقم ما نخشى من الرقبـــاء
حتى أفاق الصبح من غمراته وتجاذبت أيدى النسيم ردائى
يا سائلى عن سر مَنْ أحببته السر عنـــدى ميت الأحياء
تالله لا أشكو الصبابة والهوى لسوى الأحبــة أو أموتَ بدائى
يا دين قلبى لست أبرح عانيا أرضى بسقمى فى الهوى وعنائى
أبكى وما غـير النجيع مدامع أذكى ، ولا ضرم سوى أحشائى
أهفو إذا تهفو البروق ، وأنثنى لسرى النواسم من رُبَا تَيْماء
بالله يانفس الحمى رفقـــا بمن أغريتـــه بتنفس الصُّعَداء
عجبا له ينـــدى على كبدى وقد أذكى بقلبى جمـــرة البُرَحَاء[3]
يا ســـا كنى البطحاء أى إبانة لى عنـــدكم يا ساكنى البطحاء
أترى النوى يوما تخيبُ قِداحُها ويفوز قِدْحى منـــكم بلقاء
فى حيكم قمر فؤادى أفقُــه تفـديه نفسى من قريب نائى
لم تنسنى الأيام يوم وداعـــه والركب قد أوفى على الزَّوْرَاء
أبكى ويبسم والمحاسن تجتلى فعلقت بين تبسم وبـــكاء
يا نظرة جادت بها أيدى النوى حتى استهلت أدمعى بدماء
من لى بثانيـــة تنادى بالأسى (قَدْكَ اتَّئِدْ أسرفت فى الغُلَواء)
ولربَّ ليـــل بالوصال قطعته أجلو دجاه بأوجُـهِ النـدماء

---

(١) السنا : الضوء
(٢) الكباء — بكسر الكاف ، بزنة الكتاب — ضرب من عود البخور
(٣) البرحاء — بضم ففتح — شدة الأذى ، والمشقة

أنسيت فيه القلبَ عادةَ حلمه ... وحثثت فيه أكؤس السراء[١]
جاريت فى طلق التصابى جامحا ... لا أنثنى لَمقَادة النصحاء[٢]
أطوى شبابى للمشيب مراحلا ... برواحل الإصباح والإمساء
ياليت شعرى هل أرى أطوى إلى ... قبر الرسول صحائفَ البيداء
فتطيب فى تلك الربوع مدائحى ... ويطول فى ذاك المقام ثَوَائى[٣]
حيث النبوة نورها متألق ... كالشمس تَزْهَى فى سَنًى وسَنَاء
حيث الرسالة فى ثنية قدسها ... رفعت لهدى الخلق خير لواء
حيث الضريح ضريح أكرم مرسل ... فخر الوجود وشافع الشفعاء
المصطفى والمرتضى والمجتبى ... والمنتقى من عنصر العلياء
خير البرية مجتباها ذخرها ... ظِلُّ الإلٰهِ الوارف الأفياء[٤]
تاج الرسالة ختمها وقوامها ... وعِمَادها السامى على النظراء
لولاه للأفلاك ما لاحت بها ... شهب تنير دياجىَ الظلماء
ذو المعجزات الغر والآى الألى ... أكبرن عن عَدٍّ وعن إحصاء
وكفاك رد الشمس بعد مغيبها ... وكفاك ما قد جاء فى الإسراء
والبدر شُقَّ له وكم من آية ... كأنامل جاءت بنبع الماء
وبليلة الميلاد كم من رحمة ... نشر الإلٰهُ بها ومن نعماء
قد بَشَّر الرسل الكرام ببعثه ... وتقدم الكهان بالأنباء
أكرم بها بشرى على قدم سرت ... فى الكون كالأرواح فى الأعضاء
أمسى بها الإسلام يُشَرِّق نوره ... والكفر أصبح فاحِمَ الأرجاء
هو آية الله التى أنوارها ... تجلو ظلام الشك أىَّ جلاء

---

(١) حثثت الكؤس : أراد أدرتها
(٢) لا أنثنى : لا أرجع
(٣) الثواء — بالفتح — الإقامة
(٤) الأفياء : جمع فىء ، وهو الظل

والشمس لا تخفى مزية فضلها إلا على ذى المقلة العمياء
يا مصطفى والكون لم تعلق به من بعد أيدى الخلق والإنشاء
يا مظهر الحق الجلى ومطلع النـور السنى الساطع الأضواء
ياملجأ الخلق المشفع فيهم يا رحمة الأموات والأحياء
يا آسيَ المرضى ومنتجع الرضا ومواسِيَ الأيتام والضعفاء (١)
أشكو إليك وأنت خير مؤمل داء الذنوب وفى يديك دوائى
إنى مددت يدى إليك تضرعا حاشا وكلا أن يخيب رجائى
إن كنتُ لم أخلص إليك فإنما خلصت إليك محبتى وندائى
وبسعد مولاى الإمام محمد تَعِدُ الأمانى أن يُتاح لقائى (٢)
ظلُّ الإلٰهِ على البلاد وأهلها فخر الملوك السادة الخلفاء
غيث العباد وليث مُشْتَجَرِ القنا يوم الطعان وفارج الغماء
كالدهر فى سطواته وسماحه تجرى صَبَاه بِزَعزع ورُخَاء (٣)
رقت سجاياه وراقت مجتلى كالنهر وسط الروضة الغنّاء
كالزَّهر فى إيراقه، والبدر فى إشراقه، والزُّهْر فى لألاء (٤)
يا ابن الألى إجمالهم وجمالهم فلق الصباح ووا كف الأنواء
أنصار دين الله حِزْب رسوله والسابقون بحَلْبَة العلياء
يا ابن الخلائف من بنى نَصْر ومن حاطوا ذِمار الملة السمحاء
من كل مَنْ تقف الملوك ببابه يستمطرون سحائب النعماء
قوم إذا قادوا الجيوش إلى الوغى فالرعب رائدهم إلى الأعداء
والعز مجلوب بكل كتيبة والنصر معقود بكل لواء

---

(١) الآسى : الطبيب والمعالج ، وجمعه أساة كقاض وقضاة
(٢) يتاح : يقدر وتهيأ أسبابه (٣) الزعزع : الريح الشديدة الهبوب
(٤) الزهر : النجوم ، والواحدة زهراء ، واللألاء : الضياء

يا وارثاً عنهـــا مناقبها التى | تسمو مراقيهـا على الجوزاء[١]
يا فخر أندلس وعِصْمَة أهلها | يجزيك عنهـا الله خير جزاء
كم خُضْتَ طوع صلاحها من مَهْمَه | لا تُهْتَدَى فيــه القطَا للماء[٢]
تهدى بها حادى السرى بعزائم | تهدى نجوم الأفق فضل ضياء
فارفع لواء الفخر غـير مدافع | واسْحَبْ ذيول العزة القَعْساء
واهنــأ بمبناك السعيد فإنه | كهف ليوم مشورة وعطاء
لله منـــه هالة قد أصبحت | حَرَمَ العُفاة ومصرع الأعداء
تنتابها طـير الرجاء فتجتنى | ثمر المنى من دَوْحة الآلاء
لله منـــــه قبة مرفوعة | دون السماء تفوت لحظ الرائى
راقت بدائع وشيها فـكأنها | وشى الربيع بمسقط الأنداء
عَظَّمت ميـلاد النبى محمد | وشـفعته بالليـلة الغراء
أحييت ليلك سـاهراً فأفدتنا | قوت القلوب بذلك الإحياء
يا أيهـــا الملك الهمام المجتبى | فاتت عُلاك مـدارك العقلاء
من لى بأن أحصى مناقبكَ التى | ضاقت بهنَّ مذاهب الفصحاء
وإليك منى روضــة مطلولة | أرِجَتْ أزاهرها بطيب ثناء
فافسح لها أكناف صفحك إنها | بكر أتت تمشى على استحياء

قال ابن الأحمر: ومن إعذاريات ابن زَمْرَك المحكمة نَسْقاً ورَصْفاً ، المتناهية فى كل فن حسن تحلية غريبة ووصفا ، حسبما اقتضته ملاحظة النسبة الرفيعة مولانا رحمة الله تعالى عليه واحتفاله المناسب لعز ملـكه من تعميم الخلق بالجفلى فى دعواهم ، واستدعاء أشراف الأمم من أهل المغرب وسواهم ، تفننا فى مكارم متعددة أيامها

---

(١) المناقب : المحامد ، واحدتها منقبة ، والمراقى : جمع مرقاة ، وهى كل ما تصعد به إلى أعلى كالسلم ، والجوزاء : نجم .

(٢) القطا : طائر كالحمام ، وهو مضرب المثل فى الاهتداء إلى مواضع الماء .

عن أصالة المجد معربة ، وإغراء لهمم الملك بما لتتميم الأنس من أوضاع مغربة ، ومباهاة بعَرْض الجيوش والكتائب للعدوّ الكافر ، وتكاثراً من مماليك دولته بالعَدَد الوافر ، مما أجم اللسن الذكى عيا ، وغادر الإعذار الذنُّونىّ منسياً ، كافأ الله سبحانه أبوّته المولوية عنا وعن آبائنا ، وتلقى بالقبول الكفيل بتجديد الرضوان ما نَصِلُ له من خالص دعائنا ، إنه مُنْعم جواد ـ قولُه فى الصنيع المختص من ذلك بمولانا الوالد قدس الله تعالى روحه ! وذلك سنة أربع وستين وسبعمائة .

* معاذ الهوى أن أصحب القلب سالياً *

القصيدة ، وقد تقدمت بتمامها فراجعها .

لابن زمرك من إعذار

ثم قال : ومن ذلك ما أنشد فى الصنيع الثانى المخصوص بعمينا السيدين الأميرين سعد ونصر رحمة الله تعالى عليهما ! وأجاد فى وصف الجند والجرد والطلبة وغرائب الأوضاع :

ألمحة من بارق متبسم ... أرسلته دمعاً تضَرَّجَ بالدم

وللمحة تهفو ببانات اللوى ... يهفو فؤادك عن جوانح مغرم[1]

هى عادة عذرية من يوم أن ... خلق الهوى تعتاد كل متيم

قد كنت أعذل ذا الهوى من قبل أن ... أدرى الهوى ، واليوم أعذل لوّمى

كم زفرة بين الجوانح ما ارتقت ... حَذَرَ الرقيب ومدمع لم يسجم

إن كان واشى الدمع قد كتم الهوى ... هيهات واشى السقم لما يكتم

ولقد أجدّ هواى رَسْمٌ دارس ... قد كاد يَخْفَى عن خفى توهم[2]

وذكرت عهداً فى حماه قد انقضى ... فأطلت فيه ترددى وتلوّمى

ولربما أشجى فؤادى عنده ... ورقاء تَنْفُثُ شجوها بترنم

---

(١) البانات : جمع بانة ، وهى ضرب من الشجر ، وهفا فؤاده : تحرك .

(٢) الرسم : ما بقى من آثار الديار لاصقا بالأرض ، والدارس : المتغير .

لا أجدب الله الطلول فطالما ... أشجى الفصيحَ بها بكاءُ الأعجم[1]
يا زاجر الأظعان يحفزها السُّرَى ... قف بى عليهـــا وقعة المتلوِّم[2]
لترى دموع العاشقين برسمها ... حُمرًا كحاشية الرداء المُعْلَمِ
دِمَنٌ عهدت بها الشبيبة والهوى ... سَقْيًا لهـــا ولعهدها المتقدم
وكتيبة للشوق قد جهزتهـــا ... أغزو بها السلوان غَزْوَ مُصَمّم
ورفعت فيها القلب بنداً خافقاً ... وأريت للعشاق فضل تهممى
فأنا الذى شاب الحماسة بالهوى ... لـكنَّ من أهواه ضايق مقدمى
فطُعنت من قدّ القوام بأسمر ... ورُميت من غنج اللحاظ بأسهم
يا قاتل الله الجفون فإنهـــا ... مهما رمت لم تخطِ شاكلة الرمى
ظلمت قتيل الحب ثم تبينت ... للسقم فيهـــــا فترة المتظلم
يا ظبية سَنَحَتْ بأكناف الحمى ... سُقى الحمى صوبَ الغمام المسجم
ما ضر إذ أرسلت نظرة فاتك ... أن لو عطفت بنظرة المترحم
فرأيت جسما قد أصيب فؤاده ... من مقلتيك وأنت لم تتأثم
ولقد خشيت بأن يقاد بجرحه ... فوهبت لحظك ماأحلك من دمى
كم خضت دونك من غمارمفازة ... لا تهتدى فيهـا الليوثُ لمجثم
والنجم يسرى من دُجَاه بأسهم ... رَحْب المقـلَّد بالـثريا ملجم
والبدر فى صفح السماء كأنه ... مرآة هند وسـط لُجٍّ ترتمى
والزهر زهر والسماء حـديقة ... فتقت كمائم جنحها عن أنجم
والليـل مُرْبَدُّ الجوانح قد بدا ... فيـه الصباح كغرة فى أدهم
فكأنما فلق الصباح وقد بدا ... مرأى ابن نصر لاح للمتوسم

---

(١) الجدب : القحط ، ولا أجدبها : دعاء لها بأن تبقى على الخصب ، وأشجاه : أثار شجاه وحزنه .

(٢) الأظعان : أراد بها الإبل . وزاجرها : سائقها .

ملك أفاض على البسيطة عدله فالشاة لا تخشى اعتداء الضيغم (١)
هو منتهى آمال كل موفق هو مَوْرد الصادى وكنز المُعْدِمِ (٢)
لاحت مناقبه كواكب أسعد فرأت ملامح نوره عينُ العَمِى
ولقد تراءى بأسه وسماحه فأتى الجلال من الجمال بتوأم
مثل الغمام وقد تضاحك برقه فأفاد بين تجهم وتبسم
أنسى سماحة حاتم ، وكذاك فى يوم اللقاء ربيعة بن مُكَدم (٣)
سير تسير النيرات بهديها وتعير عرف الروض طيب تنسم
فالبدر دونك فى عُلاً وإنارة والبحر دونك فى ندى وتكرم
ولك القباب الحمر ترفع للندى فترى العمائم تحتها كالأنجم
يذكى الكباء بها كأن دخانه قِطَعُ السحاب بجوّها المتغيم
ولك العوالى السمر تشرع للعدا فتخر صَرْعَى لليدين وللفم
ولك الأيادى البيض قد طوقتها صِيدَ الملوك ذوى التلاد الأقدم
شيم يقر الحاسدون بفضلها والصبح ليس ضياؤه بمكتم
ورث السماحة عن أبيه وجده فالأكرم ابن الأكرم ابن الأكرم
نقلوا المعالى كابراً عن كابر كالرمح مُطَّرِدَ الكعوب مقوم
وتسنموا رتب العلاء بحقها ما بين جد فى الخلافة وابنم
يا آل نصر أنتم سُرُجُ الهدى فى كل خطب قد تجهم مظلم
الفاتحون لكل صعب مقفل والفارجون لكل خطب مبهم
والباسمون إذا الكُماة عوابس والمقدمون على السواد الأعظم (٤)
أبناء أنصار النبى وحزبه وذوى السوابق والجوار الأعصم

---

(١) الضيغم : الأسد وأراد كل مفترس من السباع ، وضرب ذلك مثلا للأمن .
(٢) المورد : مكان ورود الماء ، والصادى : العطشان .
(٣) ربيعة بن مكدم : من أبطال العرب (٤) الكماة : الشجعان ، واحدهم كمى

سل عنهم أُحُدًا و بَدْرًا تلقهم — أهل الغَنَاء بهـــا وأهل المغنم (١)

و بفتح مكة كم لهم فى يومه — بلواء خير الخلق من مُتَقَدَّم

أقسمت بالحرم الأمين ومكة — والركن والبيت العتيق وزمزم

لولا ماآثرهم وفضـلُ علاهمُ — ما كان يُعْزَى الفضل للمتقدم (٢)

ماذا عسى أثنى وقد أثنت على — عليائهم آىُ الـكتاب المحكم

يا وارثاً عنهـــا ماآثرها التى — قد شيدت للفخر أشرف معلم

يا فخر اندلس لقد مُدَّتْ إلى — عليك كَفُّ اللائذ المستعصم

أما سعودك فى الوغى فتكفلت — بسلامة الإسلام فاخلد واسلم

وافيت هذا الثغر وهو على شَفًى — فشفيت مُعْضِلَ دائه المستحكم

ورعيته بسياسة دارت على — مختطه دَوْرَ السوار بمعصم

كم ليلة قد بتَّ فيها ساهرا — تهدى الأمان إلى العيون النوّم

يا مظهر الألطاف وهى خفية — ومُهِبَّ ريح النصر للمتنسم

لله دولتـــك التى آثارها — سير الركاب لمنجد أو مُتْهِمِ (٣)

ما بعد يومك فى المواسم بعد ما — أتعبت عيد الفطر أكرم موسم

وافتك أشرافُ البلاد ليومه — من كل نَدْب للعلا متسنم

صرفوا إليك ركابهم وتيمموا — من بابك المنتاب خير مُيَمَّمِ

وتبوّؤا منه بدار كرامة — فالـكل بين مقرب ومنعم

ودت نجومُ الأفق لومثلث به — لتفوز فيـــه برتبة المستخدم

والروض مختال بحلية سندس — من كل مَوْشى الرقوم منمنم

ورياحه نسمت بنشر لطيمة — وأقاحه بسمت بثغر مسلم

---

(١) الغناء — بالفتح — الـكفاية والنفع ، وتقول « مافى فلان غناء » تريد أنه لانفع عنده . (٢)يعزى — بالبناء للمجهول — ينسب .

(٣) المنجد : الذاهب إلى نجد ، والمتهم : الذاهب إلى تهامة .

وأريتنا فيـــه عجائب جمة ... لم تجرِ فى خَــلَد ولم تُتَوَهم
أرسلت سرعانَ الجياد كأنها ... أسراب طير فى التَّنُوفة حُوَّم(١)
من كل منحفز بخَطْفة بارق ... قد كاد يسبق لمحة المتوهم
طرف يشك الطرف فى استثباته ... فكأنه ظن بصَدْر مرجم
ومسافر فى الجوّ تحسب أنه ... يرقى إلى أوْجِ السماء بسلم
رام استراق السمع وهو ممنع ... فأصيب من قضب العصى بأسهم
رجمته من شهب النصال حواصب ... لولا تعرضه لهـــا لم يُرْجَمِ
ومدارة الأفلاك أعجز كنهها ... إبداعَ كل مهندس ومهندم
يمشى الرجال بجوفها وجميعهم ... عن مستوى قَدَميه لم يتقدم
ومنوّع الحركات قد ركب الهوا ... يمشى على خط به متوهم
فإذا هوى من جوّه ثم استوى ... أبصرت طيرا حول صورة آدمى
يمشى على فنن الرشاء كأنه ... فيـــه مُسَاور ذابل أو أرقم
وإليك من صون العقول عقيلة ... وقفت ببابك وقفة المسترحم
ترجو قبولك وهو أكبر منحة ... فاسمح به خُلِّدْتَ من متكرم
طاردت فيها وصف كل غريبة ... فنظمت شارده الذى لم ينظم
ودعوت أرباب البيان أريهمُ ... (كم غادر الشعراء من متردم)(٢)
ما ذاك إلا بعض أنعمك التى ... قد علمتنا كيف شكر المنعم

ثم قال : وأنشد من ذلك فى الصنيع المخصوص بعمنا الأمير أبى عبد الله ـ رحمة الله تعالى عليه ! ـ وأطنب فى وصف دار الملك وغير ذلك من ضخامة آثار مولانا رضى الله تعالى عنه :

---

(١) الأسراب : جمع سرب ــ بالكسر ــ وهو جماعة الطير ، والتنوفة ــ بفتح التاء ــ الصحراء ، وحوم : جمع حائمة ، وتقول « حامت حول الماء » دارت

(٢) عجز هذا البيت صدر مطلع معلقة عنتره بن شداد العبسى ، وعجزه فى كلام عنترة قوله ❊ أم هل عرفت الدار بعد توهم ❊

سل الأفق بالزُّهر الكواكب حاليا ... فإنىَ قد أودعته شرح حاليا

وحَملتُ معتلَّ النسيم أمانة ... قطعت بها عمر الزمان أمانيا

فيا من رأى الأرواح وهى ضعيفة ... أحملها ما يستخف الرواسيا[1]

وساوس كم جدّت وجدّبىَ الهوى ... فعُدّ به القلب المقلب هازيا

ومن يطع الألحاظ فى شِرْعة الهوى ... فلا بد أن يعصى نصيحا ولا حِيا[2]

عدلت بقلبى عن ولاية حكمه ... غداة ارتضى من جائر اللحظ واليا

وما الحب إلا نظرة تبعث الهوى ... وتُعقِبُ ما يعيي الطبيب المداويا

فيا عجبا للعين تمشى طليقة ... ويصبح من جرّائها القلب عانيا

ألا فى سبيل الله نفس نفيسة ... يرخِّصُ منها الحب ما كان غاليا

ويارب عهد للشباب قضيته ... وأحسنت من دين الوصال التقاضيا

خلوت بمن أهواه من غير رِقْبة ... ولكن عفافى لم أكن عنه خاليا

ويوم بمستنِّ الظباء شهدته ... أجد وصالا باليافيه باليا[3]

ولم أصحُ من خمر اللحاظ وقدا ... به الجوّة وضاح الأسرة ضاحيا

وجرد من غمد الغمامة صارما ... من البرق مصقول الصفيحة صافيا

تبسم فاستبكى جفونىَ غمرة ... ملأت بدر الدمع منها ردائيا

وأذكرنى ثغرا ظمئت لورده ... ولاوالهوى العُذْرى ما كنت ناسيا

وراح خفوق القلب مثلى كأنما ... ببرق الحمى من لوعة الحب مابيا

وليلةَ بات البدر فيها مضاجعى ... وباتت عيون الشهب نحوى رَوَانيا

كرعت بها بين العذيب وبارق ... بمورد ثغرٍ بات بالدرِّ حاليا

رشفت به شهد الرضابِ سُلافة ... وقبلت فى ماء النعيم الأقاحيا

---

(١) ما يستخف : يراها خفيفة ، والرواسى : أرادبها الجبال ، واحدها راس

(٢) اللاحى : اللائم .

(٣) مستن الظباء : أراد به النافرات الشديدات العدو

فيابَرْدَ ذاك الثغر رَوَّيْت غلتي ويا حـــر أنفاسى أذبت فؤاديا
وروضة حسن للشباب نضيرة بصرت بغصن البان فيها المجانيا
و بت أسَقِّى وردة الخــد أدمُعِى فأصبح فيها نرجس اللحظ ذاويا(١)
ومالت بقلبى مائلاتٌ قدودُهَـا فما للقـــدود المائلات وماليا
جزى الله ذاك العهد عَوْدًا فطالما أعاد على ربع الظباء الجوازيا
وقل لليـــال فى الشباب نعمتها وقضيتها أنسا : سُقِيتِ لياليـــا
ويا واديا رفَّتْ على ظـــلاله ونحن نديرُ الوصلَ فدّيت واديا(٢)
رمتنى عيون السِّرب فيه و إنما رمين بقلبى فى الغرام المراميا
فلولا اعتصـــامى بالأمير محمد لما كنت من فتك اللواحظ ناجيا
فقل للذى يبنى على الحسن شعره عليه مع الإحسان لازلت بانيا
فكم من شكاة فى الهوى قد رفأتها ورفَّعتها بالمدح إذ جاء تاليـــا
وكم ليلة فى مدحـــه قد سهرتها أباهى بدر النظم فيه الدراريا
ولاح عمود الصبح مثل انتسابه رفعت عليـــه للمديح المبانيا
إمام أفاد المكرمات زمانه وساكنه فوق النجوم العواليا
وجاوز قدر البدر نورا ورفعة ولم يرض إلا بالكمال مُوَاليا
هو الشمس بثت فى البسيطة نفعها وأنوارها أهدت قريبا وقاصيا
هو البحر بالإحسان يزخر موجه ولكنه عذب لمن جاء عافيا
هو الغيث يهمى يمسك الغيث سحبه يروّى بسُحْب الجود من كان صاديا
شمائل لو أن الرياض بحسنها لما صار فيها زهرها الغَضُّ ذاويا
فياابن الملوك الصِّيدِ من آل خزرج وذا نسب كالصبح عز مُسَاميا

---

(١) نرجس اللحظ : من إضافة المشبه به إلى المشبه ، وذاويا : ذابلا
(٢) رفت ظلاله : أصله قولهم « رف النبات » إذ اهتز واضطربت أغصانه ، وقالوا « دخلت على فلان فرف لى » أى هش واهتز ، وقالوا « رف فؤادى لحديثه »

ألست الذى ترجو العفاةُ نوالَه ... فتُخْجِلُ جَدْواه السحابَ الغواديا

ألست الذى تخشى البغاة صِيالَه ... فتوجل علياهُ الصعاب العواديا

وهَدْيُك مهما ضلّت الشهب قصدها ... تولته فى جنح الدجنـة هاديا

وعزمك أمضى من حسامك فى الوغى ... و إن كان مصقول الغِرَار ين ماضيا[1]

فـكم قادح فى الدين يكفر ربه ... قدحت له زند الحفيظة واريا[2]

وما راعـه إلا حسام وعزمة ... يضيآن فى ليل الخطوب الدواجيا

فلولاك يا شمس الخلافة لم يبن ... سبيل جهاد كان من قبل خافيا

ولولاك لم ترفع سماء عجاجـةٍ ... تلوح بها بيضُ النصول دراريا

ولولاك لم تنهل غصون من القنَا ... وكانت إلى ورد الدماء صواديا[3]

فأثمر فيها النصل نصرا مؤزراً ... وأجنى قطاف الفتح غضا ودانيا

ومهما غدا سَفَّاح سيفك عاريا ... يغادر وجه الأرض بالدم كاسيا

قضى الله من فوق السموات أنه ... على من أبى الإسلام فى الأرض قاضيا

فـكم معقل للـكفر صَبَّحْتَ أهله ... بجيش أعاد الصبح أظلم داجيا

رقيت إليـه والسيوف مشيحة ... وقد بلغت فيه النفوس التراقيا

ففتحت مرقاه الممنَّع عنوة ... وبات به التوحيـد يعلو مناديا

وناقوسه بالقسر أمسى معطلا ... ومنـبره بالذكر أصبح حاليا

عجائب لم تخطر ببال و إنمـا ... ظفرنا بها عن همة هى ماهيا

فمنك استفاد الدهر كل عجيبة ... يباهى بها الأملاك أخرى الياليا

وعنك يروّى الناس كل غريبة ... تخط على صفح الزمان الأماليا

ولله مبناك الجميــــل فإنه ... يفوق على حكم السعود المبانيا

---

(١) غرار السيف — بكسر الغين بزنة الـكتاب — حده

(٢) ورى الزند يرى — من باب ورث ووعد — إذا أخرج عند القدح نارا

(٣) الصوادى : العطاش ، واحدها صاد

فكم فيه للأبصار من متنزَّه تجدّ به نفس الحليم الأمانيا
وتهوى النجوم الزهر لو ثبتت به ولم تك فى أفق السماء جواريا
ولو مثلت فى سابقيه لسابقت إلى خدمة ترضيك منها الجواريا
به البَهْوُ قد حاز البهاء وقد غدا به القصر آفاقَ السماء مُبَاهيا(١)
وكم حُلة جَلَّلتــــه بحليها من الوشى تنسى السابِرِيَّ اليمانيا(٢)
وكم من قسى فى ذراه ترفعت على عمد بالنور باتت حواليا
فتحسبها الأفلاك دارت قسيها تظل عمود الصبح إذ بات باديا
سوارى قد جاءت بكل غريبة فطارت بها الأمثال تجرى سواريا
به المرمر المجـلوّ قد شف نوره فيجلو من الظلماء ما كان داجيا
إذا ما أضاءت بالشعاع تخـالها على عظم الأجرام منها لآليا
به البحر دَفَّاع العبـــاب تخاله إذا ما انبرى وفد النسيم مباريا
إذا ماجلت أيدى الصبا متن صفحهِ أرتنا دروعا أكسبتنا الأياديا
وراقصة فى البحر طوع عنانها تراجع ألحان القيــان الأغانيا
إذا ما علت فى الجوِّ ثم تحدرت تحلى بمرفَضِّ الجُمَان النواحيا
يذوب لجين سال بين جواهر غدا مثلها فى الحسن أبيض صافيا
تشابه جارٍ للعيـــون بجامد فلم أدر أيًّا منهما كان جاريا
فإن شئت تشبيها له عن حقيقة تصيب بها المرمى و بوركت راميا
فقل أرقصت منها البحيرة متنها كما يرقص المولود مَنْ كان لاهيا
أرتنا طباع الجود وهى وليـدة ولم ترض فى الإحسان إلا تغاليا
سقت ثغر زهر الروض عذب برودها وقامت لكى تهدى إلى الدهر ساقيا

---

(١) البهو — بالفتح — البيت المقدم أمام البيوت ، وجمعه أبهاء وبهى وبهو — بتشديد الواو — وباهى فلان فلانا : فاخره فى الحسن

(٢) السابرى : ضرب من الثياب ، وهو من أجودها ؛ قالوا : هو منسوب إلى سابور على غير قياس ، وقال الشاعر : * وعيش كمس السابرى رقيق *

كأن قد رأت نهر المجرة ناضبا ... فقامت بأن تجرى إليه السواقيا(١)
وقامت بنات الدَّوْحِ فيه مواثلا ... فرادى ويتلو بعضهن مثانيا(٢)
رواضع فى حجر الغرام ترعرعت ... وشبت فشبت حبها فى فؤاديا(٣)
بها كل ملتف الغدائر مسبل ... تجيل به أيدى النسيم مَدَاريا
وأشرفَ جيدُ الغصن فيها معطلا ... فقلدت النوار منه التراقيا
إذا ما تحلت در زهر غروسُه ... يبيت لها النمام بالطيب واشيا
مصارفة النقدين فيها بمثلها ... أجاز بها النقدين منها كما هيا
فإن ملأت كف النسيم بمثلها ... دراهم نور ظل عنها مُكَافيا
فيملأ حجر الروض حول غصونها ... دنانير شمس تترك الروض حاليا
تَعَوَّد فى أفنانها الطير كلما ... تجس به أيدى القيان الملاهيا
تراجعها سجعا فتحسب أنها ... بأصواتها تُمْلِي عليها الأغانيا
فلم ندر روضاً منه أنعم نضرة ... وأعطر أرْجاء وأحلى مجانيا
ولم نر قصراً منه أعلى مظاهراً ... وأرفع آفاقا وأفسح ناديا
معانى من نفس الكمال انتقيتها ... وزينت منها بالجمال المغانيا
وفاتحت مبناه بعيد شرعته ... تبث به فى الخافقين التهانيا
ولما دعوت الناس نحو صنيعه ... أجابوا لهم من جانب الغور داعيا
وأمُّوه من أقصى البلاد تقربا ... ومازال منك السعد يدنى الأقاصيا
وأذكرت يوم العرض جودا ومنعة ... بموقف عرض كنت فيه المجازيا
جزيت به كلا على حال سعيه ... فما غَرَسَتْ يمناه أصبح جانيا
وأطلعت من جزل الوقود هوادجا ... تذكر يوم النفر من كان ساهيا

(١) نضب الماء ينضب : غاض وغار فى الأرض

(٢) بنات الدوح : أراد الحمام ، وذلك كتسمية أبى العلاء إياها بنات الهديل

(٣) شبت الأولى بمعنى كبرت وترعرعت ، وشبت الثانية بمعنى أوقدت ، تقول : « شب فلان النار يشبها » إذا أوقدها وأشعلها

وحين غدا يذكى منائر للقرى فلا غرو أن أجريت فيه المذاكيا[1]
وطامحة فى الجوّ غـــير مطالة يرد مداها الطرف أخْسَرَ عاريا
تمد لها الجوزاء كف مسارع ويدنو لهـا بدر السماء مناجيا
ولا عجب أن فاتت الشهب بالعلا وأن جاوزت منها المدى المتناهيا
فبين يَدَىْ مثواك قامت لخدمة ومَنْ خدم الأعلى استفاد المعاليا
وشاهِدُ ذا أنى ببابك واقف وقد حَسدت زهر النجوم مكانيا
وقد أرضعت ثدى الغمائم قبلها بمجر رياض كن فيه نواشيـا
فلما أبينت عن قرارة أصلها أرادت إلى مرقى الغمام تعاليا
وعدت لقاء السحب عيداً وموسماً لذاك اغتدت بالزَّمْرِ تلهى الغواديا
فأضحكت البرق الطروب خلالها وبات لأكواس الدرارى مُعاطيا
رأت نفسها طالت فظنت بأنها تفوت على رغم اللحاق المراميا
فحفت إليها الزائلات كأنها طيور إلى وكر أطَلْنَ تهاويا
حكت شَبَهًا للنحل والنحلُ حوله عصى إلى مثواهُ تهوى عواليا
فمن مثبت منها الرمية مدرك ومن طائش فى الجو حلق وانيا
وحصن منيع فى ذراها قد ارتقى فأبعد فى الجوّ الفضاء المراقيا
كأن بروق الجوّ غارت وقد أرت بروج قصور شُدْتَهن سـواميا
فأنشأت برجا صاعداً متنزلا يكون رسولا بينهن مداريا
تطوّر حالات أتى فى ضروبها بأنواع حَـــلْى تستفز الغوانيا
فحجل برجليها وِشَاحٌ بخصرها وتاج إلى ما حل منها الأعاليا
وما هو إلا طير سعد بذروة غدا زاجرا من أشهَبِ الصبح بازيا

---

(1) لا غرو : لاعجب ، والمذاكى : الخيل ، ويقال : « جرى المذكيات غلاء » أو « غلاب »

أمولاى يا فخر الملوك ومن به سيبلغ دينُ الله ما كان راجيا
بَنُوكَ على حكم السعادة خمسة وذا عدد للعين مازال واقيا
تَبِيتُ لهم كف الثريا معيذة ويصبح معتل النسيم رواقيا
أَسَامٍ عليها للسعادة ميسم ترى العز فيها مستكنا وباديا(١)
جعلت أبا الحجاج فاتح طرسهم وقد عرفت منك الفتوح التواليا
وحسبك سعد ثم نصر يليهم محمدٌ الأرضى ، فما زلت راضيا
أقمت به من فطرة الدين سنة وجددت من رسم الهداية عافيا
وجاؤا به ملء العيون وَسَامَةً يقبل وجه الأرض أزهر باهيا
فيا عاذلا ما كان أجرأ مثله فمثلك لا يدمى الأسود الضواريا
وجاءتك من مصر التحايا كرائما فما فتقت أيدى التجار الغواليـا
ووافتك من أرض الحجاز تميمة تقمم صنع الله لا زال باديا
وناداك بالتهويل سلطان طيبة فيا طيب ما أهدى إليك مناديا
وقام وقد وافى ضريح محمد لسلطانك الأعلى هنالك داعيا
سريرتك الرحمى جزاك بسعيها إله يوفى فى الجـزاء المساعيا
فوالله لولا سـنة نبوية عهدناه مهديا إليهـا وهاديا
وعذر من الأعذار قرر حكمه من الشرع أخبار رفعن عواليا
لراعت بها للجزر أهوال موقف تشيب بمبيض النصول العواليا
لك الحمد فيـه من صنيع تعده فثالثهُ فى الفخر عزز ثانيـا
تشد له الجوزاء عِقْدَ نطاقها لتخدم فيـه كى تنال المعاليا
وهنيت بالأمداح فيه وقد غدا وجودك فيـه بالإجادة وافيا

---

(١) أين هذا من قول أبى الطيب المتنبى :

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

ودونك من بحر البيان جواهرا كرمن فما يُشْرَيْنَ إلا غواليا
وطاردْتَ فيها وصف كل غريبة فأعجزت مَنْ يأتى ومن كان ماضيا
فياوارث الأنصار لا عن كلالة تراث جلال يستخف الرواسيا(١)
بأمداحه جاء الكتاب مفصلا يرتِّله فى الذكر مَنْ كان تاليا
لقد عرف الإسلام مما أفدته مكارم أنصارية وأياديا
عليك سلام الله فاسلم مخلدا تجدد أعيادا وتبلى أعاديا

ثم قال : ومن ذلك فى الصنيع المختص بالأمراء الجِلَّة : أخينا المعز لدولتنا أبى الحسن ، وأخينا أبى العباس ، وابن عمنا أبى عبد الله ، وَصَلَ الله تعالى سعودهم ! ولقد أبدع فى تشييده وتأسيسه ، و بسط يَدَ الحسن من براعته وتخميسه ، وذلك على أثر عودة مولانا رحمة الله تعالى عليه من سبتة لما عادت إلى ملكه :

أرقت لبرق مثل جفنىَ ساهرا
ينظم من قطر الغمام جواهرا
فيبسم ثغر الروض عنه أزاهرا
وصبح حكى وجه الخليفة باهرا تجسم من نور الهدى وتجسدا

شفانىَ معتل النسيم إذا انبرى
وأسند عن دمعى الحديثَ الذى جرى
وقد فتَقَ الأرجاء مسكا وعنبرا
كأن الغنى بالله فى الروض قد سرى فهبت به الأرواح عاطرة الرِّدَا

عذيرىَ من قلب إلى الحسن قد صَبَا
تهيجه الذكرى و يصبو إلى الصِّبَا

(١) تقول : « ورث فلان المجد لا عن كلالة » ، تريد أنه لم يرثه من بعيد ، وإنما جاءه من آبائه ، والكلالة فى الميراث : كل من ليس من عمود النسب من أصل أو فرع .

ويُجْرِى جياد اللهو فى ملعب الصبا[1]

ولولا ابن نصر ما أفاق وأعتبا رأى وجهه صبح الهداية فاهتدى

إليك أميرَ المسلمين شكاية

جنى الحسن فيها للقلوب جناية

وأعظم فيها بالعيون نكاية

وأطلع فى ليل من الشَّعْر آية محيا جميلا بالصباح قد ارتدى

بهَدْيِكَ تُهْدَى النيرات وتهتدى

وأنواؤها جَدْوَى يمينك تجتدى

وعدلك للأملاك أوضحُ مرشد

بآثاره فى مشكل الأمر تقتدى فما بال سلطان الجمال قد اعتدى

تحكم منا فى نفوس ضعيفة

وسَلَّ سيوفا من جفون نحيفة

ألم يدر أنا فى ظلال خليفة

ودولة أمنٍ لا تُرَاع مُنيفة بها قد رسا دين الهوى وتمهدا

خذوا بدم المشتاق لحظا أراقهُ

وبرقا بأعلام الثنيه شاقه

وإن كلفوه فوق ما قد أطاقه

يبث حديثا ما ألذ مساقه خليفتنا المولى الإمام محمدا

تقلد حكم العدل دينا ومذهبا

وجَوْرَ الليالى قد أزاح وأذهبا

---

(١) أصل هذه الاستعارة قول زهير بن أبى سلمى المزنى :

صحا القلب عن ليلى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

فيا عجبـا للشوق أذكى وألهبا

وسَلَّ صباحا صارم البرق مذهبا وقد بات فى جفن الغمامة مغمدا

يذكرنى ثغرا لأسمـاء أشنبا(١)

إذا ابتسمت تجلو من الليل غيهبا

كعزم أمـير المسلمين إذا احْتَبَى

وأجرى به طِرْفا من الصبح أشهبا وأصـدر فى زات الإله وأوردا

فسبحان من أجرى الرياح بنصره

وعَطَّر أنفـاس الرياض بشكره

فبرد الصبا يطوى على طيب نشره

ومهما تجلى وجهه وسط قصره ترى هالة بدر السماء بهـا بدا

إمام أفاد المَعْـلَوَاتِ زمانه

فما لحقت زهر النجـوم مكانه

ومد على شرق وغـرب أمانه

ولا عيب فيه غـير أن بنانه تُغَرِّق مستجديه فى أبحر الندى

هو البحـر مد العارض المتهللا

هو البـدر لكن لا يزال مكملا

هو الدهر لا يخشى الخطوب ولا ولا

هو العلَم الخَفَّاق فى هضبة العـلا هو الصارم المشهور فى نصرة الهدى

أما والذى أعطى الوجود وجوده

وأوسع من فوق البسيطة جوده

---

(١) الأشنب : الوصف من الشنب ـــ بفتح الشين والنون ـــ وهو رقة وعذوبة وبرد فى الأسنان ، قال الراجز :

وا ، بأبى أنت وفوك الأشنب كأنما ذر عليه الزرنب

لقد أصحب النصر العزيز بُنُودَه(١)

ومد بأملاك السماء جنوده وأنجز للاسلام بالنصر موعدا

أمولاى قد أنجحت رأيا وراية

ولم تبق فى سبق المكارم غاية

فتهدى سجايا كابن رشد نهاية

وإن كان هذا السعد منك بداية سيبقى على مر الزمان مخلدا

سعودك تُغْنِى عن قراع الكتائب

وجودك يُزْرِى بالغمام السواكب(٢)

وإن زاحمتها شهبها بالمناكب

ووجهك بدر المنتدى والمواكب وقد فسحت فى الفخر أبناؤك المدى

بنوك كأمثال الأنامل عِدَّة

أعِدّت لما يُخْشَى من الدهر عُدَّة

وزيد بهم بُرْدَ الخلافة جدة

أطال لهم فى ظل ملكك مدة إلهٌ يطيل العمر منك مؤبدا

بدور بأوصاف الكمال استقلت

غمام بفياض النوال استهلت

سيوف على الأعداء بالنصر سُلَّت

نجوم بآفاق العلاء تجلت ولاحت كما شاءت سعودك أسْعُدَا

وإن أبا الحجاج سيفك منتضى

وبدر بآفاق الجمال تعرضا

---

(١) البنود : الأعلام ، واحدها بند ، بالفتح

(٢) يزرى : يعيب وينتقص ، يريد أن كرمه فوق السحاب المنهمر

بنورك يا شمس الخلافة قد أضا(١)

وراقت على أعطافه حُلَل الرضا فحل محلا من علاك ممهدا

مليك له تعنو الملوك جلالة(٢)

يجرّر أذيال الفخارِ مطالة

وتَفْرَقُ أسد الغاب منه بسالة(٣)

وترضاه أنصار الرسول سُلالة فأبناؤه طابوا فروعا ومحتدا(٤)

أزاهر فى روض الخلافة أينعت

زواهر فى أفق العلاء تطلعت

جواهر أغيتْ فى الجمال وأبدعت

وعن قيمة الأعلاق قدرا ترفعت يسر بها الإسلام غيبا ومشهدا

بعهد ولى العهد كرم عهده

وأنجز فى تخليد ملكك وعده

تنظم منهم تحت شملك عقده

وأورثهم فخرا أبوه وجده فأعلى عليا حين أحمد أحمدا

تحوط بهم ملكا عزيزا وملة

وتلحظ عين السعد منهم أهلة

ستبدو على أفق العلا مستقلة

وسحبا بفياض العلا مستهلة تفجر بحرا للسماحة مزبدا

ونجلك نصر يقتفى نجل رسمه

أمير يزين العقل راجح حلمه

---

(١) أضا : أراد « أضاء » بمعنى أنار ، فحذف الهمزة حين اضطر

(٢) تعنو : تخضع وتذل (٣) تفرق : تخاف (٤) المحتد : الأصل

أتاك بنجل يستضاء بنجمه

لحب رسول الله سماه باسمه وباسمك فى هذى الموافقة اقتدى

أقمت بإعذار الإمارة سنة

وطوّقت من حلى بفخرك منية

وأسكنتها فى ظل برك جنَّة

وألحقتها برد امتنانك جُنَّة وعمرت منها بالتلاوة مسجدا

فلله عينا مَنْ رآهم تطلعوا

غصونا بروض الجود منك ترعرعوا

وفى دوحة العلياء منك تفرعوا

ملوك بجلباب الحياء تقنعوا أضاء بهم من أفق قصرك منتدى(١)

وقد أشعروا الصبر الجميل نفوسهم

وأضْفَوْا به فوق الحلى لبوسهم

وقد زَيَّنوا بالبشر فيه شموسهم

وعاطوا كؤس الأنس فيه جليسهم وأبْدَوْا على هول المقام تجلدا

شمائل فيهم من أبيهم وجدهم

تفصل آى الفخر فيها بحمدهم

وتنسبها الأنصار قدما لسعدهم(٢)

تضىء بها نورا مصابيحُ سعدهم ولم لا ومن صَحْبِ الرسول توقدا

فو الله لولا سنة قد أقمتها

وسيرة هدىٍ للنبى علمتها

(١) المنتدى ، والندى ــ بتشديد الياء ــ والنادى : المكان يجتمع فيه القوم للسمر والمشورة

(٢) هو سعد بن عبادة سيد الأنصار

وأحكام عدل للجنود رسمتها

لجالت بها الأبطال تَقْصد سَمْتَهَا وتترك أوصال الوشيج مُقَصَّدا[١]

ويا عاذرا أبدى لنا الشرع عذره

طرقت حمى قد عظم الله قدره

وأجريت طيبا يحسد الطيب نشره

لقد جئت ما تستعظم الصيد أمره وتفديه إن يقبل خليفتها فدا

رعى الله منها دعوة مستجابة

أفادت نفوس المخلصين إنابة

ولم تُلْفِ من دون القبول حجابة

وعاذرها لم يبد عذرا مهابة فأوجب عن نقص كمالا تزيدا

فنقص كمال المال وفر نصابه

وما السيف إلا بعد مشق ذبابه

وما الزهر إلا بعد شق إهابه

بقَطْع يراع الخط حسنُ كتابه وبالقص يزداد الذبال توقدا

ولما قضوا من سنة الشرع واجبا

ولم نلق من دون الخلافة حاجبا

أفضنا نهنى منك جذْلَانَ واهبا

أفاض علينا أنعما ومواهبا تعوّد بذل الجود فيما تعوّدا

هنيئا هنيئا قد بلغت مؤملا

وأطلعت نورا يبهر المتأملا

(١) السمت ـ بالفتح ـ الطريق والمحجة ، يقال « خذ فى هذا السمت » ويستعار لهيئة أهل الخير فيقال « ما أحسن سمت فلان »

وأحرزت أجـــر المنعمين مكملا

تبارك من أعطى جزيلا وأجملا و بلغ فيك الدين والملك مقصدا

ألا فى سبيل العــز والفخر موسم

يظل به ثغـــــر المسرة يبسم

وعرف الرضا من جــوه يتنسم

وأرزاق أرباب السعادة تقْسَم ففى وصفه ذهن الذكى تبلدا

وجلّلْت فى هــذا الصنيع مصانعا[1]

تمنى بدور التم منهـــا مطالعا

وأبديت فيهـــا للجمال بدائعا

وأجريت للاحسان فيها مشارعا يود بها نهر المجـرة موردا

وأجريت فيها الخيل وهى سوابقُ

وإن طَلَبَتْ فى الروع فهى لواحق

نجوم وآفاق الطــراد مشارق

يفوت التماحَ الطرف منها بوارقُ إذا ماتُجَارِى الشهب تستبق المدى

وتطلع فى ليـل القتام كواكبا

وقد وردت نهر النهــار مشاربا

تقود إلى الأعداء منها كواكبا

فترسم من فوق التراب محاربا نحور رؤس الروم فيهن سجدا

سوابح بالنصر العــزيز سوانح

وهن لأبواب الفتـــوح فواتح

(١) الصنيع : الطعام ، والإحسان ، والمصانع : جمع مصنع ــ بزنة مقعد ــ وهو كالحوض يجمع فيه ماء المطر ، والمصانع أيضا: القرى والمبانى من القصور والحصون، ويقال « فلان من أهل المصانع » يريدون أنه من أهل الحضر

تقود إليك النصر والله مانح

فما زلت بابَ الخير والله فاتح وما تم شيء قد عدا بعد ما بدا

رياحٌ لها مثنى البروق أعنة

ظباء فإن جن الظلام فجِنَّة

تقيها من البدر المتمم جُنَّة

وتشرع من زهر النجوم أسنة فتقذف شُهْبَ الرَّجْم فى أثغر العدا

فأشهب من نسل الوجيه إذا انتمى (١)

جرى فشأى شُهْبَ الكواكب فى السما

وخلف منها فى المقلَّدِ أنجما

تردى جمالا بالصباح وربما يقول له الإصباح نفسى لك الفدا

وأحمر قد أذكى به البأس جمرة

وقد سلب الياقوت والورد حمرة

أدار به ساقٍ من الحرب خمرة

وأبدى حبابا فوقها الحسن غرة يزين بها خدا أسِيلاً مُوَرَّدا

وأشقر مهما شعشع الركض برقه

أعار جواد البرق فى الأفق سبقه

بدا شَفَقاً قد جَلل الحسن أفقه

ألم تر أن الله أبدع خلقه فسال على أعطافه الحسن عَسْجَدَا

وأصفر قد ود الأصيل جماله

وقد قدّ من برد العشى جلاله

(١) الوجيه ـ بفتح الواو وكسر الجيم ـ خيل من الخيول العربية المشهورة ، كان لغنى بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان ، وفيه وفى بقية خيلهم المذكورة بالسبق يقول طفيل الغنوى :

بنات الغراب والوجيه ولاحق وأعوج ، تنمى نسبه المتنسب

إذا أسرجوا جُنْحَ الظلام ذباله[1]

فَغَرُّتُه شمس تضىء مجاله وفى ذيله ذيل الظلام قد ارتدى

وأدهم فى مسح الدجى متجرد

يجيش بها بحر من الليـل مُزْبِدُ

وغرته نجم به تتوقـــــد

له البدر سُرْجٌ والنجوم مقـلد وفى فلق الصبح المبين تقيدا

وأبيض كالقرطاس لاح صباحه

على الحسن مَغْدَاه وفيه مَرَاحه

وللظَّبَيات الآنسات مراحـــه

تراه كنَشْوَان أنالته راحُه وتحسبه وسط الجمال معربدا

وذاهبة فى الجوّ ملء عنانهـــا

وقد لفعتها السحب بُرْدَ عنانها

يفوت ارتداد الطرف لمح عيانها

وخَتَّمت الجوزاء سبط بنانها وصاغت لها حَلْىَ النجوم مقيدا

أراها عمود الصبح علو المصاعد

وأوهمها قُرْبَ المـــدى المتباعد

ففاتته سَبْقًا فى مجال الرواعـــد

وأتحفت الـكف الخضيب بساعد فطوقت الزهر النجوم بها يدا

وقد قذفتهـــا للعصىّ حواصِبُ[2]

قد انتشرت فى الجوّ منها ذَوَائب

(١) أسرجوا : أوقدوا ، والذبالة — بضم الذال — المصباح

(٢) حواصب : جمع حاصب ، وهو وصف من « حصبت الريح » إذا اشتدت ورمت بالحصباء

تزاور منهـــا فى الفضاء حبائب

فبينهما من قبل ذاك مَنَاسِبُ لأنهما فى الروض قبلُ تولَّدَا

بنات لأم قد حبين لروحها

دعاها الهوى من بعد كتم لبوحها

فأقلامُهــاَ تهوى لخط بلوحها

فبالأمس كانت بعض أغصان دَوْحِها فعادت إليها اليوم من بعد عُوَّدا[1]

ويارُبَّ حصن فى ذراها قد اعتلى

أنارت بروج الأفق فى مظهر العلا

بروج قصور شِدْتَهــاَ متطوِّلا[2]

فانشأت برجا صاعدا متنزلا يكون رسولا بينها مترددا

وهل هى إلاَّ هالة حول بدرها

يصوغ لهـا حليا يليق بنحرها

تطوّر أنواعا تشيـــد بفخرها[3]

فحجل برجليها وشاح بخصرها وتاج بأعلى رأسها قد تنضدا

أراد استراق السمع وهو ممنع

فقـــام بأذيال الدجى يتلفع

وأصغى لأخبـار السما يتسمع

فأتبعه منهـا ذوابل شُرَّعُ لتقذفه بالرعب مثنى ومَوْحَدَا

وما هو إلاَّ قائم مد كفه

ليسأل من رب السموات لطفه

---

(١) عود : جمع عائدة من العيادة ، وهى الزيارة

(٢) شاد القصر يشيده : بناه

(٣) تشيد بفخرها : تتحدث عنه

لمولى تولاه وأحكم رَصْفَه
وكلف أرباب البلاغة وصفهُ وأكرم منه القانت المتهجدا

ملاقى ركب من وفود النواسم
مقبل ثغر للبروق البواسم
مختم كف بالنجوم العواتم
مبلغ قصد من حضور المواسم تجدده مهما صنيع تجددا

ومضطرب فى الجوّ أثبت قامة
تقدم يمشى فى الهواء كرامة
تطلع فى غصن الرشاء كمامة
وتحسبه تحت الغمام غمامة يسيل على أعطافها عَرَقُ النَّدَى

هوى واستوى فى حالة وتقلبا
كخاطف برق قد تألق خُلَّباً
وتحسبه قد دار فى الأفق كوكبا
ومهمامشى واستوقف العقل مُعْجَبًا تقلب فيه العين لحظا مرددا

لقد رام يرقى للسماء بسلم
فيمشى على خط به متوهم
أجِلْ فى الذى يبديه فكرَ توسُّمِ (١)
ترى طائرا قد حَلَّ صورة آدمى وجِنًّا بمهواة الفضاء تمرّدا

ومنتسب للخال سموه ملجما
له حكمات حكمها فاه ألْجَمَا

---

(١) أجل : أمر من « أجال طرفه ، ونحوه » أى أداره وحركه ، والتوسم : النظر فى وجوه الناس ليعرف أحدهم

تَخالَفَ جنساً والداه إذا انتمى
كما جنسه أيضا تخالف عنهما عجبت له إذ لم يلد وتولدا
ثلاثتها فى الذكر جاءت مبينة
من اللاء سماها لنا الله زينة
وأنزل فيها آية مستبينة
وأودع فيها للجهول سكينة وآلاءه فيها على الخلق بَدَّدَا(١)
كسوه من الوشْىِ اليمانى هودجا
يمد على ما فوقه الظلَّ سَجْسَجَا(٢)
وكم صورة تجلى به تبهر الحجا
وجزل وقود نارهُ تصدع الدجى وقلب حسود غاظ مُذْكِيه موقدا
وما هى إلا مظهر لجهاده
أرتنا بها الأفراح فضل اجتهاده
مَلاَعبها هزت قدود صِعَاده
وأذ كرَتِ الأبطال يوم طراده فما ارتبت فيه اليوم صدقته غدا
ألاَ جدد الرحمن صنعا حضرته
ودَوْحَ الأمانى فى ذراه هَصَرْته
بقصر طويل الوصف فيه اختصرته
يقيد طَرْفَ الطرف مهما نظرته ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا
دعوت له الأشراف من كل بلدة
فجاؤا بآمال لهم مستجدة

(١) الآلاء : النعم ، واحدها إلى ، وبدد : فرق

(٢) ظل سجسج : هو الذى لاحر فيه ولا برد ، والأصل أن يقال «يوم سجسج» أو « ليل سجسج »

وخصوا بألطاف لديه معدة

أياد بفياض الندى مستمدة فكلهم من فضله قد تزودا(١)

وجاءتك من آل النبى عصابة

لها فى مرامى المكرمات إصابة

أحبتك حبا ليس فيه استرابة

ولبت دواعى الفوز منها إجابة وناداهُمُ التخصيص فابتدَرُوا الندا(٢)

أجازوا إليك البحر والبحر يَزْخَرُ

لبحر سماح مَدُّه ليس يجزر

فروّاهمُ من عذب جودك كوثر

وواليت من نعْماك ماليس يحصر وعظمتهم ترجو النبى محمدا

عليه صلاة الله ثم سلامه

به طاب من هذا النظام اختتامه

وجاء بحمد الله حُلْوا كلامه

يعز على أهل البيان مَرَامُهُ وتمسى له زهر الكواكب حُسَّدًا

أبث به حادى الركاب مشرقا

حديث جهاد للنفوس مشوّقا

رميت به مَنْ بالعراق مفوّقا

وأرسلت منه بالبديع مطوقا حماما على دوح الثناء مغردا

ركضْتُ به خيل البيان إلى مَدَى

فأحرزت خصل السبق فى حَلْبة الهدى

---

(١) أياد : جمع الأيدى التى هى جمع يد ، ومعناها النعم ، وفياض الندى : زائد الكرم والجود

(٢) ابتدروا الندا : أراد سارعوا إلى إجابته

ونظمت من نظم الدرارى مقلدا

(١) وطوقت جيد الفخر عقداً منضَّدا وقمت به بين السماطين منشدا

نسقت من الإحسان فيه فرائدا

وأرسلت فى روض المحاسن رائدا

وقلدت عِطْفَ الملك منه قلائدا

(٢) تعودت فيه للقبول عوائدا فلا زلت للفعل الجميل معودا

ولا زلت للصنع الجميل مجددا

ولا زلت للفخر العظيم مخلدا

وعُمِّرْتَ عمرا لايزال مجددا

وعمرت بالأبناء أوحد أوحدا وقرت بهم عيناك ما سائقٌ حدا

وقال فى عيد :

لابن زمرك تهنئة فى عيد

بشرى كما وضح الزمان وأجمل يُغْشِى سَنَاها كل من يتهلَّل(١)

أبدى لها وجه النهار طلاقة وأفتر عن ثغر الأقاح مقبل

ومنابر الإسلام بالملك العلى بحلاك أو بحليها تتكلل

تجلو لنا الأكوان منك محاسنا تروى على مر الزمان وتنقل

فالشمس تأخذ من جبينك نورها والبشر منك بوجهها يتهلل

والروض ينفح من ثنائك طيبُهُ والوُرْقُ فيه بالمادح تَهْدِلُ

والبرق سيف من سيوفك منتضى والسحب تهمى من يديك وتهمل

يا أيها الملك الذى أوصافه در على جيد الزمان يُفَصَّلُ

الله أعطاك التى لا فوقها وحَبَاك بالفضل الذى لا يجهل

---

(١) يغشى : يصيب بالعشى ، وهو ضعف البصر ، ووقع فى ب « يغشى » بالغين معجمة — تحريف ، والسنا : الضوء ، ويتهلل ، هنا : ينظر ، والمستعمل أن يقال « أهل الرجل » إذا نظر إلى الهلال

وجه كما حسر الصباح نقابه لضيائه تعشو البدور الكُمَّلُ(١)

تلقاه فى يوم السماحة والوغى والبشر فى جنباته يتهلل(٢)

كَفٌّ أبت أن لا تكف عن الندى أبدا فإن ضن الحيا تسترسل(٣)

وشمائل كالروض باكَرَه الحيا وسَرَت بريَّاهُ الصَّبا والشَّمْألُ

خُلُقُ ابنِ نَصْرٍ فى الجمال كخَلْقِهِ ما بعده من غاية تتكمل

نور على نور بأبهى منظر فى حسنه لمؤمل ما يأمل

فاق الملوك بسيفه و بسيبه فبعدله و بفضله يتمثل

و إذا تطاول للعميد عميدهم فله عليه تطاول وتطوّل(٤)

يا آية الله التى أنوارها يهدى بها قصد الرشاد الضلل

قل للذى التبست معالم رشده هيهات قد وَضَحَ الطريقُ الأمثل

قد ناصح الإسلام خير خليفة وحمى عزيز الملك أغلب أشمل

فلقد ظهرت من الكمال بمستوى ما بعده لذوى الخلافة مأمل

وعناية الله اشتملت رداءها وعلقت منها عروة لا تفصل

فالجود إلا من يديك مقتر والغيث إلا من نَدَاك مبخَّلُ

والعمر إلا تحت ظلك ضائع والعيش إلا فى جنابك مُمْحِلُ

حيث الجهاد غدا علت راياته حيث المغانم للعُفَاة تنفل

حيث القباب الحمر ترفع للقرى قد عام فى أرجائهن المَنْدَلُ

يا حجة الله التى برهانها عَزَّ المحقُّ به وذل المبطل

قل للذى ناواك يدفع نومهُ فوراءهُ ملك يقول و يفعل

والله جل جلاله إن أمهلت أحكامه مستدرجا لا تهمل

يا ناصر الإسلام وهو فريسة أسد الفلا مِنْ حولها تتسَلَّلُ

---

(١) حسر : كشف ، والنقاب — بكسر النون بزنة الكتاب — غطاء الوجه

(٢) يتهلل ، هنا : يشرق ويتلألأ (٣) الحيا : المطر (٤) التطول : التفضل

يا فخر أندلس وعصمة أهلها ... لك فيهمُ النعمى التى لا تجهل
لايهمل الله الذين رعيتهم ... فلأنت أكفى والعناية أكفل
لايبعد النصر العزيز فإنه ... آوى إليك وأنت نعم الموئل(١)
لولا نداك لها لما نفع الندى ... ولجف من ورد الصنائع مَنْهل
لولاك كان الدين يغمط حقه ... ولكان دين النصر فيه يمطل
لكن جنيت الفتح من شجر القنا ... وجنى الفتوح لمن عداك مؤمل
فلطالما استفتحت كل مُمَنَّع ... من دونه باب المطامع مُقْفَلُ
ومتى نزلت بمعقل متأشب ... فالعُصْمُ من شعفاته تستنزل
وإذا غزوت فإن سعدك ضامن ... أن لا تخيب وأن قصدك يكمل
فمن السعود أمام جيشك موكب ... ومن الملائك دون جندك جَحْفَلُ(٢)
وكتيبة أردفتها بكتيبة ... والخيل تمرح فى الحديد وترفل
من كل منحفز كلمعة بارق ... بالبدر يُسْرَجُ والأهلة ينعل
أوفى بهادٍ كالظليم وخلفه ... كَفَل كما ماج الكثيبُ الأهيل
حى إذا ملك الكمى عنانه ... يهوى كما يهوى بجو أجْدَلُ
حملت أسود كريهة يوم الوغى ... ما عابها إلا الوشيج الذُّبَّلُ
لبسوا الدروع غدائرا مصقولة ... والسمر قضب فوقها تتهدل
من كل معتدل القوام مُثَقَّفٍ ... لكنه دون الضريبة يعسل
أذكيت فيه شعلة من نصله ... يهدى بها إن ضل عنه المقتل
ولربَّ لماع الصقال مشهر ... ماض ، ولكن فعله مستقبل
رَقَّتْ مضاربه وراق فِرِنده ... فالحسن فيه مجمل ومفصل

---

(١) أوى إليه يأوى — بوزن رمى يرمى — لجأ ، والموئل : الملجأ

(٢) الجحفل — بزنة جعفر — الجيش الكثير العدد

فإذا الحروب تسعرت أجزالها ... ينساب فى يمناك منها جدول
و إذا دجا ليلُ القتام رأيته ... وكأنه فيه ذُبَال مشعل (١)
فأعجب لها من جذوة لا تنطفى ... فى أبحر زخرت وهن الأنمل
هى سـنة أحييتها وفريضة ... أديتهـا قرباتها تُتَقَبَّلُ
فإذا الملوك تفاخرت بجدودها ... فلأنت أحفى بالجهاد وأحفل
يا ابن الذين جمالهم ونوالهم ... شمس الضحى والعارض المتهلل (٢)
يا ابن الإمام ابن الإمام ابن الإما ... م ابن الإمام ، وقدرها لا يجهل
آباؤك الأنصار تلك شعارهم ... فلحيهم آوى النبى المرسل
فهم الألى نصروا الهدى بعزائم ... مصقولة وبصائر لا تخذل
ماذا يحبر شاعر فى مدحهم ... وبفضلهم أثنى الكتابُ المنزل
مولاى لا أحصى مآثرك التى ... بحديثها تُنْضَى المطىُّ الذلل
و إذا الحقائق ليس يدرك كنهها ... سيان فيها مكثر ومُقَلل
فإليك من شوّال غرة وجهه ... أهداكها يوم أغرُّ مُحَجل
عذراء راق العيد رونق حسنها ... فغدا بنظم حليهـا يتجمل
رضعت لبان العلم فى حجر النهى ... فوفَتْ لها منـه ضروع حُفَّلُ
سلك البيان بها سبيل إجادة ... لولا صفاتك كان عنها يعدل
جاءت تهنى العيد أيمن قادم ... وافى بشهر صيامه يتوسـل
وطوى الشهور مراحلا معدودة ... كيما يرى بفناء جودك يَنْزِل
وأتى وقد شف النحول هلاله ... ولشوقه للقاء وجهك ينحل
عقدت بمرقبه العيون مسرة ... فمكبر لطلوعـه ومهلل

---

(١) دجا : أظلم ، والقتام ـ بالفتح بزنة السحاب ـ الغبار الأسود ، ويقال « ارتفع القتام ، حتى خفيت الأعلام » ، والذبال ـ بالضم ـ جمع ذبالة ، وهو المصباح

(٢) العارض : السحاب المعترض فى الأفق ، ومتهلل ، هنا : ممطر

فاسلم لألف مثله فى غبطة ظل المنى من فوقه يتهدّل
فإذا بقيت لنا فكل سعادة فى الدين والدنيا بها تتكفل

وقال ابن الأحمر : ومن جياد أناشيده المتميزة بالسبقية ، و بارقات تهانيه فى المواسم العقيقية ، قولُه يهنئه ـ رضوان الله تعالى عليه ! ـ بطلوع مولانا الوالد قدس الله تعالى روحه :

لابن زمرك يهنئه

طلع الهلال وأفقه متهلل فمكبر لطلوعه ومُهَلِّل (١)
أوفى على وَجْهِ الصباح بغرة فغدا الصباح بنورها يتجمل
شمس الخلافة قد أمدَّتْ نوره و بسعدها يرجو التمام و يكمل
لله منه هلال سعد طالع لضيائه تعشو البدور الكمل
وألحت يا شمسَ الهداية كوكبا يُعْشِى سناه كل من يتأمل (٢)
والتاج تاج البدر فى أفق العلا مازال بالزُّهْرِ النجوم يكلل
ولئن حوى كل الجمال فإنه بالشهب أبهى ما يكون وأجمل
أطلعت يا بدر السماح هلالَه والملك أفق والخلافة منزل
يبدو بهالات السروج و إنه من نور وجهك فى العلا يستكمل
قلدت عطف الملك منه صارما بغَنَائه ومضائه يتمثل
حليته بحلى الكمال وجوهر الـ خلق النفيس وكل خلق يجمل
يغزو أمامك والسعود أمامه وملائك السبع العلا تتنزل
من مبلغ الأنصار منه بشأنه غرر البشائر بعدها تسترسل
أحيا جهادهم وجدد فخرهم بعد المئين فملكهم يتأثل
فبه إلى الأجر الجزيل توصلوا وبهم إلى رب السما يتوسل

---

(١) مكبر : قائل « الله أكبر » ومهلل : قائل « لا إله إلا الله »
(٢) وقع فى ب « يغشى » بالغين معجمه ـ تحريف ، وانظر ص ٧٠ السابقة

من مبلغ الأذواء من يمن وهم قد توّجوا وتملكوا وتقيلوا[(١)]
أن الخلافة من بنيهم أطلعت قمرا به سعد الخليقة يكمل
مَنْ مبلغ قحطان آساد الشرى ما غابُهَا إلا الوشيجُ الذبَّل[(٢)]
أن الخلافة وهو شبل ليوثهم قد حاط منها الدين ليث مُشْبِل[(٣)]
يهنى بنى الأنصار أن إمامهم قد بلغته سعوده ما يأمل
يهنى البنود فإنها ستظله وجناح جبريل الأمين يظلل
يهنى الجياد الصافنات فإنها بفتوحه تحت الفوارس تهدل
يهنى المَذَاكى والعوالى والظبا فبها إلى نيل المنى يتوصل
يهنى المعالى والمفاخر أنه فى مرتقى أوج العلا يتَوَقل
سبقت مقدمة الفتوح قدومه وأتاك وَهْوَ الوادع المتمهل
وبدت نجوم السعد قبل طلوعه تجلو المطامع قبله وتؤثل
وروت أحاديث الفتوح غرائبا والنصر يملى والبشائر تنقل
ألقت إليك به السعود زمامها فالسعد يمضى ما تقول وتفعل
فالفتح بين معجل ومؤجل ينسيك ماضيه الذى يستقبل
أو ليس فى شأن المشير دلالة أن المقاصد من طلابك تكمل
ناداهُمُ داعى الضلال فأقبلوا ودعاهم داعى المنون فجدلوا
عَصَوُا الرسول إباية وتحكمت فيهم سيوفك بعدها فاستمثلوا
كانوا جبالا قد عَلَتْ هضباتها نسفتهمُ ريح الجلاد فزلزلوا
كانوا بحارا من حديد زاخر أذكتهمُ نار الوغى فتبسَّلوا[(٤)]
ركبت أرجلها الأداهم كلما يتحركون إلى قيام تصهل

---

(١) تقيلوا : صاروا أقيالا ، والأقيال : جمع قيل ، وهو فى اليمن : من كان يلى الملك ، سمى بذلك لأنه يقول فلا يرد قوله ، وربما سموا الملك قيلا

(٢) أراد بالوشيج الذبل الرماح

(٣) مشبل : ذو أشبال ، والأشبال : جمع شبل – بالكسر – وهو ولد الأسد

(٤) كذا فى خ وفى ب «فتبتلوا»

كان الحـديد لباسهم وشعارهم ... واليوم لم تلبسه إلا الأرجـل[١]

الله أعطـاك التى لافوقهـا ... فتحـابه دِينُ الهـدى يتأثل

جدّدت للأنصـار حلى جهادها ... فالدين والدنيـا به تتجمـل

من يتحف البيت العتيق وزمزما ... والوفـد وفـد الله فيـه ينزل

متسابقين إلى مَثابة رحمة ... من كل ما حَدَب إليـه تنسل[٢]

هِيّا كأفواج القطا قد ساقها ... ظمأ شديد والمطاف المنهل

من كل مرفوع الأكف ضراعةً ... والقلب يخفق والمدامع تهمل

حتى إذا روت الحديث مسلسلا ... بيض الصوارم والرماح العُسَّلُ

من فتحك الأسنى عن الجيش الذى ... بثَبَاته أهل الوغى تتمثل

أهدتهمُ السراء نصرة دينهم ... واستبشروا بحـديثها وتهللوا

وتناقلوا عنك الحديث مسرة ... بسماعه واهتز ذاك المحفل

ودعَوْا بنصرك وهو أعظم مفخرا ... إن الحجيج بنصر ملـكك يحفل

فاُهنأ بملـكك واعتمد شكرا به ... لطف الإله وصُنْعُهُ تتخوّل

شرفت منه باسم والدك الرضا ... يحيى به منه الـكريم المفضل

أبديت من حسن الصنيع عجائبا ... تروى على مر الزمان وتُنْقَلُ

خفقت به أعلامك الحمر التى ... بخفوقها النصر العزيز موكل

هَدَرَتْ طبول العز تحت ظلالها ... عنوان فتح إثرها يستعجل

ودعوت أشراف البلاد وكلهم ... يثنى الجميل وصنع جودك أجمل

وردوا ورودَ الهِيم أجهدها الظما ... فصَفَاً لهم من وِرْد كفك مَنْهَلُ

وأثرت فيه للطراد فوارسا ... مثل الشموس وجوههم تتهلل

---

(١) يريد بقوله « لم تلبسه إلا الأرجل » أنه صار قيودا لهم

(٢) المثابة : المـكان الذى يثوب الناس إليه : أى يرجعون ، ومن كل حدب : أى من كل صوب وناحية ، وهذه العبارة من قولهم تعالى: (وهم من كل حدب ينسلون)

من كل وضاح الجبين كأنه … نجم وجنح النقع ليل مسبل[1]
يرد الطراد على أغر محجل … فى سرجه بطل أغر محجل
قد عوّدوا قنص الكماة كأنما … عقبانها ينقضّ منها أجدلُ
يستتبعون هوادجا مَوْشية … من كل بدع فوق ما يتخيل
قد صوّرت منها غرائب جمة … تنسى عقول الناظرين وتذهل
وتضمنت جَزْلَ الوفود حمولها … والنصر فى التحقيق ما هى تحمل
والعاديات إذا تلت فرسانها … آى القتال صفوفها تترتل
لله خيلك ؛ إنها لسوابح … بحر القتام وموجه متهيل
من كل برق بالثُّريا مُلْجَم … بالبدر يسرج والأهلة ينعل
أو فى بهادٍ كالظليم وخلفه … كفل كما لاح الكثيب الأهيل
هُنَّ البوارق غير أن جيادها … عن سبق خيلك يا مؤيد تنكَلُ
من أشهب كالصبح يعلو سرجه … صبح به نجم الضلالة يأفل
أو أدهم كالليل قلد شهبه … خاض الصباح فأثبتته الأرجل
أو أشقر صال النضارُ بعطفه … وكساه صِبْغَةَ بهجة لا تنصل
أو أحمر كالجمر أضمر بأسه … بالركض فى يوم الحفيظة يشعل
كالخمر أترع كأسها لندامها … وبها حبابة غرة تتسيل
أو أصفر لبس العشىَّ مُلاءة … وبذيله لليل ذيل مُسْبَلُ
أجملت فى هذا الصنيع عوائدا … الجود فيها مجمل ومفصل
أنشأت فيها من نداك غمائما … بالفضل تنشأ والسماحة تهمل
فجرت من كفيك عشرة أبحر … ترجى سحاب الجود وهى الأنمل

(١) جنح الليل — بالكسر والضم — القطعة منه ، وأراد هنا الظلام ، والنقع — بالفتح — الغبار ، والإضافه من إضافة المشبه به إلى المشبه : أى الغبار الثائر فوق الرءوس الذى يشبه الظلام ، ومسبل : اسم الفاعل من « أسبل إزاره ونحوه » إذا أرخاه فتغطى به

من قاس كفك بالغمام فإنه ... جَهِلَ القيـاس ومثلها لا يجهل(١)
تسخو الغمامُ ووجهها متجهم ... والوجه منـه مع النـدى يتهلَّلُ
والسحب تسمح بالمياه وجـوده ... ذهب به أهل الغنى تتموّل
من قاس بالشمس المنيرة وَجْهَه ... ألفيته فى حـكمه لا يعـدل
من أين للشمس المنـيرة منطق ... ببيـانه در الـكلام يفصـل
من أين للشمس المنيرة راحـة ... تسخو إذا بخل الزمان الممحل
مَنْ قاس بالبـدر المنير كماله ... فالبـدر ينقص والخليفة يكمل
من أين للبـــدر المنير شمائل ... تسرى برَيّاها الصبا والشمأل
من أين للبدر المنير مناقب ... بجهادها تُنْضَى المطىّ الذُّلل
يا من إذا نفحت نواسم حمده ... فالمسك يعبق طيبهُ والمنـدل
يامن إذا لمحت محاسن وجهـه ... تعشو العيون ويبهر المتأمل
يا من إذا تليت مفاخـر قومه ... آى الـكتاب بذكرها تتنزل
كفل الخلافة منك يا ملك العلا ... والله جل جـلاله بك أكفل
مأمونها وأمينها ورشـيدها ... منصورها مهديهـا المتـوكل
حسب الخلافة أن تكون وليها ... ومجيرها من كل من يتخيل
حسب الزمان بأن تكون إمامه ... فله بذلك عزة لا تهـمـل
حسب الملوك بأن تكون عميدَهَا ... ترجوالندى من راحتيك وتكمل
حسب المعالى أن تكون إمامها ... فعليك أطناب المفاخر تسدل
ياحجـة الله التى برهانهـا ... عز المحق به وذل المبطل
أنت الإمام ابن الإمام ابن الإما ... م ابن الإمام وفخرها لا يعـدل

---

(١) هذا من قول شاعر اليتيمة :

ما نوال السماء يوم سحاب ... كنوال الأمير يوم عطاء
فنوال الأمير بدرة مال ... ونوال السحاب قطرة ماء

علمت حتى لم تدع من جاهل | أعطيت حتى لم تدع من يسأل
وعناية الله اشتملت رداءها | وعلقت منها عروة لا تفصل

ومنها :

أخذت قلوبَ الكافرين مهابةٌ | فعقولهم من خوفها لا تعقل
حسبوا البروق صَوارما مسلولة | أرواحهم من بأسها تتسلل
وترى النجوم مناصلا مرهوبة | فيفر منها الخائف المتنصل
يا ابن الألى إجمالهم وجمالهم | شمس الضحى والعارض المتهلل
مولاى لا أحصى مآثرك التى | بجهادها يتوصَّلُ المتوسل
أصبحت فى ظل امتداحك ساجعا | طلُّ المنى من فوقه يتهدل
طوقته طوق الحمائم أنعما | فغدا بشكرك فى المحافل يهدل
فإليك من صَوْغ العقول عقيلةً | أهداكها صَنَعٌ أغر محجل
عذراء راق الصنع رونقَ حسنها | فغدا بنظم حليها يتكلل
خيرتها بين المنى فوجدتها | أقصى مناها أنها تتقبل
لا زلت شمسا فى سماء خلافة | وهلالك الأسمى يتم ويكمل

قال : ومن رقيق منازعه فى بعض نُزَه مولانا رضوان الله عليه بالقصر السلطانى فى شينيل قوله :

لابن زمرك يصف نزهة

نفسى الفداء لشادن مهما خَطَرْ | فالقلب من سهم الجفون على خَطَرْ (١)
فضح الغزالة والأقاحة والقنا | مهما تثنَّى أو تبسم أو نظر (٢)
عجبا لليل ذوائب من شَعْرِه | والوجه يسفر عن صباح قد سفر
عجبا لعِقْدِ الثغر منه منظما | والعقد من دمعى عليه قد انتثر

---

(١) خطر في الشطر الأول بمعنى مشى ، والخطر فى قافية البيت الإشراف على الهلكة

(٢) فى هذا البيت لف ونشر ، فقوله « مهما تثنى » راجع إلى القنا ، وقوله « تبسم » راجع إلى الأقاحة ، وقوله « أو نظر » راجع إلى الغزالة ، وفيه تشبيه ضمنى لعينه بعين الظباء ، ولقده بالرماح ، ولثغره بالاقاح

ما رمْتُ أن أجنى الأقاح بثغره إلا وقد سل السيوف من الحْوَرْ(١)
لم أنسه ليل ارتقاب هلاله والقلب من شك الظهور على غَرَرْ(٢)
بتنا نراقبه بأوّل ليلة فإذا به قد لاح من نصف الشهر
طالعتُه فى روضة كخلاله والطيب من هذى وتلك قد اشتهر
وكلاهما يبدى محاسن جمة ملء التنسم والمسامع والبصر
والكأس تطلع شمسها فى خده فتكاد تُعْشِى بالأشعة والنظر
نورية كجبينه ، وكلاهما يجلو ظلام الليل بالوجه الأغر
هى نسخة للشيخ فيها نسبة ما إن يزالا يرعشان من الكبر
أفرغت فى جسم الزجاجة روحها فرأيت روح الأنس منها قد بهر
لا تسق غير الروض فَضْلة كأسها فالغصن فى ذيل الأزاهر قد عَثَرْ
ما هب خفاق النسيم مع السحر إلا وقد شاق النفوس وقد سحر
ناجى القلوب الخافقات لمثله ووَشَى بما تُخفى الكمام من الزهر
وروى عن الضحاك عن زهر الربا ما أسند الزهرى عنه عن مَطَرْ
وتحملت عنه حديث صحيحه رسل النسيم وصدق الخْبر الخَبَرْ
يا قصر شينيل ور بْعُكَ آهل والروض منك على الجمال قد اقتصر
لله بحرك والصَّبا قد سَرَّدت منه دروعا تحت أعلام الشجر
والآس ُحَفَّ عِذاره من حوله عن كل من يهوى العذار قد اعتذر
قبل بثغر الزهر كفَّ خايفة يغنيك صَوْبُ الجود منه عن المطر
وافرش خدود الورد تحت نعاله واجعل بها لون المُضَاعف عن خَفَرْ
وانظم غناء الطير فيه مدائحا وانثر من الزهر الدراهم والدرر

(١) رمت : طلبت ، وأجنى : أقطف ، والأقاحى: زهر تشبه به ثغور الحسان ، والحور ــ بالتحريك ــ شدة بياض بياض العين مع شدة سواد سوادها
(٢) الغرر ــ بالتحريك ــ التعرض للهلاك

المنتقى من جوهر الشرف الذى في مدحه قد أنزِلت آىُ السور
والمجتبى من عنصر النور الذى في مطلع الهَدْى المقدس قد ظهر
ذو سطوة مهما كفى ، ذو رحمة مهما عفا ، ذو عفة مهما قدر
كم سائل للدهر أقسم قائلا : والله ما أيامه إلاّ غرر
مولاى سعدك كالمهند فى الوَغَى لم يبق من رسم الضلال ولم يَذَرْ
مولاى وجهك والصباح تَشَابها وكلاهما فى الخافقين قد اشتهر
إن الملوك كواكب أخفيتها وطلعت وحدك فى مظاهرها قمر(١)
فى كل يوم من زمانك موسم فى طيه للخلق أغناء كبر
فاستقبل الأيام يندى روضها ويرفُّ والنصر العزيز له ثمر
قد ذهبت منها العشايا ضعف ما قد فضضت منها المحاسن فى السحر
يا ابن الذين إذا تعدّ خلالهم نَفِدَ الحساب وأعجزت منها القدر
إن أوردوا هِيمَ السيوف غدائرا مصقولة فلطالما حمدوا الصدر(٢)
سائل ببدر عنهم بدر الهدى فبهم على حزب الضلال قد انتصر
واسأل مواقفهم بكل مشهر واقر المغازى فى الصحيح وفى السير
تجد الثناء ببأسهم وبجودهم فى مصحف الوحى المنزل مستطر
فبمثل هديك فلتنر شمس الضحى وبمثل قومك فليفاخر من فخر
ماذا أقول وكل وصف معجز والقول فيك مع الإطالة مختصر
تلك المناقب كالثواقب فى العلا من رامها بالحَصْرِ أدركه الحَصَرْ
إن غاب عبدك عن حماك فإنه بالقلب فى تلك المشاهد قد حضر
فاذكر فإن الذكر منك سعادة وبها على كل الأنام قد افتخر

(١) أصل هذا المعنى قول النابغة الذبيانى يمدح النعمان بن المنذر :
فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب
(٢) الهيم : جمع أهيم ، وهو الشديد العطش .

ورضاك عنه غاية ما بعدها إلا رضا الله الذى ابتدع البشر
فاشكر صنيع الله فيك فإنه سبحانه ضمن المزيد لمن شكر
وعليك من رَوْحِ الإله تحية تهفو إليك مع الأصائل والبُكَر

لابن زمرك فى الشكر

ثم قال : وفى أغراضه الوقتية استرسالا مع الطبع البديهى فى الشكر عن ضروب من التحف التى يقتضيها التحفِّى السلطانى بأولياء خدمته نبذ متعددة فيما يظهر فيها ، فمنها قوله :

يا خير من ملك الملوك بجوده وبفضله قد أشبه الأملاكا[1]
والله ما عرف الزمان وأهله أمنا ويُمْنًا دائما لولاكا
وافيت أهلى بالرياض عشية فى روض جاهك تحت ظل ذَرَاكا
فوجدته قد طَلَّه صوبُ الندى بسحائب تنهلّ من يمناكا
وسفائن مشحونة ألقى بها بحر السماح يجيش من نعماكا
رطب من الطلع النضيد كأنها قد نظمت من حسنها أسلاكا
من كل ما كان النبى يحبها وأحَبَّها الأنصار من أولاكا
وبدائع التُّحَفِ التى قد أطلعت مثل البدور أنارت الأحلاكا[2]
نُطَفٌ من النور المبين تجسمت حتى حسبنا أنهنّ هُدَاكا
يحلو على الأفواه طيبُ مذاقها لولا التجسد خلتهن ثناكا
طافت بها النَّشَأ الصغار كأنها سِرْبُ القطا لما وردن نداكا
نجواهُمُ مهما سمعت كلامهم ونداؤهم : مولاى ، أو مولاكا
بلغت فى الأبناء عبدك سؤله لا زلت تبلغ فى بنيك مُنَاكا
يتدارسون من الدعاء صحائفا كيما يطيل الله فى بقياكا

---

(١) الأملاك هنا : جمع ملك — بالتحريك — وهم الملائكة

(٢) الأحلاك : جمع حلك — بالتحريك — وهو الظلام الشديد

فبقيت شمسا فى سماء خلافة وهُمُ البدور أمدّهن سنا كا

ومنها وقد أهداه نعمة الله أطباقا من حَبِّ الملوك :

كتب الإلٰهِ على العباد محبة لك كان فرضُ كتابها موقوتا

وأنا الذى شرفته من بينهم حتى جعلت له المحبة قوتا

ما زلت تتحفه بكل ذخيرة حتى لقد أتحفته الياقوتا

وإلى الملوك قد اعْتَزَى مِنْ عزه فغدا له يا قوتها ممقوتا

ومنها فى مثل ذلك :

يا خير من ملك الملوك أهديتنى حَبَّ الملوك

فكأنَّما ياقوتُهَا نظمت لنا نظم السلوك

إن الملوك إذا جَوْا فغياثهم أن أمّلوك

وكذا العُفَاة إذا شَكَوْا فغناهم أن يسألوك

فالله يقبل من دعا لعلاك من أهل السلوك

لا زلت تطلع غرّة كالشمس فى وقت الدلوك

ومنها ، وقد أهداه صيدا مماصاده أولاده :

يا خير من ورث السماح عن الألى نصروا الألى وتبوّؤا الإيمانا

فى كل يوم منك تحفة منعم وَالَى الجميل وأجزل الإحسانا

قد أذكرت دار النعيم عبيده وتضمنت من فضله رضوانا

تهدى مَوَالِيَّ الذين تفرّعوا عن دَوْح فخرك فى العلا أغصانا[1]

لجلالك الأعلى قنيصا أتعبوا فى صيده الأرواح والأبدانا

فتخصُّنِى منه بأوفر قسمة فسحت لعبدك فى الرضا ميدانا

(١) وقع فى ب « تهدى من ... الذين » بنقص كلمة ، وقال مصححها « لعله تهدى سلالتك الذين تفرعوا » وأثبتنا مافى خ ، وهو أيضا مما يلتئم مع البيت السابع من هذه القطعة فى ألفاظه .

لله من مولى كريم بالذى تهدى الموالى يتحف العبدانا(١)
تدعو بنىّ إلى الغنى بربه يا ربنا أغن الذى أغنانا
وعليك من قدس الإله تحية تهديك منه الرَّوْحَ والريحانا

ومنها، وقد أهداه أصنافا من الفواكه :

يا من له الوجه الجميل إذا بدا فاقت محاسنه البدورَ كمالا
والمنتقى من جوهر الفخر الذى فات الخلائف عزة وجلالا
ما أبصرت عيناى مثل هدية أبدت لنا صنع الإله تعالى
فيها من التفاح كلُّ عجيبة تذكى بريَّاها صَبًا وشمالا(٢)
يهدى لنا نهد الحبيب وخده وترى من الوردِ الجنىِّ مثالا
وبها من الأترجِّ شمسٌ أطلعت من كل شطر للعيون هلالا
ويحفها ورق يروق كأنه ورق النضار وقد أجاد نِبالاَ
لون العشية ذهبت صفحاتها رقت وراقت بهجة وجمالا
وبها من النقْل الشهى مذكر عهداً تولى ليته يتوالى
لله منها حضرة من حضرة تغنى العُفَاة وتُحْسِبُ الآمالا
أذكرتنى العهد القديم ومعهدا كانت شموسُ الراح فيه تَلاَلاَ
فأردت تجديد العهود وإنما كتب المشيب على عذارى لالا
فأدرت من ذكراك كأس مدامة وشربت من حبى لها جِرْيَالاَ
فبقيتَ شمسا فى سماء خلافة لا يستطيع لها الزمان زوالا

ومنها يوم عاشوراء :

يا أيها المولى الذى بركاتُهُ رفعت لواء للندى منشورا

(١) العبدان : أحد جموع عبد ، مثل العبيد

(٢) تذكيها : تطيب رائحتها ، والريا : الرائحة العبقة

لك راحة تزجى الغمام بأمل ... فَجَّرْتَ منها بالنوال بحورا[١]

واليوم موسم قربة وعبادة ... وغدا ظفرت بأجره عاشورا

راعيت فيه سنة نبوية ... تروى الثقات حديثه المشهورا

لا زلت عامك كله فى غبطة ... لقيت منها نَضْرة وسرورا

ومنها فى بعض قطعة :

واليت ما أوليت يا بحر الندى ... ووحق جودك ما رأيت كهٰذِهِ

فإذا يهز لها اللسان حسامه ... فصفات فخرك قد قضت بنفاذه

عَلَّمت فرسان الكلام نظامها ... كتعلم التلميذ من أستاذه

والبحر تمتار السحائب ماءه ... فتجوده من غيثها برَذَاذِهِ[٢]

ومنها وقد أهداه با كورا :

يا وارث الأنصار وَهْى مزية ... بفخارها أثنى الكتاب المنزل

أهديتنى الباكور وَهْى بشارة ... ببواكر الفتح الذى يُسْتَقْبل

وولادة لهلال تم طالع ... وجه الزمان بوجهه يتهلل

هو أوّل الأنوار فى أفق الهدى ... وترى الأهلة بعده تسترسل

مولاى صِدْقُ الفال قد جربته ... من لفظ عبدك والعواقبُ أجملُ

ومنها فى جفنة :

طعامك من دار النعيم بعثته ... فشرفته من حيث أدرى ولا أدرى

بهَضْبة نعمى قد سمونا لأوْجِهَا ... فصدنا بأعلاها الشهىَّ من الطير

وقوراء قد دُرْنَا بهالة بدرها ... كما دارت الزهر النجوم على البدر

وقد حملت فوق الرؤس لأنها ... هدية مولى حل فى مفرق الفخر

---

(١) الراحة ، هنا : اليد ، وتزجى الغمام : تسوقه

(٢) هذا المعنى من قول أبى تمام :

كالبحر تمطره السحاب ، ومالها ... فضل عليه لأنها من مائه

فما شئت من طعم زكى مُهنإٍ وماشئت من عَرْف ذكى ومن نَشْر[1]

فلو أنها قد قدمت لخليفة لأعظمها قدراً و بالغ فى الشكر

وكم لك من نعمى على عميمة يقل لأدناها الجميلُ من الذكر

فلا زلت يا مولى الملوك مبلَّغًا أمانى ترجوها إلى سالف الدهر

ومنها شكرا عن كتاب :

مولاى يومُ الجُمُعَهْ سعوده مجتمعه

فانْعَمْ صباحا واغتنم أوقاته المجتمعه

وابشر بصنع عاجل أعلامُه مرتفعه

وانتظر الفتح الذى يأتيك بالنصر معه

و بيضه وسمره إلى العداة مُشْرَعه[2]

واللطف مرجو فردْ بفضل ربى مَشْرَعَهْ[3]

فاتحتنى شرفتنى برقعة مرفعه

بل روضة ممطورة أزهارها منوّعه

حديقة قد جُدْتَهَا بصوب جود مُتْرَعَهْ

وراية منشورة وآية مستبدعه

كم حِكَمٍ لطيفة فى طيها مستودعه

عقيلة صورتها من الجمال مبدَعه

سقيتنى من فضلها بفضل كاس مُتْرَعَهْ

فدم وأملاك الورى على علاك مجمعه

(١) العرف ، والنشر — بالفتح فيهما — طيب الرائحة ، والذكى : العبق الذائع الريح

(٢) البيض: السيوف ، والسمر: الرماح ، ومشرعة : موجهة نحو صدور الأعداء ، اسم مفعول من «أشرع الرمح يشرعه» (٣) المشرع — بزنة المقعد — موضع ورود الماء

ومنها شكرا على خِلْعَه :

يا بدر تم فى سماء خلافة حفت نجوم السعد هالة قصره [١]

ألبست عبدك من ثيابك ملبسا قد قصرت عنه مَدَارِكُ شكره

ورضاك عنه خيرُ ما ألبسته فلقد أشاد بجاهه و ببره

ألبستنى أركبتنى شرفتنى أهديتنى مالا أقوم بحصره

نظرى لوجهك وَهوَ أجمل نير يزرى على شمس الزمان و بدره [٢]

أعلى وأعظم منـــة لا سيما وأنا المنعَّم فى الحضور ببشره

لا زلت مولًى الملوك مؤملا وحلاك للاسلام مفخر دهره

ومنها ، وقد خلع ـ رضوان الله تعالى عليه ـ على رسول من أرساله :

أبحر سماح مَدَّ عشرة أبحر تفيض غمام الجود وَهْىَ الأنامل

بكفك غيث للبلاد وأهلها يروّض مَحْلَ الأرض والعام ماحل [٣]

لك إن أصبحت بحر سماحة يعم نداه فالمواهبُ ساحل

خلعت على هذا الرسول ملابسا بها تَتَسَنَّى فى علاك المآمل

و بلغته آماله كيف شاءها فبلغْتَ يا مولاى ما أنت آمل

ومنها ، وقد مرض بعضُ أبنائه رحمة الله تعالى على الجميع ، قولُه سائلا عن حاله :

أسائل بدر التم كيف هلاله وأدعو له الرحمن جل جلاله

وأسأله تعجيلَ راحته التى وسِيلَتُنَا فيها النبى وآله

ستبلغ فيه ما تؤمل من منى و يرضيك يا بدر الكمال كماله

وفى مثله :

أقول لبدر التم كيف هلالكا نعمت صباحا بالسعود وآلكا

---

(١) حفته ، وحفت به : أحاطت ، والهالة : دارة القمر

(٢) يزرى : يعيب ، وينتقص

(٣) المحل : الجدب والقحط

وبُلِّغْتَ في النجل الكريم سعادة   تقر بها عَيْنًا وينعم بالكا
وخصصت بالبشرى من الله ربنا   كما عَمَّ أقطار البلادِ نَوالُكا

ومن التورية باسم قائد ولاه على جماعة من الجند :

يا أيها المولى الذى أيامه   تهمى بسحب الجود من آلائه(١)
أبشر لجيشك بالسعادة كلما   يغزو ونَصْرُ الله تحت لوائه

وأنشده فى ملبس اتخذه :

أمولاى يا ابن السابقين إلى العلا   ومَنْ نَصَروا الدين الحنيفى أولا
غنيت بنور الله عن كل زينة   وألبست من رضوانه أشرفَ الحُلَى
وقارك زاد الملك عزا وهيبة   وسَوَّغه من رحمة الله منهلا
ويا شمس هَذْى فى سماء خلافة   وأبناؤه الزهر المنيرة تجتلى
تبارك مَنْ أبداك فى كل مظهر   جميلا جليلا مستعاذاً مؤملا
فتخجل منك الشمس شمس هداية   ويحسد منك البدر بدراً مكملا
إذا أنت ألبست الزمان وأهله   ملابس عز ليس يدركها البلى
وطوّقت أجياد الملوك أياديا   وتوّجتهم بالفخر تاجا مكللا
فما شئت فالبس فى المشاهد كلها   تبارك ما أبهى وأسنى وأجملا
ألا كل من صَلَّى وضحى ومن دعا   ومد يديه ضارعا متوسلا
وجودك شرط فى حصول قبوله   وجودك أثرى كفه فتنفلا(٢)

وقال برسم ما يرسم على ثوب فى بعض هدايا مولانا رحمه الله تعالى للسلطان أبى العباس :

أهدى أبا العباس   ملك النَّدَى والباس
ثوب السماء لأنه   بدر بدا للناس

---

(١) همى المطر يهمى — مثال رمى يرمى — انهل وانسكب ، والآلاء : النعم
(٢) تنفل هنا : أعطى النافلة ، وهي هنا ما زاد عن حاجته

فلق الصباح بوجهه عـوّذته بالنـاس (١)
يكسو إماما لم يزل بحُلى المحامد كاسى
فيـاله من مرتد ثوبَ التقى لبَّـاسِ
أذياله من حمـده مسكية الأنفاس
وبطرزه مدح زرَى بالمدح فى القرطاس
إن كنت فى لون السما ء بنسـبة وقيـاس
فلأنت يا بدر العلا شرفتـنى بلبـاس
أنا منشد (ما فى وقو فك ساعةً من باس) (٢)
لترى رياضا أطلعت زهرا على أجناس
أوراقهـا توريقهـا بقضيبهـا الميَّاسِ
ومن المديح مدامتى ومن المحابر كاسى
فالله يمتع لابسى بالبشر والإينـاس

وقال فى مثل ذلك :

إن الإمام محمدا أهدى الخليفة أحمدا
للباسـه ثوبا ، وقد لبس المحامد وارتدى
وعمامة الشفق التى من فوقها شمس الهدى
يا حسنها إذ أرسلت من كفه غيث الندى
وكأن وَشْىَ رقومها بالبرق طرز عسجدا
وبطرزه لون السما ء ووجهه قمـر بدا
لله منـــه نير حـل المنازل أسعدا

---

(١) بالناس : أراد بسورة الناس

(٢) مابين المعقوفين صدر مطلع قصيدة لأبى تمام ، وعجزه قوله:

* نقضى ذمام الأربع الأدراس *

مستنصر أعلى له فوق المنازل أسْعُدَا

ثم قال : وأنشده وهو على جواد أدهم :

تَجَلَّى لنا المولى الإمام محمد على أدهم قد راق حسن أديمه
فأبصرتُ صبحا فوق ليل وقد حكى مقلد ذاك الطرف بعض نجومه

وكتب له مع هدية زَهْر :

أمولاى تقبيلى ليمناك شاقنى ولا ينكر الظمآن شوقا إلى البحر
ولما رأيت الدهر ماطَلَنِى بها وشوّقنى من حيث أدرى ولا أدرى
بعثْتُ لك الزهر الجنىَّ لعله يقبلها عنى ثغور من الزهر

وكتب إليه أيضاً متشوّقا :

كتبتُ ودمعى بلل الركب قطره وأجرى به بين الخيام السواقيا
حنيناً لمولى أتْلَفَ المالَ جودُه ولكنه قد خلد الفخر باقيا
وما عشت بعد البين إلا لأننى أرجِّى بفضل الله منه التلاقيا

وأنشده أيضاً وهو بحال تألم :

كأنى بلطف الله قد عم خلقه وعافى إمام المسلمين وقد شفا
وقاضى القضاء الحتم سَجَّل ختمه وخَطَّ على رسم الشفاء له «اكتفى»

وله فى مثل ذلك :

لك الخير يا مولاى أبشر بعصمة عَقَدْتَ مع الأيام فى حفظها صُلْحَا[١]
وعافية فى صحة مستجَدَّة تجدد للدين السعادة والنُّجْحَا
ووجه التهانى مُشْرق متهلل وجوّ التهانى بعد ماغام قد أضحى

---

(١) العصمة — بالكسر — المنع ، وهى فى اصطلاح أهل الكلام : ملكة اجتناب المعاصى مع التمكن منها

وفى مثل ذلك :

يا إماما قد تخذنا ... ه من الدهر مَلاَذَا
خَطُّ يمناك ينادى ... صح هذا صح هذا

وقال مهنئا بالشفاء :

الحمد لله بَلَغنَا المنى ... لما رأيناك ، وزال العنَا
وفُزْتَ بالأجرو كَبْتِ العدا ... وفزت بالعز وطيب الثنا[1]
فالحمد لله على مابه ... منّ علينا من ظهور السنا

وقال أيضاً فى نحوه :

نعم قرّتِ العينان وانشرح الصدر ... وقد لاح من وجه الإمام لنا البدر
سرينا بليل التيه يكذب فجره ... فلما تجلَّى فجره صدق الفجر
أغر المحيا بالحياء مُقَنع ... زهاه الكلام الحر والنسب الحر
إمام الهدى قد خصه بخلافة ... إلٰه له فى خلقه النهى والأمر

وقال فى مثله ، وقد ركب رحمه الله تعالى لمعاهد حضرته :

هنيئا هنيئا لانفَادَ لعَدِّهِ ... و بشرى لدين الله إنجاز وعده
فقد لاح بدر التم فى أُفق العلا ... وحل كما يرضى منازلَ سعده
وطاف أميرُ المسلمين محمد ... بحضرته العَلْيا مبلَّغ قصده
ولاحت بها الأنوار من بشر وجهه ... وفاح بها النوّار من نَشْر حمده
وأبصرت الأبصار شمس هداية ... وأشرقت الأرجاء من زهر رِفْدِهِ
ولوّحت الأعلام فيها بنصره ... كما لوّح الصبح المنير ببنده
ستهدى له الأيام كل مسرة ... ويحيى به الرحمن آثار جده

---

(١) كبت أعداءه يكبتهم — من باب ضرب يضرب — أخزاهم وصرعهم وأذلهم وأهانهم وردهم بغيظهم

فَسُلَّ حسام السعد واضرب به العدا وخَل حسام الهند فى كنز غمده
فسيفُكَ سيف الله مهما سللته يقيم حدود الله قائم حده

وقال ، وقد عاد رحمه الله تعالى من بعض متوجهاته الجهادية لجبل الشوار :

على الطائر الميمون والطالع السَّعْدِ قدمت مع الصنع الجميل على وعد
وقد عُدْتَ من جبل الشوار لتجتلى عقائل للفتح المبين بلاعد

وقال مما رسم فى طيقان الأبواب بالمبانى السعيدة التى ابتناها رحمه الله تعالى :

أنا تاج كهلال أنا كرسىٌّ جمالِ
يَنْجَلِي الإبريق فيه كعَرُوس ذى اختيال
جود مولانا ابن نصر قد حبانى بالكمال(١)

وفى مثله :

من رأى التاج الرفيعا قد حوى الشكر البديعا
تحسد الأفلاك منه قوسه السهل المنيعا
دمت رَبْعًا للتهانى أنظم الشمل الجميعا

وفيه :

للغَنِي بالله قصر للتهانى يصطفيه
فيه محراب صلاة يقفُ الإبريق فيه
تاليًا سورة حسن والمعالى تقتفيه

وفيه :

أى قوس ذى جمال سهمه سهم السعاده
ملك الإبريق فيه عوّد الإحسان عاده

---

(١) حبانى : منحنى وأعطانى

ذو صلاة من صلاتٍ كلها دأبا معاده

وقال فى المعنى مما كتب به لعمنا الأمير « سعد » رحمة الله تعالى عليه :

انظر لأفق جمال به الأباريق تَصْعَدْ

حُسْنٌ بديع حَبَاه به الأمير الممجد

فخر الإمارة سعد به الخليفة يسعد

وكيف لا وأبوه فخر الملوك محمد ؟

عليه حَلْىُ رضاه فى كل يوم يُجَدَّدْ

وقال فيه أيضاً :

رفعت قوس سمائى يُزْهَى بتاج الهلال (١)

قد قلدته نقوشى دُرَّ الدرارى العوالى

ترى الأباريق فيه تهديك عذب الزلال

قد زان قَصْرى سعد بسعده المتوالى

فدام يعمر رَبْعِى فى كَلْءِ مولى الموالى (٢)

وفى الغرض :

ما ترى فى الرياض أشباهى يسحر العقل حسنى الزاهى

زان روضى أميره سعد وهو نجل الغنىِّ بالله

دام منه بمرتقى عز آمر بالسعود أو ناهى

وقال فى غرض الشكر عن مغطى صنهاجى أهداه إياه :

لمن قبة حمراء مُدَّ نُضارها تَطَابَقَ منها أرضها وسماؤها

وما أرضها إلا خزائن رحمة وما قد سما من فوق ذاك غطاؤها

---

(١) يزهى : يتكبر ويتيه ، وهو من الأفعال الملازمة للبناء للمجهول فى أكثر استعماله

(٢) الكلء — بالفتح — مصدر كلأه أى حفظه ورعاه

وقد شبه الرحمن خلقتنا به وحسبك فخرا بَانَ منه اعتلاؤها
ومعروشة الأرجاء معروشة بها صنوف من النعماء منها وطاؤها
ترى الطير فى أجوافها قد تصففت على نِعَم عند الإله كفاؤها
ونسبتها صنهاجة غير أنها تُقَصِّر عما قد حوى خلفاؤها
حبتْنى بها دون العبيد خلافة على الله فى يوم الجزاء جزاؤها

وفى مثله :

ما للعوالم جمعت فى قبة قد شادها كرم الإمام محمد
ما إن رأيتُ ولا سمعت كطائر عن ثوب مَوْشِيِّ الرياش مجرد
إن لم تكن تلك الطيور تغردت فلشكر هذا العبد سجعُ مغردِ
صُفَّتْ عليها للفواكه كل ما قد عاهدته بدوحها المتعوّد
لو شاهدت صنهاجة أوضاعه دانت له أملاكها بتعبُّدِ
عوّدتنى الصنع الجميل تفضلا لازلت خير معوّذ ومعوّد
و بسورة الأنعام كم من آية فيها لقارٍ بالنوال مُجَوِّد

وقال تذييلا لبيتى ابن المعتز :

سقتنِىَ فى ليل شبيه بشعرها شبيهَةَ خديها بغير رقيب(١)
فأمسيت فى ليلين للشَّعْر والدجى وشمسين من خمر وخد حبيب
إلى أن بدا الصبح المبين كأنه مُحَيا ابن نصر لم يُشَنْ بغروب(٢)
شمائله مهما أديرت كؤوسها قلائد أسماع وأنس قلوب

وقال مذيلا على بيت ابن وكيع :

هى فى أوجه الندامى عقيق وهى مثل النضار فى الأقداح

---

(١) شبيهة خديها : أراد الخمر الضاربة إلى الحمرة كخديها ، وهو مفعول ثانى لسقتنى
(٢) لم يشن — بالبناء للمجهول — لم يصبه شين وهو القبيح

كابن نصر تراه فى الحرب ليثا　　وهو بدر الندى وغيث السماح[1]
ذكره قد ثنى قُدُودَ الندامى　　وأعاد الحياة فى الأرواح

وقال مما يرسم للغنى بالله :

للغنى بالله ملك　　بُرْده بالعز مُذْهَبْ
دام فى رفعة شان　　ماجَلاَ الإصباحُ غَيْهَبْ[2]

وقال أيضا :

يا ابن نصر لك ملك　　ليس تعدوه الفتوح
دمت رُوحًا المعالى　　ماسرى فى الجسم روح

ومن مقطوعاته :

وابن نصر له محيا كصبح　　إن تجلى جَلاَ لَنَا كل كرب
ذو حسام كأنَّهُ لمعُ برقٍ　　فى بنان كأنها غيثُ سُحْبِ

ومن أخرى :

وكأن النجوم فى غَسَقِ الليــل جُمَانٌ يلوح فى آبنوس
وكأن الصباح فى الأفق يجلى　　بحــلى النجوم مثل العروس
وكأن الرياض تهــدى ثناء　　لغنى بالله فوق الطــروس

وقال من قصيدة أولها :

أضياء هَدْى أم ضــياء نهار　　وشذا المحامد أم شــذا الأزهار
قَسَماً بهديك فى الضياء ، وإنه　　شمس تمد الشهب بالأنوار

ومنها :

كم من لطائف للهُدَى أوضحتها　　خفيت لطائفها على الأفكار

---

(١) الليث : الأسد ، والسماح : الجود والعطاء

(٢) الغيهب ــ كجعفر ــ أراد به الظلام

كم من جرائمَ قد غفرت عظيمها مستنزلا من رحمة الغفار
علمت ملوك الأرض أنك فخرها فتسابقت لرضاك فى مضمار

ومنها يصف الجيش :

سالَتْ به تحت العَجَاج سفينة نفحت بريح العز من أنصار
أرْسَتْ بجودى الجود فى يوم الندى وجرت بيوم الحرب فى تيار(١)

ومنها :

ألقى بأيدى الريح فَضْلَ عنانه فيكاد يسبق لمحة الأبصار

ومنها :

فهى العِرَابُ متى انبرت يوم الوغى قد أعربت عن لطف صنع البارى(٢)

ومنها :

إن خاض فى ليل العجاج رأيته يجلو دُجُنَّته بوجه نهار

ومنها :

كم فيهمُ من قارِ ضيفِ طارق وضحت شواهد فضله للقار

ومنها :

يا أيها الملك الذى أيامُه غُرر تلوح بأوجه الأعصار
قد زارك العيد السعيدُ مبشرا فاسمح لأنف منهمُ بمزار
لما ازدَهَتْهُ عواطف ألطفتها عطف الإله عليك عَطف سِوار
فأتى يؤم منك هَدْيًا صالحا كى يستمد النور بعد سَرَار
وأتاك يسحب ذيل سحب أغدقت تغرى جُفُونَ المزن باستعبار
جادت بجارى الدمع يقطر بالندى فرعى الربيع لها حقوق الجار

---

(١) جودى : أصله بتشديد الياء كما وقع فى قوله تعالى : (واستوت على الجودى) ولكنه خفف الياء هنا إقامة للوزن ، والجود — بالضم — الكرم ، والندى : العطاء .
(٢) العراب — بكسر العين = الخيل العربية الأصيلة

فأعاد وجه الأرض طَلْقاً مشرقا   متضاحِكا بمباسم النــوار
لمــا دعاك إلى القيام بسنة   حَكَّمت داعى الجود والإيثار
فأفضت فينا من نداك مواهبا   حسنت مواقعها على التكرار
فاهنأ بعيد عاد يشتمل الرضا   جَذْلاَنَ يرفل فى حلى استبشار(١)

ومنها :

لاعُذْرَلى إن كنت فيه مقصِّرا   سدت صفاتك أوجه الأعذار
فإذا نظمتُ من المناقب درها   شرفتنى منهــا بنَظْم درارى
فلذاك أنظمها قلائد لؤلؤ   لألاؤها قد شَفَّ بالأنوار

وأنشد على لحده المقدَّس رحمه الله تعالى :

ضريحَ أمير المسلمين محمــد   يخصُّك ربى بالسلام المردَّدِ
وحَييَّتْكَ من روح الإله تحية   مع الملأ الأعْلىٰ تروح وتغتدى
وشقت جيوب الزهر فيك كمائم   يرفُّ بها الريحان عن خَضِلٍ ندى(٢)
وصابت من الرحْمى عليك غمائم   تروّى ثرى هذا الضريح المنجد
وزارتك من حُور الجنان أوانس   نواعم فى كل النعيم المخلد
وجاءتك بالبشرى ملائكة الرضا   كما جاء فى الذكر الحكيم الممجد
وصافحَ منك الروض أطيب تربة   وعاهد منك المزن أكرم معهد
رضا الله والصفحُ الجميل وعفوه   يُوَالَى على ذاك الصفيح المنضَّدِ
ويا صَدَفاً قد فاز من جوهر العلا   بكل نفيس بالنفاسة مفرد
أعندك أن العلم والحلم والحجا   وزهر الحلى قد أدرجت طَىَّ مَلْحَدِ
وهل أنت إلا هالة القمر الذى   بنور هداه الشهب تهدى وتهتدى

---

(١) جذلان : وصف من الجذل ـ بالتحريك ـ وهو الفرح والسرور

(٢) رف النبت ونحوه : اهتز ، والخضل ـ بفتح فكسر ـ الذى ترشش وابتل

ويا عجبا من ذلك الترب كيف لا ... يفيض ببحر للسماحة مُزْبدِ(١)
لقد ضاقت الأكوانُ وهْىَ رحيبة ... بما حُزْتَ من فخر عظيم وسُوددِ
قدمت على الرحمن أكرم مقدم ... وزوّدت من رحماه خير مزود(٢)
أقام بك المولى الإمام محمد ... مؤمل فوز بالشفيع محمد
فجاء كما ترضى وترضى به العلا ... وأنجز للآمال أكرم موعد
ومد ظلال العدل فى كل وجهة ... وكف أكفَّ البغى من كل معتد(٣)
وقام بمفروض الجهاد عن الورى ... وعَوّد دين الله خير معوّد
قَضَى بعد ما قَضَّى الخلافة حقها ... وعامل وجه الله فى كل مقصد
وفتح بالسيف الممالك عنوة ... ومدت له أملاكُها كفَّ مجتد
وكسر تمثال الصليب وأخرست ... نواقيس كانت للضلال بمَرْصَدِ
وطهر محرابا وجدد منبرا ... وأعلن ذكر الله فى كل مسجد
ودانت له الأملاك شرقا ومغربا ... وكلهمُ ألقى له الملكَ باليـدِ
وطبق معمور البسيطة ذكره ... وسارت به الركبان فى كل فَدْفَدِ
وسافر عن دار الفناء ليجتلى ... بما قدم اليوم السعادة فى غد
وقام بأمر الله حق قيامه ... بعزمة لا وَانٍ ولا متردد
لئن سار للرحمن خير مودع ... وحَلَّ من الفردوس أشرف مقعد
فقد خلف المولى الخليفة يوسفا ... يعيد له عز المساعى ويبتدى
سبيلَكَ فى سبل المكارم يقتفى ... وهَدْيَكَ يا خير الأئمة يقتدى
محمدُ جل الخطب من بعد يوسف ... ويوسف جلى الخطب بعد محمد
ولو وجد الناس الفداء مسوغا ... فَدَاكَ ببذل النفس كلٌّ موحِّدِ

---

(١) أزبد البحر : رمى بالزبد ، وإنما يكون ذلك عند اضطرابه وجيشانه
(٢) مزود ، هنا : مصدر ميمى بمعنى التزود
(٣) كف : منع

ستبكيك أرض كنت غيث بلادها ... وتبكيك حتى الشهب فى كل مشهد
وتبكى عليك السحب مل ء جفونها ... بدمع يروِّى غُلَّة المجدِبِ الصَّدِى (١)
وتلبس فيك النيرات ظلامها ... حداداً ويذكى النجم جفن مسهد
وما هى إلا أعْيُنٌ قد تسهدت ... فكحلها نجم الظلام بإثمد
فلا زلت فى ظل النعيم مخلدا ... ونجلك يحيا بالبقاء المخلد
وأوردك الرحمن حوض نبيه ... وأصدر مَنْ خَلَّفت من خير مورد
عليك سلام مثل حمدك عاطر ... يفض ختام المسك عن تربك الندى
وصلى على المختار من آل هاشم ... صلاة بها نرجو الشفاعة فى غد

وقال يستعطف الوالد السلطان أبا الحجاج :

بما قد حزت من كرم الخلال ... بما أدركت من رُتَب الجلال
بما خُوّلت من دين ودنيا ... بما قد حزت من شرف الجمال
بما أوليت من صنع جميل ... يطابق لفظه معنى الكمال
تغمدنِى بفضلك واغتفرها ... ذنوبا فى الفعال وفى المقال

وقال أيضاً :

أتُعْطِشُ أولادى وأنت غمامة ... تعم جميعَ الخلق بالنفع والسقيا ؟
وتظلم أوقاتى ووجْهُكَ نير ... تفيض بها الأنوار للدين والدنيا
وجدك قد سَمَّاكَ ربك باسمه ... وأورثك الرحمن رتبته العليا
وقد كان أعطانى الذى أنا سائل ... وسوَّغنى من غير شرط ولا ثُنْيَا
وشعرىَ فى غير المصانع خالد ... يحييه عنى فى الممات وفى المحيا
ومازلت أهدى المدح مسكا مُفَتَّقاً ... فتحمله الأرواح عاطرة الريَّا

---

(١) الغلة ـ بضم الغين وتشديد اللام ـ حرارة الباطن ، والمجدب : اسم فاعل من « أجدب المكان » إذا لم ينبت ، والصدى ـ بفتح فكسر ـ العطشان

وقد أكثر العبد التشكى وإنه وحقك يا فخر الملوك قد استحيا
وما الجود إلا ميت ، غير أنه إذا نفخت يمناك فى روحه يحيا
فمن شاء أن يدعو لدين محمد فيدعو لمولانا الخليفة بالبُقْيا(١)

وقال أيضاً فيه وقد نزل بالوجلة من مرج الحضرة :

منزل اليمن والرضا والسعود أنجزَتْ فيه صادقاتُ الوعودِ
كل يوم نزاهة إن تقضت أنشدتها السعود: بالله عودى
جمع المسلمين وصف كمال بين بأس عم الملوك وجود
فاهْنَ فى غبطة وعزة ملك أنت والله فخر هذا الوجود

وقال أيضاً مشيرا لتولية العلامة :

لك غرة وَدَّ الصباح جمالها ومحاسن تهوى البدور كمالها
وشمائل تحكى الرياض خلالها وأنامل ترجى الأنام خلالها
للمستعين خلافة نصرية عرفت ملوكُ العالمين جَلاَلَهَا
وأنا الذى قد نال منك معاليا تهدى النجوم الزاهرات منالها
تهديه ما قد نلته من بعضها فالفخر كل الفخر فيمن نالها
فى كل يوم منك منة منعم لو طاولَتْ سَمْكَ السما ما طالها(٢)
بَلَّغْتَ آمال العبيد فبُلِّغَتْ فيك العبيدُ من البقا آمالها

وقال أيضاً وكتبها إليه مع خمسة أقلام :

أيا مالكا لم يَبْدُ للعين حسنه سوى ملك قد حل من عالم القدس
لك الخير خذها كالأنامل خمسة تعَوِّذُ مرآك المكمل بالخمس
فمن أبصرت عيناك مرآه فليقل أعوذ برب الناس أو آية الكرسى

---

(١) البقيا – بالضم – البقاء
(٢) طاولتها : غالبتها فى الطول والفضل

ثم قال ابن الأحمر : وقال يخاطب مولانا الوالد رحمة الله تعالى عليه وقد مر معه بفَحْص رَيَّة ، والثلج قد عم أنديته ، و بسط أرديته ، فى وجهة توجهها مولانا الجد تغمده الله تعالى إلى مالقة :

يا من به رُتَبُ الإمارة تعتلى ومعالم الفخر المشيدة تبتنى
ازجر بهذا الثلج حالا إنه ثلج اليقين بنصر مولانا الغنى (١)
بسط البياض كرامة لقدومه وافتَرَّ ثغرا عن مسرة معتنى
فالأرض جوهرة تلوحُ لمعتلٍ والدوح مزهرة نفوح لمجتنى
سبحان من أعطى الوجود وجوده ليدل منه على الجواد المحسنِ
و بدائع الأكوان فى إتقانها أثر يشير إلى البديع المتقن

ثم قال : ومن أوليات نظمه يخاطب شيخه الوزير أبا عبد الله بن الخطيب مادحا قوله :

* أما وانصداع النور من مطلع الفجر *

إلى آخره ، وقد تقدمت .

ثم قال : وقال يراجع الكاتب أبا زكريا بن أبى دلامة :

على الطائر الميمون والطالع السعد أتتنى مع الصنع الجميل على وعد
وأحييت يا يحيى بها نفس مغرم يجيل جياد الدمع فى ملعب السهد
نسيت وما أنسى وفائى وخلتى وأقفر ربع القلب إلا من الوجد
وما الطل فى ثغر من الزهر باسم بأزكى وأصفى من ثنائى ومن ودى
فأصدقتها من بحر فكرى جواهرا تنظم من در الدرارى فى عقد
وكنت أطيل القول إلا ضرورة دعتنى إلى الإيجاز فى سورة الحمد

---

(١) كان من عادة العرب أن يرمى أحدهم الطائر بحصاة أو يصيح به ليطير ؛ فإن ولاه ميامنه فى طيرانه تفاءل به ، وإن ولاه مياسره تشاءم منه ، فهذا هو الزجر وقالوا « زجر فلان » يريدون به معني تكهن ، وأصله ما ذكرناه أولا

وأنشد السلطان أبا العباس المرسى فى غرائب من إنشائه :

أإنسان عين الدهر جفنك قد غدا يحفك منـه طائر اليمن والسعد
إذا ما هفا فوق الرؤس شراعه أراك جنـاحا مد للجزر والمد

وأنشد فيه أيضاً :

لك الخير شأن الجفن يحرس عينه وهـذا بعين الله يحرس دائما
تبيت له خمس الثريّا معيذةً تقلده زهر النجوم تمائـما
فياجفن لا تنفك فى الحفظ دائما وإن كنت فى لج من البحر عائما

انتهى ما لخصته من كلام ابن الأحمر فى حق ابن زَمْرَك ، وذلك جملة من نظمه .

وقد رأيت أن أعزز ذلك ببعض موشحات ابن زَمْرَك المذكور مما انتقيته من كلام ابن الأحمر .

فمنها قوله متشوّقا إلى غرناطة ويمدح الغنى بالله :

موشحة لابن زمرك

بالله ياقامـة القضيب ومخجل الشمس والقمر[١]
مَنْ مَلّكَ الحسن فى القلوب وأيد اللحظ بالحـور
من لم يكن طبعه رقيقا لم يدر ما لذة الصِّـبا
فربَّ حر غـدا رقيقا تملكه نفحة الصَّـبَا[٢]
نشوان لم يشرب الرحيقا لـكن إلى الحسن قد صَبَا
فعذَّبَ القلب بالوجيب ونعَّمَ العـينَ بالنظر[٣]
وبات والدمع فى صبيب يقدح من قلبه الشرر
عجبت من قلبىَ المعنَّى يهفو إذا هبت الرياح

(١) القضيب : الغصن ، وأراد أن قامته وقده كالقضيب اعتدالا وتمايلا
(٢) الصبا ــ بفتح الصاد ــ ريح الشمال ، ونفحتها : هبوبها
(٣) الوجيب : خفقان القلب واضطرابه

لو كان للصب ما تمنى لطار شوقا بلا جناح
وبلبل الدَّوْح إن تغنى أسْهَرُ ليلى إلى الصباح
عساك إن زرت يا طبيبى بالطَّيْفِ فى رقدة السحر
أن تجعل النوم من نصيبى والعين تحمى من السهر
كم شادنٍ قاد لى الحتوفا بمربع القلب قد سَكَنْ[1]
يَسُلُّ من لحظه سيوفا فالقلب بالروع ما سكن
خُلِقتُ من عادتى أَلُوفَا أحن للإلف والسكن[2]
غرناطة منزل الحبيب وقُرْبُها السؤال والوطر
تبهر بالمنظر العجيب فلا عـدا رَبْعَهَا المطر
عروسة تاجها السبيكه وزهرها الحلى والحلل
لم ترض من عزها شريكه بحسنها يُضْرَبُ المثل
أيدها الله من مليكه تملكها أشرف الدول
بدَوْلة المرتجى المهيب الملك الظاهر الأغر
تختال من بردها القشيب فى حلة النور والزَّهَرْ
كرسيها جنة العريف مرآتها صفحة الغدير
وجوهر الطَّلِّ عن شنوف تحكمها صنعة القدير
والأنس فيها على صنوف فمن هَديل ومن هَدير
كم خرق الزهر من جيوب وكلل القُضْبَ بالدرر
فالغصن كالكاعب اللَّعوب والطير تشدو بلا وتر
ولأم النصر فى احتفال وفرح دين الهوى جديد

---

(١) الشادن : ولد الظبية إذا ترعرع ، والحتوف : جمع حتف ، وهو الهلاك

(٢) الأصل فى هذا المعنى قول أبى الطيب المتنبى :

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

سلطانها مُعْمِلُ العوالى محمد الظافر السعيد[1]
ومخجل البدر فى الكمال سلطانها المجتبى الفريد
أصْفَحُ مَوْلًى عن الذنوب أكرم عافٍ إذا قدر[2]
وشمس هَدْى بلا مغيب وبحر جود بلا حسر
مولاى ياعاقد البنود تظلل الأوْجُه الصِّباح
أوحَشْتَ يا نخبة الوجود غرناطة هَالَةَ السماح
سافرت بالْيُمْنِ والسعود وعدت بالفتح والنجاح
يا مُلهم القلب للغيوب ومُطْعِمَ النصر والظفر
أسمعك الله عن قريب على السلامه من السفر

وقال أيضا من الموشحات الرائقه ، فى مثل أغراض هذه السابقه ، وأشار إلى محاسن من وصف الرشاد :

موشحة أخرى لابن زمرك

نسيم غرناطة عليل لكنه يبرىء العليل
وروضها زهره بليل ورشفه ينقع الغليل
سقى بنجد رُبَا المصلى مباكرا روضه الغمام
سقى بنجد ربا المصلى تبسم الزهر فى الكِمَام
والروض بالحسن قد تجلَّى وجَرَّد النهر عن حسام
ودوحها ظله ظليل يَحْسُنُ فى ربعه المقيل
والبرق والجو مستطيل يلعب بالصارم الصقيل
عقيلة تاجها السبيكه تطل بالمرقب المنيف

---

(١) العوالى ، هنا : الرماح ، وأصله جمع عالية ، وهى أعلى الرمح ، فأطلق اسم الجزء وإرادة كله ، ومعملها : أراد أنه محارب

(٢) عاف : اسم فاعل من « عفا عن الذنب يعفو » إذا صفح

كأنها فوقه مليكه ... كرسيها جنة العريف
تطبع من عسجد سبيكه ... شموسها كلما تطيف
أبدعك الخالق الجميل ... يا منظرا كله جميل
قلبى إلى حسنه يميل ... وقلبنا قد صبا جميل
وزاد للحسن فيك حسنا ... محمد الحمد والسماح
جدّد للفخر فيك مَبْنَى ... فى طالع اليمن والنجاح
تدعى رشاداً و فيك معنى ... يخصك الفال بافتتاح
فالنصر والسعد لا يزولْ ... لأنه ثابت أصيلْ
سعد وَأنصاره قبيلْ ... آباؤه عترة الرسولْ(١)
أبدى به حكمة القدير ... وتوّج الروض بالقباب
ودرع الزهر بالغدير ... وزين النهر بالحباب
فمن هديل ومن هدير ... ما أوْلَعَ الحسن بالشباب
كبت على روضها القبول ... وطرفها بالسُّرَى كَليل
فلم يزل بينها يَجُولْ ... حتى تبدت له حجول
للزهر فى عطفها رُقُوم ... تلوح للعين كالنجوم
وللندى بينها رسوم ... عقد الندى فوقه نظيم
وكل واد بها يهيم ... ولم يزل حولها يحوم
شنيلها مد منه نيل ... والشين ألف لمستنيل
وعين وادٍ بها تسيل ... من فوق خد له أسيل
كم من ظِلال به ترفُّ ... تَضْفو له فوقها سُتُور

(١) أراد سعد بن عبادة ، سيد الأنصار ، وهو الجد الأعلى للملوك من بنى نصر

ومن زجاج به يشف ما بين نور و بين نور
ومن شموس بها تصف تديرها بينها البـدور
مزاجها العذب سلسبيل ياهَلْ إلى رَشْفها سبيل(١)
وكيف والشيب لى عذول وصبغهُ صفرة الأصيـل
يا سَرْحَة فى الحمى ظليله كم نلت فى ظلك المنى
روضك الله من خميله يجنى بها أطيب الجنى
و برقها صادق المخيـله ما زال بالغيث محسنا
أنجز لى وعدك القبول فلم أقل مثل من يقول
يا سَرْحَة الحىّ يامَطُول شرحُ الذى بيننا يطول

ومن ذلك ما كتب به إلى الغنى بالله :

أبلغ لغرناطة السلام وصِفْ لها عهدى السليم
فلو رعى طيفها ذمام ما بت فى ليلة السليم
كم بت فيها على اقتراح أعَلُّ من خَمْرة الرضاب
أدير فيهـا كؤس راح قد زانها الثغر بالحباب
أختال كالمهر فى الجماحْ نشوان فى روضة الشباب
أضاحك الزهر فى الكِمَام مباهيا روضَـةُ الوسيم
وأفضح الغصن فى القوام إن هب من جوّها النسيم
بينا أنا والشباب ضَافْ وظـلـه فوقنا مَدِيدْ
ومورد الأنس فيه صاف و برده رائق جـديد

(١) المنادى بحرف النداء « يا » محذوف ، وكأنه قال : يا قوم ، هل إلى رشفها سبيل ؟ والمنادى يحذف كثيرا ويذكر حرف النداء إيماء إليه ، ومنه قوله تعـالى : (ياليت قومى يعلمون) وقول الشاعر :

ألا يا اسلمى يا دارمى على البـلى ولا زال منهلا بجرعائك القطر

إذ لاح فى الفَوْدِ غير خاف صبح به نبه الوليـــد[1]
أيقظ مَنْ كان ذا منام لما انجلى ليـــله البهيم
وأرسل الدمع كالغمام فى كل وادٍ به أهيم
ياجيرة عهدُهم كـريم وفعلهم كله جميـــل
لا تعذلوا الصب إذ يهيم فقلبه قد صـبا جميل
القُرْبُ من ربعكم نعيم وبعد كم خطبه جليل
كم من رياض به وِسَامْ يُزْهَى بها الرائض المسيم
غـدیرُها أزرق الجمام ونبتها كلـــه جميم
أعندكم أننى بفاس أكابد الشوق والحنين
أذكر أهلى بهـا وناسى واليوم فى الطول كالسنين
الله حسبى فكم أقاسى من وحشة الصب والبنين
مطارحا ساجع الحمام شوقا إلى الإلف والحميم
والدمع قد لج فى انسجام وقد وَهَى عقدُه النظيم[2]
يا ساكنى جنة العريف أسكنتم جنـــة الخلود
كم ثم من منظر شريف قد حف باليمن والسعود
ورب طَوْد به منيف أدواحه الخضر كالبنود
والنهر قد سُلَّ كالحسام لراحة الشَّرْب مستديم
والزهر قد راق بابتسام مُقبلا راحة النـــديم
بلغ عبيـــد المقام صحبى لازلتمُ الدهر فى هنا
لقاكُمُ بِغْيَةُ المحبِّ وقربكم غاية المنى

(١) الفود — بفتح الفاء وسكون الواو — جانب الرأس ، والصبح : أراد به الشيب ، وهى استعارة يكثر الشعراء استعمالها

(٢) انسجام الدمع : انسكابه ، ووهى : ضعف

فعندكم قد تركت قلبى فجدد الله عهــدنا
ودارِكَ الشمل بانتظام مَنْ يُرْتجى فضله العميم
فى ظل سلطاننا الإمام الطاهر الظاهر الحميم
مؤمن العدوتين ممــا يخاف من سطوة العــدا
وفارجُ الـكرب أن ألمَّا ومذهب الخطب والرَّدَى (١)
قد راق حسنا وفاق حلما وما عــدا غير ما بدا
مولاى يانخبــة الأنام وحائز الفخر فى القديم (٢)
كم راقب البدر فى التمام شوقا إلى وجهك الـكريم

منها موشحة عارض بها موشحة ابن سَهْل التى أولها «ليل الهوى يقظان» وهى :

نواسم البستان تنثر سلك الزهر
والطل فى الأغصان ينظمــه بالجوهر
وراحــة الإصباح أضاء منها المشرق
تنشرها الأرواح فلا تزال تخفق (٣)
والزهر زهر فاح لها عيون ترمق
فأيقظ الفــدمان يبصرن مالم يُبْصَرِ
جــواهر الشبان قد عرضت للمشترى
قدحت لى زندا يا أيهــا البارق
أذكرتنى عهدا إذ الشبابُ رائق
فالشوق لا يهدا ولا الفؤاد الخافق

(١) ألم : نزل ، والردى : الهلال
(٢) نخبة الأنام : المنتخب المختار منهم
(٣) الأرواح ، هنا : جمع ريح ، وتخفق : تتحرك وتهب

وكيف بالسلوان والقلب رهن الفكر
وسُحُبُ الهجران تحجب وجه القمر
لولا شموس الكاس يديرها بين البدور
وأعرج الإيناس منا على ربع الصدور
لكن لها وسواس يغرى بربات الخدور
كم والهٍ هيمان بصبح وجه مسفر (١)
ضياؤه قد بان من تحت ليل مقمر
يا مطلع الأنوار كم فيك من مرأى جميل
ونزهة الأبصار ما ضر لو تشفى الغليل
يا روضة الأزهار وعَرْفها يبرى العليل
قضيبك الفتان يسقى بدمع همر
فلاعج الأشجان فيض الدموع يجرى
هل فى الهوى ناصر أو هل يجار الهائم
لو كان لى زائر طيف الخيال الحائم
ما بت بالساهر ودمع عينى ساجم
والحبُّ ذو عدوان يجهد فى ظلم الْبَرِى
وصارم الأجفان مؤيد بالحَوَرِ
رحماك فى صب أذكرته عَهْدَ الصِّبَا
بواعث الحب قادت إليه الوَصَبَا
لم تهف بالقلب ريح الصبا إلاَّ هبا

(١) الواله : الوصف من الوله - بالتحريك - وأراد به الذى حيره الحب ، والهيمان : أصله الشديد العطش ، وأسفر وجهه : أضاء وأشرق

بَلِيـــــلَة الأردان قد ضُمِّخَتْ بالعنبر[١]

يشير غصن البان منها بفضل المئزر[٢]

طيبها حمـــــــد فخر الملوك المجتبى

من يرجح الطـــود من حلمه إذا احتبى

قد جـرد السعد منه حساما مذهبا

فالباس والإحسان والغـوث للمستنصر

تحمله الركبان تحيـــة للمنبر

عصابة الكتاب حق لها الفوز العظيم

تختـال فى أثواب حق لهـا الفخر الجسيم

فحسبها الإطنـاب فى الحمد والشكر العميم

خليفة الرحمن لازلت سـامى المظهر

يا مورد الظمـــآن ورأس مال المعسر

خـذها على دعـوى تزرى على الروض الوسيم

جاءت كما تهوى أرق من لَدْنِ النسيم

قد طارحت شكوى من قال فى الليل البهيم

ليـل الهوى يقظان والحب تِرْبُ السهر

والصـبر لى خـوان والنوم من عينى برى

وله فى الصبوحيات :

ريحانة الفجر قد أطَلَّتْ خضراء بالزهـــر تزهر

وراية الصبح قد أظَلَّتْ فى مرقب الشمس تنشر

---

(١) الأردان : جمع ردن ـ بالضم ـ وهو أصل الكم ، وضمخت ـ بالبناء للمجهول ـ ملطخة حتى كأن مالطخت به يقطر منها

(٢) المئزر ـ بزنة المنبر ـ الإزار ، وهو ما يلبس فى أعلى الجسم .

فالشهب من غارة الصباح	تُرْعَدُ خوفا وتخفق
وأدهم الليل فى جِماح	أعنة البرق يطلق (١)
والأفق فى ملتقى الرياح	بأدمع الغيث يشرق
والسحب بالجوهر استهلت	فالبرق سيف بجوهر
صفاحهُ المذهبات حلت	فى راحة الجوّ تشهر
كم للصبا ثَمَّ من مقيل	بطيبهِ الزهر يشهد
والنهر كالصارم الصَّقيل	فى حلية النور يغمد
ورب قال به وقيل	للطير فى حين تنشد
فألسُنُ الوُرْقِ قد أملت	مدائحا عنه تشكر (٢)
ونسمة الصبح قد تجلت	فى سندس الروض تعثر
والكاس فى راحة النديم	يجلو بها غيهب الهموم
أقبسَتِ النار فى القديم	من قبل أن تخلق الكروم
والنهر فى ملعب النسيم	للزهر فى عِطْفه رقوم
فَلَبَّةُ الحلْى قد تحلت	والطَّلُّ فى الحلى جوهر
وبهجة الكون قد تجلت	والروض بالحسن يبهر
يُذْكِرنى وجنة الحبيب	والآس فى صفحة العذار
وشارب الشارب العجيب	بين أقاح وجلنار
يدير من ثغره الشنيب	سلافة دونها العقار
حلت لأهل الهوى وجلت	بالذكر والوهم تسكر
كم من نفوس بها تسلَّتْ	فما لها الدهر منكر

(١) الأعنة : جمع عنان ، وأصله ما تقاد به الدابة ، ويطلقها : يرسلها ، ومتى أطلقت الأعنة انفلت الزمام فجرت الدابة كما تريد

(٢) الورق - بالضم - جمع ورقاء ، وهى الحمامة ، وأملت - بتشديد اللام - ماض من الإملال ، ومعناه هنا الإملاء ، وفى التنزيل : (فليملل الذى عليه الحق)

يا غصن بان يميل زَهْوَا رَيَّان فى روضة الشباب
لوكنت تصغى لرفع شكوى أطَلت من قصة العقاب
ومن لمثلى بِبَثّ نجوى للبدر فى رفرف السحاب(١)
عزائم الصبر فيك حُلّتْ وعقـدة الصبر تذخـر
قدأكثرت منك مااستقلت ولَيْتَ لو كنت تشعر
كم ليلة بتها وبتَّا ضدين فى السهد والرقاد
أسامر النجم فيك حتى عَلّمَتُ أجفانها السهاد(٢)
أرقب بدر الدجى ، وأنتا قد لحت فى هالة الفؤاد
نفسىَ وَلَّيت ما تولت دعها على الشوق تصبر
لو سُمْتها الهجر ما تولت ولم تكن عنك تنفر(٣)
علمها الصبر فى الحروب سلطاننُا عاقدُ البنود(٤)
معفر الصِّيدِ للجنوب أعز من حف بالجنود(٥)
نصرت بالرعب فى القلوب والبيض لم تبرح الغمُود
عناية الله فِيهِ جلت بسعده الدين ينصر
والخلق فى عصره تملت غنائما ليس تحصر
مولاى يا نكتة الزمان دَارَ بما تَرْتَضِى الفلك
جلت باليمن والأمان كل مليك وما ملك
لم يدر وصفى ولا عيانى أملِكٌ أنت أم مَلَكْ
جنودك الغُلْبُ حيث حلت بالفتح والنصر تحمر
وعادة الله فيك دَلّتْ إنك بالكفر تظفر

(١) فى ب « ومن لمثلي يبيت نجوى» تحريف (٢) السهاد - بالضم - الأرق
(٣) سمتها : كلفتها (٤) البنود : جمع بند ، وهو العلم
(٥) الصيد - بالكسر - جمع أصيد ، وهو الذى لايميل رأسه كبرا

يا آية الله فى الكمال ... ومُخْجل البدر فى التمام
قدمت بالعز والجلال ... والدهر فى ثغره ابتسام
يختال فى حلة الجمال ... والبدر قد عاد فى اختتام
ريحانة الفجر قد أطلَّتْ ... خضراء بالزهر تزهر
وراية الصبح قد أظلت ... فى مرقب الشرق تنشر

وقال سامحه الله تعالى :

قد طَلَعَتْ راية الصباح ... وآذن الليلُ بالرحيل
فباكِرِ الروضَ باصطباح ... واشرب على زهره البليل
فالوُرْقُ هبت من السنات ... لمنبر الدَّوْحِ تخطب
تسجع مفتنة اللغات ... كل عن الشوق يعرب
والغصن بعد الذهاب ياتى ... لأكؤس الطَّلِّ يشرب
وأدمع السحب فى انسياح ... فى كل روض لها سبيل
والجوّ مستبشر النواحى ... يلعب بالصارم الصقيل
قم فاغتنم بهجة النفوس ... ما بين نَوْر وبين نُورْ
وشفع الصبح بالشموس ... تديرها بيننا البدور
ونبه الشَّرْبَ للكؤوس ... تمزج من ريقة الثغور(١)
ما أجمل الراح فوق راح ... صفراء كالشمس فى الأصيل(٢)
تغادرُ الصدر ذا انشراح ... للأنس فى طيه مقيل
ولا تذَرْ خمرة الجفون ... فسكرها فى الهوى جنون
ولتخش من أسهم العيون ... فإنهـا رائد المنون

---

(١) الشرب ـ بفتح الشين وسكون الراء ـ جمع شارب ، ونظيره سفر وسافر
(٢) الراح الأولى : الخمر ، والراح الثانية : اليد

عرضت منها إلى الفتون وكل خطب لها يهون (١)
أهيم بالغادة الرَّدَاح والجسم من حبها عليل (٢)
لو بت منها على اقتراح نَقَعْتُ من ريقها الغليل
أواعدُ الطَّيْفَ للمنام ومن لعينىَّ بالمنام
أسهر فى ليلة التمام وأنت يا بدر فى التمام
وألثم الزهر فى الكِمَام عليه من ثغرك ابتسام
سفرت عن مبسم الأقاح وريقك العذب سلسبيل
قل لى يا ربَّة الوشاح هل لى إلى الوصل من سبيل
يا كعبة الحسن زدت حسنا وللهوى حولك المطاف
وغصن بانٍ إذا تثنى لو حَانَ من زهرك القطاف
ألاَ انعطاف على المعنَّى فالغصن يُزْهَى بالانعطاف
أصبحت تزهو على الملاح بذلك المنظر الجميل
ووجهك الشمس فى اتضاح لو أنها لم تكن تميل
ما الزهر إلا بنظم در تحسد فى حسنه العقود
للملك الظاهر الأغر أكرم من حُفَّ بالسعود
محمد الحمد وابن نصر وباسط العدل فى الوجود
مُسَاجِل السحب فى السماح بالغيث من رِفْدِهِ الجليل
ومخجل البدر فى اللَّيَاحِ بغرة مالها مثيل
يا مُشْرِبَ الحبِّ فى القلوب وواهب الصفح للصفاح
نصرت بالرعب فى الحروب والرعب أجدى من السلاح

---

(١) الفتون : الفتنة ، وفى القرآن الكريم : (وفتناك فتونا) ووقع فى ب « إلى الفنون » بالنون — وهو تحريف

(٢) الرداح — بفتح الراء والدال جميعا — المرأة الثقيلة الأوراك

قد لُحتَ من عالم الغُيُوب — لم تعدم الفوز والفلاح
مراكش نهبة افتتاح — والصنع فى فتحها جليل
بشراك بالفتح والنجاح — والشكر من ذلك القبيل

وقال أيضاً رحمه الله تعالى :

فى كؤس الثغر من ذاك اللَّعَسْ — راحة الأرواح[١]
وتغشى الروض مسكى النفس — عاطر الأرواح[٢]
وكسا الأدواح وشيا مذهبا — يبهر الشمسا
عسجد قد حل من فوق الربا — يبهج النفسا
فاتخـــذ للهو فيـه مركبا — تلحق الأنسا
منبر الغصن عليه قد جلس — ساجع الأدواح
حُلَلَ السندس خُضْراً قد لبس — عِطفُهُ المرتاح
قم ترى هـــذا الأصيل شاحبا — حسنه قد راق
ولأذيال الغصون ســاحبا — فى حُلَى الأوراق
ونديم قال لى مخاطبـــا — قول ذى إشفاق
عادة الشمس بغرب تختلس — هات شمس الراح
إن أرانا الجو وجها قد عَبَسْ — أوقد المصباح
ووجوه الشَّرْبِ تغنى عن شموس — كلما تجــلى
بلحاظ أسكرتنا عن كؤس — خمرها أحــلى
مظهرات من خفايا فى النفوس — سُــوَرًا تُتْــلَى
ما زمان الأنس إلا مختلس — فاغتنم يا صاح

---

(١) اللعس — بفتح اللام والعين جميعا — سمرة الشفة ، والأرواح ، هنا : جمع روح بالضم ، وهى ما به الحياة
(٢) الأرواح ، هنا : جمع ريح

وعيون الشهب تذكى عن حرس تخصم النصاح
ما ترى ثغر الوميض باسمـــا يظهـر البشرا
وثنــاء الروض هب ناسما عاطِـرًا نشرا
بث من أزهـــاره دراهما قائـلا بشرى
ركب المولى مع الظهر الفرس وسـقى وارتاح
بجنـــود الله دأبا يحترس إن غدا أوراح
وجب الشكر علينا والهنا بعضنا بعضـا
فزمان الســعد وضاح السنى وجهه الأرضى
أثمرت فيــه العوالى بالمنى ثمرا غَضًّــا[1]
يجتنى الإسلام منها ما اغترس سيفه السفاح
فى ضمير النقع منها قد هجس شهب تلتاح[2]
يا إماما بالحسـام المنتضى نَصَرَ الحقَّا
ثغرك الوضاح مهما أو مضــا أخجل البرقا
وديون السعد منـــه تقتضى توسع الحقا
لك وجه من صباح مقتبس بشره وضاح
وجميل الصفح منـه ملتمس منعم صَفَّاحْ
ها كها تمزج لطفا بالنســيم كلما هبــا
قد أتت بالبر والصنع الجسيم تشكر الربا
أخجلت من قال فى الصبح الوسيم مغـرما صـبا
غرد الطير فنبـــه من نعس يا مـدير الراح

(١) العوالى : جمع عالية ، واراد هنا الرماح ، والثمر الغض : الطرى

(٢) الشهب : جمع شهاب — بزنه كتاب وكتب — وهى قطع النار ، وتلتاح : تظهر مثل تلوح

وتعرى الفجر عن ثوب الغلس   وانجلى الإصباح

وقال أيضا سامحه الله تعالى :

قد أنعم الله بالشفاء   واستكملت راحة الإمام
فلتنطق الطير بالهناء   وليضحك الزهر فى الكمام [1]
وُجُوده بهجة الوجود   وبرؤه راحة النفوس
قد لاح فى مرقب السعود   واستبشرت أوجه الشموس
فالدوح تومى إلى البنود   أكمامه غطت الرؤس
والزهر فى روضة السماء   كالزهر قد راق بابتسام
والصبح مستشرف اللواء   والبدر مستقبل التمام
محاسن الكون قد تجلت   جمالها العقلَ يبهر
عرائس بالبها تحلت   والطل فى الحَلْى جوهر
وألسن الورق قد أملت   مدائحًا عنه تشكر
تستوقف الخلق بالغناء   كأنها تحسن الكلام
تطنب لله فى الثناء   تقول سلمت يا سلام
كم من ثغور لها ثغور   تبسم إذ جاءها البشير [2]
ومن خدور بها بدور   يشير منها له المشير
تقول إذ حفها السرور   تبارك المنعم القدير
قد أنعم الله بالبقاء   فى ظل مولى به اعتصام
قد صادف النجم فى الذراء   فالداء عنا له انفصام
يهنيك مولاى بل يُهَنَّى   ببرئك الدين والهدى

---

(١) الكمام — بكسر الكاف بزنة الكتاب — غلاف النور

(٢) الثغور الأول : جمع ثغر ، وهو الموضع يخاف منه هجوم العدو ، والثغور الثانى : جمع ثغر ، وهو الفم

فالغرب والشرق منك يعنى بمذهب الخطف والردى
والله لولاك ما تهنا ما فيه من سطوة الردى
يا مورد الأنفس الظماء قد كان يشتفها الأوام
وقرة العين بالبهاء رَدَدْتَ للأعين التمام
لو أبذل الروح فى البشاره بذلت بعض الذى ملك
فأنت يا نفس مستعاره مولاى بالفضل جملك
لم أدر إذ سطر العباره أَمَلِكٌ هو أم مَلَكْ
لازلت مولاى فى هناء مُبَلَّغَ القصد والمرام
ودمت للملك فى اعتلاء تسحب أذياله التمام

وقال فى مالقة :

عليك يا رية السلام ولا عدا رَبْعَكِ المطر[1]
مذ حَلَّ فى قصرك الإمام فقربك السؤل والوَطَرْ[2]
والدوح فى روضك الأنيق للشكر قد حطت الرؤس
والغصن فى نهره غريق وفى حُلاَه كما عروس[3]
والجو من وجهه الشريق تحسده أوجه الشموس
وأعين الزهر لا تنام تستعذب السهد والسهر
ينفث من تحتها الغمام يرقيك من أعين الزهر
عروسة أنت يا عقيلة تُجْلَى على مَظْهر الكمال
مدت لك الكف مستقيلة تمسح أعطافك الشمال

(١) عدا : جاوز وتخطى ، والربع : المنزل
(٢) الوطر — بالتحريك — المقصد والمطلب
(٣) « ما » فى قوله « كما عروس » زائدة غير كافة للكاف عن عمل الجر ، مثلها فى قول زياد الأعجم :

وننصر مولانا ونعلم أنه كما الناس مجروم عليه وجارم

والبحر مرآتك الصقيلة تشف عن ذلك الجمال
والحلى زهر له انتظام يكلل القضب بالدرر[١]
قد راق من ثغره ابتسام والورد فى خدها خَفَرْ
إن قيل مَنْ بَعْلُهَا المفدَّى ومن له وصلها مباح
أقول أسنى الملوك رفدا مخلد الفخر بالصفاح
محمد الحمد حين يهدى ثنــاؤه عاطر الرياح
تخبر عن طيبهِ الكمام والخبر يغنى عن الخبر
فالسعد والرعب والحسام والنصر آياتُهُ الكبر
ذو غرة تسحر البدورا وطلعة تخجل الصباح
كم رايةٍ سامها ظهورا تُظَلِّلُ الأوجه الصِّبَاحْ
وكم جهاد جلاه نورا أظفر بالفوز والنجاح
الطاهر الظاهر الهمام أعز من صال وافتخر
لسيفه فى العدا احتكام جرى به سابق القدر
يامرسل الخير فى الغوارى لو تطلب البحر تلحق
لك الجوارى إذا تجارى سوابق الشهب تسبق
تستَنُّ فى لجة البحار فالكفر منهن يَفرَقْ
فالدين وليقصر الكلام بسيفك أُعتز واُنتصر
كذاك أسلافك الكرام هم نصروا سيد البشر

وقال من غير هذا البحر فى المحدث بمالقة :

قد نظم الشمل أتم انتظام واغتنم الأحباب قرب الحبيب
واستضحك الروضُ ثغورَ الغمام عن مبسم الزهر البَرود الشَّنيب

---

(١) يكلل : يزين ، ويجعلها له كالإكليل ، والقضب : جمع قضيب ، وهو هنا الغصن ، وأصل القضب بضم القاف والضاد جميعا ، ولكنه سكن الضاد هنا تخفيفا

وعمم النَّــوْرُ رؤس الربا وجلل النَّوْرُ صدور البطاح
وصافح القضب نسيم الصبا فالزهر يرنو عن عيون وَقَاح[1]
وعاود النهر زمان الصبا فقلد الزهر مكان الوشاح
وأطلق القصر برود التمام فى طالع الفتح القريب الغريب
خدودها قامت مقام الغمام فلا أُشتكى من بعدها بالمغيب
أصبحت يا رية مجلى النفوس جمالك العين بهــــا يبهر
والبشر يسرى فى جميع الشموس وراية الأنس بها تشهر
والدوح للشكر تحط الرؤس وأنجم الزهر بهـــا تزهر
وراجع النهر غناء الحمام وقدشَدَتْ تسجع سجع الخطيب
بمنبر الغصن الرشيق القوام لما انثنى يهفو بقد رطيب
يا حبذا مبناك فخر القصور بُرُوجُهُ طالت بروج السما
ما مثله فى سالفات العصور ولا الذى شاد ابن ماء السما
كم فيه من مرأى بهيج ونور فى مرتقى الجو به قد سما
خليفــة الله ونعم الإمام أتحفك الدهر بصنع عجيب
يهنيك شمل قد غدا فى التئام ممهدا فى ظل عيش خصيب
نواسم الوادى بمسك تفوح ونفحــة النّدِّ به تعبــق
وبهجة السكان فيه تلوح وجوه من نورهم يشرق
وروضُهُ بالسر منــه يبوح بلابل عن وجــده تنطق
لو أن من يفهم عنها الــكلام فهى تهنيك هناء الأديب
ونهره قد سل منه الحسام يلحظه النرجس لحظ المُرِيبْ

---

(١) يرنو : ينظر ، والوقاح — بفتح الواو — ذو الوقاحة ، ويقال للمذكر والمؤنث بلفظ واحد ، يقال : رجل وقاح ، وامرأة وقاح

فأجمل الأيام عصر الشباب وأجمل الإجمال يوم اللقا
يادرة القصر وشمس القباب وهازم الأحزاب فى الملتقى
بَشَّرَكَ الرب بحسن المآب متعك الله بطـول البقا
ولا يزال القصر قصر السلام يختال فى برد الشباب القشيب [١]
يتلو عليك الدهر فى كل عام (نصر من الله وفتح قريب)

وقال من المخلع فى الشفاء :

فى طالع اليمن والسعود قد كملت راحـة الإمام
فأشرق النور فى الوجـود وابتسم الزهر فى الكِمام
قد طلعت راية النجاح وانهـزم البؤس والعنا
وقال حَىَّ على الفـلاح مؤذنُ القـوم بالمنى
فالدهـر ياتى بالاقتراح مستقبلا أوجـه الهنا
تخفق منشـورة البرود والسعد يقدم من أمام
والأنس مستجمع الوفود واللطف مستعذب الجِمَامْ [٢]
وأكؤس الطل مترعات بأنمل السوسن النـدى
والطير مفتنَّـةُ اللغات تشدو بأصـوات مَعْبَدِ
والغصن يذهب ثم ياتى بالسندس الغض مرتدى
والدوح يومى إلى السجود شكرا لذى الأنْعُمِ الجسام
والريح خَفَّاقَةُ البنـود تباكر الروض بالغمام
مظاهـر للجمال تُجْلَى قد هـز أعطافها السرور
وباهر الحسن قد تَجَلَّى ما بين نَوْرٍ وبين نُورْ

(١) القشيب : الجديد
(٢) الجمام - بكسر الجيم - جمع جم ، وهو الماء مطلقا هنا ، وأصله معظم الماء خاصة

قد هنأت بالشفاء مولى بعصره تفخر العصــور
ما بين بأس و بين جــود قد مَهَّـدَ الأمن للأنام(١)
فالدين ذو أعين رقود وكان لا يطعم المنـــام
والـكاس فى راحة السقاة تروح طورا وتغتــدى
يهـديكها رائق السِّماتِ ما بين برق وفرقــد(٢)
والشمس تذهب للبيات قد لبست ثوب عسجـــد
والزهر فى اليانع المَجُــود يقابل الشَّرْبَ بابتسام
والروض من حلية الغمود قد جرد النهر عن حسام
مولاى يا أشرف الملوك وعصمة الخلق أجمعين
أهديك من جوهر السلوك يقذفه بحـــرك المَعِين
جعلت تنظيمه سلو كى وأنت لى المنجـدُ المُعِين
تحية الواحد المجيـــــد ورحمة الله والســـلام
عليـــك من راحم ودود يامخجل البـــدر فى التمام

وقال من الرمل المجزوّ :

وجه هــذا اليوم باسم وشـــذا الأزهار ناسم
هاتها صـــاح كؤوسا جالبـــــات للسرور
وارتقب منها شموسا طالعات فى حُبُـــور
ما ترى الروض عروســا فى حُلَى نَوْرٍ ونُورْ
وأتت رســل النواسم تجتلى هذى النواسم
قد أهلت بالبشائر أضحكت ثغر الأزاهر

---

(١) مهد الأرض : ذللها وسهلها ، وحرفيته أنه صيرها كالمهد الذى ينام فيه الطفل
(٢) السمات : جمع سمة ـــ بكسر السين ـــ وهى العلامة

سَنَحَتْ فى يُمْنِ طائر ونظمن كالجواهر[١]
فانشروها فى العشائر إن هـذا الصنع باهر
وأشـيعوا فى العوالم الغنى بالله سـالم
أى نور يتـوقد أى بدر يتـلالا[٢]
أى فخـر يتخلد أى غيث يتـوالى
إنما المـولى محمد رحمـة الله تعالى
كفه بحر المقاسم وبها حج المبـاسم
خير أملاك الزمان من بنى سَـعْدٍ ونصر
ما ترى أن الشَّوَانِى فى صـعيد البر تجرى
قد أطارتها التهـانى دون بحرىٍّ وبحـر
مذ رأت بحر النعائم كلهـا جارٍ وعائم
فهنيئـا بالشـفا يا أمـير المسلمين
ولنـا حق الهنـا وجميع العـالمين
إن جـهرنا بالدعا ينطق الدهـر أمين
دمت محروس المكارم بظُبَا البيض الصـوارم

وقال يهنى السلطان موسى ابن السلطان أبى عنان ، وقد وجه إليه الغنى بالله أمه وعياله عند تملكه المغرب من قبله :

قد نُظِمَ الشمل أتم انتظام ولاحت الأقمار بعد المغيب
وأضحك الروض ثغور الغمام عن مبسم الزهر البرود الشنيب
عاود الغصن زمان الصبا وأشرب الأنس جميع النفوس

---

(١) سنحت : عرضت ، وأصله فى الطائر يمر من المياسر إلى الميامن ، ويقال له حينئذ «سنيح» و «سانح»

(٢) يتلالا : أصله يتلألأ — بهمزتين — إلا أنه لما أراد إقامة القافية سهل الهمزتين بقلب كل واحدة منهما ألفا

وعمم النَّوْرُ رؤسَ الرُّبَا وجلل النور وجوه الشموس
وأطرب الغصن نسيم الصبا فالدوح للشكر تحط الرؤس
واستقبل البدر ليالى التمام وصافح الصبح بكف خضيب
وراجع الأطيار سجع الحمام بكل ذى لحن بديع غريب
نواسم الوادى بمسك تفوح ونفحة الند به تعبق
وبهجة السكان فيه تلوح وجوّه من نوره يشرق
وعَرْفُه بالطيب منه يفوح كأنه من عنبر يفتق
والنهر قد سل كمثل الحسام حبابه تطفو وطورا تغيب
وثغره قد راق منه ابتسام يُهَنِّئُ الحِبَّ بقرب الحبيب
كواكب أبراجهن الخدور يلوح منها كل بدر لياح(١)
جواهر أصدافهن القصور نظمها السعد كنظم الوشاح
يا حبذا والله ركب السرور يبشر المولى بنيل اقتراح
ابتهج الكون بموسى الإمام واختال فى برد الشباب القشيب
وعادهُ يخدم مثل الغلام شبابه قد عاد بعد المشيب
أكرم به والله وفد الكريم مولى سنا الحرة فى مقدمه
مرضاتها تحظى بدار النعيم وتوجب التوفيق من منعمه
بشره النصر وفتح جسيم وخيره أجمع فى مَقْدَمه
لقاؤها المبرور مسك الختام بشرك الله بصنع عجيب
وقصرك الميمون قصر السلام خط بحفظ من سميع مجيب
مولاى يهنيك وحق الهنا قد نظم الشمل كنظم السعود

(١) الأبراج : جمع برج — بالضم — واحد بروج السماء ، ويجمع البرج أيضا على بروج وأبرجة ، واللياح — بفتح اللام بزنة السحاب — الأبيض من كل شىء وقال الشاعر :

* يضىء كالقمر اللياح *

قد فزت باُلفخر ونيل المنى ... وأنجز السعدُ جميعَ الوعود

وقرت العين وزال العنا ... وكلما مر صنيع يعود

ولايزل ملـكك حِلْفَ الدوام ... يَحُوز فى التخليد أو فى نصيب

يتلو عليك الدهر بعد السلام ... (نصر من الله وفتح قريب)

وقال رحمه الله تعالى فى وصف غرناطة والطرد وغيرها :

لله ما أجْمَلَ رَوْضَ الشباب ... من قبل أن يفتح زهر المشيب

فى عهده أدرت كأس الرُّضَابْ ... حبابها الدر بثغر الحبيب[1]

من كل من يخجل بدر التمام ... إذا تبَدَّى وجهُهُ للعيون

ويفضح الغصن بلين القوام ... وأين منه لين قَدِّ الغصون

ولحظه يمضى مَضَاء الحسام ... ويذهل العقل بسحر الجفون

أبصرت منه إذ يحط النِّقَابْ ... شمسا ولـكن مالها من مغيب[2]

إذا تجلت بعد طول ارتقاب ... صَرَفْتُ عنها اللحظ خوف الرقيب

مَنْ عاذرى منه فؤادا صبا ... لِلاَمِـعِ البرق وخَفْقِ الرياح

يطير إن هب نسيم الصبا ... تعيره الريح خفوق الرياح

ما أولع الصب بعهد الصبا ... وهل على مَنْ قد صَبَا من جُنَاحْ

فقلبه من شوقه فى التهاب ... قد أحرق الأكباد منه الوجيب

والجفن منه سحبه فى انسكاب ... قد روض الخد بدَمْعٍ سكيب

غرناطة ربع الهوى والمنى ... وقُرْبُهَا السؤل ونيل الوطر

وطيبها بالوصل لو أمكنا ... لم أقطع الليل بطول السهر

عما قريبٍ حق فيها الهنا ... بيمن ذى العودة بعد السفر

---

(١) الرضاب — بضم الراء ، بزنة الغراب — ماء الفم (الريق)

(٢) النقاب — بكسر النون ، بزنة الـكتاب — ماتغطى به المرأة وجهها

ويحمد الناس نجاح الإياب ... بكل صنع مستجد غريب
ويكتب الفالُ على كل باب ... (نصر من الله وفتح قريب)
ما لذة الأملاك إلاَّ القنص ... لأنه الفال بصيــــد العدا
كم شارد جرّع فيه الغُصَصْ ... وأورد المحروب وِرْدَ الردى
وكم بدَا الفحص لنا من حصص ... قد جمع البأس بها والندى

ومنها بعد أبيات من الوزن والروى :

مولاى مولاى، وأنت الذى ... جددت للأملاك عهد الجلال (١)
والشمس والبدر من العُوَّذِ ... لما رأت منك بديع الجمال
والروض فى نعمته يغتدى ... بطيب ما قد حُزته من خلال
بشراك بشراك بحسن المآب ... تستضحك الروض بثغر شَنِيبْ (٢)
ودمت محروس العلا والجناب ... بعصمة الله السميع المجيب

انتهى ما انتقيته من كلام ابن زَمْرَك من كتاب ابن الأحمر ، رحمه الله تعالى !
وقد عرفت منه ما تسنى للغنى بالله بن الأحمر من الفتوحات والسعود ونفاذ الأمر على ملوك المغرب ، فهو الأحق بقول لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى :

ملك إذا عاينت منه جَبينه ... فارقْتُهُ والنورُ فوق جبينى
وإذا لثمت يمينه وخرجت من ... أبوابه لَثَمَ الملوكُ يمينى

وكان الغنى بالله المذكور معتقدا فى الصالحين ، حتى إنه كتب وهو بفاس مخلوعٌ إلى ضريح ولى الله سيدى أبى العباس السبتى بمراكش ، ومن إنشاء وزيره لسان الدين على لسانه :

* يا ولى الإله أنت مطاع *

---

(١) الأملاك : جمع ملك ، بكسر اللام .
(٢) ثغر شنيب ، وأشنب : فم عذب بارد الريق صافى الأسنان براقها

الأبيات والنثر بعدها ، وقد ذكرتهما فى الباب الخامس فراجعه ، وكان ذلك بفضل الله تعالى عنوان رجوعه إلى ملكه ، ونَظْم تلك الأماكن فى سِلْكه ، حتى حصلَ له من السعد ما لم يحصل لغيره حسبما يعلم ذلك من كلام لسان الدين وابن زَمْرَك وغيرهما .

ترجمة أبى العباس أحمد بن جعفر السبتى ، الخزرجى

والسبتى المذكور : هو سيدى أبو العباس أحمد بن جعفر ، السبتى ، الخزرجى ، الولى الصالح العالم العارف بالله ، القطب ، ذو الكرامات الشهيرة ، والمناقب[1] الكثيرة ، والأحوال الباهرة ، والفضائل الظاهرة ، والأخلاق الطاهرة ، نزيل مراكش ، وبها توفى سنة إحدى وستمائة ، وولادته بسبتة عام أربعة وعشرين وخمسمائة ، ودفن خارج مراكش ، وقبره مشهور مقصود بإجابة الدعاء ، وقد زرته مراراً كثيرة ، فرأيت عليه من ازدحام الناس مالا يوصف ، وهو ترياق[2] مجرب .

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى : كان سيدى أبو العباس السبتى ـ رضى الله تعالى عنه ! ـ مقصودا فى حياته ، مستغاثا به فى الأزمات ، وحاله من أعظم الآيات الخارقة للعادة ، ومَبْنَى أمره على انفعال العالم عن الوجود ، وكونه حكمة فى تأثير الوجود[3] ، له فى ذلك أخبار ذائعة وأمثال باهرة ، ولما توفى ظهر هذا الأثر على تربته ، وتشبث بلحده ، وانسحب على مكانه عادة حياته ، ووقع الإجماع على تسليم هذه الدعوى ، وتخطى الناس مباشرة قبره بالصدقة إلى بعثها له من أماكنهم على بعد المدى ، وانقطاع الأماكن القُصَى ، تحملهم أجنحة نياتهم فتهوى إليه بمقاصدهم من كل فج عميق ، فيجدون الثمرة المعروفة والكرامة المشهورة.

وقال ابن الزيات : كان أبو العباس قد أعطى بَسْطَة فى اللسان ، وقدرةً على الكلام ، لا يناظره أحد إلا أفحمه ، ولا يسأله إلا أجابه ، كأن القرآن والحجج

---

(١) المناقب : المحامد ، واحدتها منقبة ، وكثرت فى لسان المتصوفة بمعنى الكرامات

(٢) الترياق ـ بكسر التاء وسكون الراء ـ أصله دواء السموم

(٣) فى نسخة عند ب «وكونه مبدأ للوجود»

على طَرَف لسانه حاضرة ، يأخذ بمجامع القلوب ، ويسحر العامة والخاصة ببيانه ، يأتيه المنكرون للانكار فما ينصرفون إلا مُسَلِّمين(١) منقادين ، وشأنه كله عجيب ، وهو من عجائب الزمان .

وحدثنى مشايخنا أنهم سمعوه يقول : أنا القطب .

وحدثنى أبو الحسن الصنهاجى من خواص خدّامه قال : خرجت معه مرةً لصهريج غابة الرمان يوم عرفة ، فجلسنا هناك وصلينا ، فقال لى : إنما سمى هذا اليوم يوم عرفة لانتشار الرحمة فيه لمن تعرّف إليه بالطاعات ، وقد فاتنا عرفة ، فتعال نمثل بهذا المكان ونعمل كما يعملون(٢) ، لعل الله تعالى يتغمدنا برحمته معهم ، فعمل مكانا دائرا بعين الكعبة ومحل عنصر الماء الحجر ، وموضعا آخر مقام إبراهيم ، وطاف بالعين أسبوعا وأنا أطوف بطوافه ، وكبر على العنصر فى كل طواف ، وصلى قِبَلَ المقام ركعتين تامتين ، وأطال فى سجود الثانية ، ثم استند إلى الشجرة ثم قال لى : يا على ، اذكر كل حاجة لك من حوائج دنياك تقضى ، فإن الله تعالى وعد فى هذا اليوم من تعرّف له أن يقضى حوائجه ، فقلت له : ما أريد إلا التوفيق ، فقال لى : ما خرجت معك من باب المدينة حتى وقفت ، فسألته عن حاله من بدايته إلى نهايته ، وبم تنفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء ؟ ولم صار يأمر بالصدقة والإيثار مَنْ شكا إليه حالا أو تعذر عليه مطلب فى هذه الدار ؟ فقال لى : ما آمر الناس إلا بما ينتفعون به ، وإنى لما قرأت القرآن وقعدت بين يدى الشيخ أبى عبد الله الفخار تلميذ القاضى عياض ونظرت فى كتب الأحكام وبلغت من السن عشرين سنة وجدت قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) فتدبرته وقلت : أنا مطلوب ، فلم أزل

---

(١) سلم له الأمر — بتشديد اللام — ترك الخلاف وأذعن لما يراه

(٢) هذا العمل مكروه ، بل قال جماعة من علماء الحنفية : هو مكروه تحريما ، لأن الوقوف والطواف عهد كل منهما قربة فى مكان بعينه ، فلا يجوز فعله فى غيره ، ولم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم فعل ذلك ولا واحد من أصحابه ، وما نقل عن ابن عباس أنه فعل ذلك بالبصرة محمول على أنه خرج للاستسقاء ونحوه لا للتشبه بأهل عرفات.

أبحث عنها إلى أن وقفت على أنها نزلت حين آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وأنهم سألوا النبى صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم حكم المواخاة ، فأمرهم بالمُشَاطرة[1] ، ففهمت أن العدل المأمور به فى الآية هو المشاطرة ، ثم نظرت إلى حديث « تفترق أمتى على ثلاثين فرقة[2] — الحديث » وأنه صلى الله عليه وسلم قاله صبيحة اليوم الذى آخى فيه بين المهاجرين والأنصار ، وذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين ، فقال لهم ذلك بأثره ، فعلمت أن الذى هو عليه وأصحابه المشاطرة والإيثار ، فعقدت مع الله تعالى نية أن لا يأتينى شىء إلا شاطرت فيه الفقراء ، فعملت عليه عشرين سنة ، فأثمر لى الحكم بالخاطر ، فلا أحكم على خاطرى بشىء إلا صدق ، فلما أكملت أربعين سنة راجعت تدبر الآية فوجدت الشطر هو العدل ، والإحسان ما زاد عليه ، فعقدت مع الله تعالى أن لا يأتينى قليل ولا كثير إلا أمسكت ثلثه وصرفت الثلثين لله تعالى ، فعملت عليه عشرين سنة ، فأثمر لى الحكم فى الخلق بالولاية والعزل فأولى من شئت ، وأعزل من شئت ، ثم نظرت بعد ذلك فى أوّل ما فرضه الله تعالى على عباده فى مقام الإحسان ، فوجدت شكر النعمة ، بدليل إخراج الفطرة عن المولود قبل أن يفهم ، ووجدت أصناف مَنْ تصرف إليهم الصدقات لكن الواجبة وسبعة أصناف أخر أصرفها فيها للإحسان والزيادة ، وذلك أن لنفسك عليك حقاً ، وللزوجة حقاً ، وللرحم حقاً ، ولليتيم حقا ، وللضيف حقاً ، وذكر صنفين آخرين ، فانتقلت لهذه الدرجة ، وعقدت مع الله تعالى عقداً أن كل ما يأتينى أمسك سبعيه حق النفس وحق الزوجة وأصرف الخمسة أسباع لمستحقيها ، فأقمت عليه أربعة عشر عاماً ، فأثمر لى الحكم فى السماء ، فمتى قلت « يا رب » قال لى : لبيك ، ثم قال لى : إنها نهايتى بتمام عمرى ،

---

(١) المشاطرة ، هنا : أن تعطى شطر مالك : أى نصفه

(٢) كذا ، والمحفوظ « على ثلاث وسبعين فرقة »

وهو أن تنقضي لى ستة أعوام تكملة العشرين عاما .

قال الصنهاجي : فأرخت ذلك اليوم ، فلما مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ المكتوب ، وحققت العدد ، فنقصت من ستة أعوام ثلاثة أيام خاصة ، فيحتمل أن تكون من الشهور الناقصة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

وقال أبو بكر بن مساعد : جاء بعض السلاطين إلى أبي العباس وهو راكب ، وقال له : إلى متى تحيرنا ولا تصرح لنا عن الطريق ؟ فقال له : هو الإحسان ، فقال له : بين لى ، فقال له : كل ما أردْتَ أن يفعله الله تعالى معك فافعله مع عبيده .

وقال له أبو الحسن الخباز : أما ترى ما فيه الناس من القحط[1] والعلاء ؟ فقال : إنما حُبس المطر لبخلهم ، فلو تصدقوا لمُطِرُوا ، فقل لأصحابك الفلاحين : تصدقوا بمثل ما أنفقتم تمطروا ، فقال له : لا يصدقنى أحد ، ولكن مُرْنِى فى خاصة نفسى ، فقال له : تصدق بمثل ما أنفقت ، فقال له : إن الله تعالى لا يُعَامَلُ بالدَّيْنِ ، ولكن أستسلف ، فاحتال وتصدق بها كما أمره ، قال : فخرجت إلى البحيرة التى عمرتها والشمس شديدة الحر ، فأيست من المطر ، ورأيت جميعَ ما غرست مشرفا على الهلاك[2] ، فأقمت ساعة فإذا سحابة أمطرت البحيرة حتى رويت ، وظننت أن الدنيا كلها مطرت ، فخرجت فإذا المطر لم يتجاوزها ، انتهى .

والحكايات عنه فى مثل ذلك كثيرة .

وقال ابن الخطيب القسطميني فى رحلته : حضرت عند الحاج الصالح الورع الزاهد أبى العباس أحمد بن عاشر بمدينة سَلاَ ، وقد سأله بعضُ الفقراء عن كرامة الأولياء ، فقال له : لا تنقطع بالموت الكرامة ، انظر إلى السبتى ، يشير إلى الشيخ الفقيه العالم المحقق أبى العباس السبتى المدفون بمراكش ، وما ظهر عند قبره من

---

(١) القحط — بالفتح — الجدب

(٢) أشرف على الهلاك : قرب منه ودنا

البركات فى قضاء الحاجات بعقب الصدقات ، سمعت يهوديا بمراكش يلجأ لذكره وينادى باسمه فى أمر أصابه مع المسلمين ، فسألته عن سببه ، فأخبر أنه وجد بركته فى غير موطن ، فسألته عما بدا له فى وقت ، فقال لى : وحق ما أنزل على موسى ابن عمران ما أذكر لك إلا ما اتفق لى ، سَرَيْتُ ليلة مع قافلة فى مفازة[١] ، فعرِجَتْ دابتى ، فما شككت فى قتلى وسلب مالى ، فجلست و بكيت ، و بينى و بين الناس بعد ، وقلت : يا سيدى أبا العباس خاطرك ، قال لى : والله ما أتممت الكلام إلا وأهل القافلة أصابهم سبب وقفوا به ، وضربت دابتى ، وخف عرجها ، ثم زال ، واتصلت بالناس ، فقلت له : ولم لا تُسْلِم ؟ فقال : حتى يريد الله تعالى ، وعجبت من كون ذلك ليهودى ، وهذه شهادة من عدوّ فى الدين .

ولقد وقفت على قبره مرات ، وسألت الله تعالى فى أشياء يسّر لى فيها سؤلى : منها أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويُوصَفُ به ، وأن ييسر على فَهْم كتب عينتها ، فيسر الله تعالى على ذلك فى أقرب مدة .

وكان السبتى آية فى أحواله ، ما أدرك صحبتَهُ إلا الخواص من الناس ، وكان أصل مذهبه الحض[٢] على الصدقة ، وكان أمره عجبا فى إجابة الدعاء بنزول المطر ، واختصاصه بمكان دون آخر ، وقال لأصحابه : أنا القطب ، وكان تفقه على أبى عبد الله الفخار ، ووقفت على قبره ، وله بركات وأنوار .

وكان السبتى آية فى المناظرة ، وأوذِىَ باللسان كثيراً جداً فصفح وتجاوز .

ورأى عبد الرحمن بن يوسف الحسنى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم ، فقال له : يا رسول الله ، ما تقول فى السبتى ؟ قال : وكنت سيىء الاعتقاد فيه ، فقال لى بعد أن تبسم : هو من السُّبَّاق ، قال : فقلت بين لى يا رسول الله ، فقال : هو

---

(١) سريت : سرت ليلا ، والمفازة : الصحراء

(٢) الحض على الصدقة : الحث عليها وتزيين فعلها للناس

ممن يمر على الصراط كالبرق ، قال : فخرجت بعد الصبح ، فلقيني أبو العباس ، فقال لى : ما رأيت وما سمعت ؟ والله لا تركتك حتى تعرفنى ، فعرفته ، فصاح : كلمة الصفا من المصطفى صلى الله عليه وسلم ، انتهى ببعض اختصار .

وقال ابن الزيات : وحدثنى أبو العباس الصنهاجى وغيره أن رجلا يعرف بابن السكاك ، وكان غنيا فدار عليه الزمان وافتقر ، حدّث أنه وصل لأبى العباس السبتى ، وعليه ثوب خَلَق[1] تظهر منه عورته ، فشكا إليه حالته ، فأخذ بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت ، فجاء إلى مِطْهَرة هنالك ، قال : فدخل أبو العباس المطهرة وتجرد من أثوابه ونادانى ، وقال لى : خذ هذه الثياب ، فأخذتها ، وكان بعد العصر ، فأردت أن أرى ما يكون من أمره ، فصعدت إلى حائط هناك إلى قرب المغرب ، فإذا بفتًى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب ، فلما رأيته نزلت إليه ، فقال لى : أين الفقيه أبو العباس ؟ فقلت : ها هو فى الساقية عُرْيَان ، فقال لى : أمسك الدابة ، فسمعت الفقيه يقول له : أين تلك الثياب ؟ فأخذها منه ، وخرج ، فلما رآنى قال لى : ومالك هنا ؟ قلت : يا سيدى خفت عليك ، فلم أقدر على الانصراف وأتركك ، فقال لى : أفترى الذى فعلت ما فعلت له يتركنى ؟ ثم سألت الفتى عن سبب وصوله إليه ، فذكر له أن إحدى الكرائم أمرته أن يحمل إليه تلك الثياب ، وقالت له : لا تدفعها إلا للفقيه ، ولا يلبسها إلا هو ، وهذه قصة صحيحة مشهورة .

وقال ابن الخطيب : وروضته بباب تاغزوت أحد أبواب مراكش غير حافلة البناء ، ربما يتبرع متبرع باحتفالها فلا تساعده الأقدار ، وزرتها ، فرأيت فى داخلها أشياخا من أهل التعفف والتصوّف يسارقون خفية الناظر إلى مساقط

---

(١) ثوب خلق — بفتح الخاء واللام جميعا — وثوب أخلاق : رث قديم مهلهل

رحمات الله تعالى عليها لكثرة زائريها ، فيقتحم [١] ذو الحاجة بابها خالعاً نعله مستحضراً نيته و يقعد بإزاء القبر و يخاطبه بحاجته ، و يعين بين يدى النجوى [٢] صدقة على قبره ، و يدسها فى أوانى فى القبر معدة لذلك ، ومن عجز عن النقدين تصدق بالطعام ونحوه ، فإذا خف الزائرون آخر النهار عمد القائم إلى التربة إلى ما أودع هناك فى تلك الأوانى وفرقه على المحاويج الحافين بالروضة ، و يحصون كل عشية ، و يعمهم الرزق المودع فيها ، و إن قصر عنهم كملوه فى غده .

قال ابن الخطيب لسان الدين : وترافع خدام الروضة لقاضى البلد ، وتخاصموا فى أمر ذاك الرزق المودع هناك ، فسألهم القاضى عن خَرْجه اليوم ، فقالوا : يحصل فى هذه الأيام فى اليوم الواحد ثمانمائة مثقال ذهبا عينا ، وربما وصل فى بعض الأيام لألف دينار فما فوقها ، فروضة هذا الولى ديوان الله تعالى فى المغرب لا يحصى دَخْله ولا تحصر جبايته ، فالقبر يفيض ، واللجين يسيل ، وذوو الحاجات كالطير تغدو خِمَاصا وترجع بطانا ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقال : وأنا ممن جرب المنقول عن القبر ، فاطَّرَدَ القياس ، وتزيفت الشبهة ، وتعرفت من بدء زيارته ما تحققت من بركته ، وشهد على برهان دعوته ، انتهى .

وقال الشيخ أبو الحجاج يوسف التادلى فى كتابه « التشوّف ، إلى رجال التصوّف » : كان أبو العباس جميل الصورة ، أبيض اللون ، حسن الثياب ، فصيح اللسان ، مقتدراً على الكلام ، حليما ، صبوراً ، يُحْسِن إلى من يؤذيه ، ويحلم على من يسفه عليه ، رحيما عطوفا محسناً إلى اليتامى والأرامل ، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الطرق والسوق ، ويحض على الصدقة ، ويذكر فى فضلها آيات وأحاديث ، ويأخذها ويفرقها على المساكين ، ويرد أصول الشرع إلى

---

(١) اقتحم المنزل : هجمه ودخله ، وفى ب « فيقحم ذوالحاجة »

(٢) النجوى : المسارة ، وأصل هذا قوله تعالى : (إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة) والعلماء على أن هذه الآية نسخ حكمها قبل أن يعمل بها

الصدقة ، و يفسرها بها ، و يقول : معنى قول المصلى «الله أ كبر» أى : من أن نضن عليه[١] بشىء ، فمن رأى شيئاً من متاع الدنيا فى نفسه أ كبر لم يُحْرِم[٢] ولا كَبَّر ، ومعنى رفع اليدين للتكبير : تخليت من كل شىء لا قليلا ولا كثيراً ، وهكذا يتكلم بنحو هذا فى جميع العبادات ، و يقول : سِرُّ الصوم أن تجوع ، فإذا جعت تذكرت الجائع ، وما يقاسيه من نار الجوع ، فتتصدق عليه ، فمن صام ولم يعطف على الجائع فكأنه لم يصم ، إلى غير ذلك من كلامه فى مثل هذا .

وكان إذا أتاه امرؤ يأمره بالصدقة ، و يقول له : تصدق، و يتفق لك ما تريده ، وأخباره فى ذلك كثيرة عجيبة .

قال التادلى : وحدثنى ولدُه الفقيهُ أبو عبد الله عن أبيه أنه قال : كان ابتداء أمرى وأنا صغير أنى سمعت كلام الناس فى التوكل ، ففكرت فى دقيقهِ ، فرأيت أنه لا يصح إلا بترك شىء ، ولم يكن عندى منه ، فتركت الأسباب ، واطرحت العلائق ، ولم تتعلق نفسى بمخلوق ، فخرجت سائحاً متوكلا ، وسرت نهارى كله ، فأجْهَدَنِى[٣] الجوع والتعب ، وقد نشأت فى رفاهية[٤] العيش ، ومامشيت قط على قدمى ، فبلغت قرية فيها مسجد ، فتوضأت ودخلت المسجد فصليت المغرب ثم العشاء ، وخرج الناس ، فقمت لأصلى ، فلم أقدر من شدة الجوع والتألم بالمشى ، فصليت ركعتين ، وجلست أقرأ القرآن إلى أن مضى جزء من الليل ، فإذا قارع يقرع الباب بعُنْف ، فاستجاب له صاحب الدار ، فقال له : هل رأيت بقرتى ؟ فقال : لا ، فقال : إنها ضلت ، وقد أ كثر عِجْلُها من الحنين فطلبها فلم يجدها فى القرية ، فقال أحدهم : لعلها فى المسجد وقت العتمة ، ففتحوا باب المسجد ودخلوا فوجدونى ، فقال صاحب البقرة : ما أظنك أ كلْتَ الليلة شيئاً ، فذهب وجاءنى

---

(١) نضن عليه : نبخل (٢) لم يحرم : لم يدخل فى الصلاة

(٣) أجهدنى : أتعبنى (٤) الرفاهية : السعة والنعومة

بكسرة خبز وقدح لبن ، ثم ذهب ليأتينى بالماء فوجد بقرته فى داخل الدار ، فخرج لجيرانه وقال لهم : ما زالت[1] البقرة من الدار ، وما كان خروجى إلا لهذا الفتى الجائع فى المسجد ، ثم رغَّبنى أن أمشى معه لمنزله ، فأبيت

وكان فى أول أمره يسكن فى الفندق ويعلم الحساب والنحو ويأخذ الأجرة على ذلك ، وينفقها على طلبة العلم الغرباء ، ويمشى فى الأسواق ، ويذكر الناس ، ويضربهم على ترك الصلاة ، ويأتى بالطعام على رأسه

وبات ليلة عند الطلبة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة ، فإذا بالحرس قد قرعوا باب الفندق ، فقام إليهم القيم بخدمته ، فقالوا له : ما تعلمون أن مَنْ رفع صوته بالليل يقتـــــل ؟ ثم قعد اثنان من الحرس على باب الفندق ليحملونا إذا طلع الفجر للقصر ، فجاء القيم فأخبرنا فأدركنا خوف عظيم ، وأيقنا بالهلاك ، فأخذ أبو العباس فى الضحك ولا يبالى ، ثم خلا بنفسه عند السحر ساعة ثم قال لنا : لا خوف عليكم ، قد استوهبتكم من الله تعالى ، وهذان الحرسيان الواقفان غدا يقتلان إن شاء الله تعالى ، فقيل له : الجزاء عندك على الأفعال من الخير والشر ، وهما لم يفعلا ما يوجب قتلهما ، بل جزاؤهما يُرَوَّعان[2] كما رَوَّعانا ، فقال : العلماء ورثة الأنبياء ، وترويعكم عظيم لا يقابله منكم إلا القتل ، فما زلنا نعارضه فى ذلك حتى قال : عقوبتهما أن يضرب كل واحد منهما مائة سوط ، ثم اجتاز عبد الله الخرّاز صاحب الوقت بالجامع الأعظم ، فوجد تابوته مفتوحا ، ورأى الحرسيين على قرب ، فلم يشك أنهما حلاه ، فحملا إلى رحبة القصر قبل طلوع الفجر ، فقال لنا أبو العباس : احضروا على ضربهما كما أرادا قتلكم ، فتبعناهما ، وحضرنا حتى ضرب كل واحد مائة سوط .

---

(١) زالت ، هنا : تحولت

(٢) يروعان : ينزل بهما الروع وهو الخوف

وكراماته ومناقبه كثيرة لاتحصى .

وكان يقول : أصل الخير فى الدنيا والآخرة الإحسان ، وأصل الشر فيهما البخل ، قال الله تعالى (فأما من أعطى ـ الآية) وقال عن إبليس (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ـ الآية) وقال (ومنهم من عاهد الله ـ الآية) وقال (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خَصَاصة[١]) وقال (إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) وقال (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) وقال (ليس البر أن تولوا وجوهكم) وقال (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض ـ الآية) فهذه الأمانة هى الرزق، فأعطت السموات ما فيها من الماء وهو المطر ، والأرض ما فيها من الماء النازل من الجبال ، والجبال ما فيها كذلك ، وأنبتت الأرض وأبت إمساكها ،فخزن الإنسان جميعها عنده ومنع المساكين إنه كان ظلوما جهولا ، وفى الحديث « هم الأقلون ورب الكعبة ، إلا من قال هكذا وهكذا ـ الحديث » ولما أراد الله تعالى إهلاك فرعون وقومَه دعا عليهم موسى بالبخل ، فقال (ربنا إنك آتيت فرعون ـ إلى قوله : دعوتكما) وكان رضى الله عنه فى آخر عمره كثيرا ما يقرأ هـذه الآية (أفرأيت الذى تولى ، إلى قوله : سوف يرى) وكان يقول : من قال إن الله تعالى لايجازى على الصدقات فقد وافقَ اليهود فى الفِرْية[٢] على تعالى لأنهم قالوا (يد الله مغلولة ، غلت أيديهم) أى لا يجازى على الصدقات ، قال الله تعالى (غلت أيديهم ـ إلى آخره) أى يجازى على العطاء كيف شاء ، وكان يقول فى قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ـ الآية) : إنما كُوِيت هذه المواضع لأن الغنى يُعرض عن المسكين بوجهه ، ثم بجنبه ، ثم بظهره ، فعوقبت هذه المواضع بالكى بالنار لإعراضه عن الفقير ، ومنازعه رحمه الله تعالى فى أمثال هذا كثيرة ، انتهى ملخصا .

---

(١) الخصاصه ــ بفتح الخاء ــ الحاجة

(٢) الفرية ــ بكسر الفاء وسكون الراء ــ الكذب

وحدث أبو إسحاق إبراهيم بن أبى يعمور أنه دخل صحبة الشيخ سيدى أبى العباس السبتى إلى الأمير السيد أبى سعيد عثمان يعوده ، فقال له : أدْعُ الله تعالى لى أيها الشيخ ، فقال له : أُرجع إلى الله تعالى حق الرجوع بحيث تتحقق أنه المُمْرِض والمعافى ، واُخرج عن بعض ما عندك من فضول الدنيا لأبناء الجنس ، لتكون ممن وُقى شح نفسه[1] ، فحينئذ يحصل لك ما ترجوه من الدعاء ، ثم التفت إلى الحاضرين وقال : فى المرض فوائد لا ينبغى أن تُجْهل : الأولى معرفة قدر العافية[2] ، الثانية تمحيص بعض الذنوب ، الثالثة توقع الثواب ، الرابعة تنقية الجسم من فضول الأخلاط ، الخامسة كثرة ذكر الله تعالى والتضرع إليه ، السادسة حدوث الرقة والشفقة ، السابعة ـ وهى العظمى ـ الصدقة والخروج عن رذيلة البخل ، انتهى .

وحدث الكاتب أبو القاسم بن رضوان عن أبى بكر بن منظور عن بعض أعيان مراكش أنه توفى وأوصى ابناله كان من أهل البطالة أن يعمد إلى ألف دينار من متخلفه ، فيدفعها للشيخ سيدى أبى العباس السبتى ، ففعل،وقال للشيخ : إن أبى توفى وأوصانى أن أدفع إليك هذه الألف دينار تضعها حيث شئت ، فقال له الشيخ : قد قبلتها وصرفتها إليك ، فقال له : يا سيدى ، وما تأمرنى أن أفعل بها ؟ قال : خذها ، قال : فانصرفت من عنده وسؤت ظنا بقوله ، ثم قلت : وأنا أنفق مثل ذلك على عادتى فى الوجه الذى يلذ لى ، فلأفعلن بها ما أفعل بغيرها ، فأخذتها فى محفظة ، وخرجت ألتمس الزنى ، فإذا امرأة على دابة وغلام يقودها ، فأشرت إلى الغلام ، فقال لى : نعم ، واتبعنى إلى بستان لى ، فنزلت المرأة ، فأدخلتها إلى قبة كانت فى البستان ، وأخذ الغلام الدابة وصار ناحية ، وقال : أغلق الباب ، ففعلت ، ثم أقبلت إلى القبة فإذا المرأة تبكى بكاء شديدا حتى طال

---

(١) هذا من قوله تعالى : (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)

(٢) من هذا قولهم : الصحة تاج على رؤس الأصحاء لا يقدره إلا المرضى

بكاؤها ، و بكيت لبكائها ، فقلت لها : ما شأنك ؟ فقالت: افعل ما دعوتنى لأجله ، ودع عنك هذا ، ونحيبها(١) يزيد ، فقلت لها : إن المعنى الذى دعوتك لأجله لا يصلح مع البكاء ، بل مع الأنس وانشراح الصدر وزوال الانقباض ورفع الخجل، فقالت : نترك البكاء ونرجع للأنس على ما تحب ويوفى غرضك ، فقلت : لا ، حتى أعلم سبب بكائك ، وألححت عليها ، فقالت : أتعرف حاجبَ الملك الذى سجنه ؟ قلت : نعم ، قالت : فأنا ابنته ، ولم يبق له أحد غيرى ، وقد سجنه الملك وأخذ أمواله ، فما زلت أبيع ما ترك أبى وأنفقه عليه ، حتى لم يبق بيدى شىء ، فلما أعيتنى الحيلة فيما أنفقه ألجأت نفسى ووقفت هذا الموقف وأنا بكر ما رأى لى أحد وجها قط ، فرميت لها بالألف دينار وقلت لها : والله لا قربت منك على هذا الوجـه أبدا ، فأنفقى الدنانير على والدك إلى أن تنفدَ ، وابعثى لى غلامك أعلمه بمنزلى ، ولازمى دارك ، واستمرى على صيانتك و إلا فضحتك ، وترينى والله لا أزال أبيع أملا كى وأنفقها على والدك حتى أموت أو يفنى كل ما أملـكه ، ثم خرجت ألتمس الغلام و إذا بجماعة يطلبون البنت ، وقالوا : إن الملك رضى عن والدها ، ورد عليه ضياعه وأملاكه ، ووصله بعشرة آلاف دينار ، وقعد يلتمس بنته فلم توجد ، فسُقط فى يد الغلام الذى كان مع الدابة ، وظن أن الأمر على ماجرى بينى و بين البنت ، فبادرته وقلت له : لا عليك ، فتجاهل فى خبرها حتى ينصرفوا ، ودخلت إلى البنت وقلت لها : إن الملك قد رضى عن والدك ، ورد عليه ماله ، ووَصَله ، فسيرى إلى دارك ، فركبت دابتها وانصرفت ، فدخلت على والدها فقال لها : أين كنت؟ وما الذى أخرجك عن دارك ؟ وهَمَّ بها ، فقالت له : أخْرِجْ عنى كل من فى الدار ، ففعل ، فأخبرته أمرها مع الشاب من أوله إلى آخره ، ورمت إليه بالألف دينار ،

---

(١) النحيب : البكاء مع رفع صوت

وقالت له : هذا الذى أعطانى لأنفق عليك ، فقال أبوها : هذا والله هو الكبريت الأحمر ، والله لو كان أبوه كنافا[١] ما أنفت أن أزوجك منه ، فوجه العبد الذى كان معها إلى الشاب ، وقال له : إن سيدى يدعوك ، قال : فخفت أن يوضع عنده الأمر على غير وجهه ، ثم أقدمت إقدام مَنْ علم براءة نفسه ، فدخلت عليه ، فقام إلى وعانقنى ، وقد عرف لى مقامى ، وقال : أما الآن وأنت من أعيان الناس فقد قرت بك عينى ، وقال : والله لو كان أبوك كنافا[١] ما أنفت لبنتى أن أزوجك منها ، فما قام من المجلس حتى وجه إلى العدول وأشهد على نفسه بأنه زوج ابنته فلانة من هذا الشاب ، ونَقَدَها عنه الشطر الأول من العشرة آلاف دينار التى وصله بها الملك وأجَّلَ لها عنه الشطر الثانى ، وأهدى لها من الحلى كذا وكذا ، ومن الثياب كذا وكذا ، حتى أتى على أكثر أملاكه حتى أنفقها على ذلك ، فحصل من إشارة الشيخ السبتى - رضى الله عنه ! - فى تلك الألف دينار على أضعاف مضاعفة من الأموال ، وظفر ببنت حاجب الملك ، انتهى .

رجع إلى ترجمة ابن زمرك

رجع إلى ابن زمرك رحمه الله تعالى .

قال الشاطبى فى الإشارت والإفادات ما صورته : إفادة - أفادنى صاحبنا الفقيه الكاتب أبو عبد الله بن زمرك إثر إيابه إلى وطنه من رحلة العُدْوَة فى علم البيان فوائد أذكر منها الآن ثلاثة : الفقه فى اللغة ، وهو النظر فى مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب ، ومن مثل هذا الوجه «قرم» و«عام» إذا اشتهى ، لكن لا يستعمل «قرم» إلا مع اللحم[٢] ، ولا يستعمل «عام» إلا مع اللبن[٣] ، فتقول : عِمْتُ إلى اللبن ، وكذلك قولهم : أصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، ولا يقال بالعكس ، وهذا كثير . والثانية تحرى الألفاظ البعيدة عن طرفى الغرابة والابتذال ، فلا يستدل بالحوشى من

---

(١) كناف : عمله فى الكنف ، وهى المراحيض

(٢) قرم الرجل — من باب طرب — اشتدت شهوته إلى اللحم

(٣) عام الرجل يعيم — من باب ضرب — إذا كانت به شهوة إلى اللبن

اللغات ولا المبتذل فى ألسن العامة . والثالثة اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أوتشوش عليه ؛ إذ المقصود الوصول فى بيان المعنى إلى أقصاه ، والإتيان بما يحصله سريعا ويمكنه فى الذهن ، وتحرى كل صيغة تمكن المعنى وتحرض السامع على الاستماع ، وأخبرنى أن كتاب المغرب يحافظون فى شعرهم وكتابتهم على طريقة العرب ، ويذمّون ماعداها من طريقة المولدين ، وأنها خارجة عن الفصاحة ، وهذه المعانى الثلاثة لا توجد إلا فيها .

وذكر من شرح بديعية الحلى من المغاربة وهو الشيخ النحوى عبيد الثعالبى فى شواهد حسن الختام أن منه ختام قصيدة للكاتب البارع أبى عبدالله المعروف بابن زمرك الأندلسى مدح بها ملك المغرب عبد العزيز حين قدم عليه رسولا من صاحب الأندلس ، وهوقوله :

ولو أنشدت بين العذيب وبارق لقال رواة الغرب ياحبذا الشرق

ولم يظهر لى كل الظهور دلالته لى على حسن الختام ، ولابد ، فالله سبحانه أعلم .

موشحة لابن زمرك فى مديح الرسول

وقد أطلنا فى ترجمة ابن زمرك فلنختم نظامه بموشحة له زهرية مولدية تضمنت مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهى هذه :

لو ترجع الأيام بعد الذهاب لم تقدح الأيام ذكرى حبيب
وكل من نام بليـل الشباب يوقظه الدهر بصبح المشيب
يا راكب العجز ألاَ نهضة قد ضيق الدهر عليك المجال
لا تحسبن أن الصبا روضة تنام فيهـا تحت فَىْء الظلال
فالعيش نوم والردى يقظة والمرء ما بينهما كالخيـال[1]
والعمر قد مر كمر السحاب والملتقى بالله عمـا قريب
وأنت مخدوع بلَمْعِ السراب تحسبه ماء ولا تستريب[2]

---

(١) هذامن قولهم : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا

(٢) السراب : ماتراه فى الصحارى كأنه ماء وليس بماء

والله ما الكون بما قد حوى إلاَّ ظلال توهم الغافلا

وعادة الظل إذا ما استوى تبصره منتقلا زائلا

إنا إلى الله عبيد الهوى لم نعرف الحق ولا الباطلا

فكل من يرجو سوى الله خاب وإنما الفوز لعبد منيب (١)

يستقبل الرُّجْعَى بصدق المتاب ويرقب الله الشهيد الرقيب

يا حسرة! مر الصبا وانقضى وأقبل الشيب يقص الأثر

واخجلتا والرحل قد قُوِّضَا وما بقى فى الخبر غير الخبر (٢)

وليتنى لو كنت فيما مضى أدخر الزاد لطول السفر

قد حان من ركب التصابى إياب ورائد الرشد أطال المغيب

يا أكمه القلب بغَيْنِ الحجاب كم ذا أناديك فلا تستجيب

هل يحملُ الزاد لدار الكريم والمصطفى الهادى شفيع مطاع

فجاهه ذخر الفقير العديم وجبه زادى ونعم المتاع

والله سَمَّاه الرؤف الرحيم فجاره المكفول ما إن يضاع

عسى شفيع الناس يوم الحساب وملجأ الخلق لرفع الكروب

يلحقنى منه قَبُول مجاب يشفع لى فى مُوبِقات الذنوب

يا مصطفى والخلق رهن العدم والكون لم يفتق كمام الوجود

مزية أعطيتها فى القدم بها على كل نبى تسود

مولدك المرقوم لما انجم أنجز للأمة وعد السعود

ناديت لو يسمح لى بالجواب شهر ربيع يا ربيع القلوب

أطلعت للهدى بغير احتجاب شمسا، ولكن مالها من غروب

---

(١) منيب . راجع إلى ربه تائب من ذنبه

(٢) قوضت الرحل : هدمته ، وذلك عندما أريد الانتقال

ابن المهنا الطبيب

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى، الطبيب العالم ابن المهنا شارح ألفية ابن سينا : وشرحه عليها من أبدع الشروح ، وقد نقل فيه عن لسان الدين كثيرا ، واعتمد عليه في أمور الطب ، وقد طال عهدى به الآن ، وهو من الكتب المشهورة بالمغرب ، ولم أره بهذه الديار المشرقية .

أبو بكر بن جزى الكلبي

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : الأديب الكاتب العالم العلامة القاضى أبو بكر بن جُزَى الكلبى ، وأبوه الشيخ أبو القاسم بن جزى شيخ لسان الدين ، و بيت بنى جزى بيت كبير مشهور بالمغرب والأندلس ، وقد عرفنا فيما سبق بالشيخ أبي القاسم وابنيه العلامتين (١) الناظمين الناثرين الكاتب أبى عبد الله محمد والقاضى أبى بكر المذكور ، فليراجع فى الباب الثالث .

ورأيت بخط بعض علماء المغرب أن أبا بكر المذكور روى عن لسان الدين ابن الخطيب ـ رحمه الله تعالى ! ـ جميع تواليفه مع أنه مقارب به فى السن ، ولكن الإنصاف فى ذلك الزمان غير معدوم ، وقد عرف به لسان الدين فى « الإحاطة » والذى فهمت من عبارته فى الإحاطة أنه إن عبر بصاحبنا فلا يطلقها غالبا إلا على تلامذته ، ور بما أطلقها على غيرهم كما لا يخفى على من مارس كلامه ، رحمه الله تعالى ! وأتقن تاريخ أهل المغرب والأندلس ، رحم الله تعالى الجميع ! .

أبو عبد الله الشريشى

ومن تلامذة لسان الدين رحمه الله تعالى : مؤدب أولاد الملوك ومعلمهم القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو عبد الله الشريشى ، وهو الذى تولى أولا نقل « الإحاطة » من مبيضتها ، كما سبقت الإشارة إليه فى كلام (٢) حفيد السلطان ابن الأحمر ، وأحكم نسخه ، فكانت فى مجلدات ستة ، وكان لسان الدين ألقى إليه بالمبيضات اعتمادا منه عليه ، وثقة به ، لاشتغال لسان الدين بأمور المملكة

(١) انظر الجزء الثامن ص ٢٨ ، ٣١ ، ٤٠ وما بعدها

(٢) انظر ص ٣١٤ من الجزء التاسع من هذا الكتاب

ومن تلامذة لسان الدين : القاضى الكاتب أبو محمد عطية بن يحيى بن عبد الله ابن طلحة بن أحمد بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربى .

أبو محمد عطية بن يحيى ، المحاربى

قال فى « الإحاطة » : صاحبنا الفقيه الخطيب ، كاتب الأنشاء بالباب السلطانى أبو محمد ، نسيج وحده فى أصالة البيت وعفاف النشأة ، مقصود المنزل ، نبيه الصهر ، معم مخول[1] فى الأصالة ، بارع الخط ، جيد القريحة ، سيال المداد ، نشيط البنان ، جَلْد على العمل ، خطيب ناظم ناثر ، قرأ بغرناطة ، وولى الخطابة بالمسجد الأعظم والقضاء سنتين ببلده فى حداثة السن ، ثم انتقل إلى غرناطة فجأجأت[2] به الكتابة السلطانية داحضة بالحق آوته إلى هضبة أمانة مستظهرة ببطل كفاية ، فاستقل رئيسا فى غرض إعانتى وانتشالى من هفوة الكلفة على جلل الضعف وإلمام المرض ، ثم كشفت الخبرة منه عند الحادثة على الدولة و إزعاجها من الأندلس عن سَوْأة لا تُوَارَى ، وعورة لا يرتاب فى أشنوعتها ولا يتمارى ، فسبحان من علم النفس فجورها وتقواها ، إذ لصق بالداهى الفاسق فكان آلة انتقامه ، وجارحة صيده ، وأحبولة كيده ، فسفك الدماء ، وهتك الأستار ، ومزق الأسباب وبدل الأرض غير الأرض ، وهو يزقه فى أذنه زقوم النصيحة ، ويستحله لقب الهداية ، ويبلغ فى شوارزه إلى الغاية ، عنوان عقل الفتى اختياره ، يجرى فى سبيل دعوته طوالا ، أخرق يسىء السمع فيسىء الإجابة ، بدويا قحا جهوريا ذاهلا عن عواقب الدنيا والآخرة ، طرفا فى سوء العهد وقلة الوفاء ، مردودا فى الحافرة ، منسلخا من آية السعادة ، تشهد عليه بالجهل يدهُ ، ويقيم عليه الحجج شرهُهُ ، وتبوئه هفوات الندم جهالته ، ثم أسلم المحروم مصطنعه أحوج ما كان إليه ، وتبرأ منه ، ولحقته بعده مطالبة مالية لقى لأجلها ضغطا ، وهو الآن بحال خزى ، واحتقاب

---

(١) يقال « فلان معم مخول » إذا كان كريم الطرفين من جهة أبيه وأمه

(٢) جأجأت به : دعته

تبعات ، واستدعيت شيئا من نظمه ونثره حال التصنيف ليترجم به ، فكتب إلى ما نصه :

يا سيداً فاق فى مجد وفى شرف ... وفات سبقا بفضل الذات والسلف

وفاضلا عن سبيل الذم منحرفا ... وعن سبيل المعالى غير منحرف

وتحفة الزمن الآتى به فلقد ... رَبَا بما حازه منها على التُّحَفِ

ومعـــدنا لنفيس الدر فهو لما ... حواه منه لدى التشبيه كالصدف

وبحر علم جميعُ الناس مغترف ... منه ، ونيل المعالى خير مؤتلف

وسابقا بذ أهل العصر قاطبة ... فالـكل فى ذاك منهم غير مختلف

من ذا يخالف فى نار على علم ... أو يَجْحَدُ الشمس نورا وهو غير خفى ؟

ما أنت إلا وحيد العصر فى شِيَمٍ ... وفى ذكاء وفى علم وفى ظرف

لله من مُنْتَمٍ للمجد منتسب ... بالفضل متسم ، بالعلم متصف

لله من حسب عدّ ومن كرم ... قد شاده السلف الأخيار للخلف

إيه أيا من به تبأى الوزارة إذ ... كنت الأحق بها فى الذات والشرف

ياصاحبَ القلم الأعلى الذى جمعت ... فيه المعالى فبعض البعض لم أصف

يا من يقصر وصفى فى علاه ومن ... أنسى مديح حَبيب فى أبى دُلَف [1]

شرفتنى عند ما استدعيت من نظمى ... نظما تدوّنه فى أبدع الصحف

وربما راق ثَغْرٌ فى تبسمه ... حتى إذا ناله إلمام مرتشف

أجِلُّ قدرك أن ترضى لمنتجع ... بسوءِ كِيلَته حظا مع الحشف

هـــذا ، ولو أننى فيما أتيت به ... نافحت بالطيب زهر الروضة الأُنُف [2]

لـكنت أفضى إلى التقصير من خجل ... إذ لست بالبعض مما تستحق أفى

---

(١) حبيب : هو أبو تمام حبيب بن أوس

(٢) روضة أنف ــ بضم الهمزة والنون جميعا ــ أى لم يسبق أحد إلى رعيها

فحسبيَ العجز عما قد أشرت به ... فالعجز حتما قُصارى كل معترف
لـكن أجبت إلى المطلوب ممتثلا ... وإن غدوتُ بمرمى القوم كالهدف
فانظر إليها بعين الصفح عن زلل ... واجعل تصفُّحها من جملة الـكُلَف
بقيت للدهر تطويه وتنشره ... تسمو من العز باسم غير منصرف

ثم ذكر نثرا ، وأن مولده بوادى آش آخر عام تسع وسبعمائة ، وولى الخطابة والإمامة بها عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة ، ثم ولى القضاء بها وبأعمالها عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ، ثم انتقل للحضرة آخر رجب عام ستة وخمسين وسبعمائة ، ومن شعره قولُه :

ألا أيها الليل البطىء الـكواكب ... متى ينجلى صبح بنيل المآرب
وحتى متى أرعى النجوم مراقبا ... فمن طالع منها على إثر غارب
أحدث نفسى أن أرى الركب سائرا ... وذنبيَ يُقْصينى بأقصى المغارب
فلا فُزْتُ من نيل الأمانى بطائل ... ولا قمت فى حق الحبيب بواجب
فـكم حَدَّثتنى النفس أن أبلغ المنى ... وكم عَلَّلتنى بالأمانى الـكواذب
وما قصرت بى عن زيارة قبره ... معاهد أنس من وصال الـكواعب
ولا حُبُّ أوطان نبت بى ربوعها ... ولا ذكر خل حل فيها وصاحب
ولـكن ذنوب أثقلتنى فها أنا ... من الوجد قد ضاقت علىّ مذاهبى
إليك رسولَ الله شوقى مجدد ... فياليتنى يممت صدر الركائب(١)
فأعملت فى تلك الأباطح والربا ... سُرَاى مجدًّا بين تلك السباسب(٢)
وقضيت من لثم البقيع لُبانتى ... وجبت الفلا ما بين ماش وراكب(٣)
ورويت من ماء بزمزم غُلَّتى ... فلله ما أشهاه يوما لشارب(٤)

---

(١) يممت : قصدت (٢) السباسب : الصحارى ، واحدها سبسب

(٣) جبت : قطعت (٤) الغلة ـ بالضم ـ حرارة الباطن من عطش ونحوه

حبيبي شفيعي منتهى غايتي التي ... أرجِّي ومن يرجوه ليس بخائب

محمد المختار والحاشر الذى ... بأحْمَدَ حاز الحمد من كل جانب

رؤوف رحيم خصَّنا الله باسمه ... وأعْظِمْ بماح فى الثناء وعاقب

رسول كريم رَفَّع الله قدره ... وأعلى له قدرا رفيع الجوانب

وشرفه أصلا وفرعا ومحتدا ... يزاحم آفاق السما بالكواكب

سراج الهدى ذو الجاه والمجد والعلا ... وخير الورى الهادى الكريم المَنَاسب

هو المصطفى المختار من آل هاشم ... وذو الحسب العدّ الرفيع المناصب

هو الأمد الأقصى هو الملجأ الذى ... ينال به مرغوبَهُ كلُّ راغب

إمام النبيين الكرام ، وإنه ... لكالبدر فيهم بين تلك المواكب

بشير نذير مفضل مُتطوّل ... سراج منير بَذَّ نور الكواكب(١)

شريف منيف باهر الفضل كامل ... نفيس المعالى والحلى والمناقب

عظيم المزايا ماله مِنْ مُماثل ... كريم السجايا ماله من مناسب

ملاذ منيع ملجأ عاصم لمن ... يلوذ به من بين آتٍ وذاهب

جليل جميل الخلق والخلق ماله ... نظير ، ووصف الله حجة غالب

وناهيك من فرع نمَتْه أصوله ... إلى خير مجد من لؤى بن غالب(٢)

أولى الحسب العد الرفيع جنابُه ... بدور الدياجى أوصدور الكتائب(٣)

له معجزات ما لها من معارض ... وآيات صدق ما لها من مغالب

تَحَدَّى بهن الخلق شرقا ومغربا ... وما ذاك عمن حاد عنها بغائب

فدونكها كالأنجم الشهب عدة ... ونورسَنًا لا يختفى للمراقب

وإحصاؤها مهما تتبعت مُعْوز ... وهل بعد نور الشمس نور لطالب

---

(١) بذ : فاق وغلب (٢) نمته : نسبته

(٣) الدياجى : الظلم ، كأن واحدها ديجاة ، والكتائب : الجيوش ، واحدها كتيبة

لقد شرف الله الوجود بمُرْسَلٍ | له فى مقام الرسل أعلى المراتب
وشرف شهراً فيه مولده الذى | جلا نوره الأسنى دياجى الغياهب
فشهر ربيع فى الشهور مقدم | فلا غرو أن الفخر ضربة لازب(١)
فلله منه ليلة قد تلألأت | بنور شهاب بين الأفق شاهب
ليهن أميرَ المسلمين بها المنى | وأنْ نال من مولاه أسنى الرغائب
على حين أحياها بذكر حبيبه | وذكر الكرام الطاهرين الأطايب
وألف شملا للمحبين فيهمُ | فسار على نَهْج من الرشد لاحِبِ
فسوف يُجَازَى عن كريم صنيعه | بتخليد سلطان وحسن عواقب
وسوف يُرِيه الله فى نصر دينه | غرائب صنع فوق تلك الغرائب
فيحمى حمى الإسلام عمن يَرُومه | بسُمْر العوالى أو ببيض القواضب(٢)
ويعتز دين الله شرقا ومغربا | بما سوف يبقى ذكره فى العجائب
إلٰهِىَ مالى بعد رحماك مطلب | أراه بعين الرشد أسنى المطالب
سوى زورة القبر الشريف وإنه | لموهبة فاقت جميع المواهب
عليه سلام الله ما لاح كوكب | وما رافق الأظعانَ حادى الركائب

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وليس لهذا الرجل انتحال لغير الشعر والكتابة وغير هذا الشعر قران ، فقل أن ينتهى هذا الشعر فى الضعة والاسترذال إلى ما دون هذا النمط ، فهو بغير ثان شعراً وشكلا وبلدا ، لطف الله تعالى بنا وبه ! انتهى باختصار .

ومن تلامذة لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى الكاتبُ أحمد بن

---

(١) يقال « هذا الأمر ضربة لازب » أى أنه لامفر من حصوله
(٢) سمر العوالى : الرماح ، وبيض القواضب : السيوف

أحمد بن سليمان ابن فركون

سليمان بن فركون ، ومن نظمه على لسان مَنْ يرمى بالداء العُضَال فى فرَج عبدِ ابن زَمْرَك الوزير بعد ابن الخطيب :

قالوا كلفت به غلاما حالكا　　فأجبتهم فى فيه ما يرمى المهج

مهما جننت بحسنه وبحبه　　علقت فوقى منه حرزا من سَبَجْ

ورأيت بخط الوادي آشى ما صورته : وجدت بخط لسان الدين ، وخاتمه أعلام البيان المجيدين ، ذى الوزارتين أبى عبد الله بن الخطيب رحمه الله تعالى فى طرة اسم الكاتب أحمد بن سليمان بن فركون، المختص به ، المتأدب بما انفرد به من انتساخ تواليف ابن الخطيب ما نصه : يسقط هذا الساقط من الديوان ، انتهى .

ولعل لسان الدين إنما أمر بإسقاطه من الإحاطة لما يُتَّهم به من معنى بيتيه السابقين ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الباب الثامن

فى ذكر أولاده

الرافلين فى حُلل الجلاله ، المقتفين أوصافه الحميدة وخلاَله[1] ، الوارثين العِلم والعمل والرياسة والمجد عن غير كلاله[2] ، ووصيته لهم الجامعة لآداب الدين والدنيا ، المشتملة على النصائح الكافية والحكم الشافية من كل مرض بلا ثُنْيا[3] ، المنقذة من أنواع الضلاله ، وما يتبع ذلك من المناسبات القوية ، والأمداح النبوية ، التى لها على حسن الختام أظهر دلاله .

ذكر أولاد لسان الدين

أعلم ـ وفقنى الله تعالى و إياك لمرضاته ! وجعلنا ممن يعتبر بالدهر فى معضاته ! ـ أن أولاد لسان الدين ثلاثة : عبد الله ، ومحمد ، وعلى ، وكلهم حَدَّث عن أبيه وعن ابن الجياب .

محمد بن لسان الدين

أما محمد فقد نال حظه من التصوّف ، ولم يكن له إلى خدمة الملوك تشوّف[4] ، ولم يحضرنى الآن نص من أنبائه أكتبه لعدم وجود الكتب التى هى مَظَان ذلك ، إذ قد تركتها بالمغرب .

على بن لسان الدين

وقد سبق فيما مر من كلام ابن خلدون أن أولاد لسان الدين كانوا من نُدَماء السلطان وأهل خلوته ، وأن عليا كان خالصة السلطان ، رحم الله تعالى الجميع !

عبد الله بن لسان الدين

وأما عبد الله فقد كتب بالعُدْوَتين ، لملوك الحضرتين ، وتولى القيادة والكتابة بالأندلس أيام كان أبوه مدبر الدولة ، وأكثر الناس بها كالخواص حوله ، ولا أعلم الآن ما آل إليه أمره بعد وفاة أبيه ، وقد ألم ببعض التعريف

---

(١) الخلال : الخصال والسجايا ، واحدها خلة

(٢) ورثه عن غير كلاله : يراد به أنه انحدر إليه من أصوله

(٣) بلا ثنيا ـ بالضم ـ أى بغير استثناء (٤) تشوف : أى تطلع

ترجمة لسان الدين لابنه عبد الله

بمبدأ أحواله أبوه لسان الدين فى كتاب « الإحاطة » فى تاريخ غرناطة ، فقال فى حقه ما ملخصه : عبد الله بن محمد بن على بن سعيد بن الخطيب التلمسانى ، حسن الشكل ، جيد الفهم ، يُغَطى منه رمادُ السكون جمرةَ حركة ، منقبض عن الناس قليل البشاشة ، حسن الخط ، وَسَط النظم ، كتب عن الأمراء بالمغرب ، وأنشدهم ، وأقبض صكوكهم بالإقطاعات والإحسان ، واختال فى خِلَعهم ، ثم لما كانت الفتنة كتب عن سلطان وطنه معرز الخطة بالقيادة ، قرأ على قاضى الجماعة الخطيب أبى القاسم الحسنى ، والخطيب أبى سعيد فرج بن لب الثعلبى ، واستظهر ببعض المبادى فى العربية ، واستجيز له مَنْ أدركه ببلاده من أهل المشرق والمغرب ، وشعره مترفع عن الوسط إلى الإجادة ، يكلّله عذر الحداثة .

فمنه قوله فى مولد أربع وستين وسبعمائة :

بحق الهوى يا حُداة الحمول ... قفوها قليلا بتلك الطلول

معاهد مرت عليها السحاب ... ببرق خَفُوق ودمع همول

أحن إليها حنين العِشار ... وأبكى عليها بشجو طويل [1]

فيا سعد عَرِّج عليها الركاب ... ففيها لقلبى شفاء الغليل

سقاها من المزن صوبُ الغمام ... وحَيَّا بعَرْف النسيم العليل

ولا زال فيها يجر الذيول ... فيحيي النفوس بجر الذيول

لئن حُلْتَ يا ربع عن عهدنا ... فعهد الهوى ليس بالمستحيل [2]

ومما شجانى وميض الخفوق ... كقلبى غداة النوى والرحيل

وميضٌ إذا بَلَّه المزن وهنا ... يضىء سناه كعضب صقيل

أطار الفؤاد فؤاد المشوق ... وأغرى السُّهاد بطرف كليل

(١) العشار : جمع عشراء ، وأراد النوق ، والشجو : الحزن

(٢) حلت : تغيرت ، حال يحول : تغير ، واستحال وأحال أيضا

فبتُّ أطاول ليـــل التمام بوجد جديد وصبر مُحيـــل
ودمع يساجـــل دمع الغمام وشجو الحمائم عنـــد الهَديل
فياليت شعرى وهل من سبيل على الوجد يوما بصبر جميـــل
وهل يسمح الدهر بعدالعنـــاد بجبر الكسير وعز الذليـــل
وهل راجعٌ عهـــدُنا بالحمى على رغم دهر ظلوم جهـــول
فياحسن مأوى عـــزاء جميل ويا طيب مأوى بظل ظليـــل
وفى ذمـــة الله ركبٌ سَرَوْا يجدّون والليل مُرْخَى السدول
نشاوى بكأسين كأس الهوى وكأس من الأمن مثل الشَّمول[1]
يؤمون بالعيس أم القرى وقبر النبي الشفيع الرســـول[2]
ديار بهـــا الوحى وحى السما تنزل ، أكرم به من نزول
بها أشرقَ الدين كالشمس نورا وآن من الشرك وقتُ الأفول
فيا حاديَ العيس يطوى الفلا بوَخْدِ القلاص ونَصِّ الذَّميل[3]
ســـفائن آلٍ طواها السُّرَى وشَقُّ الحزُون وقطع السهول
نشدتك بالبان بانِ الحمى وبالمورد العـــذب والسلسبيل
إذا ما حللت لدى طيبـــة وجئت محل الرضـــا والقبول
وقبرا ثوى فيه خـــير الورى و بشرى الكليم وفخر الخليل[4]
فأبلغ تحيـــة صب مشوق عَدَتْه عوادى الزمان الخـــذول
وقل يا رسول الهدى والشفيع إذا ضاق صَدْرُ أبٍ عن سليل
عليك الصلاة وطيب السلام يحييك عند الضحى والأصيل
نبى كريم رؤف رحـــيم بنص الكتاب وحكم العقول

---

(١) الشمول ــ بفتح الشين ــ الخمر (٢) العيس : الإبل

(٣) الوخد: ضرب من السير السريع، والذميل مثله ، والقلاص : جمع قلوص هى الشابة الفتية من النوق (٤) الكليم: موسى، والخليل: إبراهيم، عليهما الصلاة والسلام!

إمام الهدى المجتبى المصطفى ... بأزكى شهيد وأهدى دليل
به أظهر الله دين الهدى ... وعلم كيف سواء السبيل
وقام بأعباء دين الإله ... أتم القيام بفعل وقيل[1]
فأكرم بليلة ميلاده ... على كل وقت وعصر وجيل
لك الله من ليلة فَضْلُها ... يجر على النجم فضل الذيول
وأيد بالنصر مولًى أقام ... مواسمها فعلَ بَرٍّ وَصُول
أعاد بها الليلَ مثل النهار ... بوجه كريم وفعل جميل
وأبدى الرضا نحوها والقبول ... وأكرم به من حَفِيٍّ كفيل
سمى النبي الكريم الرسول ... وسيف الإله العلى الجليل
محمدُ المرتجى المستجار ... مبيد العدا ومنيل الجزيل[2]
من النفر الغر أسد الكفاح ... وأهل السماح عَشِيَّ النزول
تراهم لدى السلم أطوادَ حِلْمٍ ... ويوم الكريهة آسادَ غِيل
مبيد العداة ومحيي العفاة ... ومأوى الغريب ومدنى الدخيل
فبأسٌ حكى النار عند احتدام ... وجود حكى السحب عند الهمول
فيُصْلِي عداء لدى الحرب نارا ... ويروى نداه زمان المُحُول
إذا فلَّتِ البيضَ يوم الوغى ... فلست ترى عزمه ذا فُلُول
مليك كفيل لمن يرتجيه ... بكل مَرَام بعيد وسول
وفرع كريم حميد الخلال ... نماه إلى المجد طيبُ الأصول
فدام لنا ما سرى فى الرياض ... نسيمُ الصَّبا ومهب القَبُول
وحن مشوق لأرض الحجاز ... إذا لاح إيماض برق كليل

(١) القيل – بالكسر – القول ، يريد بفعله وبقوله

(٢) المبيد : المهلك ، أباده يبيده : أهلكه ، والمنيل : المعطى

وقال يمدح السلطان أبا عبد الله محمد بن يوسف بن نَصْر من مدينة فاس :

لمن طلل بالرقمتين مُحِيلُ	عَفَتْ دمنتيه شمأل وقبول[١]
يلوح كباقى الوَشْم غيره البلى	وجادت عليه السحب وهى هَمول
فيا سعد مهلا بالركاب لعلنا	نسائل ربعا فالمحب سَؤُولُ
قف العيس ننظر نظرة تُذْهِبُ الأسى	ويشفى بها بين الضلوع غليل
وعرج على الوادى المقدس بالحمى	فطاب لديه مَرْبع ومَقِيل
فيا حبذا تلك الديار وحبذا	حديث بها للعاشقين طويل
دعوت لها سقى الحمى وربوعه	وميض وعَرْف للنسيم عليل
وأرسلت دمعى للغمام مساجلا	فسَالَ على الخدين منه مسيل
فأصبح ذاك الربع من بعد مَحْله	رياضا بها الغصن المروح يميل
لئن حال رسمُ الدار عما عهدته	فعهدُ الهوى فى القلب ليس يحول
ومما شجانى بعد ما سكن الهوى	بكاء حماماتٍ لهنَّ هديل
توسَّدْنَ فرع البان والنجم مائل	وقد آن من جيش الظلام رحيل
فيا صاحبى دع عنك لومى فإنه	كلام على سمع المحب ثقيل
تقول: اصطبارا عن معاهدك الألى	وهيهات صبرى ما إليه سبيل
فلله عينا من رآنى وللأسى	غداة استقلت بالخليط حمول
يطاول ليل التم منى مُسَهَّد	وقد بان عنى منزل وخليل
فياليت شعرى هل يعودَنَّ مامضى	وهل يسمحنّ الدهر وهو بخيل
وهل راجعٌ عهدالحمى ؟ سقى الحمى	وظل بعين الدمع فيه ظليل
وأيام أنس كم نعمنا بقربها	وقد غاب عنا حاسد وعذول

---

(١) الطلل : مابقى شاخصا من آثار الديار ، والمحيل : المتغير ، والدمنة — بالكسر — الموضع القريب من الدار ، والشمأل — بالهمز — ريح الشمال ، والقبول : الريح التى تقابلها

حلفت بربّ الراقصات إلى مِنًى لهن إلى البيت العتيق ذَمِيلُ[1]

لَجُودُ أمير المسلمين محمد بكل مرام فى الزمان كفيل

مليك أتاه الله فى الملك عَزْمة يروع الأعادى بَأْسُهَا ويهول

هو الملك المنصور والبطل الذى يهون عليه الخطْبُ وهو جليل

إذا فُلَّت البيض الرقاق وجدته أخا عزمات مالهن فلول

يقصر باعُ المدح دون صفاته ويرجع عنها الفكر وهو كَلِيلُ

من النفر البيض الوجوه لدى الوَغَى لهم غرر وَضَّاحة وحجول

هُمُو ماهُمُو والحرب قد شب نارها وللخيل فى جنح العجاج صهيل

إذا سئلوا يوم الندى فنوالهم تفيض شآبيبٌ له وسيول

بهم عَزَّ دين الله شرقا ومغربا وأصبح دين الكفر وهو ذليل

هُمُ السادة الأنصار والعرب الألى حَمَى الدينَ حىٌّ منهمُ وقبيل

لهم يوم بدر والرسول أميرهم تصول به أرماحهم وتطول

فأصبح أصحابُ القليب كأنهم كثيب لوطْء المرهفات مهيل[2]

وقد أمن الإسلام كيد عدوه وغودر ربع الكفر وهو مُحِيلُ

وعدّوا رواحا للمدينة والرضا لهم منه فوز عاجل وقبول

فمن ذا يجارى أو يدانى عصابة جزاؤهمُ عند الإلٰه جزيل

لكم يا بنى نصر من المجد هضبة تزول الرواسى وهى ليس تزول

فياسيد الأملاك والواحد الذى إذا عد فخر ليس عنه عدول

لقد قرع الأعداء منك مؤيدا له الذعر نصر والحسام دليل

فلم يدركوا ما أملوا غير ساعة كذاك مَتاعُ الأخسرين قليل

(١) الراقصات : أراد بها النوق التى تحمل الحجاج ، والذميل : ضربٌ من السير السريع (٢) أصحاب القليب : قتلى المشركين يوم بدر ، لأنهم طرحوا فى قليب (بئر) هناك

تعاوين فى باب البنود بسحرةٍ كلاب عليهم بعد ذاك عويل
أبى الله إلا أن يموتوا بغيظهم فويلٌ لهم من مكرهم وأليل
فأضْحَوْا حديثا فى البلاد ويومهم وساء صباح عندهم وأصيل
بسعد إمام ينزل العُصْمَ سَعْدُه ويروى نداه والزمان محول
وفرع كمال فى الخلافة ثابت نَمَتْه إلى المجد الزكى أصول
حكى وجهه شمسُ النهار إذا بدا وريَّاه عرفُ الروض وهو بليل
أعاد لنا بالعدل أيامه التى عهدنا ، فدارت للسرور شمول
فدام لنا ماهَبَّ عرف من الصبا وأومض برق فى الظلام كليل
وحَن مشوق للحجاز إذا بدت لعينيه منه شامة وطفيل
وأشرق نجم مثل قلبىَ خافق وحان له عند الغروب أفول
وما زالت الأقدار تجرى بأمره وصنع إلهِ العرش فيه جميل

وقال فى إعذار ابن السلطان رحمه الله تعالى ورضى عنه :

أثِرْهَا عزمة تُنْضِى الركابا وإن دميت لها العين انسكابا[1]
لعل الوجد تطفأ منه نار أبت إلا زفيرا والتهابا
أما بعد الألى ترجو قلوب تسارع نحو أرضهم انقلابا
فيا أخَوَىَّ كفا عن عتابى فلست بسامع أبدا عتابا
تذكرتُ العقيق فسال دمعى عقيقا من تذكره مذابا
أقول لنسْمة مرت صباحا يعطر عَرْفُهَا القفر اليبابا
ألا يا هذه كونى رسولى وكونى إن رجعتِ لى الجوابا
نشدتك بَلِّغى صحبى سلامى إذا جئت المعاهد والقبابا

---

(١) تنضى الركاب : تعييهم

يلومُنىَ العواذل فى اشتياقى إذا ما القلبُ من وجدى تصابى[1]

وكم بين الأباطح من مَهاة تروع بلحظها الأسْدَ الغضابا

رمتنى ثم قالت وهى تزرى ولم تحذر بفتكتها العقابا

إذا ما الشهب للغرب استمالت وفَوْدُ الليل بالإصباح شابا

أوجه إن رَقَدْتِ إليك طيفى كلمع البرق يخترق السحابا

فقلت : لقد بخلت على مشوق أبىَ : إلا غراما واكتئابا

وكيف له بنوم بعد وجد يذيب لهيبُه الصمَّ الصلابا

سينصره من الأنصار ملك إذا ناداه مظلوم أجابا

كريم الذات من ملأ كرام لقد طابت سجاياهم وطابا

تواضع رحمة وعَلاَ محلا وسَهَّلَ منه للناس الحسابا

فليس يُصَدُّ عن جدواه راج وليس يَسُدّ عن عافيه بابا

له عطف على الراجى جميل يَفُلُّ من الردى ظُفُرًا ونابا

وملك آمن الأرجاء حتى ترى الغزلان لا تخشى الذئابا

أمولاى الذى أحيا المعالى وقد بليت وألحفت الترابا

مَدَدْتَ على البلاد جناح عدل وكف الجور تستلب استلابا

وتاب الدهر مما قد جناه فجدت له بعفوك حين تابا

وسكن عز دولتك الدواهى فكانت رحمة دَفَعَتْ عذابا

ويالله إعذار سعيد دعوت السعد فيه فاستجابا

عجبت لمُقْدِمِ والروع يهفو بأفئدة الكُماة وما استرابا

ومن شِبْلٍ أطاع أخا سلاح وحكمه اصطبارا واحتسابا

---

(١) فى ب « يلوموني العواذل » وفيه إلحاق علامة الجمع فى الفعل المسند إلى الظاهر ، على لغة « أكلوهم البراغيث» وفيه — مع ذلك — حذف نون الرفع لغير ناصب أو جازم ، وما أثبتناه موافق لما فى خ

وهل عذر لعاذر ليث غاب أظن فؤاده والعقل غابا
فلولا سُنَّةٌ حكمت وهدى أصبت وقد سلكت به الصوابا
لحامَتْ عُصْبة الأنصار عنه بأسيافٍ تقدُّ بها الرقابا
من الصيد الذين لهم نفوس لغير الفخر لا تصل الطِّلابا
تنير الليل أوجُهُهم إذا ما أرادوا السير أو حَثُّوا الركابا
دعَوْتَ به الأنام ليوم حشر ولم تدخر لهم إلا الثوابا
رأوا من زخرف الدنيا مقاما يذكر بالجنان لمن أنابا
وأبهتهم فما عاطَوْا حديثا ولا عرفوا السؤال ولا الجوابا
ولو مكثوا به دهراً طويلا لما ذكروا الطعام ولا الشرابا
وطاردت الصُّوار بكل ضار كما أتبعت عفريتاً شهابا
ضربت به على الآذان منها فلم تسطع حراكا واضطرابا
ومعصوب الجبين بتاج روق يروع خُوَاره الأسْدَ الغضابا[1]
تعرّف أن تحت الأرض ثورا فرام بأن يشق له الترابا
وكَلْتَ به هضيم الكشح أجْنَى حديدَ الناب تحسبها حرابا[2]
تباعَدَ مجمعُ الشدقين منه وسال الموت بينهما لعابا
فأثبته كوَحْى الطرف حتى توثق منه جازره غلابا
وصاح به الصُّوار وقد رآه حبيس الكلب قد منع الإيابا
(فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا)
وأرسلت الجياد إلى استباق كأن بوارقاً شَقَّتْ سحابا
فمِنْ وَرْد أقبَّ ومن كميت وأشهبَ يلهب الأرض التهابا
وساقية العماد إذا أطلت إلى الأدواح تنساب انسيابا

---

(١) الروق : القرن ، والخوار — بضم الخاء ، بزنة الغراب — صوت البقر

(٢) الأجنى : الذى ذهب قرناه آخرا ، وأصله أجنأ بالهمز

تحوم بهــا العصى فَرَاشَ ليلٍ تروم بسمعه منــه اقترابا
تحف بهــا خيول القوم منا فترسل نحوها الجُرْدَ العِرابا
عجائب أبدعت علياك فيها ومثلك يبدع الأمر العجابا
محمد لاعدمت الدهر حمــدا فقد أحسنت فى الملك المنابا
وزكى نفسَكَ الرحمنُ لما رآك ملكت للمجد النصابا
تداركت البلاد ومَنْ عليهــا فأمنت التنائف والشعــابا(١)
لقــد أوليتنا بيض الأيادى لقــد طوّقتنا المنن الرغابا(٢)
روت عنك العوالى فى المعالى حديثَ الفخر حقا لا انتسابا
ستفتح من بلاد الشرك أرضا قد اعتقلت عقائلها اغتصابا
وتُعمل فى العدا بيضَ المواضى إلى أن ينكر السيفُ القرابا
فما كأس من الصهباء صرف تعيد الشيخ من طرب شبابا
وطاف بهــا من الرهبان بدر يهتك من دجى الليل الحجابا
تجدّ الأنس عَوْدا بعــد بَدْء وربع الهم تتركه خــرابا
بأعْذَبَ من ثنائك حين يطوى به الركب الأباطح والهضابا
أمولاى استمعها بنت فكر تخيرّهَــا فأبرزها لُبابا
وغاص على فرائدها العوالى وشق على نفائسهــا العبابا
وهنــاك الإله بكل نعمى تقود لك الأمانىّ الصــعابا
ودمت لعزة الإسـلام ركنا إلى أن يشمل الشيب الغرابا

وقال ، وقد أنشدها السلطان ليلة الميلاد عام خمسة وستين وسبعمائة :

نفس الصَّبا أهدى إلى نسيما قد رام ممتنعا ورام عظيما

---

(١) التنائف : جمع تنوفة ـ بفتح التاء ـ وهى الصحراء
(٢) الرغاب : جمع رغيبة ، وهى الواسعة

يا هل يبلغنى السرى خير الورى — فأرى معاهد للهوى ورسوما
وأسابق الركبانَ فوق نجيبة — تَفْرِى من البيد العراض أديما[١]
وأحط رحلى فى كريم جواره — أرجـــو نعيما فى الجنان مقيما
حتى إذا بلغوا الذى قد أملوا — ورأوا مقاما بالرضا موسوما
وتزاحموا فى الترب يستلمونه — أرأيت فى الورد الظماء الهيما[٢]
قبلت ذاك الترب من شوقى إلى — مَنْ حله وأقمت فيه لزيما
و بكيت من دمع المآقى زمزما — وتركت جسمى كالحطيم حطيما
صلى عليه الله ما هبت صَبًا — تهدى من الطيب الذكى شميما
لله مـــولده الذى أنواره — صدعت ظلاما للضلال بهيما
شرعت من التأييد سيف هداية — أرْدَتْ ظُبَاه فارسا والروما
كسر الأكاسر بالعراء ولم يدع — أن رد قيصر قاصرا مهزوما
لله منها ليـــلة أضحى بها — شمل الهدى لأولى الهدى منظوما
أبدا أمير المسلمين أعـــدها — بدعا من القصر الكريم جسيما
ملك أقام الله منـــه لخلقه — مولى رؤفا بالعباد رحيما
يحمى ذمار المسلمين من الردى — و يبيح ربعا للعدا و حريما
بمحمد قد عاد دين محمد — غض الرياض وكان قبلُ هَشيما
أحيا به الله الخلافة بعـــدما — كانت بأطباق التراب رميما
من آل سعد الخزرج بن عُبَادة — طابوا فروعا فى العلا وأروما
تلقاه فى يوم الكريهة والوَغَى — والخيـــل عابسة أغر وسيما
وتخال كفيه إذا شَحَّ الحيا — أفقا بعامية الغيوث غيوما

---

(١) النجيبة : الناقة السريعة ، وتفرى : تقطع ، والبيد : الصحارى ، واحدها بيداء ، والأديم : وجه الأرض

(٢) الهيم : جمع هيماء ، وهى الشديدة العطش

تأبى خلال العدل والشيم العلا من أن يرى فى دهره مظلوما
كهف العباد وفخرها وثناؤه ترك المديح على الطروس رقيما
لا زال يلقى العيش طَلْقاً والعلا مرقى وصرف الحادثات خديما
ما اهتز غصن فى الحديقة ناعم لما أحَسَّ من الشمال شميما

مولده بغرناطة ، يوم السبت سابع عشر صفر عام ثلاثة وأربعين وسبعمائه .
انتهى .

ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى ولده عبد الله المذكور مافى «النفاضة» من قوله : أنشدت ابنى عبدالله وقد وصل لزيارتى من الباب السلطانى حيث جرايته ووظيفته ، وانجر حديث ما فقد بغرناطة فى شجون الكلام :

يا بنيي عبدَ الإله احتسابا عن أثاث ومنزل وعقار
كيف يأسى على خسارة جزء من يرى الكل فى سبيل الخسار (١)
هَدَف لاتَنِ سهام الليالى عن سباق تجاهه وبدار (٢)
واحد طائش وسهم مصيب ليس ينجى منها اشتمال حذار
غير ذى الدار صرف الهم فيها فمناخ الرحيل ليس بدار

وقال أيضا رحمه الله تعالى: مما أنشدته ولدى عبدَ الله ، وأمرته بحفظه والتأدب به واللهج بحكمته :

إذا ذَهَبَتْ يمينك لا تُضَيع يسارك فى البكاء ولا المصيبه
ويُسْرَاكَ اغتنم فالقوس ترمى وما تدرى أرشقتها قريبه
وما بغريبة نوب الليالى ولكن النجاة هى الغريبة

قال : ومن المنظوم فى قريب من هذا قولى :

أيا أهل هذا القطر ساعده القَطْر دهيت فدلونى لمن يرفع الأمر

---

(١) يأسى : يحزن (٢) لاتنى : لا تفتر ولاتضعف ، والبدار : المبادرة والمسارعة

تشاغلت بالدنيا ونمت مفرطا وفى شُغُلى أو نومتى سُرِق العمر

وقال رحمه الله تعالى : ومما قلته وقد انصرف عنى الولدُ عبد الله إلى مدينة فاس لإقامة رسمه من الخدمة ، وأشجانى انصرافُه لوقوع قرحه على قرح ، والله المستعان :

بان يومَ الخميس قرّةُ عينى حسبىَ الله أى موقف بين[1]

لوجَنَى موقف النوى حين حَيًّا حان يوم الوداع والله حَيْنِى[2]

ضايقتنى صروف هذى الليالى وأطالت همى وألوت بدينى[3]

وطن نازح وشمل شتيت كيف يبقى مُعَذَّب بعد ذين

يا إلٰهى أدرك بلطفك ضعفى إن ما أشتكيه ليس بهَيْنِ

وقال رحمه الله تعالى : أنشدت يوما ولدى عبدَ الله وقد رأيت منه نشاطاً ومرَحا انتقل منى إليه بعد السن :

سَرَقَ الدهر شبابى من يدى وفؤادى مُشْعَرٌ بالكَمَدِ

جملة الأمر إذا أبصرته باع ما أفقدنى من ولدى

وقد سبق هذان البيتان عند ذكر بعض نظم لسان الدين رحمه الله تعالى .

على بن لسان الدين

وأما على بن لسان الدين رحمه الله تعالى فهو شاعر البيت بعد أبيه النبيه ، وكان مُصاحبا للسلطان أحمد المرينى المستنصر بالله ابن السلطان أبى سالم ابن السلطان أبى الحسن المرينى ، رحمهم الله تعالى ! .

وحكى بعضُهم أنه حضر معه فى بستان ، سَحَّ فيه ماء المذاكرة الهتان ، وقد أبدى الأصيل شواهد الاصفرار ، وأزمع النهار لما قدم الليل على الفرار ، فقال المستنصر لما لان جانبه ، وسالت بين سرحات البستان جداوله ومَذَانبه[4] :

يا فاس إنى وأيم الله ذو شغف فى كل ربع به مغناهُ يسبينى

---

(١) بان : بعد ، والبين : البعد (٢) حان : قرب ، والحين : الهلاك

(٣) لواه بدينه ، وألواه : مطله

(٤) المذانب : جمع مذنب — بزنة منبر — وهو سيل الماء إلى الأرض

وقد أنست بقرب منك يا أملى ونظرة فيكم بالأنس تحيينى

فأجابه أبو الحسن على بن الخطيب ، بقوله المصيب :

لا أوحش الله رَبْعًا أنت زائره يا بهجة الملك والدنيا مع الدين

يا أحمد الحمد ، أبقاك الإله لنا فخر الملوك وسلطان السلاطين

تذييلات له على كتاب «الإحاطة»

وقد رحل رحمه الله تعالى إلى مصر ، ولم يحضرنى الآن من أحواله بعد دخوله مصر ما أعول عليه ، وقد كان وقف بالقاهرة على نسخة « الإحاطة » التى وجّهها أبوه إلى مصر ووقفها بخانقاه سعيد السعداء كما أشرنا إليه فيما مر ، فكتب بالحواشى كتاباتٍ مفيدة ، وقد ذكرنا بعضها فيما أسلفناه من هذا الكتاب ، فليراجع : إما تكميل لما أغفله أبوه ، وإما إخبار عما شاهده هو ، أو رواية له عن المترجم به ، أو جواب عن أبيه فيما انتقد عليه ، ولنذكر شيئاً منها غير ما تقدم بعد إيراد نص « الإحاطة » فنقول :

قال فى الإحاطة فى حرف الميم فى ترجمة شمس الدين الهوارى الضرير شارح ألفية ابن مالك وصاحب البديعية المشهورة بالأعمى والبصير ، ما صورته :

من ترجمة محمد بن أحمد الهوارى (ابن جابر)

محمد بن أحمد بن على الهوّارى ، يكنى أبا عبد الله ، ويعرف بابن جابر ، من أهل المرية .

حاله ـ رجل كفيف البصر ، مدل على الشعر ، عظيم الكفاية والمنة على زَمَانته رحل إلى المشرق ، وتظاهر برجل من أصحابنا يعرف بأبى جعفر الإلبيرى ، صارا روحين فى جسد ، وَوقع الشعر منهما بين لحيَىْ أسد[1] ، وشمرا للعلم وطلبه[2] ، فكان وظيفة الكفيف النظم ، ووظيفة البصير الكَتْب ، وانقطع الآن خبرهما . انتهى .

فكتب المذكور على أوّل الترجمة ما صورته : نعم الرجل ورفيقه أبو جعفر ،

---

(١) كذا فى خ ، ووقع فى ب « وقع الشعر منهما بين نجيع أسد » تحريف

(٢) شمرا للعلم : اجتهدا فيه

أحسن الله تعالى إليهما ، فلقد أحسنا الصحبة ، فى الغربة ، وانفردا بالنزاهة والفضل وعلو الهمة ، إلا أن المصنف قصَّر فيهما بعضَ قصور ، ومنهما يُطْلب الإغضاء والصفح ، فالرجل مات ، وذِكْرُ الأموات بالخير مشروع ، وهما والله الشرف الباهر بقطرهما علماً وعملا ، أمتع الله تعالى بهما ! قاله ولَدُ المؤلف على بن الخطيب بالقاهرة ، انتهى .

وكتب على قول أبيه « وانقطع الآن خبرهما » ما نصه : هما الآن بالبيرة من حلب ، تحت إنعام ولطف ، تحث إليهما الرواحل ، وتضرب إليهما آباط النُّجُب ، انتهى .

رجع لتكميل ترجمة الشمس ابن جابر من « الإحاطة »

قال لسان الدين بعد ما مضى ما نصه وجرى ذكره فى الإكليل بما نصه : محسوب من طلبتها الجِلَّة ، ومعدود فيمن طلع بأفقها من الأهلة ، رحل إلى المشرق وقد أصيب ببَصَره ، واستهان فى جنب الإفادة بمشقة سفره ، على بيان عذره ، ووضوح ضره .

شعره — وشعره كثير ، فمنه قوله :

سلوا حُسْنَ ذاك الخال فى صفحة الخدّ ... متى رَقَمُوا بالمسك فى ناعم الورد
وقولوا لذاك الثغر فى ذلك اللّمى ... متى كان شأن الدر يوجد فى الشهد
ومَنْ هز غصن القد منها لفتنتى ... وأودَعَــه رمانتَىْ ذلك النهد
ومن متع القُضْبَ اللدان بوصفها ... إلى أن أعرن الحسن من ذلك القد
فتــاة تفتُّ القلب منى بمقــلة ... لها رقة الغزلان فى سطوة الأسد[1]
تمنيتُ أن تهدى إلى نهودها ... فقالت رأيت البدر يهداه أو يهدى
فقلت ألالرُّمَّانِ بُدٌّ من الجنى ... فتاهت وقالت: باللواحظ لا الأيدى

---

(١) تفت القلب : تضعفه وتوهنه

فقلت أليس القلب عندك حاصلا فقالت قلوب الناس كلهم عندى

فقلت اجعليني من عبيدك فى الهوى فقالت كفانى كم لحسنى من عبد

إذا شئت أن أرضاك عبدا فمُتْ جَوًى ولا تشتكى واصبر على ألم الصد

ألم تر أن النحل يُحْمَل ضرها لأجل الذى تجنيه من خالص الشهد

كذلك بَذْلُ النفس سهل لذى النهى لما يكسب الإنسان من شرف الحمد

ألست ترى كف ابن جانة طالما أضاع كريم المال فى طلب المجد(1)

وكتب ابن المؤلف على هذه القصيدة ما صورته : عارضة قوية ، ونزعة خفَاجية ، وكيف لا والشيخ أبو عبد الله صَدْر صدور الأندلس علماً ونظما ونحوا ، زاده الله تعالى من فضله ! انتهى .

رجع إلى الترجمة — قال لسان الدين : وقال ، يعنى ابن جابر :

عرج على بان العُذَيب ونادى وأنشد فديتك أين حل فؤادى(2)

وإذا مررت على المنازل بالحمى فاشرح هنالك لوعتى وسهادى

إيه فديتك يا نسيمة خبرى كيف الأحبة والحمى والوادى

يا سعد ، قد بان العذيب وبانهُ فانزل فديتك قد بدا إسعادى

خذ فى البشارة مُهْجَتى يوما إذا بَانَ العذيبُ ونورُ حسن سعاد

قد صح عيدى يوم أبْصِرُ حسنها وكذا الهلال علامة الأعياد

ومما نقلته من جزء قيده لى صاحبنا الفقيه الأستاذ أبو على الزواوى مما ادعاهُ لنفسه :

عليَّ لكل ذى كرم ذمام ولى بمَدَارك المجد اهتمام

وأحسن ما لدىَّ لقاء حر وصحبة معشر بالمجد هاموا

وإنى حين أنسب من أناس على قمم النجوم لهم مقام

---

(1) فى خ « أضاع كريم المال فى طلب الحمد » فتتكرر القافية

(2) انشد : من قولهم « نشد فلان الضالة » أى طلبها

يميل بهم إلى المجد ارتياح كما مالت بشاربها المدام
هُمُو لبسوا أديم الليل بردا ليُسْفر عن أديمهم الظلام
همو جعلوا متون العيس أرضا فمذ عزموا الرحيل فقد أقاموا[١]
فمن كل البلاد لنا ارتحال وفى كل البلاد لنا مقام
وحول موارد العلياء منا لنا مع كل ذى شرف زحام
تصيب سهامُنَا غرَضَ المعالى إذا ضلت عن الغرض السهام
وليس لنا من المجد اقتناع ولو أن النجوم لنا خيام

ثم سرد لسان الدين القصيدة بتمامها ، وذكر بعد ما سبق اثنين وستين بيتا ، ولم نثبتها لطولها ، ثم قال بعدها : نجزت وما كادت ، ثم قال بعدها أيضا : وقد وطأ لإمطاء قروحها ، وأعيا لإكثار سروحها ، ثم قال بعده : والله ولى النجاة بفضله ، انتهى .

وكتب ابنه على أول القصيدة وهو : * على لكل ذى كرم ذمام * مانصه: نزعة مَعَرية ، قاله ابن المؤلف ، رحمه الله تعالى ! . انتهى .

وكتب الشيخ ابن مرزوق على قوله «نجزت إلى آخره» ماصورته : ماأنصف المصنفُ هذا الفاضلَ فى ترجمته ، وقدره شهير ، ومكانه من الفضيلة كبير ، وعلمه غزير ، ولعله لم يطلع إلا على ما أودعه .

وكتب إثره ابنُ لسان الدين ما صورته : نعم ياسيدى أبا عبد الله ابن مرزوق لم ينصف المترجم به المؤلف ، ولولا أنهما بالحياة ما صدر منكم التنبيه ، ولو حصلا تحت الصفيح لم تُعْملوا فيهما قلما ، هكذا شأن الدنيا بقلة الوفاء شنشنة معروفة ، والحقد على الأموات شأن المغاربة ، قاله على ابن المصنف رحمه الله تعالى ! انتهى .

---

(١) العيس : الإبل ، ومتونها : ظهورها ، يريد أنهم ملازمون للسفر مقيمون على ظهور الإبل لا يفارقونها

ولا خفاء أن لسان الدين لم يستوف حقوق الشمس ابن جابر الهوّارى المذكور مع أن له محاسن جمة .

ومن محاسنه رحمه الله تعالى :

هناؤكم يا أهل طيبة قد حُقَّا فبالقرب من خير الورى حُزْتُمُ السبقا
فلا يتحرك ساكن منكم إلى سواها وإن جار الزمان وإن شقا
فكم ملك رام الوصول لمثل ما وصلتم فلم يقدر ولو ملك الخلقا
فبشراكُمُ نلتم عناية ربكم فها أنتمُ فى بحر نعمته غرقى
ترون رسول الله فى كل ساعة ومن يَرَهُ فهو السعيد به حقا
متى جئتم لا يغلق الباب دونكم وباب ذوى الإحسان لا يقبل الغلقا
فيسمع شكواكم ويكشف ضركم ولا يمنع الإحسانَ حرا ولا رقا[1]
بطيبة مثواكم وأكرم مرسل يلاحظكم فالدهر يجرى لكم دفقا
فكم نعمة لله فيها عليكمُ فشكرا، وشكر الله بالشكر يُسْتَبْقى
أمنتم من الدجال فيها فحولها ملائكة يحمون من دونها الطرقا[2]
كذاك من الطاعون أنتم بمأمن فوجه الليالى لا يزال لكم طَلْقا
فلا تنظروا إلا لوجه حبيبكم وإن جاءت الدنيا ومرت فلا فَرْقا
حياة وموتا تحت رحماه أنتم وحشرا فستر الجاه فوقكم ملقى
فيا راحلا عنها لدنيا يريدها أتطلب ما يفنى وتترك ما يبقى
أتخرج عن حرز النبى وحَوْزه إلى غيره ؟ تسفيهُ مثلِكَ قد حقا
لئن سرت تبغى من كريم إعانة فأكرم من خير البرية ما تلقى
هو الرزق مقسوم فليس بزائل ولو سرت حتى كدت تخترق الأفقا

---

(١) الرق : العبودية ، وأراد به الرقيق : من إطلاق المصدر وإرادة الوصف .

(٢) أشار بهذا البيت وما بعده إلى ماروى فى فضائل المدينة — على ساكنها الصلاة والسلام ! — من أن الدجال لا يدخلها والطاعون لا يحل بها .

فكم قاعــد قد وَسَّع الله رزقه ومرتحل قد ضاق بين الورى رزقا

فعش فى حمى خير الانام ومت به إذا كنت فى الدارين تطلب أن ترقى

إذا قمت فيما بين قبر ومنــبر بطيبة فاعرف أين منزلك الأرقى

لقد أســعد الرحمن جار محمد ومن جار فى ترحاله فهو الأشقى

ومن محاسنه رحمه الله تعالى المقصورة الفريدة ، وهى قوله :

بادَرَ قلبى للهوى وما ارتأى لما رأى من حسنها ما قد رأى

فقرب الوجــدُ لقلبى حبها وكان قلبى قبل هذا قد نأى

يا أيهــا العاذل فى حبى لها أقصر فلى سمع عن العذل بأى[1]

لو أبصر العاذل منها لمحــةً مافض باب عَذْله ولا فأى[2]

سرحت طرفى طالبا شأو العلا وتابعــا فى حبها ماقد شأى

إنى لأرعاها على تتبيعهــا عهدى ، ومثلى من وفى إذا وأى[3]

من منصفى من شادن لم أرجُه لحاجة من وصله إلا زأى[4]

و إن قبضت النفس عن سلوانه مَدَّ أديم هجــره لى وسأى[5]

لأقْطعن البيد أفرى حاذها بضامر يَفرِى الحصا إذا جأى[6]

حتى أزور ربة الخدر وقد ذاد الكرى عنى الوشاة وذأى[7]

يا ربَّ ليل قد تعاطينا به حديث أنس مثل أزهار الربا

فى روضة تعانقت أغصانها إذ واصلت ما بينها ريحُ الصَّبَا

نادمت فيها من بنى الحسن رشاً يصبو له من لم يكن قط صبا

حلو رخيم الدلِّ فى أعطافه لين وفى ألحاظه لين الظبا

أيام كان العيشُ غضا حسنه عذب الجنى رَيَّان من ماء الصبا

---

(١) بأى : ترفع . (٢) فأى : فتح (٣) وأى : وعد

(٤) زأى : تكبر (٥) سأى : عدا وأسرع فى سيره

(٦) جأى الفرس : اغبر فى حمرة (٧) ذأى : طرد وساق

أى زمان ومحل للمنى   ما ضاق مغناه بنا ولا نبا

يا مَرْبَعًا ما بين نجد والحمى   ويا زمانا قد حبانى ماحبا

الله يرعاه زمانا لم يَحُلْ   عن بذل ما نأمله ولا أبى

فأى مَغْنًى آهـل يممته   لمقصد حلت لنا فيه الحُبا

هل ترجع الأيامُ عيشا باللوى   فراقه كان اللهيم الأربى

تالله لا أعبا بعيش قد مضى   ولا زمان قد تعدى وعتا

مذ علقت كفى بالهادى الذى   ساد الورى طفلا وكهلا وفتًى

كالبحر لا يغيض يوما ورده   لواردٍ إذا أصاف أو شتا

متصل البر لمن قد أمه   لا يكره العودة ممن قد أتى

ولا يناجى نفسه فى ضيقة   أى نهار سر هـذا ومتى

إن رسول الله مصباحُ هُدًى   يهدى به من فى دجى الليل متا[١]

كف بنى الجور بعدل واضح   كما تكف اليد كفاً من فتى

كم ذو هوى قد راضه بهديه   فانقاد كالعبد إذا العبد قتا[٢]

قد خالط الحلم سجايا طبعه   كمثل ماقد خالط الثوب الستا[٣]

أقسمت لا زلت أوالى مَدْحَهُ   ما اشتد بالناس زمان ورتا[٤]

لولا اشتياقى لديار كرمت   لبعدها يَرْثِى لنا من قد رثى

ومدح من أرجو بأمداحى له   إصلاحَ ما قد عاث منى وعثا[٥]

لم أجعل الشعر لنفسى خلة   ولم يجش فكرى به ولا غَثَى[٦]

فما أرى الأيام تبدى منصفا   ولو حكيت الدر من حسن الثنَّا[٧]

يا ضيعة الألباب فى دهر غدا   فيه فتيت المسك يعلوه الخثى

---

(١) متا : مشى ، والمستعمل أمتى   (٢) قتا : خدم

(٣) الستا : سدى الثوب   (٤) رتا : اشتد   (٥) عثا : أفسد كعاث

(٦) غثى الوادى — كرمى — كثر فيه الغثاء   (٧) الثنا : الثناء

يا ويلَ أمٍّ ليس تزجى ضيمها مثلى بما تبديه من منع الحثا[1]
هل مارست إلا أخا عزم إذا ما قعد الناس عن الخطب جثا
تسيل من جهد السرى أعطافه كمثل ما سال من الدوح اللثى[2]
له اعتصام بالرسـول المجتبى أجود مَنْ أضفى العطايا وحثا
من ليس للدنيا محل عنـده ولا ينيـل المال إلا بالحثا
أنا الفتى لا يطّبينى طَمَعٌ فأبذل الوجه لنيـل يرتجى
لكن إذا اضطر زمان جائر أملت مَنْ ليس يَرُدُّ من رجا
لا أسأل النـذل ولو أنِّى به أملك ما حاز النهار والدجا
حسبى بنو عبد مناف بهمُ يغنى من استغنى و ينجو من نجا
أولئك القوم الأُلى مَنْ أمهم أمِّنَ ممن لام يوما وهجـا
يلقاك منهم كل وجه مشرق كأنه البـدر إذا الليل سجا
إنى مـذ أملتهم لم يثننى عن طلب المجد زمانٌ قد شجا[3]
إن أنا قد نكرنى دهر عدا فطالما عرفنى فضلُ الحجا[4]
يطوى العدا ذكرى ومجدى ناشرا آليت لا زال لهم منى شجا
أنا الذى أعملت للمجد السرى لا أسأم الأين ولا أشكو الوجى[5]
كم سرت فى البيداء لا يقلقنى حَرُّ الهجير لا ولا برد الضحا
أرسلها غر الذرا تسرى بنا كل عو يص السير صعب المنتحى
يطيح مفتوت الحصا من دونها كأنه سهمٌ عن القوس طحا[6]
فكم بذلْتُ الجهد فى كسب العلا وجدت بالنفس لَحَانى من لحا[7]
أرغم أعداى بحـزم نافذ يعركهم عَرْكَ الثفال بالرحا[8]

---

(١) الحثا : التراب (٢) اللثا ، كالفتى ، مايسقط من شجر السمر .
(٣) شجا : أحزن (٤) الحجا : العقل (٥) الوجى : الحفا أو أشد منه
(٦) طحا : مال (٧) لحا : لام وعذل وسب (٨) الثفال : الجلد يوضع تحت الرحا

أذود عن عرضى وأحمى حسبى بكَرَمٍ جَزْلٍ ومَجْدٍ قد ضحا

أقسم بالبيت ومَنْ طاف به ومن نحا وجهته فيمن نحا[1]

وكل من أعمل لله الخطا محابها من الخطايا ما محا

ومعشر نَجَّوا وعجوا فلهم بمرتقى المروة ذكر ووَحَى[2]

لا زلت أزجيها لإدراك العلا حتى ترى من جهدها مثل اللِّحَا[3]

يا عجبا من حاسد لى قد زها بعيشه الغض علىّ وانتخى[4]

كأننى لم أعرف العز ولا صاحبت دهرى فى سرورٍ ورخا

وإنما الدهر له تقلب إن ارتخى شد وإن شد ارتخى

إن الذى لا ينثنى عن جوده إن بخل الدهر لنا وإن سَخَا

خيرُ الورى طراً من الله به أذهب عنا كل غَىٍّ فامتخى[5]

شرفه الله وحلى جيده بجوهر من كل مجد موتخى[6]

زَيَّنَه تواضع على عُلاَ فما ازدهى بعزةٍ ولا نخا[7]

فكم حَمَى بهديه وكم وقى وكم أفاد آملا وكم نخا[5]

خَلَّصَ من أسر الخطايا جاهه فما على قلب امرىء منها طخا[8]

خفف عنا ثقل ما نحمله فلم نَبِتْ من ثقله نشكو السَّخَى

إن تحسب الرسل سماء قد بدت فإنه فى أفقها نجم هدى

وإن يكن كل كريم قد مضى طلا فقد أضحى لنا غَيْثَ جَدَا

وإن يكونوا أنجما فى فلك فإنه من بينهم بدر بدا

واسطة السلك إذا ما نظموا وملجأ القوم إذا الخطب عدا

كالبحر بل كالبدر جوداً وسَنًى فحبذا من اجتدى أو اقتدى

---

(١) نحا : قصد (٢) الوحى ، كالفتى : الكلام الخفى ، والإلهام ، مثل الوحى بفتح فسكون (٣) اللحا : قشر الشجر ، وأصله المد كـكساء

(٤) انتخى : افتخر ، ومثله نخا (٥) امتخى : بعد (٦) موتخي : مقصود

(٧) نخا : مدح (٨) الطخا : السحاب ، وأصله ممدود

أحْسن أخلاقا من الروض إذا ... ما اختال فى برد الصبا أو ارتدى
وساقط القطر عليـــه دمعه ... فابتل برد الزهر منه وانتدى
تفديه نفسى من شفيع للورى ... وقَلَّتِ النفس له منى فِدَا
هو الذى أنعشنا من بعد ما ... قد يبس الغصن وأذواه الصَّدَى[1]
وكنت فى ليل الهوى ذا حيرة ... فجاء بالحق وأنجى وهَدَى
فكم كسا من ثوب نعمى قد ضفا ... وكم هَدَى بعلمه وكم غذا
من اقتـــدى بغيره فإنه ... لم يتبع سبل الهدى ولا حذا[2]
هل هى إلا سنة الحق التى ... أرشد مَنْ لاذ بها أو احتذى
كف اللسان وانبساط الكف بالخير وطيب الذكر عَرْفُه قد شذا
أحسن ما نال الفتى من كرم ... أن لا يرى من أجله من ائتذى[3]
والصمت عما لا يفيد قوله ... من كلم يهذى به فيمن هذى
لا شىء كالصمت وقاراً للفتى ... يوما ولا أنجى له من الأذى
مَنْ عيبُه يشغله عن غيره ... بات سليم العرض نفاح الشذا[4]
ومن يعب عِيبَ ومن يحسن إذن ... لان له كلُّ عَصِىٍّ وخذا[5]
ومن تكن دنياه أقصى همه ... لم يرو من ثدى الحجا ولا اغتذى
لا تنفق العمر سوى فى حب من ... هو الذى فى سَنَنِ الحق جرى
يهديك من رشد ومجد واضح ... روضين من علم وذكر قد سرى
أجاد هـــديا وأفاد نائلا ... وجاد حتى عمم الجود الورى
ترى بنى الحاجات نحو بابه ... قد أعملوا العِيسَ بحزن فى البَرَى[6]
لهم إلى رؤيتـــه تشوّق ... تشوّق السارى إلى نار القرى

---

(١) الصدى : العطش (٢) حذا واحتذى : تبع (٣) ائتذى : أوذى
(٤) نفاح الشذى : عاطر الأريج (٥) خذا : استرخى (٦) البرى : التراب

ذا يبتغى علما وهـذا نائلا ... وخائب من قصده ليس يرى

كأنهم إذا رأوا غرته ... وَفْدُ حجيج عاينوا أم القرى (١)

وجه لديه يحمد السير ، كذا ... عند الصباح يحمد القوم السُّرَى

هذا إذا ما أخلف الناس وَفَى ... نائى المدى فى مجده سامى الذرا

إذا شددت الكف فى أمر به ... فليس بالوانى ولا الواهى العُرَا

أنهضنى بهديه إلى التقى ... بعد قصور العزم والباع الوزى (٢)

هو الشفيع المجتَزَى بجاهه ... بمثل ذاك الجاه حقا يُجتَزَى (٣)

مذ زرته لم أشك من شَحْط النوى ... إذ كان لى فيه غنى ومُجْتَزَى

وما وجدت غربة ولم يجد ... مَسَّ اغتراب مَنْ إلى الجود اعتزى (٤)

متصل البشر غضوب للهدى ... إذا رأى من زاغ عنه أونزا (٥)

أصبح من أيامه فى مأمن ... من قد لَجَا يوما إليه أو رزى (٦)

تخذته كهفا فبت آمنا ... جزاه رب العرش خير ماجزى

أدبنا بسنة أفلح من ... نمى إليها النفس يوما أوعزا

يجزى أخا الحسنى على إحسانه ... شكر امرئ رَاضَ الأمور وحَزَى

لست أجازى الشر بالشر ، ولا ... أغزو لناوى السوء مثل ماغزا

لم تر عين كرسول الله ذا ... حزم ، ولا أحلم إن دهر غزا

إذا ملمات الأمور أقلقت ... ألفيته كأنه طَوْدٌ رَسَا

بخلقه فليقتد المـرء فما ... أكرمها من مُقْتَدًى ومؤتَسَى

كن حذرا وإن رأيت تمرة ... فمثلها توقدُ جَمْرَةَ الأسا

لا تيأسنّ إن تناءى أمَلٌ ... وكلما عثا زمان قد عسا

---

(١) أم القرى : مكة (٢) الوزى : القصير

(٣) المجتزى : المكتفي ، وأصله المجتزأ بالهمز (٤) اعتزى : انتسب

(٥) نزا : وثب (٦) رزى — كرمى — قبل البر

وإن بدا صبح المشيب فاطرح ... ما كان إذ ليل الشباب قد غسا[1]
ولا تظن الشيب يرجى طبه ... بزُورِ صِبْغٍ أو مدام يحتسى[2]
إذا الفتى قوّس واعتدّ العصا ... لقوسه عن وتر أعيا الأُسا[3]
فاذكر زمان الشيب فى حال الصبا ... عسى يلين للتُّقى قلبٌ قسا
ما أقبح اللهو على المرء إذا ... ما اشتعل الرأسُ مشيبا واكتسى
لا تحسب الراحة راحا قرقفا ... للشَّرْبِ منها قبس ومنتشى
إذا أداروها وقد جن الدجى ... وشى بهم نيرها فيمن وشى
قد حجبت فى دنها دهرا إلى ... أن برزت كأنها صبح فشا
لم يبق من جوهرها إلاّ سنى ... ينشئ أفراح الفتى إذا انتشى
كأنها والكأس قد حفَّتْ بها ... متيم أصبح مضروم الحشى
يديرها مختلف الحسن إذا ... أقبل بدر وإذا تاه رشا
يحكى القطا والظبى والغصن إذا ... ما قد تثنى أو تجنى أو مشى
وإنما الراحة زُهْدُ المرء فى ... أعراض دنيا تورث العين غِشَا
والمجد إيقادك نيران القرى ... يعشو لها فى الأزمات مَنْ عَشَا
والجود أن تعطى قباء للندى ... لا لافتخار أو لجاه يختشى
خاب امرؤ لم ير أرضا حلَّها ... من اصطفى رب السماء وافتصى[4]
أرسله الله هدى ورحمة ... أوصى ووالى الخير فينا ووصى
وخلص الأنفس من أسر الهوى ... فى يوم هولٍ فاز فيه مَنْ فَصَى[5]
ذو رأفة تلقاه يوم العرض قد ... مال بنا عن الجحيم ومَضَى
صلى عليك الله يا من جاهُهُ ... يوم الحساب مَلْجأ لمن عصى

---

(١) غسى : أظلم ، والمشهور أنه من باب رضى

(٢) يحتسى : يشرب (٣) الأساة : الأطباء ، جمع آس ، وحذف التاء

(٤) افتصى : خلصه ، والمستعمل فى هذا المعنى فصاه تفصية

(٥) فصى : تخلص من الشر

يا من جرى من كفه الماء ومن — حَنَّ له الجذع وسَبَّحَ الحصا
بك اعتصامى يوم يدنو من دنا — من رحمة الله ويُقْصَى من قصَا
هل غير إحسانك يرجو مذنب — طال به خوف الخطايا وانتصى[1]
يا مَنْ سما فى يوم بدر بدزه — عزاً ليشقى كلُّ من شَقَّ العصا
أحصاهُمُ رب السماء عددا — وإنهم أدنى الفريقين حَصَا
يا مجتبًى من خير قوم حسبا — فيما أتى من زمن وما مضى
يا من تَدَانى قابَ قوسين ومن — قيل له سَلْ تُعْطَ قد نلت المضا
ومن أتى والناسُ من ظلمهمُ — فى ظلمة ليس لها من مرتضى
فكان كالصبح جَلَا جنح الدجى — فأذهَبَ الإظلام عنا وانقضى
رضيت للإرسال إذ آدم بيـــن الماء والطين فكنت المرتضى
اختارك الله رسولا هاديا — أكرم بما اختار لنا وما ارتضى
يا أحْلَمَ الناس على من قد جنى — وأعدل الخلق إذا ما قد قَضَى
يا مصغر الألف إذا ما جاد أو — جرد فى الهيجاء سيفاً أو نَضَا[2]
يا ناصحا أحكم تشييد الهدى — عزما فلما ينتقض ولا أُنقضى
يا مُضْفيا للناس ظل رحمة — بات العِدَا منها على جمر الغضى
ادفع الشر بحسنى فإذا — به أخو صِدْقٍ وإن كان سطا
وأُنف لنفس كرهت أعمالها — كمن يريك قدرها حث الخطا
إن يدرك الهوى الفتى فى بيته — ليس كمن سعى إليه وخَطَا
وإنَّ خيراً من صديق سيىء — أن يصحب الإنسان فى البيد القطا
ولا ترُمْ ما لا تطيق نيله — فخجلة الخيبة شرُّ مُمْتطَى[3]

---

(١) انتصى : كأنه أخذ بناصيته (٢) نضا السيف : أخرجه من غمده
(٣) ممتطى : مركوب ، امتطاه يمتطيه : ركبه

وبت من الدنيا مَبَات خائف فلليالى عَدَوات وسَــطَا
وخلها عنك ولا تعبأ بمــا تبوّأ المكثر منهـا وعَطَا
وجنب الحرص تعش ذا عزة أفلح مَنْ إن شده الحرص نَطَا[(١)]
ولا تجد للنفس حظا واُطرح من امتطى الكبر فبئس ماامتطى
لا تطرينّ صاحبا بغير ما فيه فإطراء الفتى كسر المَطَا[(٢)]
لا يحسن المدح سوى لمن يرى مادحه بمدحــه قد احتظى
خير عباد الله ذو العز الذى لظله يأوى الشريف والشظى[(٣)]
كم آمن ببابه وقبل أن يلقاه لاقى ما عَجَا وما عظا[(٤)]
أصبح من حرمته فى حرم يرفل فى ظل هِبَات وحُظَا
فى منزل سيان فيه ربه وضيفه فيما اقتنى وما حظا
إن رسول الله غيث واكف إذا لهيبُ الضيف داج والتظى
إذا أعــد للمُلمِّينَ القرى لم يدخر عن ضيفه ولاحظا
لما علمت جوده الجزل وما هناك من عِلْم وحلم وبظا
يممته فوق طِمِرّ ضـامر منتظم الأعضاء مَلْمُوم الشظا[(٥)]
ليس يمس الأرض من سرعته كأنما يخشى بها مس اللظى
ياموسِـعَ الألف بصاع شبعا ومن مشى الدوح إليه وسعى
وأخصبَ الضرعُ بلمس كفه وبادر المزن له لما دعا
وسلم الظبى عليه كرَمًا وكلم الميت فقـام ورعى
واستشهد الضبّ لحيا معلنا بصـدقه ومثبتا لما ادعى
إليك أعملت المطايا فى الفلا تنساب ما بين أراك ولعا

---

(١) نطا : أعطى وجاد ، كأنطى (٢) المطا : الظهر
(٣) الشظي : أتباع القوم والدخلاء عليهم
(٤) عجافاه : فتحه ، وعجا وجهه : زواه وأماله ، وعظاه : ساءه
(٥) الشظا : عظيم لازق بالركبة أوبالذراع ، أو عصب صغار

مسرعا جَاهَك عَلِّى فى غد أكون ممن قد أجار ورعى
أز كى صلاة وسلام أبدا عليك ما ارتاح الظليم وارتعى
وسَبَّح الرعدُ بحمد من سقى صَوْبَ الحيا فقال للأرض لعا
فاشتملت بالنَّوْر كل فدفد لم يك للسارح فيه مرتعى
وباكر البيداء غيثٌ مُسْبل فأخلف النبت الهشيم ورعى
وَدْق سحاب تحسب البرقَ به أسِنَّةً قد أشرعت يوم وغى
واخضرت الدوحُ ومدت قُضْبَهَا فبينها حسن التئام وصَغَا[1]
وساقطت لها السحاب حملها إذ خوَّف الرعد تساقط الفغا[2]
ترى خرير الماء فى قصيبه كأنه مَيِّتُ ذَوْدٍ قد رغا[3]
فسكن القيظ لهيب حره وفَرَّ لما أن رأى الماء طغا
غيث حمى الرمضاء عنا مثل ما حَمَى رسول الله جور من بغى
ناه عن الفحشاء داع للهدى ولم يفه بباطـــل ولا لَغَا[4]
هذا إذا استكفيت فى أمر به أجْدَاكَ فيما تنتحيه وكفى[5]
تهفو به ريح العلا إلى الندى كأنه ناعمُ غصن قد هفا[6]
محيي الهدى والعدل فى زمانه من بعد ما ألفاهما على شفَا
أخفى الهدى قومٌ فأضحى وهوقد أظهره بعدْلِهِ فما اختفى
إن يقض يعدل أو متى يُسْأل يَهَبْ وإن يقل يصدق و إن يَعِدْ وَفى
وإن يَجُدْ يُجْزِلْ و إن جاد يُعِدْ و إن تسىء يحسن و إن تجن عفا
بحر طمَا ، بدر سما، عضب حمى، روض نما ، طب أفاد وشفا
لمجتدٍ أو مقتـدٍ أو معتدٍ أو مجدب أو مشتك خطبا جفا

(١) الصغا : الميل (٢) الفغا : نور الحناء (٣) رغا : صوت
(٤) لغا : قال اللغو والباطل (٥) أجداك : أعطاك (٦) هفا : مال واهتز

مالىَ لا أضفى له المدح وقد أضحى به الحق علينا قد ضفا[١]

أسس خُلْقَ الجود فينا فاغتدى به لنا وِرْدُ المعالى قد صفا

الجودُ يعلى المرء والبخلُ لقد يَحُطُّ عن رتبته من ارتقى

والعز ما أحْسَنَهُ لكنه إن كان هـذا مع علم وتُقا

والجهل للانسان عيب قادح ولو حَوَى مالا كـكثبان نقَا[٢]

والعلم فى حال الغنى والفقر لا يزال يَرْقَى بك كُلَّ مرتقى

ولا ألوم المال فالمال حمى من جاهل يلقاك شر ملتقى

قد جُبِلَ الناس على حب الغنى فَرَبُّه فيهم مُهَابٌ متقى

ومالذى الفقر لديهم رتبة ولو أفاد وأجاد واتَّقى

إن الغنى طب لعلات الفتى والفقر داء لا تداويه الرُّقَى[٣]

والحزم أحرى مابه المرء اقتدى فى أمره ومابه النفسَ وقى

من لم يبت مع الليالى حازما لغـدرها غادرنه فيها لَقَى

أمضيت طرفى كى يرى طرفى ما أخبرته من طيب مجد قد زكا

فَصَدَّقَ الحاكىَ ماأبصرته وفاق ما عاينته ما قد حكى

فسهلت رؤيته جهد السرى وأسكتِ الأنعام مَنْ كان شكى

عجبتُ للأيام مَنْ عَـزَّ بها ذل ، ومن يضحك لها يوما بكى

فكم لها من كرّة على فتى جَلْدٍ إذا مالَهَبُ الحرب ذكا

تجتنب الأسدُ سَطَاه فى الوغى فذل حتى صار قصواه بُكَى

وكم صريع غادرت ليس له من ملجإ يوما ولا من مشتكى

عَدَتْ على نفس عَدِيّ وسقت منها ابن حُجْرٍ كأس سم كالذكا

(١) ضفا يضفو : زاد وصار سابغا ، وأضفاه يضفيه : زاده وأسبغه

(٢) الكثبان : جمع كثيب ، وهو ما اجتمع وتراكم من الرمل

(٣) الرقى : جمع رقية ـ بالضم ـ وهى العوذة

(٤) شىء لقى ـ بالفتح مقصوراً ـ أى مهمل مطرح

واستلبت مُلْكَ بنى ساسان لم تترك له على الليالى مرتكا [١]

لم يأمن المأمون من صولتها ولا ابنُ هند من عواديها خلاَ [٢]

وأتبعت جعفرا الفضل وكم بات الطلا يسقيهما صِرْفَ الطلاَ [٣]

وغالت الزباء فى منعتها فأظفرت عَمْرًا بها فما أْلاَ [٤]

وأنفذت فى آل بكر حكمها وجرعت مهلهلا كأس البلى

وكم سَبَت من سبأ من نعمة فمزقوا فى كل قفر وفلاَ

وأهلكت عادا وأفنت جرهما وزوّدت منها تميما بالصِّلى

فرعون موسى أو لجت فى لجة فمات قهرا بعد عز وعلا

وأظفرت بابن زياد مثلَ ما أفنت يزيد حسرة لما اعتلى [٥]

وسيف استلّته من غُمْدَانه من بعد ماقد خضعت له الطُّلى

ثم أعادته لَفَزَّ الجيش عن حوزته حز النبات المختلى

هى الليالى ليس يرعى صرفها لا خاملا فيها ولا مَنْ قد سَمَا

ولا رسول الله فينا لم يزل كهفا حِمًى فهو لنا نعم الحمى

لله ما أكرمه من سيد يُنْمَى من المجد لأعلى منتمى

سليم صدر ذو وفاء لم يجش فى صدره غشٌّ امرىء ولا عمى

أوسَعَنا فضلا فما خاب امروٌ أوى إلى ذاك الجناب وانتمى

يا من غدا للخلق كهفا وحمى فأكرم المثوى وآوى وحمى

---

(١) كذا ولا أعرف له وجها

(٢) المأمون : هو الخليفة العباسى ، وابن هند : معاوية بن أبى سفيان

(٣) الطلا الأول : ولد الظبية ، والطلا الثانى : الخمر

(٤) الزباء : ملكة الجزيرة ، وعمرو : هو ابن عدى الذى طالبها بثأر خاله جذيمة الأبرش ، وألا : قصر (٥) ابن زياد : عبيد الله بن زياد قاتل الحسين السبط ، ويزيد : ابن معاوية بن أبى سفيان

إنا أتينـــا من ديار دونها موحشة بيـــداء أو بحر طما

وإننى من قبح ما أسلفتـــه ذو كبد رُضَّتْ ودمع قد همى

فلا تخيبنىَ مما لك من شفاعة ترجى وفضل قد نما

إنك من قوم بهم يشفى العنا ويُدْرَكُ الشأو البعيد المرتمى

أعرض عن الجاهل مهماقد أسا وحسبه من جهله ما قد حوى

ولا تلم ذا سَـــفَهٍ فإنه إن لمته لم يتئد ولا أُرعوى

وإن رأيت من كريم عثرة فقل لَعًا ولا تعِبْ بما احتوى

وإن تروَّعكَ من زمان فرقة فاصبر لها فالصبر أشفى للجوى

لم أشكر البعد على خير حمى قدصَدَّنى عن أنسه شَحْطُ النوى

يامنزلا ما بين نجـــد والحمى وياد يارا بين كثبان اللوى

هل لى إلى تلك المعالى عودة أو جرعة من ذلك الماء الرِّوَى

لا تعجبوا من لعب الدهر بنا فأى إنسان على حال سوى

إن عشت لاقيتهمُ وإن أمت فإنما الدنيا فنـــاء وتَوَى

إن رسول الله مذ أملتـــه فالدهر قد أضمر نصحى ونوى

إى والذى مازال يسرى جاهدا حتى أتى ميقـــاته وماوى

فقدم الغسل وصلى ونضى أثوابه مستغفرا ممـــا جنى

ثم نوى مُلَبيـــا ثم مضى حتى رأى ذات السناء والسنى

ثم أتى باب بنى شيبة قـــد أبصر ما أمل قدما مذدنا

فقبل الركن وطاف وسَعَى ثم مضى مرتحـــلا نحو منى

ثم أتى الموقف يدعو راغبًا حتى إذا ما نفر القوم انثنى

ثم رمى ثم أفاض وانـــبرى مُعْتمرا قد نال غايات المنى

ثم مضى مرتحلا فيمن مضى ميمما طيبة لا يشكو العنـــا

يبغى التى شرفها الله بمَنْ شاد به الدين القويم وابتنى

فلم يكن ممن إذا حج جفا ... بل يمم القبر وزار واعتنى[(١)]
خلق علا لم يحوها إلا امرؤ ... نهاه عن نبذ العلا رعى النهى
فإن يقل: من حازها؟ قل: الذى ... له تسامى كل مجد وانتهى
معتصم الراجين إن خطب دنا ... وكهفهم إن راع أمر ودهى
المرشـــد الناصح لله فما ... قصر فى نصر الهدى ولالها
من جد فى إدراك ما رام يجد ... ولم يصب مَنْ قد توانى وسها
فلا يقصر بك خوف خيبة ... مَنْ خيَّل الخيبة فى البدء وهى
واكتسب الحمد بما تبديه من ... فتح اللَّها بمستدامات اللُّها[(٢)]
واحرص على المجد ودنياك اطرح ... فأمرهـا أمر زهيد المشتهى
والمرء من إن فاته لم يكتئب ... وإن ينل لم يفتخر ولا ازدهى
من لازم الكبر على الناس اغتدى ... متضع القدر ولو نال السُّها
أنى تخيب اليوم آمالى ولى ... من كفه أكرم من صوب الحيا
يدنى الفتى إلى مدى آماله ... ولو غدا من دونها الأرض اللِّيا
إن أهزل القوم زمان معوز ... أنعشهم حتى يرى لهم حيا
وإن أمات الجدب كل مخصب ... بدا لنيران القرى منـه حيا
أرسل سُحْبَ هديه جارية ... بالحق حتى حَيِيَ الدر حيا
أوقع فى الأنفس من ماء لدى ... ظام إذا ما اشتد بالشمس الحيا
لم تعْيَ من فعل جميل كفه ... ولا له فى المكرمات معتيا
مالىَ لا أبلغ أقصى غاية ... فى مدح من بالغ جودا واغتيا
لكل شخص غاية يبلغها ... وماله فى المعلوات مُغْتَيا

---

(١) يشير إلى ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حج ولم يزرنى فقد جفانى » (٢) اللها — بفتح اللام — جمع لهاة ، وهي هنة مشرفة على الحلق ، وأراد هنا الفم ، فتحه بالثناء ، واللها — بضم اللام — العطايا

تعيا يد السائل من معروفه ولم يقصر كرما ولا اعتيا
والآن قد أكملتها فى مدحه مقصورة يقصر عنها مَنْ خَلاَ(١)
ضمنتها من كل فن دررا نظما فأضحت من نفيسات الحلى
حليتها جيد معـــاليه وما أملح حَلْىَ الحمد فى جيد العلا
جعلتها منى وداعا فاعتجب لنظمها الحلو الجنى كيف حلا
مَنْ قارب الرحلة عن ذاك الحمى كيف أجاد النظم يوما أودرى
أرسلتها من خاطر خامره وَجْدٌ جلا عن مقلتى طيب الكرى
وكيف لا آسى على بعدىَ عن قوم جرى من جودهم ماقدجرى
أنصار دين الله والهادى الذى لولا وضوحُ هَدْيه ضل الورى
فالقلب بين مشرق ومغرب مُقَسَّم اللوعة مجذوب العرا
إذا ذكرت الغرب حنت مهجتى وبَلَّ دمعى من جوى الشوق الثرى
وإن ذكرت حُبَّ من فى مشرق أبطأ بى حبهمُ عن السرى
إن يصف من وجه لشخص مورد كدّر من أخرى فلا صفو يرى
فإن ترحَّلْتُ فقلبى عندكم لم يرتحل عن بابكم ولا سرى
ولا تزال رُسْلُ شوقى أبدا تترى على مجدكم الجزل الندى
ولن تمر ســـاعة إلا هفا بذكركم مُفْصِح نظمى وشدا
فليس عندى للنجاة مخلص إن لم يكن منكم نوَال وجَدَا(٢)
بكم ملاذى وحماكم ملجئى ليس سوى ذاك السماح المجتدى
وما ذخرنا عُـــدَّة سواكم مثلُكم مَنْ يرتجى ويجتدى
لا أوحش الله دياراً أنتم فيها ولا أزرى بمرعاها الصدى(٣)

---

(١) من خلا : أراد من سبقه وكان فى القرون الخالية : أى الماضية .
(٢) الجدى - بالفتح مقصوراً - العطاء (٣) الصدى : الظمأ والعطش

ولا نأت داركم ولا خـــلا ربعكم ما راح يوم واغتدى

ومن محاسنه أيضا البديعية المشهورة ، وهى المعروفة ببديعية العميان ، ولو لم يكن من محاسنه إلا قصيدته التى فى التورية بسور القرآن ومدح النبى صلى الله عليه وسلم لكفى ، وهى من غرر القصائد ، وكثير الناس ينسبها للقاضى الشهير عالم المغرب أبى الفضل عياض ، وكنت أنا فى أوّل الاشتغال ممن يعتقد صحة تلك النسبة ، حتى وقفت على شرح البديعية الموصوفة لرفيقه أبى جعفر ، فإذا هى منسوبة للناظم ابن جابر ، وهى :

قصيدة لابن جابر تتضمن التورية بسور القرآن

فى كل فاتحـــة للقول معتبره حق الثناء على المبعوث بالبقره

فى آل عمران قدما شاع مبعثه رجالهم والنساء استوضحوا خبره

من مَـدَّ للناس من نعماه مائدة عمت فليست على الأنعام مقتصره[1]

أعراف نُعْماه ما حل الرجاء بها إلا وأنفال ذاك الجود مبتدره

به توســل إذ نادى بتوبته فى البحر يونُسُ والظلماء معتكره

هود ويوسف كم خوف به أمنا ولن يروّعَ صوتُ الرعد مَنْ ذكره

مضمون دعوة إبراهيم كان ، وفى بيت الإله وفى الحجر التمس أثره

ذو أمة كدوى النحل ذكرهم فى كل قُطْر فسبحان الذى فطره

بكهف رحماه قد لاذ الورى ، وبه بشرى ابن مريم فى الإنجيل مشتهره

سمـــاه طه ، وحض الأنبياء على حج المكان الذى من أجله عَمَرَهْ

قد أفلح الناس بالنور الذى عمروا من نور فرقانه لما جلا غُرَرَهْ

أكابر الشعراء اللُّسْن قد عجزوا كالنمل إذ سمعت آذانهم سُوَرَه

وحسبه قصص للعنكبوت أتى إذ حاك نسجا بباب الغار قد ستره

(١) يريد أن مائدته (جوده وعطاءه) لا تقتصر على دعوة ذوى النعمة ، بل إنه يدعو الجفلى ولا يخص قوما دون قوم .

فى الروم قد شاع قِدْما أمْرُهُ وبه   لقمان وفق للدر الذى نثره (1)

كم سجدة فى طلى الأحزاب قد سجدت   سيوفُه فأراهم ربه عــبره

سَباهم فاطر السبع العلا كرما   لمن بياسين بين الرسل قد شهره

فى الحرب قد صفت الأملاك تنصره   فصاد جمع الأعادى هازما زُمَرَهْ (2)

لغافر الذنب فى تفضيله سور   قد فُصِّلت لمعانٍ غير منحصره

شُوراهُ أن تهجر الدنيا فزخرفها   مثل الدخان فيُغْشِى عين من نظره

عزت شريعته البيضاء حين أتى   أحقاف بدر وجند الله قد نصره

فجاء بعد القتال الفتحُ متصلا   وأصبحت حُجُرات الدين منتصره

بقاف والذاريات اللهُ أقسم فى   أن الذى قاله حَقٌّ كما ذكره

فى الطور أبصر موسى نجم سؤدده   والأفق قد شق إجلالا له قمره

أسرى فنال من الرحمن واقعة   فى القرب ثَبَّتَ فيه ربه بصره

أراه أشياء لا يقوى الحديد لها   وفى مُجادلة الكفار قد أزَرَهْ

فى الحشر يوم امتحان الخلق يقبل فى   صَفٍّ من الرسل كُلٌّ تابعٌ أثره

كف يسبح لله الحصاة بها   فاقبل إذا جاءك الحق الذى قَدَرَهْ

قد أبصرت عنده الدنيا تغابنها   نالت طلاقا ولم يصرف لها نظره

تحريمه الحب للدنيا ، ورغبتــه   عن زهرة الملك حقا عند ما نظره

فى نون قد حقت الأمداح فيه بما   أثنى به الله إذ أبدى لنا سِيَرَهْ

بجاهه سال نوحٌ فى سفينته   سفن النجاة وموج البحر قد غمره

وقالت الجن جاء الحق فاتبعوا   مُزَّملا تابعا للحق لن يَذَرَهْ

مدثرا شافعا يوم القيامة هــل   أتى نبى له هــذا العلا ذخره

---

(1) اشتهر لقمان بالحكمة ، وفى القرآن الكريم : (ولقد آتينا لقمان الحكمة).

(2) الزمر : الجماعات ، واحدها زمرة ـ بضم الزاى وسكون الميم ـ أى الجماعة

في الموسلات من الكتب انجلى نبأ عن بعثه سائر الأخبار قد سَطَرَه (١)

ألطافه النازعات الضيم في زمن يوم به عبس العاصي لما ذَعَرَه (٢)

إذ كوّرت شمس ذاك اليوم وانفطرت سماؤه ودعت ويل به الفجره

وللسماء انشقاق والبروج خلت من طارق الشهب والأفلاك مُنْتَثِرَه (٣)

فسبح اسم الذي في الخلق شَفَّعه وهل أتاك حديث الحوض إذ نهره

كالفجر في البلد المحروس غرته والشمس من نوره الوضاح مستتره

والليل مثل الضحى إذ لاح فيه ألم نشرح لك القول في أخباره العَطِرَه

ولو دعا التين والزيتون لا ابتدرا إليه في الحين واقرأ تستبِنْ خبره

في ليلة القدر كم قد حاز من شرف في الفخر لم يكن الإنسان قد قَدَرَه

كم زلزلت بالجياد العاديات له أرض بقارعة التخويف منتشره

له تكاثر آيات قد اشتهرت في كل عصر فويل للذي كفره

ألم تر الشمس تصديقا له حبست على قُرَيش ، وجاء الروح إذ أمره

أريت أن إله العرش كرّمه بكوثر مرسل في حوضه نهره

والكافرون إذا جاء الورى طردوا عن حوضه فلقد تبت يدا الكفره

إخلاص أمداحه شغلي ، فكم فلق للصبح أسمعت فيه الناسَ مفتخره

أزكى صلاتي على الهادي وعترته وصحبه ، وخصوصا منهم عَشَرَه

صدّيقهم عمر الفاروق أحزمهم عثمان ثم عليٌّ مُهلِكُ الكفره

سعد سعيد عبيد طلحة وأبو عبيدة وابنُ عَوْف عاشر العشره

وحمزة ثم عباس وآلهما وجعفر وعقيل سادة خِيَرَه

أولئك الناس آل المصطفى وكفى وصحبه المقتدون السادة البرره

---

(١) انجلى : انكشف وظهر . (٢) ذعره : أخافه .

(٣) منتثرة : متفرقة ، يشير إلى قوله تعالى : (وإذا الكواكب انتثرت) .

وفى خديجة والزهرا وما ولدت أزكى مديحى سأهدى دائما درره
عن كل أزواجه أرضى ، وأوثر من أضحت براءتها فى الذكر منتشره
أقسمت لازلت أهديهم شذا مِدَحِي كالروض ينثر من أكمامه زهره

انتهت القصيدة :

معارضة لقصيدة ابن جابر

وقد عارض منحاها جماعة فما شَقُّوا لها غبارا ، ومن معارضاتها قولُ بعضهم :

بسم الإله افتتاح الحمد والبقرهْ مصليا بصلاة لم تزل عطره
على نبى له الرحمن ممتدح فى آل عمران أيضاً والنسا ذكره
كذا بمائدة الأنعام فضـــله ووصفه التم فى الأعراف قد نَشَرَهْ[1]
أنفاله نزلت أيضاً براءة من يحبه وهو مشغول بما أمره
به نجا يونُس من حُوتِهِ ونجا هود ويوسف من سجن به عبره
أقسم برعد بإبراهيم أن له فى حجر نحل ترى الآيات مشتهره
سبحان جاءه له كهفا لأمته ومريم زوجة فى جنة نضره
طٰه به الأنبيا للحج قد وفدوا والمؤمنون على النور اقتفوا أثره[2]
آيات فرقانه ذلت لهـــا الشُّعَرا وسورة النمل قد قصت لنا سيره
والعنكبوت على غارٍ له نسجت والروم ولت برُعْب منه منكسره[3]
لقمان حكمته من بعض حكمته فاسجد لربٍّ على الأحزاب قد نصره
كم فى سبا عبرة للقلب قد فطرت فلذ بياسين تنجو يا أخا البرره
قد صُفَّتِ الأنبيا والرسل قاطبة خلف النبى بأمر الله مؤتمره

---

(١) نشره : أذاعه ، وضده « طواه يطويه » وأصله طي الثوب ونشره

(٢) اقتفوا أثره : تبعوه (٣) يشير إلى ما كان فى هجرته صلى الله عليه وسلم إذ دخل غار ثور فجاء العنكبوت فخيم على باب الغار حتى إذا رآه المشركون قالوا : لا يمكن أن يكون قد دخل هذا الغار ؛ إذ لو دخله لما بقى هذا العنكبوت على بابه

إن صاد قلبى الهوى تنزيل منقذه ... وغافر الذنب كم ذنب له غفره

كم خلعة فصلت للطائعين له ... وأمرهم بينهم شورى بلا نكره

لا تلههم زينة الدنيا وزخرفها ... كانوا يروها كدخان له قَتَرَه(١)

إذا جثا الخلق والأحقاف قد شرفت ... فذاك يوم على الكفار قد نصره

محمد خص بالفتح المبين وقد ... أتاه فى الحجرات الوحى بالخيره

قاف الوفاق وذر الطور نجم هدى ... وشق رب السما للمصطفى قمره

رَحْمن واقعة كل الحديد بها ... كم من مُجادلة فى الحشر محتذره

من يمتحن صفنا فى يوم جمعتنا ... فليس يلفى به غش ولا كدره

مطهر من نفاق ليس بينهم ... تغابن طَلَّقُوا دنياهم القذره

وحرموها وفى ملك لها زَهِدُوا ... كزهد صاحب نون حَقَّقَنْ خبره

إن تسألونى عن نوح نبىّ هدى ... والمصطفى سامع الجن الذى جهره

مزمل اسمه مدثر ، وله ... يوم القيامة للانسان ما ضمره

للمرسلات نبأ فى يوم نازعة ... عبوس تكوير شمس فيه منفطره

مطفف الكيل قد بانت خسارته ... يوم تشقُّ السما أبراجها النضره

كم طارق سبح الأعلى بغاشية ... والفجر بلدته بالشمس مستتره

والليل قُمْهُ ولا تترك صلاة ضحى ... يشرح لك الصدر والخيرات مُدَّخره

بسورة التين اقرأ أنها نزلت ... فى ليلة القدر ، والأنوار منتشره

ولم يكن مثل خير الرسل أحمدنا ... منه تزلزلت الكفار والفجرهْ

بعاديات لها قرع بهامته ... أعمى التكاثر من قلب له بصره

من كان فى عصره هَمَّازة لُمَزَا ... يلقاه قبل قريش قاهر قهره

ويل لمانع ماعون تراه غدا ... مباعدا كوثر الهادى الذى أثره

الكافرون إذا جا نصر خالقنا ... تبا لهم لعنوا هم أمة كفره

---

(١) قترة — بفتح القاف والتاء جميعا — هى الغبرة وقد حذف النون من « يروها » لغير ناصب ولا جازم

أخلص لرب فلق الناس تَنْجُ إذا ... يوم المعاد غدا من شرة عسره
وصل رب على الهادى وعترته ... وآله وعلى أصحابه العشره

معارضة القلقشندى لابن جابر

ومن سلك هذا المنهج الشيخ القلقشندى إذ قال :

عوّذت حِبّى برب الناس والفلق ... المصطفى المجتبى الممدوح بالْخُلُقِ(١)
إخلاص من وجدى له والعذر يقلقنى ... تبت يدا عاذل قد جاء بالملق
يهدى لأمته والنصر يعضده ... والكافرون وعذالى على نَسَق
هذا له كوثر والدين شرعته ... والمصطفى من قريش دَيِّنٌ وتقِى
ألم تر الماء قد سحت أصابعه ... ويل لكل جهول بالنبى وشقى
فى كل عصر ترى آياته كثرت ... أضحى تكاثُرُها فى سائر الأفق
وعند قارعة فهو الشفيع لنا ... والعاديات من الأجفان فى طَلَق
وزلزلت من غرامى كل جارحة ... وكل بينة تحكى لكم علقى
ياعالىَ القدر رفقاً مسنى ضرر ... فالله قد خلق الإنسان من علق
ولو دعا التينَ والزيتون جاء له ... والشرح عنه طويلٌ غير مختلَقِ
يبدو كشمس الضحى والليل طرته ... كالشمس فى بَلَد والفجر فى أفق
إنى بغاشية لولاك يا أملى ... أنت الشفيع إلى الأعلى وخير تقى
كم طارق منك بالإحسان يطرقنى ... مثل البروج أتى فى أحسن الطرق
وفى انشقاق فؤادى عبرة ، وبه ... ويل من الصد ، والأجفانُ فى أرقِ
والانفطار به مما يكابده ... والشمس قد كورت فى القلب ذى الحرق
والصبُّ فى عَبَسٍ والنازعات به ... وقد أتى نبأ من دمعه الغدق
ومرسلات دم الإنسان جارية ... إلى القيامة من دمعى ومن حرقى

---

(١) عوذته : حصنته ، وحرفيته جعلت له هذا معاذة ، والحب — بالكسر — الحبيب ، والمجتبى — بزنة المصطفي — أى المختار المنتخب

وبالمـدثر إنى ماسك أبداً — وبالمزمل إن أُلجِمْتُ بالعَـرَقِ (١)
فالجن والإنس فى خـير ببعثته — هـذا ونوحٌ به أنجى من الغرق
وفى المعارج معراج الرسول علا — حقا ، وفى حاقة كنز لمخـترق
والله مرسـله فى نون بشره — والمُلْكُ خَـيَّره حتى رأى وتقى
وجاء بالحل والتحريم أمتـه — وبالطلاق من الدنيـا لمنطلق
وفى التغـابن تُجّار به ربحوا — إذ المنـافق فى خسر وفى نفق
يا صاحب الجمعة الغراء يا أملى — فى الصف عندامتحانى أنْجِ من زلقى
وأنت فى الحشر عونى فى مجادلتى — عسى تزيل حديد النار من عنقى
وعند واقعـة إن كان لى رَمَق — فاشفع إلى ربك الرحمن من رَمَقى
لم أرع يا قمرى للنجم فى سهر — إلا لعلك من نار الجحيم تَقِى
قلبى الكليم غدا للطور مرتقيا — ودُرُّ دمعى غدا بالذاريات سقى
وقاف يعجز عن حمل الغرام بكم — وليس فى حجرات الدمع من رمق
إنا فتحنا قتـالا للعذُولِ ففى — أحقاف جاثيـة فى الغيظ والحنق
دخان زخرف ما العـذال فيه هبا — شُورَاىَ تتركه فى أنف محترق
وعز من فصلت فى مدحـه سور — نبينـا المصطفى الهادى إلى الطرق
فغافر الذنب كم أهـدى به زُمَرًا — وكم سقى كفه صادٍ بمنـدفق
وليس غيرك فى الصافات أقصده — وأنت يا سين لى من سائر الفرق
يا فاطرا قد سبا الأحزاب طلعته — كم سجدة لك فى الأسحار والغسق
لقمان يشهد أن الروم تعـرفه — والعنكبوت فقد سدت عن الغلق
هذا ولى قصص بالنمـل قد كتبت — هامت بها الشعرا فى خـده اليَقَقِ

(١) المدثر : المتغطى ، والمزمل : المتلفف فى ثيابه ، وأصلهما بتشديد الدال فى الأول وتشديد الزاى فى الثانى ، إلا أنه خففهما هنا لإقامة الوزن، و «أُلجمت بالعرق» إشارة إلى يوم المحشر حين يشتد الحر على الناس ، وقد ورد فى الحديث

تبارك الله من بالنور جمـلـهُ قد أفلح الحج لمـا زاره فَوُفِق
يا أيهـــا الأنبيا طه ختامكم ويا ابن مريم خذ من مسكهِ العبق
لاذوا بكهف لهم سبحان خالقه حتى أتى الأمر بعد الخوف والفرَقِ[1]
فالركن والحجر حقا قد أضاء له وذاك دعوة إبراهيم ذى الخلق
والله ربى برب الرعد ينصره مَسيرَ شهرٍ بلا سيف ولا دَرَقِ
فيوسف مع هود والخليـل إذاً ويونس شربوا من كأسه الدهق
لتوبتى أرتجى الأنفال منه غدا فإننى رجـل أضحيت فى قلق[2]
أعراف أنعام أنعام له اشتهرت وكم لمائدة أســدى لمرتزق
كل النسا لم تلد مثلَ الرسول إذا فينـا وفى آل عمران ولم تُطقِ
أعطيت خاتمة من سورة البقرة لم يعطها أحــد فيما مضى وبقى
فأنت فاتحة الأنبـا وخاتمهم وكلهم قد أتوا بالود والملق
والقلقشندى محب قال سيرته فى مدح خير الورى الممدوح بالخلق
فاقبل هدية عبدٍ أنت مالـكه وانظر إليه فإن العبد فى قلق
صلى عليـه إله العرش ما طلعت وَرْقا على فَنَنٍ والورق فى الورق

وهـــذه القصيدة وإن لم تلحق بلاغة قصيدة ابن جابر فهى مما يتبرك به ، والأعمال بالنيات :

معارضة أخرى لابن جابر

ووقفت على أخرى من هذا النمط هى بالنسبة إلى هذه كنسبة هذه إلى قصيدة ابن جابر ، وهى :

بحمد إله العرش أستفتح القولا وفى آية الـكرسى أستمنحُ الطولا[3]
وفى آل عمران بدا ذكر أحمد نساؤهمو بالعقد قد أنعموا القولا

---

(١) الفرق ـ بفتح الفاء والراء جميعا ـ شدة الخوف
(٢) القلق : الاضطراب
(٣) أستمنح ، هنا : أطلب ، والطول ـ بالفتح ـ الفضل

بأعراف رحماه بأنفال جوده شَرُفْنَا وفُضِّلْنَا وتبنا إلى المولى

له يونس نادى وهود ويوسف وذا كره فى الرعد لا يسمع الهولا

ودعـــوة إبراهيم كان محمد وفى الحجر خير الخلق قد فضل الرسلا

له أمة كالنحل قد صح فضلهم فسبحان من أسرى بأحمدنا ليلا

علا فضله والناس فى كهف نيله ومريم فى الأخرى يكون لها بعلا

وطه له فضل على الخلق كلهم ولـكن جميعَ الأنبياء علا فضلا

ولولاه ما حج المقام وكعبـــة فأفلح من قد طاف فيها ومن حلا

ومن نوره الوهاج كل منـــوّر وفرقانه قد أخمد الـكفر والبُطْلاَ(١)

ترى الشعرا كالنمل حـول محمد إذا قصص فى العنكبوت لهم تتلى

علا ديننا روما ولقمان عالم بأن السيوف أسجدت كل من ضَلاَّ

والأحزاب يسبيهم بحكمة فاطر وياسين قد صفت له الملأ الأعلى

وصاد جميع الـكافرين بزمرة له غافر فى الحرب قد فصلت فصلا

وشوراه فى الد نيابها كل زلفـة وقد زخرف الـكفار فى دينهم جهلا

لقد رأوا الدخان حول بيوتهم بجاثية الأحقاف قد قتلوا قتلا

محمدنا لم يخلق الله مثـــله وفى الحجرات فضله أبدا يُتْلَى

وقد أنزل الجبّـــار قافا بذ كره كما تذر الـكفار ريح بها تبلى

بطور سما والنجم ما ضـوء أحمد كما قَمَرٌ بل نور خير الورى أجلى

به الله رحمن وفى وقـــعة جرى حديد به الـكفار يجدلهم جدلا

وقد سمع الغفار دعـــوة أحمد بحشر ، ولـكن بامتحان به تبلى

صـــففنا بجمع للأعادى فمنهم منافق إن الـكفر فى دَرَكٍ سفلى

يرى غبنه فى الخير منهم مطلق ولـكن من يحرم نعيما فقد ضلا

---

(١) البطل ـ بالضم ـ الباطل

لأحمد ملك لا يوازيه سيد ونون لقد قلنا مقالا به استعلا(١)

بحق لقد سالت أباطح مكة بفضل الذى قد كان نوح به استعلى

صحيح بأن الجن جاءت لأحمد ومزمل كان الغمام له ظللا

لمدثر فضل القيامة واضح أتاه ، وجمع المرسلات أتت سبلا

وعَمَّ بجدواه فلا من منازع فحيث تراه لا عبوسا ولا بخلا

لقد كوّرت شمس بها انفطر السما لويل أتى الكفار وانْشَقَّ واستولى

ولكن بروج الجوّ تزهو بأحمد وفى طارق الأفلاك فَضَّلَه الأعلى

وغاشية كالفجر حلت ببلدة بها حرم أمن كشمس جلت ليلا

وفاقَ الضحى حقا جبينُ محمد كما بانشراح الصدر قد خَصَّه المولى

فأقسم بالتين الذى عم نفعه وبالقلَمَ الأعلى لقَدْر له أعلى

ألم يكن الكفار قد ضل سعيهم وقد زلزلوا بالعاديات كما يتلى

وقارعة جلت وألهاهم الهوى ووالعصر إن الويل يقريهم نزلا

ألم تر أن الله فضل أحمدا لأمْنِ قريش حيثما سلكوا السبلا

أريت بأن الكوثر العَذْبَ خصه به وجميع الكفر لن يَرِدُوا أصلا

لقد نصر الرحمن ربى محمدا فأردى أبا لهب ولم يكتسب نيلا(٢)

فيا أحمد إنى بفضلك عائذ إذا غسق الديجور ناديت يا مولى

ولم أقف على غير هذه الأبيات من هذه القصيدة ، وقد سقط منها كما رأيت سورة الناس ، فقلت مكملا على نمطه :

ويا مالكاً للناس إنى لائذ بعفوك فاغفر عمد عبدك والجهلا

ويا رب عاملنا بما أنت أهله من الجود والرحمى و إن لم نكن أهلا

---

(١) لا يوازيه : أراد لا يساويه

(٢) أردى : أهلك ، و « أبا لهب » تقرأ بسكون الهاء لإقامة الوزن

وصَلِّ على مسك الختــام محمد أتمَّ صلاة تملأ الحزن والسهلا

خطبة للقاضي عياض تتضمن التورية بأسماء سور القرآن

وتذكرت بهذا الموضع خطبة القاضى أبى الفضل عياض التى ضمنها سور القرآن على المهيع الماضى آنفا ، وهى : الحمد لله الذى افتتح بالحمد كلامه ، و بين فى سورة البقرة أحكامه ، ومد فى آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتم إنعامه ، وجعل فى الأعراف أنفال تو بة يونس وألر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصديق فى دار الكرامه ، وسبح الرعد بحمده ، وجعل النار بردا وسلاما على إبراهيم ، ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه فلا كَهْفَ ولا ملجأ إلا إليه ولا يظلمون قُلامه[1] ، وجعل فى حروف كهيعص سرا مكنونا قدم بسببه طه صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله و إعظامه ، وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان والشعراء صاروا كالنمل ذلا وصغارا لعظمته ، وظهرت قصص العنكبوت فآمن به الروم ، وأيقنوا أنه كلام الحى القيوم ، نزل به الروح الأمين على زَيْنِ مَنْ وافى القيامه ، وأوضح لقمان الحكمة بالأمر بالسجود لرب الأحزاب فسبا فاطر السموات أهلَ الطاغوت ، وأكسبهم ذلا وخزيا وحسرة وندامه ، وأمدَّ ياسين صلى الله عليه وسلم بتأييد الصافات فصَادَ الزمرَ يوم بدره وأوقع بهم ما أوقع صناديدهم فى القليب مكدوس ومَكبوب حين شَالَتْ بهم النَّعامه ، وغفر غافر الذنب وقابل التوب للبدريين رضى الله عنهم ما تقدم وما تأخر حين فصلت كلمات الله فذل من حقت عليه كلمة العذاب وأيس من السلامه ، ذلك بأن أمرهم شورى بينهم وشغلهم زخرف الآخرة عن دخان الدنيا فجثوا أمام الأحقاف لقتال أعداء محمد صلى الله عليه وسلم يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، فأعطوا الفتح و بوّءوا حجرات الجنان وحين تلوا قاف والقرآن المجد وتدبر واجواب قسم الذاريات والطور لاح لهم نجم الحقيقة وانشق لهم

---

(١) الكهف : الغار فى الجبل يتحصنون به ، والملجأ : المكان تلجأ إليه وتئل نفسك فيه ، والقلامة ــ بضم القاف ــ أصلها مايقع من الظفر إذا طال .

قمر اليقين فنافروا السآمه ، ذلك بأنهم أمنهم الرحمن إذا وقعت الواقعة واعترف بالضعف لهم الحديد وهزم المجادلون وأخرجوا من ديارهم لأول الحشر يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين حين نافروا السلامه .

أحمده حمدَ من امتحنته صفوف الجموع فى نفق التغابن فطلق الحرمات حين اعتبر الملك وعامه ، وقد سمع صريف[1] القلم وكأنه بالحاقة والمعارج يمينه وشماله وخلفه وأمامه ، وقد ناح نوح الجن فتزمل وتدثر فرقا من يوم القيامه ، وأنس بمرسلات النبأ فنزع العبوس من تحت كور العمامه ، وظهر له بالانفطار التطفيف فانشقت بروجُ الطارق بتسبيح الملك الأعلى وغشيته الشهامة ، فورب الفجر والبلد والشمس والليل والضحى لقد انشرحت صدور المتقين ، حين تلوا سورة التين ، وعلق الإيمان بقلوبهم فكل على قدر مقامه يبين ، ولم يكونوا منفكين دَهْرَهم ليله ونهاره وصيامه وقيامه ، إذا ذكروا الزلزلة ركبوا العاديات ليطفئوا نور القارعة ، ولم يلههم التكاثر حتى تلوا سورة العصر والهمزة وتمثلوا بأصحاب الفيل فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف أرأيتهم كيف جعلوا على رؤسهم من الكور عمامه ، فالكوثر مكتوب لهم والكافرون خذلوا وهم نصروا وعدل بهم عن لهب الطامه ، و بسورة الإخلاص قروا وسعدوا و برب الفلق والناس استعاذوا فأعيذوا من كل حزن وهم وغم وندامه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله شهادة ننال بها منازل الكرامة ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما غردت فى الأيك[2] حَمامة ، انتهت .

وممن نسبها للقاضى عياض الشيخ أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى العباس

---

(١) صريف القلم : صوته

(٢) الأيك : أراد الشجر الملتف

أحمد بن أبى جمعة الوَهْرَانى ، وفى نفسى من نسبتها له شىء لأن نفس القاضى فى البلاغة أعلى من هذه الخطبة ، والله تعالى أعلم .

خطبة لعم المؤلف تعارض خطبة القاضى عياض

وكنت رأيت بتلمسان المحروسة بخط عمى ومفيدى ولى الله تعالى العارف المعروف بشيخ الشيوخ الإمام المفتى الخطيب سيدى سعيد بن أحمد المقَّرِى ـ صَبَّ الله عليه سجال الرضوان ! ـ خطبةً من هذا النمط نصها :

الحمد لله الذى افتتح بفاتحة الكتاب سورة البقرة ليصطفى من آل عمران رجالا ونساء وفضلهم تفضيلا ، ومدّ مائدة أنعامه ورزقه ليعرف أعراف أنفال كرمه وحقه على أهل التوبة وجعل ليونس فى بطن الحوت سبيلا ، ونجى هودا من كربه وحزنه ، كما خلص يوسف من سجنه وجبه ، وسبح الرعد بحمده ويمنه ، واتخذ الله إبراهيم خليلا ، الذى جعل فى حجر الحجر من النحل شرابا نوّع باختلاف ألوانَه ، وأوحى إليه بخفى لطفه سبحانه ، واتخذ منه كهفا قد شيد بنيانه ، وأرسل روحه[1] إلى مريم فتمثل لها تمثيلا ، وفضل طه على جميع الأنبياء فأتى بالحج والكتاب المكنون ، حيث دعا إلى الإسلام قد أفلح المؤمنون ، إذ جعل نور الفرقان دليلا ، وصدَّق محمدا صلى الله عليه وسلم الذى عجزت الشعراء فى صدق نعته ، وشهدت النمل بصدق بعثه ، وبين قصص الأنبياء فى مدة مكثه ، ونسج العنكبوت عليه فى الغار سترا مسدولا ، وملئت قلوب الروم رعباً من هيبته ، وتعلم لقمان الحكمة من حكمته ، وهدى أهل السجدة للإيمان بدعوته ، وهزم الأحزاب وسباهم وأخذهم أخذاً وبيلا ، فلقبه فاطر السموات والأرض بياسين كما نفذ حكمه فى الصافات ، وبين صاد صدقه بإظهار المعجزات ، وفرق زمر المشركين وصبر على أقوالهم وهَجَرهم هجراً جميلا ، فغفر له غافر الذنب ما تقدم من ذنبه وما تأخر ،

---

(١) الروح : جبريل ملك الوحى ، وأخذ هذا من قول الله تعالى : (أرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا)

وفصلت رقاب المشركين إذ لم يكن أمرهم شورى بينهم وزخرف منار الإسلام وخفى دخان الشرك وخرّت المشركون جاثية كما أنذر أهل الأحقاف فلا يهتدون سبيلا ، وأذل الذين كفروا بشدة القتال وجاء الفتح للمؤمنين والنصر العزيز ، وحجر الحجرات الحريز ، و بقاف القدرة قتل الخرّاصون تقتيلا ، كلم موسى على جبل الطور ، فارتقى نجم محمد صلى الله عليه وسلم فاقتربت بطاعته مبادى السرور ، وأوقع الرحمن واقعة الصبح على بساط النور ، فتعجب الحديد من قوته ، وكثرة المجادلة فى أمته ، إلى أن أعيد فى الحشر بأحْسَنَ مقيلا ، امتحنه فى صف الأنبياء وصلى بهم إماما ، وفى تلك الجمعة ملئت قلوب المنافقين من التغابن خسرا و إرغاما ، فطلق وحرم تبارك الذى أعطاه الملك وعلم القلم ورتل القرآن ترتيلا ، وعن علم الحاقة كم سأل سائل فسال الإيمان ، ودعا به نوح فنجاه الله تعالى من الطوفان ، وأتت إليه طائفة الجن يستمعون القرآن فأنزل عليه : يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، فكم من مدثر يوم القيامة شفقةً على الإنسان إذا أرسَلَ مرسَلاَتِ الدمع فعم يتساءلون أهل الكتاب ، وماتقبل من نازعات المشركين إذا عبس عليهم مالك[1] وتولاهم بالعذاب ، وكوّرت الشمس وانفطرت السماء وكانت الجبال كثيبامهيلا[2] ، فويل للمطففين إذا انشقت السماء بالغمام ، وطويت ذات البروج وطرق طارقُ الصور بالنفخ للقيام ، وعزاسم ربك الأعلى لغاشية الفجر فيومئذ لا بلد ولاشمسَ ولاليلَ طويلا ، فطوبى للمصلين الضحى عند انشراح صدورهم إذا عاينوا التين والزيتون وأشجار الجنة فسجدوا باقرأ اسم ربك الذى خلق هذا النعيم الأكبر لأهل هذه الدار ما أحيوا ليلة القدر وتبتلوا تبتيلا ، ولم يكن للذين كفروا من أهل الكتاب من أهل الزلزلة من صديق ولا حميم ، وتسوقهم كالعاديات إلى سواء[3] الجحيم ، وزلزلت

(١) مالك : خازن النيران (٢) الكثيب : مجتمع الرمل ، والمهيل : المنهال

(٣) سواء الجحيم : وسطها ، وفى القرآن الكريم : (فاطلع فرآه فى سواء الجحيم)

بهم قارعة العقاب وقيل لهم : ألهاكم التكاثر، هذا عصر العقاب الأليم ، وحُشِر الهُمَزة وأصحاب الفيل إلى النار فلا يظلمون فتيلا ، وقالت قريش : ما أمنتم من هول المحشر ، أرأيت الذى يكذب بالدين كيف طرد عن الكوثر ، وسيق الكافرون إلى النار وجاء نصرُ الله والفتح فتبت يدا أبى لهب إذ لا يجد إلى سورة الإخلاص سبيلا ، فنعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، ونعوب برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى فسق ، ونتوب إليه ، ونتوكل عليه ، وكفى بالله وكيلا . انتهى

ومن إنشاء الفقيه الجليل الشريف الكامل أبى المجد عبد المنعم ابن الشيخ الفقيه العدل أبى جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمى الطنجالى رحمه الله تعالى ونفعنا به و بسلفه الطاهر (١) :

من نظم ابن جابر

ومن نظم ابن جابر المذكور قوله :

جعلوا لأبناء الرسول علامة ... إن العلامة شأن من لم يشهر
نور النبوّة فى كريم وجوههم ... يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

في معناه لشمس الدين الدمشقي

وفى هذا المعنى يقول شمس الدين الدمشقى :

أطراف تيجان أتت من سندس ... خضر بأعلام على الأشراف
والأشرف السلطان خَصَّهُمُ بها ... شرفا لتفرقهم من الأطراف

والأشرف المذكور هو شعبان بن حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون الصالحى الألفى ، رحمهم الله تعالى !

وقال الرحالة بن بطوطة فى رحلته عند ذكر سلطان ماردين ابن الملك الصالح ابن الملك المنصور ما نصه : وله المكارم الشهيرة ، وليس بأرض الشام والعراق

---

(١) سقط من جميع أصول هذا الكتاب ما أراد أن يثبته المؤلف من إنشاء الشريف الطنجالى ، ولعله بيض له ليكتبه ، ثم عدت العوادى دون إتمام ماشرع فيه

ومصر أكرم منه ، يقصده الشعراء والفقراء فيجزل عطاياهم جريا على سنن أبيه ، قصده أبو عبد الله محمد بن جابر الأندلسى الهوّارى الكفيف مادحا فأعطاه عشرين ألف درهم ، انتهى .

من شعر ابن جابر أيضا

ومن شعر ابن جابر رحمه الله تعالى :

وفى الخيام ومن لى بالخيام رَشًا ... لا أحسب البدر فى حسن يقاومه
مثل الغزالة إن تاهت و إن طلعت ... فكيف يصرفُ عنه الصبَّ لائمه

وقوله رحمه الله تعالى :

فى القلب من حبكم بدر أقام به ... فالطرف يبصر نورا حين يبصره
تَشَابه العقدُ حسنا فوق لَبَّته ... والثغر نظما إذا ما لاح جوهره (١)

وقوله :

ردف أقام لنا بها فتن الهوى ... و إذا أتت لتقوم قال لها اقعدى
أبصرتها ما بين ذاك و بين ذا ... فوقعت منهـا فى المقيم المقعد

وقوله :

سَامَحَ بالوصـل على بخله ... وقال لى أنت بوصلى حقيق (٢)
فقلت ما رأيك فى نزهة ... ما بين كاسات وروض أنيق (٣)
فقال يعنى خـده واللمى : ... هذا هو الروض وهذا الرحيق (٤)
فبتُّ من دمعى ومن خده ... ما بين نعمان و بين العقيق
و إذ تذللت على حبـه ... قال : أما تخشى ؟ أما تستفيق؟
قدى وخدى خَفْهُما يا فتى ... هذا هو الرمح وهذا شقيق

---

(١) اللبة ــ بفتح اللام وتشديد الباء ــ النحر ، يقول : إن عقده وثغره (يريد أسنانه) قد تشابها ، كل منهما لؤلؤ أبيض ناصع البياض .

(٢) بوصلى حقيق : جدير . (٣) روض أنيق : مونق معجب .

(٤) الرحيق : الخمر ، شبه به ريقه .

وقوله :

وَقَفَتْ للوداع زينب لما رحل الركب والمدامع تسكب

مسحت بالبنان دمعى ، وحلو سكب دمعى على أصابع زينب

رجع لأولاد لسان الدين

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمه الله تعالى .

ومن قصيدة موشحة لابن زمرك يخاطب بها شيخه ومخدومه الوزير لسان الدين بن الخطيب قبل أن يظلم الجوّ بينه و بينه ، جوابا عن رسالة خاطب بها لسان الدين بن الخطيب أولاده صدر نظم لم يحضرنى ذلك الآن قولُه :

مالى بحمل الهوى يَدَانِ من بعدما أعوزَ التدانى

أصبحت أشكوه من زمان ما بت منه على أمان

ما بال عينيك تَسْجمان والدمع يرفَضُّ كالجمان[١]

نادالك والإلف عنك وانٍ والبعد من بعده كَوَانِى[٢]

يا شقة النفس من هوان لجج فى أبحر الهوان

لم يثنه عن هواك ثان يا بغية القلب قد كفانى

من ترجمة على بن لسان الدين

وقال بعض الحفاظ فى ترجمة أبى الحسن على بن لسان الدين بعد أن ذكر روايته عن أبيه وابن الجياب وابن مرزوق : إنه أخذ عن جماعة غيرهم ، كالشريف القاضى الفقيه أبى على الحسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسنى السبتى نزيل تلمسان ، والفقيه الإمام العلامة قاضى الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبى عبد الله محمد المقَّرى التلمسانى القرشى ، والشريف العالم أبى القاسم محمد بن الفقيه العالم المعلم لكتاب الله تعالى أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن على بن موسى بن إبراهيم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن إدريس بن الحسن بن محمد بن الحسن

(١) تسجمان : ينسكب دمعهما ، والدمع يرفض : ينزل ويهمى ، والجمان ـ بضم الجيم ـ الفضة . (٢) الإلف ـ بالكسر ـ الأليف ، ووان : اسم الفاعل من « ونى ينى » أى فتر .

بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم ، وليس إدريس المذكور هنا بملك المغرب وجد الأدارسة .

قال : وروى أيضا عن القاضى ابن شبرين الإشبيلى ثم السبتى نزيل غرناطة ، والقاضى أبى البركات البلفيقى ، والكاتب صاحب القلم الأعلى أبى جعفر بن صفوان القيسى المالكى ، وابن خاتمة ، والفقيه الحاج أبى القاسم محمد بن الفقيه الصالح العالم أبى عمرو يحيى ابن الفقيه الصالح أبى القاسم محمد الغسانى الرحبى نزيل فاس ، وغيرهم ممن يطول تعدادهم من الأئمة الأعلام ، نجوم الإسلام ، اهـ .

وقد وقفت للكفعمى رحمه الله تعالى فى شرح بديعيته على خطبة وقصيدة من هذا النمط . قال رحمه الله تعالى ما نصه :

ولنختم الخاتمة بخطبة وجيزة ، فى فنها عزيزة ، وجعلناها فى مدح سيد البرية ، وتورياتها فى السور القرآنية ، فكن لسورها قاريا ، ولمعارجها راقيا ، وعلّ وانهل من شرابها السكرى ، وفكه نفسك بتسجيعها العبقرى ، وهى هذه :

خطبة الكفعمى فى نسق سور القرآن

الحمد لله الذى شرف النبى العربى بالسبع المثانى وخواتيم البقرة من بين الأنام ، وفضل آل عمران على الرجال والنساء بما وهب لهم من مائدة الأنعام ، ومنحهم[1] بأعراف الأنفال وكتب لهم براءة من الآثام ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى نجى يونس وهوداً ويوسف من قومهم برعد الانتقام ، وغذى إبراهيم فى الحجر بلعاب النحل[2] ذات الإسراء فضاهى كهف مريم عليها السلام ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هو طه الأنبياء وحج المؤمنين ونور فرقان الملك العلام ، فالشعراء والنمل بفضله تخبر ، ولقصص العنكبوت الروم تذكر ، ولقمان فى سجدته يشكر ، والأحزاب كأيادى سبا تقهر[3] ، وفاطر يس لصافاته ينصر ، وصاد مقلة زمره

---

(١) منحهم : أعطاهم . (٢) لعاب النحل : الشهد .

(٣) يقال « تفرق القوم أيادى سبا » و « أيدى سبا » أى تفرقا لا يرتجى بعده التئام واتصال .

تنظر الأعلام ، فآل حم بقتال فتحه فى حجرات قافه قد ظهرت ، وذاريات طوره ونجمه وقمره قد عطرت ، وبالرحمن واقعة حديده يوم المجادلة قد نصرت ، وأبصار معانديه فى الحشر يوم الامتحان حسرت ، وصف جمعته فائز إذ أجساد المنافقين بالتغابن استعرت ، وله الطلاق والتحريم ومقام الملك والقلم فناهيك به من مقام ، وفى الحاقة أعلى الله له المعارج على نوح المتطهر ، وخصه من بين الإنس والجن بيا أيها المزمل ويا أيها المدثر ، وشَفَّعه فى القيامة إذا دموع الإنسان مرسلات كالماء المتفجر ، ووجهه عند نبأ النازعات وقد عبس الوجه كالهلال المتنور ، ويوم التكوير والانفطار وهلاك المطففين وانشقاق ذات البروج بشفاعته غير متضجر ، وقد حرست لمولده السماء بالطارق الأعلى وتمت غاشية العذاب إلى الفجر على المردة اللئام ، فهو البلد الأمين وشمس الليل والضحى المخصوص بانشراح الصدر ، والمفضل بالتين والزيتون المستخرج من أمشاج العلق الطاهر العلى القَدْر ، شجاع البرية يوم الزلزال إذ عاديات القارعة تدوس أهل التكاثر ومشركى العصر ، أهلك الله به الهُمَزَة وأصحاب الفيل إذ مكروا بقريش ولم يتواصوا بالحق ولم يتواصَوْا بالصبر ، المخصوص بالدين الحنيفى والكوثر السلسال والمؤيد على أهل الجحد بالنصر ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ماتبت يدا معاديه ، ونعم بالتوحيد مواليه ، وماأفصح فلق الصبح بين الناس وامتد الظلام :

قصيدة له فى نسق سور القرآن

ولنشفع هذه الخطبة بقصيدة على سور القرآن ، فى مدح سيد ولد عدنان ، يحسن هنا أن ننضى عن فرائد نفائسها لطلابها ، ما أغدف من خُمُرها وستورها[١] ، ونجلَى عن خرائد عرائسها لخطابها ، ما أسدف من غُرَرها فى خدورها ، فانظر إلى سور أبياتها وصور توريتها ، ثم ادْعُهن يأتينك سعيا ، فحفظا لها ووعيا ، وهى هذه :

(١) تقول « أغدف الليل » أى أرخى ستوره ، و « أغدفت المرأة قناعها على وجهها » أى أرسلته ، والخمر – بضمتين – جمع خمار ، وهو القناع .

يا من له السبع المثانى تنزل وخـواتم البقره عليه أنزل
فى آل عمران النساء لم يَلِدْ ن نظيره أعيـاد ذلك تفعل
مولى له الإنعام والأعراف والـأنفال والحكم التى لا تجهل
بعُلَاه توبة يونس قبلت كذا هود ويوسف رعدهم يتجلجل
وكذاك إبراهيم فى حجر له والنحل فى الإسرا عليه تعوِّل
يا كهف مريم أنت طهَ الأنبيا والحج ثم المؤمنون الأفضـل
يا نور يا فرقان يا من مدحـه نطقت به الشعراء وهو المرسل
والنمل فى قصص الحديث به دعت وعليه نسج العنكبوت مسدل
والروم تتلو إسمـه ولكم به لقمان حقا فى المضاجع يسأل
و بعزمه الأحزاب جمعهم سَبَاَ وبه الملائكة الكرام تفضل
يٰس سمـاه الإله بذكره وكواكب بسعوده لا تأفل
يا ليتنى صادٍ شربت بكأسه وعليـه فى زُمَر وردت فأُنْهَلُ(١)
كم مؤمن قد فصلت أعلامه من زخرف بجَدَاه يا من يعقل
ودخان جاثية على أحقافها بقتاله أطفى وفتح أدخـل
حجرات قاف ذاريات سمائه فى طورها نجم منـير يكمل
ودنا له القمر المنير وشقه الر حمن واقعـة له لا تجهل
زغف الحديد بحربه أصواتها رعـد مجـادلة لقوم أبسلوا
وله لدى الحشر العظيم شفاعة فى أمـة بالإمتحان تسر بلوا
عن صَفِّ جمعته المنافق نائيا يوم التغابن من حديد ينعل
يامن به شُرِعَ الطلاق ومن له الـتحريم والملك العظيم الأجمل

---

(١) صاد : اسم فاعل من « صدى يصدى » أي ظمئ وعطش ، والزمر : جمع زمرة ـ بالضم ـ وهى الجماعة ، و « أنهل » أشرب

يا من به ذو النون لاذ بيمنه لما أصيب بحـاقة لا تعدل
يا من سَأَلْ نوح بطاهر إسمه يا من أتته الجن يا مزمل
مدثر يوم القيامة شـافع ومخلص الإنسان وهو الموئل
يا من نزول المرسلات ببعثه يا أيهـا النبأ العظيم الأكمل
والنازعات نزعن نفس عـدوّه هذا ، وقد عبس الجبين وأذهلوا
وهو الشفيع إذا المنيرة كوّرت والإنفطار من السماء يعجل
ولدى ذوى التطفيف وَيْل والسما فى الانشقاق إذا البروج تبدل
والله قد حرس السماء بطارق لولادة الأعلى به يتفضـل
وأزال غاشية العذاب ونوره كالفجر إذ أنواره تتهـلل
بلد أمين ثم شمس أشرقت والشعر ضاهى الليل بل هو أليل
شمس الضحى من وجهه ولصدره ألانشراح وقلبـه لا يغفل
يا من أتى فى التين حقا ذكره فاقرأ ولا يرتاب فيـه واسألوا
يا من ليـالى القدر بينة له وعداه بالزلزال منـه تزلزلوا
بالعاديات أزال قارعة العـدا وبقوله ألهـاكم ما تجهل
ولقد أتى من قبل عصر نبينا ويل لأهل الفيل منـه وقُتِّلُوا
هوصاحب الإيلاف والدين الذى يسقى غدا من كوثر يتسلسل
والـكافرون لنصره فى جيدهم مَسَد إذا التوحيد عنه تعدل
يا خاتما فَلَقُ الصباح كوجهه والناس منه مكبر ومهلل
أبياتها ميقات موسى عـدة والـكفعمى بِمَدْحِهِ يَتَجَمَّلُ(1)
صـلى عليه الله مع أصحابه ما زال طير العندليب يعندل

(1) فى ب « والـكفعمى فى مدحه يعجل » وكتب بهامشها : « هـكذا فى الأصل ، ولا يخفى ما فيه ، فلعل الأولى * والـكفعمى بمدحه يتوسل » اهـ ، وأثبتنا ما فى خ .

ترجمة إبراهيم بن على الكفعمى

والكفعمى هو إبراهيم بن على بن حسن بن محمد بن صالح نسبة إلى كفر عيما[(١)] قرية من قرى أعمال صفد، كما تقول فى النسبة إلى بنى عبد الدار : عبدرى ، وإلى حصن كيفا : حصكفى ، وشرحه لبديعيته سماه « نُور حَدَقة البديع ، ونَوْر حديقة الربيع » وما رأيت مثله فى سعة الحفظ والجمع .

ومن نظمه فى أسماء الكتب :

يا طريق النجاة بحر فلاح	أنت دفع الهموم والأحزان[(٢)]
أنت أنس التوحيد عدة داع	ثم روح الإحيا وفلك المعانى
نهج حى ونثر در نبيـــه	ورياض الآداب ذكرى البيان
فائق رائع مسرة راض	منتهى السؤل جامع للأمانى
نزهة عـــدة ظرائف لطف	روضة منهج جنان الجنان
فصحاح الألفاظ فيـه تلقى	وشذور العقود والمرجان
وهو قوت القلوب نهج جنان	وكنوز النجاح والبرهان

فناسب بين أسماء الكتب وقصده غير ذلك ، وأكثر هذه الكتب التى ورى بها غير موجودة بأيدى الناس ، بل ولا معروفة لديهم ، وهذا دليل على صحة اطلاعه.

ومن بدائع الكفعمى المذكور رسالة كتب بها إلى قاضى القضاة العالم العلامة أبى العباس بن الفرفورى فى شأن أستا دار قاضى القضاة المذكور الأمير علاء الدين ، ويخرج من أثنائها قصيدة منها : يقبل الأرض وينهى (سلام) عبد لكم (محب) وعلى المقة مكب (لوبدا) للناظرين (عشرُ) معشار (شوقه *) وغرامه (لطَبَّقَ) ذلك (ما بين) آفاق (السموات) السبع (والأرض) لشدة هيامه (تراه) حقا(لكم) حافيا (بالأمن) والسرور (والسعد) والحبور (داعيا *) لا جرم (وهذا) الثناء

---

(١) كذا فى أصول هذا الكتاب ، والذى فى ياقوت « كفر غما بالغين المعجمة والميم المشددة والألف مقصورة ـ وهو صقع بين خساف وبالس من نواحى حلب .

(٢) فى ب « ياطريق النحاة »

المتوالى و (الدعا) للمقام العالى (لاشك من لازم الفرض) ملكه الله تعالى أزِمَّةَ[١] البسط والقبض (وأنجاك) ربى من المصاعب (فى) دينك و (دنياك) وأنقذك (من) شر (كل) صغير (شدة) وكبيرها (وأرضاك) وجعلك أمينا (فى) الأرض ، إلى (يوم القيامة) والنشور (والعرض ، كما أنت) أمن (لى) من المخاوف و (عون) فى كل شدة (وغوث) وملجأ (وعدة *) وأنجحت آمالى (ووفرت) بإخدامك (لى مالى) وأحسنت قرضى (ووفرت) بإجلالك (لى عرضى، و يُنْهِى) المملوك (إلى) سيده[٢] (قاضى القضاة) وكافى الكفاة (بأن) المتولى الأمين (ذا *) الفخر المبين (على ابن) المرحوم (فخر الدين) قولُه (فى أمركم) العالى (مرضىّ) وفعله مقضى (ومدحكم) عليه (فرض) واجب (يراه) أبدا (لسانه*) ويذكر المناقب (وحبكم) له واختيار كم (إياه) دال بأنه أمير حكيم (شاهده) حقا (يقضى) بجعله على خزائن الأرض إنه حفيظ عليم (حديث) مدح (سواكم) ليس من مدائحه ، و (لايمرّ) أبدا (بقلبه *) وجوارحه (و إن مرّ) فى خاطره (لايحلو) قطعا (وحكمكم) عليه شرعا ، ومرسومكم (يمضى) وأمركم يقضى (يقتيه) سرورا (به) رؤساء الشام ، و(من فى القبيبات) من الأنام ، (عزة *) وعلوّا (لخدمته) الشريفة (إياك) ولأنه (ياقاضى) قضاة الدين و (الأرض) لا يريد سواك ، (فإن يك) الخادم المذكور (فى) بعض (أفعاله) غافلا (أو) فى (مقاله *) غير كامل و (عصاكم) فى بعض الأمر (فعين العفو) والستر (عن ذنبه) لاجرم (تُغْضِى) ، وهو بتوبته إليه يُفْضِى ، و (سلام) الله (عليكم) ورحمته لديكم (كلما) نطق ناطق أو (ذر) فى المشارق (شارق) * ومادارت الأفلاك ، (وسبحت) بلغاتها (الأملاك ، فى) فسيح (الطول و) رحب (العرض) ، دوما مابين السماء والأرض

وهذه أبيات القصيدة المتولدة من هذه الرسالة :

---

(١) الأزمة : جمع زمام ، وهو فى الأصل ما تقاد به الدابة .

(٢) ينهى إليه : يبلغه ويخبره

سلام محب لو بدا عُشْرُ شوقه لطبق ما بين السّموات والأرض
تراه لكم بالأمن والسعد داعيا وهذا الدعا لا شك من لازم الفرض
وأنجاك فى دنياك من كل شدة وأرضاك فى يوم القيامة والعرض
كما أنت لى عون وغوث وعدّة ووفرت لى مالى ووفرت لى عرضى

هذا ، ويصح أن يقرأ « عونا » بالنصب على الحالية ، وهو الذى رأيته بخطه ، أعنى الكفعمى ، ثم قال :

وينهى إلى قاضى القضاة بأن ذا على بن فخر الدين فى أمركم مَرْضِى
ومدحكمُ فرض يراه لسانه وحبكم إياه شاهده يقضى
حديث سواكم لا يمر بقلبه وإن مر لا يحلو وحكمكم يمضى
يتيه به من فى القبيبات عزة لخدمته إياك يا قاضىَ الأرض
فإن يك فى أفعاله أو مقاله عصاكم فعين العفو عن ذنبه تغضى
سلام عليكم كلما ذر شارق وسَبَّحَتِ الأملاك فى الطول والعرض

قلت : وهذه طريقة بديعة ، وقد تبارى فيها السلف ، فبعضهم يعمد إلى أحاديث أو آيات وينسج على منواله مثلها ، ويفرقها فى أبياته أو سجعاته ، ويكتبها بلون مخالف للأصل ، وقد ذكرت فى روضة الورد من « أزهار الرياض » من كلام ابن عاصم مالا مزيد وراءه ، فليراجعه مَنْ أراده ، وذكرت فى غيره أيضاً نبذة .

رجع إلى نظم ابن جابر

رجع إلى نظم ابن جابر ـ فمن ذلك قوله :

ناديت مَنْ أسْرِى به بحياة من أسرى به[1]
سل مدمعا تجرى به بَلْواه فى تجريبه

---

(١) « أسرى به » الأولى مؤلفة من « أسر » مصدر أسر يأسر ، وياء المتكلم ثم الجار والمجرور ، و « أسرى به » الثانية فعل مضارع مبنى للمجهول والجار والمجرور يقول : ناديت محبوبى الذى أسرى بسببه مقسما عليه بحياة الرسول الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى

وقوله :

أيها العاذل فى حبى له ... خل نفسى فى جَوَاها تحترق
ما الذى ضرك منه بعد ما ... صار قلبى فى هواه تحت رق

وله :

برد الصباح على برد الصبا سحرا ... ما زال يُذكرنى أوقات نعمان
لهفى لعيشٍ قضينا فى معاهدها ... ما بين حسن من الدنيا و إحسان

وله رحمه الله تعالى من حسناته المقبولة المضاعفة أيضاً :

جعلت ملاك العين والقلب فى الهوى ... بناطقة القُرْطَيْن صامتة القُلْب (١)
تصحف لى ألحاظُها لينَ قدها ... وتقلبه كيما تصيد به قلبى

قال بعض علماء المشرق : أجاد والله هذا العالم المغربى المقال ، وأراد أن لفظ لين إذا قلب صار نيلا ، وإذا صحف صار نَبْلاً ، وهذا زيادة على ما فيه من التحريف ، انتهى .

وقريب منه لرفيق المذكور قولُه :

من شعر أبى جعفر رفيق ابن جابر

يفتر عن بَرَد يثير ببردِهِ ... حَرَّ الغرام ولا سبيل لرشفه
أخذ الرشا من حسنه طرفا لذا ... نَسَبَ الورى طرف الجمال لطرفه

وله :

تجر فرعيها على إثرها ... رافلة فى حلل الحسن
فتطلع البدر لنا فى الدجى ... وترسل البدر على الغصن

وله :

قد نعمنا بجزع نَعْمَانَ لكن ... عقنا البعد والعقوق قبيح

(١) ناطقة القرطين : أى أن لقرطيها صوتا ، وإنما يكون لهما صوت إذا تدليا ولم يصلا إلى مستقر ، وذلك يدل على طول عنقها ؛ فهذه العبارة كناية عن طول العنق ، والقلب ــ بالضم ــ سوار للمرأة غير ملوى ، وصمت القلب إنما يكون لعبالة الساعد ؛ فهذه كناية عن ذلك .

قل لأهل الخيـــام أما فؤادى فجريح لــكنّ ودى صحيح

وقوله :

مُقدِّمات الرقيب كيف غدت عند لقـــاء الحبيب متصله

تمنعنا الجمع والخُــــلوَّ معاً وإنما ذاك حـــكم منفصله (١)

وله يمدح سيد الخلق وخاتم المرسلين ، صلى الله عليه وعليهم أجمعين :

رحمةً أرســــله الله لنا وشفيعا قد غدا فينــــا غدا

وَهبَ المــالَ لمن مال له وفدًا من ذنبــــه من وَفَدَا

ليس يُحْصِى فضله إلا الذى هو أحصى كل شيء عددا

وله :

حَسِّنِ النية ما اسطعت ولا تتبع فى الناس أسباب الهوى

إنما الأعمـال بالنيات من ينو شيئا فــله ما قد نوى

وله :

قالت وقد حاولت نيل وصالها من غير شيء لا تجوز المسألَهْ

بالله قل لى أين نحوك يا فتى أرأيت موصولا يجيء بلا صله

ابن عنين والملك المعظم

وهذا معنى قد تلاعب الشعراء بكُرَته ، وقضية ابن عنين فى ذلك مع المعظم دالة على توقد فكرته ، وما ذاك إلا أنه مرض فكتب إلى الملك المعظم :

أنظر إلىَّ بعين مولًى لم يزل يولى الندى وتَلَافَ قبل تلافى

أنا كالذى أحتاج ما يحتاجه فاغنم دعائى والثناء الوافى

---

(١) هذا من اصطلاح المناطقة ، وعندهم أن القضية المنفصلة هى التى تمنع اجتماع طرفيهما وتمنع أيضا أن يخلو الموضوع عن أحدهما ، وذلك فى كل ما كان حرف الانفصال — وهو إما — واقعا بين نقيضين ، مثل قولك « محمد إما أن يكون ساكنا وإما لا » ألا ترى أن محمدا لا يمكن أن يكون ساكنا وغير ساكن فى آن واحد ، كما لا يمكن أن يكون غير ساكن وغير متحرك .

فعاده المعظم وأعطاه ألفا ، وقيل : ثلثمائة ، وقال له : هذه الصلة ، وأنا العائد .
وقال ابن جابر المذكور :

يا دار ليلى لا صَمَتْكِ يد البلى وسقاكِ درَّ الغيث كُلُّ سحاب (١)
أصبو إلى تلك الربوع وكيف لا أصبو وهن منازل الأحباب

من شعر ابن جابر أيضا

وقال من قصيدة :

وأطلب تشويق الأنام بحسنه فأذكر من أسمائه كل طيب

ومنها :

وإنىَ لم أمدحه إلا تشوّقا وإن كان مشهورا بشرق ومغرب

وقال :

شاه وَجْهُ الرقيب إذ شاء وَصْلِى قمرى والأنامُ عنا نيامُ (٢)
زارنى بالنهار فى الليل لكن ليلُ فرع يحار فيه الظلام

وقال :

يا أيها الجائر فى حكمه إنىَ فيما قد جرى حائرُ
قدّكَ من أعدل شىء يرى وأنت فى أهل الهوى جائر

وقال :

قد زعم العاذل لى أنه يهدى لى الرُّشْدَ بما يصنع
ما هو هادٍ لى ولكنه هاذٍ فسمعى قال لا تسمعوا

وقال :

شفى فؤادى من شقا هجره وبِتُّ من لقياه فى عيد
وزارنى يحكى غزال النقى فى الحسن لولا الحلْىُ فى الجيد

---

(١) صمتك : ماض مقترن بتاء التأنيث من قولهم «صمى الأمر فلانا» إذا حل به
(٢) شاه وجه فلان فلا يشوه شوها وشوهة : قبح

وقال :

سلب القلبَ غــزالٌ قَدُّهُ ... قد حكى البان لنا والسَّلَما[1]

ســاحر العين إذا أبصره ... كاتب ألقى لديه القلمـــا

وقال :

يكفى الأنام بسيفه وبسيبه ... عقد المكاره والمكارم دائما

وقال :

تحلت بما يحكى محاسن ثغرها ... وحلَّتْ عقودَ الصبر منى عقودُها

ثقيلة أرداف فَصَعْبٌ قيامها ... بما حملت منها وسهل قعودها

وقال :

أبى حسنها إلا افتتان قلوبنا ... فكم قد أباد الحسنُ فيها من الناس[2]

وقالت تحمل طول هجرى إن تُرِدْ ... وصال ذوات الحسن قلت على الراس

وقال :

أراد إنسان أراد الرضـــا ... منهم رجا ما ليس بالممكن

سيان أن يعطوا وأن يمنعوا ... قد ضاع فيهم كرمُ المحسنِ

وقال :

يا جيرة الحى حيا الله واديكم ... فكم سرور به للقلب قد عَرَضَا

فكم أنال حياة أستلذ بهـــا ... إذا أنا لم أنل من وصلكم غرضا

وقال :

شبَّ حَرَّ الفؤاد ماء رضابٍ ... منه قد حار فيــه ماء الغمام[3]

زان بالحــلى جيده قلت ماذا ... قال شىء نظمته من كلامى

---

(١) البان والسلم : من أشجار البادية ، شبه قوامه بهما فى الاعتدال والتثنى

(٢) أباد : أهلك (٣) شب : أوقد ، والرضاب ـ بالضم ـ الريق

وقال :

صادَ قلبي وصدَّ عني صدودا وانثنى يسحب الذوائب سودا
فرأيت الصباح في الليل يبدو وشهدت الرشا يصيد الأسودا (١)

وقال :

إني سئمت من الزمان لطول ما قد صد عن حسن الوفاء رجاله
ومن النوادر في زمانك أن ترى خِلاًّ به حمدت لديك خِلالُه (٢)

وقال :

إن قابل الغصن بأعطافه فقلَّ أن تبصر من فَرْقِ
قلت قد استعبدت كل الورى فقال ذاك البعض من حقي

وقال :

صَحَّ أن الصباح من وَجْنتيها وغصون الرياض من معطفيها
قاتل الله عاذلي قبل يوم ليس يسعى بالعذل فيه إليها

وقال :

شدُّوا محاملهم يوم الرحال وقد محا رسوم اصطباري فَقْدُ من رَحَلاَ
هزوا الغصون على الكثبان حين مضوا وأسبلوا فوق أقمار الدجى كِللاَ

وقال :

خد ترى الورد بعضا من محاسنه تبارك الله ما أحلى شمائله
لصارم اللحظ قد أرخى حمائلَ مِنْ عذاره فحمى عنا خمائله

وقال :

قام حادي الركاب ليلا فغنى فاستقام السرى وثار الغرام

---

(١) أراد بالصباح وجهه ، وبالليل شعره ، على طريق الاستعارة
(٢) الخل - بالكسر - الصديق كالخليل ، والخلال : الطباع والسجايا

قيل نام الأنام فاهجع قليــــلا قلت دون الحبيب لست أنام

وقال :

ترامى بنا فى البيدِ شوق إلى الحمى ترى عنده الأجفان منهلة الدمع
فلما رأينا ربع مَنْ سكن الحَشَا نزلنا فقبلنـــا ثرى ذلك الربع

وقال :

يراودنى الواشى على حب غيرها وإن محالا أن يرى مثل حسنها
موفورة الأرداف مهضومة الحشا يُرِيك التفاتَ الظبى فاترُ جفنها

وقال :

سلت علينــا سيوفا من لواحظها وما لنا من سيوف اللحظ من واقى
أضحت لسفك دم العشاق هادرة فما ترى دية فى قتــــل عُشَّاقِ[1]

وقال :

فى خدها شَبَه للخـال أو شِيَة بما حوى الحسن من ألطاف أسرار
وَشْى من الحسن لم يحتج لصنع يد تبارك الله هذا صنعة البارى

وقال :

بين الجوانح لو علمت من الجوى نار عليهــا سكب عينى يهمع
فدَعِ المدامع فى مدى جريانها فالدمع بعـــد فراقهم لا يمنع

وقال :

قالوا بدارين قد قالوا وقد وَردوا ماء العقيق وبالزوراء قد باتوا
بانوا عن العين لكن بالقلوب ثووا وفى البعاد عن الأحباب آفات

---

(١) دم هدر – بالتحريك – ليس له مطالب ، ويقال « هدر فلان دم فلان » من باب ضرب ، ويقال « أهدر فلان دم فلان » يستعمل ثلاثيا مجردا ومزيدا فيه ، ويقال « هدر دم فلان » من باب جلس – فالثلاثى لازم ومتعد

وقال :

مليحة الخـــد به شامة كالورد قد نُقِّطَ بالغاليـــة[١]

قلت لها ما اسمك قولى لنا قالت فما تعرفنى غاليـــه

وقال :

جارية جارية فى مدى شبابها من أملح الخلق

ما بين فرق الصبح لما بدا ووجهها للنـاس من فرق

وقال :

لصبه منه امتـداد النوى فلا يلام الدمع فى صبه

فى قده لين فهلا قضى بقلبه منه إلى قلبـــه

يريد بالقلب الأول التحويل والنقل : أى فهلا قضى بنقـل اللين الذى فى قده إلى قلبه :

وقال :

يا لابس اللام والأسياف عارية قد انعطَفت على الأعطاف واللام

ويا ضجيع رماح الخط يرسلها فى كل هام لها باللحظ فى الهام

الهام الأول : جمع هامة[٢] ، والثانى اسم فاعل من همى[٣] يهمى .

قال رفيقه : لو قال « من الهام » لكان أليق بالمعنى وألطف .

وقال :

من مال يبغى كسب مالٍ لَهُ من حِرْمِـــهِ إن جاء أو حله

فلا تثق يوما به واحـترز منـه فمـــا يبقى على خله

---

(١) الشامة : العلامة ، والغالية : أخلاط من الطيب ، وغالية فى البيت الثانى اسم علم أو وصف من الغلاء وهو ارتفاع القدر .

(٢) الهامة : الرأس . (٣) همى المطر يهمى : انصب وتتابع .

وقال يتشوق إلى وطنه بالمرية :

لله عيش بالمـــرية قد ذهب أخباره بالحسن تكتب بالذهب
وهَبَتْ لنا تلك الليالى مدة ثم استرد الدهر منا ما وهب

وقال :

أنَّ من شوقه فثـار الضِّرَامُ ودَرَى النـاس أنه مستهام (١)
لا تَسَلْ ما جرى من الدمع لما قيل هٰذِى النقا وهٰذِى الخيام

وقال :

صلاة إله العـــالمين على الذى أقل العطايا منـه وادٍ من النَّعَمْ (٢)
يجود على الراجى و إن كان مذنبا وما قوله للسائلين سوى نعَمْ

وقال :

قد سـبا قلبى غزال فاتن سَلْ به كيف اعتدى فى سَلْبِهِ
أنا لا أعتب فيما قد جرى صَفَح الله له عن ذنبـه

وقال :

صبرت له فـتمادى به هواه فكانت هى الفاصلَهْ
وأنكر برى ويا طالمـا أتانىَ يوما فألفى صـله

وقال .

وليل نظمنا به شملنـا كما انتظم البيت بالقـافيه
وفرقنا الدهر من بعـد ذا فلست من اليوم ألقى فيه

أى فئة ، ولم يكمل التجنيس فيه إلا بتسهيل الهمزة كما قال رفيقه ، ولما أنشده قال :

---

(١) أن يئن أنينا : حن ، والمستهام : المحب الذى هيمه هواه .

(٢) النعم ـ بفتح النون والعين جميعا ـ الإبل .

ومن هذا النوع قولُ بعض الأندلسيين :

وقائل قال ألا صف لنا بستاننا هـــذا ونارنجنا

قلت لهم بستانكم جنـــة ومن جنى النارنج ناراً جنى

وقال ابن جابر المذكور :

قُلْ بحق الهوى سمحت بوصل ربة القلب أم نهاك الرقيب

رُمْتُ نيل الوصال منها فقالت لك وصل غداً فقلت قريب

وقال :

زين الخد منه صدغ كنون قد بدا تحتـــه عذار كلام

قلت هذى محاسن ابن هلال فانثنى وهو ضاحك من كلامى

وقال :

لها حسن لهَا عن كل واشٍ به قلبى فمـــا أنا أستفيق

على وجناتها نعمان يبدو لنا وشفاهها هنّ العقيق

وقال :

يمر بى ذكركم والله أحيانى ولو سرى طيفكم ليلا لأحيانى

لا يعذب العيش لى بعد العذيب ولا نعيم مثل ليالينا بنعمان

وقال :

مداراة هذا الخلق أوليك بينهم صفات هى الأقمار والنظم دَارَاتُ

وشارات حمد المرء أن لا ترى له على الناس مما لازم الحلم دارات

وقال :

أرانِىَ كم أسعى إلى خامل ، ولو أراك مدى فى فرقد بلغ السها(١)

---

(١) وقع فى ب « أرى كم أسعى إلى خامل – إلخ » ولا يستقيم معه وزن البيت ، وأثبتنا ما فى خ

وما الخير يوما من لئيم بممكن ... وإن كان منه الخير يوما فقد سها

وقال :

أرى حيدى عن كل طارىء نعمة ... أراح يدى من أن يقيدها الذل[1]

فمن أخذ المعروف من غير أهله ... تروح الليالى وهو فى عنقه غُلُّ

وقال :

شَبَا لحظها الماضى وحُسْنُ شبابها ... هما حملا نفسى من الوجد مابها[2]

كثيبُ النقا من ردفها، وقضيبه ... لمعطفها، والبدر تحت نقابها

وقال :

حل عقدَ الصبر منى عقدُها ... إذ سبت قلبى بما فى قُلْبها

تحسب الدر على لبّتها ... أنجما قد كلل البدر بها

وقال :

شَعَر كالليل يبدو تحته ... قمر قد حار شعرى فى صفاته

نَقَلَ المسواك عن مبسمه ... أن ماء الورد يجرى من لثاته

وقال :

من سن تلك اللحاظ فاتبعت ... من سنة الحب كل متبع

تقتل عشاقها بلا سبب ... وذاك فى الحب غير مبتدع

وقال :

وما شجو صال لوعة الهجر قد قضى ... زمان وصال لم تكدر مشاربه

كشجو محب لم يذق لذة الرضا ... ولا بات والغيد الحسان تلاعبه

---

(١) حاد يحيد - من باب ضرب - مال عنه وعدل ، والمذكور فى كتب اللغة أن المصدر « حيد » بسكون الياء ؛ فلعله حرك الياء حين اضطر لإقامة الوزن

(٢) الشبا : جمع شباة - بفتح الشين - وهى فى الأصل حد السيف

وقال :

سَرَتْ فى رحال العيسِ منه أهلة فأيسر حال أن أزوّدها قلبى
بعيشك قل لى هل دروا كيف علتى وفيض دموعى بعد منصرف الركب

وقال :

من جنى باللحاظ زهر المعانى من جناب الحمى إذا الناس ناموا
هو قد نال كل ما يتمنى وسَعَتْ فى مراده الأيامُ

وقال :

لطائف حسنها بربوع قلبى لطائف ألجأتنى للغرام
تريك تكاسلا فى اللحظ منها لتحسبه تنبه من منام

وقال :

إذا زُرْتَ حيًّا بالعقيق فحيهم وذكِّرْهُمُ عهدى وحق ودادى
حرام فراقُ العيس حتى تحلنى بواديه من تلك الوجوه بوادى

وقال :

من فرط ما فى الطرف من فتنة قد غلب الحب على الناس
قالت نسيت العهد قلت اكففى عنى فما عبدك بالناسى

وقال :

بين نعمان وسَلْع مَلأ ليس منهم لمحب ألَمُ[1]
كلفِى منهم ببدر حَلَّ فى فلك العليا فاعرف مَنْ هُمُ

وقال :

أراقبها وحين أرى سبيلا أقاربها فتنفر كالغزال[2]

---

(١) نعمان وسلع : موضعان يكثر ذكرهما فى شعر المشارقة

(٢) بين « أراقبها » و « أقاربها » ضرب من الجناس

وقالت أنت مرتقب لماذا   فقلت لها ارتقابى للهلال

وله من قصيدة مطوّلة فى فضائل الصحابة العشرة وأهل البيت ، فمما يختص منها بأبى بكر رضى الله تعالى عنه قوله :

فمنهم أبو بكر خليفته الذى   له الفضل والتقديم فى كل مشهد
وصدّيق هادى الخلق والمؤثر الذى   لإنفاقه للمال فى الله قد هدى
وصهر رسول الله وابنته التى   يبرئها آى الكتاب الممجد
وصاحبه فى الغار إذ قال لا تخف   فثالثنا ذو العرش أوثق منجد
وسد على المختار مَخْرج حية   هناك برجل منه فازت بأسعد
وفيه وفى خير الأنام تسامعوا   بمكة صوت الهاتف المتقصد
(جزى الله رب الناسِ خير جزائه   رفيقين حلا خيمتى أم معبد)[(١)]
وعتق بلال حسبه فهو سيد   تأثل فى الإسلام إعتاق سيد
وقال رسول الله إن أَمَنَّكم   على أبو بكر وأوفى بموعد
فصدّق إذ كذبتم ، وأطاع إذ   عصيتم ، ووافانى موافاة مُسْعِدِ
ولو أننى من أمتى كنت آخذا   خليلا تولى خلتى وتوددى
لكان أبو بكر ولكن أخوّة   فى الإِسلام مهما تنقص الناس تزدد
فلما أراد الله قبض نبيه   وصار إلى دار النعيم المخلد
تقدم فى نيل الخلافة بعده   بإجماعهم لا بالحسام المهند
وقد فارقت يوم السقيفة فرقة   فلما رأته الحقَّ لم تتردد
وقام علىّ بعد ذاك مبايعا   فأثنى ثناء المخلص المتودد
وأظهر عذرا فى تأنيه صادقا   وبايع طَوْعًا لا لفقدان مسند[(٢)]

---

(١) هذا بيت من الشعر يذكر أصحاب السير أن أهل مكة أصبحوا يوما ـ بعد هجرة الرسول ـ يسمعون منشدا ينشده ولا يرونه

(٢) يريد أن عليا كرم الله وجهه لم يبايع لأنه فقد الأعوان والأنصار ، وإنما بايع عن طواعية واختيار بعد أن اعتذر عن تأخره بمواساة زوجه فاطمة الزهراء

فآب بحمد منهم غير قاصر ومن يتبع الإنصاف والحق يحمد
وما أشبه الصدّيق فى الفضل مشبه ولا أحصيت أوصافه بتعدد

ومما يختص بعمر رضى الله تعالى عنه قولُه من هذه القصيدة :

ويتبعه فى فضله عُمَرُ الذى رمى عن قسىّ الصدق قوس مسدد
وما كل من رام السعادة نالها ولكنه من يسعد الله يسعد
هو المرء لم يترك له الحق صاحبا ولا قعد الشيطان منه بمقعد
ولاسلك الشيطان فَجًّا قد اغتدى له سالكا من خوفه المتزيد(١)
ومن ظله قد كان ينفر هيبةً له حيثما أضحى يَرُوح ويغتدى
وقد جاء عنهم ما برحنا أعزة بإسلامه فانكف من كان يعتدى
ومن فضله رعى النبى بغيرة له فانثنى عن قصره المتشيد
وقد قيل للفاروق هذا ، ومن به فأنباه عن هذا النعيم المؤبد
فأقبل يبكى قائلا كيف غيرتى عليك ولولا أنت ما كنت أهتدى
ورؤيا رسول الله للقدح الذى تناول من دربه رية الصدى
فما زال يبدى شربه ويعيده إلى أن غدا من ظفره الرى يبتدى
فأوّله العلم الذى منه ناله وأوّل رؤيا الدلو حسن التأيد
فصارت له غربا فأروى بها الورى فكان افتتاح الأرض فتح ممهد
كذاك قميص مفرط الطول سابغ وللناس قمص بعضها يبلغ الثُّدِى(٢)
فأوّل خيرُ الخلق طولَ قميصه بما حاز فى إيمانه من تشييد
وتفريقه ما بين حق وباطل بيوم سقى الكفار أفظع مورد

(١) هذا من نص حديث ورد فى شأن عمر « ماسلك عمر فجا إلاسلك الشيطان فجا غيره » كناية عن سداده وتوفيقه .

(٢) هذا من حديث رواه البخارى وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى فى نومه قوما يلبسون قمصا فمنهم من يبلغ قميصه ثديه ورأى عمر بينهم يلبس قميصا سابغا ، وأول لأصحابه ذلك بالإيمان .

وسمى بالفاروق من أجل هذه … وما زال فى نص الهدى ذا تجلد

وحسبك أن الله وافق رأيه … لدى يوم بدر إذ رأى قتل من فدى

كذا فى أذان والحجابِ وجعلهم … مصلى مقاما للخليل بمسجد

شديد على أهل الهوى رحمة لمن … عن الحق لم يجنح ولم يتحيد

وما قد رَوَوْا إن كان فى أمة فتى … يُحَدَّث فالفاروق من ذاك فاعدد

وما أبغض الفاروق إلا مفارق … لدين الهدى ذو مذهب لم يسدد

ومما يختص بعثمان رضى الله تعالى عنه قولُه :

وحسبىَ عثمان بن عفان أنه … عليه اعتمادى وهو سؤلى ومقصدى

إمام صبور الأذى وهو قادر … حليم عن الجانى جميل التعود

هو الجامع القرآن والقانت الذى … إذا جنّ ليل ليس يأوى لمَرْقَدِ

ويقطع بالصوم النهار ويثنى … مدى ليلِهِ فى خشية وتهجد

وقال رسول الله فى بئر رومة … أما مشتر يبغى بها الأجر فى غد (١)

له الجنة العليا بذلك فاشترى … وتجهيز جيش العسرة اذكر وعَدِّدِ

فقال رسول الله إذ جاءه بما … قد احتاج من مال وظَهْرٍ وأعبد (٢)

هنيئا لعثمان بن عفان فعله … وما ضره ما بعد مع هذه اليد

وقول ألا أبدى حياء لمن له … قد استحت الأملاك أشرف محتد

وبلغ بشرى الهاشمى بأنه … من الجنة العليا بأكرم مقعد

ولم يرض صونا للدماء بحربهم … وكان متى يستنجد القوم ينجد

فمات شهيدا صابرا فهو خير من … على نفسه فى غير حق قد اعتُدِى

على بنتى المختار أرخى ستوره … فناهيك من مجد وعز مجدد

---

(١) من فضائل ذى النورين عثمان بن عفان أنه اشترى بئر رومة وجعلها للمسلمين ، وأنه جهز جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عام العسرة .

(٢) الظهر : الركائب ، سميت بذلك لأن راكبها يمتطى ظهرها ؛ فهو من تسمية الشىء باسم جزئه لأن لهذا الجزء مزيد اختصاص .

ولم يدع ذا النـــورين إلا لأنه حوى بيته نورين من نور أحمد
وإن لعثمان بن عفان رتبة من المجد تسمو عن سِماكٍ وفرقد

ومما يختص بعلى رضى الله تعالى عنه قوله :

وإن عليا كان سيف رسوله وصاحبه السامى لمجد مشيد
وصهر النبى المجتبى وابن عمه أبو الحسنين المحتوى كُلَّ سؤدد
وزوّجه رب السما من سمائه وناهيك تزويجا من العرش قد بُدِى
بخير نساء الجنة الغر سؤددا وحسبك هـذا سؤددا لمسوّد
فباتا وجُلُّ الزهد خير حلاهما وقد آثرا بالزاد من كان يجتدى
فآثرت الجنات من حلل ومن حلىٍّ لها رَعْيًا لذاك التزهد
وماضر من قد بات والصوف لبسه وفى السندس الغالى غدا سوف يغتدى
وقال رسول الله إنى مدينـة من العلم وهو الباب والبابَ فاقصِدِ[1]
ومن كنت مولاه على وليه ومولاك فاصدق حب مولاك ترشد[2]
وإنك منى خاليا من نبوة كهرون من موسى وحسبك فاحمد[3]
وكان من الصبيان أوّل سابق إلى الدين لم يسبق بطائع مرشد
وجاء رسول الله مرتضيا له وكان عن الزهراء بالمتشرد
فمسَّحَ عنه الترب إذ مس جلده وقد قام منهـا آلفا للتفرّد
وقال له قول التلطف « قم أبا تراب » كلام المخلص المتودد
وفى ابنيه قال المصطفى ذان سيدا شبابكُمُ فى دار عز وسؤدد
وأرسله عنـه الرسول مبلغا وخُصَّ بهذا الأمر تخصيص مفرد

---

(١) يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنا مدينة العلم وعلى بابها »

(٢) ويروى أنه قال « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » (٣) ويروى أنه قال لعلى « أما ترضى أن تـكون منى بمنزلة هرون من موسى ، غير أنه لا نبى بعدى »

وقال هل التبليغ عنىَ ينبغى لمن ليس من بيتى من القوم فاقتَدِ
وقد قال عبد الله للسائل الذى أتى سائلا عنهم سؤال مشدد
وأما علىٌّ فالْتَفِتْ أين بيته وبيت رسول الله فاعرفه تشهد
وما زال صواما منيبا لربه على الحق قواما كثير التعبد
قُنُوعًا من الدنيا بما نال معرضا عن المال مهما جاءه المال يزهد
لقد طلق الدنيا ثلاثا ، وكلما رآها وقد جاءت يقول لها ابْعَدِى
وأقربهم للحق فيها وكلهم أولو الحق لكن كان أقرب مهتد

ومنها فى ذكر السِّبْطين رضى الله تعالى عنهما :

وبالحسنين السيدين توسُّلِى بجدهما فى الحشر عند تفردى
هما قرتاعين الرسول وسيدا شباب الورى فى جنة وتخلد
وقال : هما ريحانتاى ، أحب من أحبهما ، فاصدقهما الحب تسعد
هما اقتسما شبه الرسول تعادلا وماذا عسى يُحْصِيه منهم تعددى
فمن صدره شبه الحسين أجله وللحسن الأعلى وحسبك فاعدد
وللحسن السامى مزايا كقوله هو ابنىَ هذا سيد وابن سيد[1]
سيصلح ربُّ العالمين به الورى على فرقة منهم وعظم تبدد
وإن تطلبوا ابنا للنبى فلن تَرَوْا سواى مقال منه غير مفند
بدا سيدا ظهر الرسول قد ارتقى فَقَرَّ ولم يعجله وهو بمسجد
فقالوا له طال السجود فقال لا ولكنما ابنى خِفْتُ إن قمت يشرد
وكان الحسين الصارم الحازم الذى متى يقصر الأبطال فى الحرب يشدد
شبيه رسول الله فى البأس والندى وخير شهيدٍ ذاق طعم المهند

---

(١) يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى شأن الحسن السبط رضى الله تعالى عنه « إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المؤمنين » .

لمصرعه تبكى العيون وحقها فلله من جرم وعظم تودد
فبعدا وسحقا لليزيد وشمره ومَنْ سار مسرى ذلك المقصد الردى

ومنها فى ذكر حمزة رضى الله تعالى عنه :

ومن مثل ليث الله حمزة ذى الندى مُبيد العدا مأوى الغريب المطرَّد (١)
فكم حز أعناق العداة بسيفه وذب عن المختار كل مشدد
فقال رسول الله : هذا أمرته ولى أسد ضارٍ لدى كل مشهد
وقال أبو جهل : أجبت محمدا لما شاءه فاهتز هزة سيد
وأهوى له بالقوس مابين قومه ونال وأخرى بالحسام المهند
وقال لَهُ : إنِّى على دينه فإن أطَقْتَ فعرج عن طريقى واردد
فذل أبو جهل وأبدى تلطفا مقراً بقبح السب فى حق أحمد
فعاد وقد نال السعادة واهتدى وأضحى لدين الله أكرم مسعد
وفى يوم بدر حث عند سؤالهم لما شهدوا من بأسه المتوقد
لمن كان أعلام بريش نعامة يشردنا مثل النعام المشرد
فذاك الذى والله قد فعلت بنا أفاعيلُه فى الحرب ما لم نُعَوَّدِ
وفى أحد نال الشهادة بعد ما أذاق سباعا للردى شر مورد
ففاز وأضحى سيد الشهداء فى ملائكة الرحمن يسعى ويغتدى
وصلى رسول الله سبعين مرة عليه إلى ثنتين عند التعدّد
وقال : مصاب لن نُصَاب بمثله وإن كان لى يوم سأجزى بأزيد
وزاد إلى فضل العمومة أنه أخوه رضاعا هكذا المجد فاشهد
ومازال ذا عرض مصون عن الأذى ومال مهان فى العطايا مبدد
كريم متى ما أوقد النار للقرى (تجد خير نار عندها خير موقد)

(١) مبيد : مهلك

ومنها فى ذكر العباس رضى الله تعالى عنه :

وقد بلغ العباس فى المجد رتبة تقول لبدر التم : قصرت فابعد

ألا إنه فَضْلَ السقاية قد حوى فكان لوفد الله أكرم مورد

وكان طويل الباع فى الكاس والندى كريما متى يسترفد القوم يرفد

ويوم حنين ليس ينسى ثباته ودعوته مستنجداً كل منجد

وقال رسول الله فيه على ما عليه وأيضاً مثله فى التزيد

ألا إن عم المرء صنو أبيه كى يزيدهم فى بره المتأيد

وبَشَّره أن الخلافة فى الورى لأولاده من سيد ومسوّد

بشيبته استسقوا إذ المحل شامل فجاءهُمُ غيث سقى كل فدفد

وهذا ماوقفت عليه من هذه القصيدة الفريدة ، وليس بيدى الآن ديوان شعره حتى أكتبها بكمالها فإنها مناسبة لهذا الباب الذى جعلناه ختما للكتاب كما لا يخفى

ومن مقطوعات ابن جابر :

شغفت بها حينا من الدهر لم يكن سوى سكب دمعى فى محبتها كسبى

وما أصْلُ هذا كله غير نظرة إلى مقلة منها أضعت لها قلبى

وقال :

قد بان عذرى فى مليح له لَحْظا رشًا يلحظ من ذعر[1]

إنى على الهجر مطيع له ممتثل فى السر والجهر

وقال :

هذا الرشا يقنص ليث الشرى بنظرة منه فلا مخلص

لو عارض العاذل يوما له لكان من أول ما يقنص

(١) الرشأ : ولد الظبية الذى تحرك ومشى ، وأصله الهمزة ، إلا أنه سهل الهمزة بقلبها ألفا ، والذعر ـ بالضم ـ الخوف

وقال :

ظبيـة فى ثغرهـا لَعَسٌ يجتنى من رشفه عسل[(١)]

سلك التيـه بمقلتهـا مسلـكا قد زانه كسل

وقال :

رقم الخـال خدهـا فرأينـا قمر الأفق فيـه نقطـة ليـل

قلت أين الكثيب والغصن قالت كل ما قد ذكرته تحت ذيلى[(٢)]

وقال :

إن خفت من فيك المهند والقنا فإذا رَنَتْ و إذا مشت لاتقرب

فى قلب برقعها محاسن أنزلت قمر السمـاء لنا بقلب العقرب

وقال :

رأى عذولى حسنها بعدما حقق كونى للهوى جانحا

فقال إن كنت محبا لها فقد حمدنا رأيك الناجحا

وقال :

ذكر الله بالمرية عيشا لست عن ذكره الجميل أحُولُ

طال عهدى بها وما دمت حيا لايزيد الرجاء بل قد يطول

وقال :

مرت ليـالٍ بالمرية طالمـا قضيت من ليل بهنّ مآربا

لم أسْلُ عن تلك الديار و إنما جعِلَ القضاء لكل نفس غالبا

وقال :

لا تَعُقْنى عن العقيق فإنى بين أكنافه تركت فؤادى

---

(١) اللعس ـ بالتحريك ـ سمرة الشفة

(٢) الكثيب : ما اجتمع وتراكم من الرمل ، شبه به ردفها ، كما شبه قدها بالغصن ، وجعلهما تحت ثوبها .

وعلى تُرْبه وقفت دموعى ... ولسُكَّانه وهبت ودادى

وقال :

عرف المنزل الذى دار فيه ... زمن الأنس والشباب النضير
فشجاه قلب التلاقى فراقا ... وانثنى عنه ذا فؤاد كسير

وقال :

جمال هذا الغزال سحر ... يا حبذا ذلك الجمال
هلال خَدَّيه لم يُغَيَّبْ ... عنى وإن غيب الهلال
غزال أنس يصيد أسدا ... فاعجب لما يصنع الغزالُ
دلاله دل كل شوق ... علىَّ إذ زانه الدلال
كماله لا يخاف نقصا ... دام له الحسن والكمال
نباله قد برَتْ فؤادى ... يا حبذا تلكم النبال
حلال وصلى له حرام ... وحكم قتلى له حلال
زُلَالُ ذاك الحمى حياتى ... وأين لى ذلك الزلال
قتاله لا يطاق لكن ... يعجبنى ذلك القتالُ

وقال :

إذا جئتَ نجدا كرّم الله عهده ... فسلِّم على أهل المنازل من نجد
لئن حال بعدُ الدار بينى و بينهم ... فإنى لأرعاهُمْ على ذلك البعد(١)

وقال :

خَجِلَتْ عندما نظرتُ إليها ... وانثنت وَهْىَ بين تيه ومنع
إنما وَرْدُ خدها زرع طرفى ... حين مروا فكيف أمنع زرعى(٢)

---

(١) حال : كان حائلا ومانعا من التواصل

(٢) شبه حمرة خدها عند الخجل بحمرة الورد

وقال :

لك نفسي إذا بدت لك نجدٌ فلقد سرني الزمان بنجد
فلتلك الخيام عندي عهد وأبى الله أن أضيع عهدي

وقال :

سل عن القوم إن بدت لك سَلْعٌ ففؤادي عند الذين بسلع
لي على تلكم المعاهد دمع كاد يغني بها عن اللث دمعي(١)

وقال :

صفحوا عن محبهم وأقالوا من عثار النوى ومَنُّوا بوصل
لست أستوجب الوصال ولكن أهل تلك الخيام أكرم أهل

وقال :

مال الزمان بهم عني وقد بعدوا لم يلهني عنهمُ أهل ولا مال
إني لأخشى وما الأيام طوع يدي أني أموت ولي في القلب آمال

وقال :

بين وادي النقا وبانِ المُصَلَّى فتية ألبسوا الوجود جمالا
إن يكن قد نوى ليَ الدهر قربا منهم فهو قد كفاني نوالا

وقال :

زرت الديار عن الأحبة سائلا ورجعت أبكيهم بدمعي سائلا
ونزلت في ظل الأراكة قائلا والربع أخرس عن جواب قائلا

وقال :

لا أوحش الله المنازلَ منهمُ منهم غدت تلك الديار حسانا
فاشكر لدهرك أن أراك بحاجر بانَ الحمى وأراكَهُ قد بانا

وقال :

لك يا واديَ العقيق علينا كل ما شئت من ذمام وثيق
فمن البر أنني أتبرَّى من عقوق لمنزل بالعقيق

---

(١) لث المطر — من باب نصر — دام أياما ولم يقلع

وقال :

يا أهل ذى سلم بشرى لمستلم	ذاك الثرى مقدم فى السير لم ينم
يؤم دارًا بها خير الورى حسبا	الخاتم الرسل من عرب ومن عجم

ولنقتصر من كلام ابن جابر فى هذا الموضع على هذا المقدار ، وإنما أطنبت فيه لما تقدم من الاعتراض على لسان الدين فى عدم توفيته فى حق المذكور وحق رفيقه ، مع أنه أطال فيمن دونهما من أهل عصره ، وأيضا فإن كلاهما غريب عندنا بالمغرب ، لكونهما ارتحلا قبل أن يشتهرا كل الاشتهار ، وكان خبرهما فى الشرق أشهر .

وأما رفيقه شارح بديعيته فقد ذكرنا فى غير هذ الموضع بعضَ حاله وكلامه ، وَلْنَزِدْ هنا ماتيسر ، فنقول : من نظمه :

من كلام أبى جعفر رفيق ابن جابر

لما عدا فى الناس عقرب صدغها	كفت أذاه من الورى بالبرقع
والصبح تحت خمـــارها متستر	عنا متى شاءت تقول له اطلع

وقال :

تجنت فجنّ فى الهوى كل عاقل	رآها وأحوال المحب خنون
وما وعدت إلا غدت فى مِطَالها	كذلك وعد الغانيات يكون

وقال :

لا تَجِدُوا فى الهوى على كلف	نظيره فى الغرام لن تجـــدوا
لهفان ما يشتكى إلى أحـــد	ظمآن غير الدموع لا يجـــد

وقال :

رب ليـــل قطعته بالجزيره	فتذكرت أهلنـــا بالجزيره
قَصَّرَ الأنس ما تطاول منـــه	وكذا أزمن السرور يسيره

قال : والجزيرة الأولى المراد بها حمص المحيط بها النهر المسمى بالعاصى ، والثانية جزيرة الأندلس .

وله أيضا :

ومالى والتزين يوم عيـد وجِيدُ صبابتى بالدمع حالى
وقد أرسلت أشهبها بَرِيدا وبعد كميتها ينبى بحالى

والمراد بالأشهب الدمع الذى لا يشوبه شىء ؛ وبالكُمَيْت الدمع المشوب بالدم، وفى شرح البديعية وقد ذكر العقيق بعد كلام ما نصه : قلت : وكان هذا الوادى المبارك زمن عثمان رضى الله تعالى عنه ذا قصور محتفَّه ، وحدائق ملتفه ، وبنيان مشيد ، ونخل طلعه نضيد ، وجنات تؤتى أكلها كل حين ، وسواقٍ تجرى به بماء مَعِين ، ثم لعبت به أيدى السنين ، وغيرت معالمه فصار عبرةً للناظرين ، فلم يبق من مَعَاهده إلا آثار تشهد بحسنه ، ونضرة نعيم تدل على ما سلف من نضارة غصنه ، وقد خرجنا إلى هذا الوادى أيام مجاورتنا بالمدينة الشريفة ، وهو يتدفق بمائه ، ويعارض بجوهر حَبَابه أنجم سمائه ، وقد سالت شِعابه ، وفاض عُبَابه ، والناس تفرقوا فى جهاته ، وافترشوا غض نباته ، والشِّيح قد توشح بالندى، والأنس قد راح به وغدا ، والأصيل مذهَّب الرداء ، والبيداء مخضرة الأنداء ، وبحافتيه آثار قصور ، ليس لها فى الحسن قصور ، قد بَلِيَتْ وحسنها جديد ، وخربت وربعها بالأنس مَشيد ، انتهى .

ومن بديع نظمه قوله :

مهلا فما شِيَمُ الوفا منقادة لمن ابتغى من نيلها أوطارا[1]
رُتَبُ المعالى لا تنال بحيلة يوما ولو جهد الفتى أو طارا[2]

---

(١) الأوطار هنا : جمع وطر — بالتحريك — وهو الحاجة

(٢) « أوطارا » مركبة من « أو » العاطفة ؛ و « طار » فعل ماض

وقوله رحمه الله تعالى :

على وادى العقيق سكبت دمعى   بلا عين فيبـــدو كالعقيق
فكم غُصْنٍ وَرِيقٍ منـــه يحكى   قوام رشـــا شهى فم وريق[١]

وقال :

سألتك بالله يا من غدا   يصرّف بالقلب أفعاله
تدارك محبا بدرياق وصل   فإن بعـــادك أفْعَى له

وقال :

لا تأمننه على القــــلو   ب فمنه أصـــل غرامها
فلحـــاظه هن التى   رَمَتِ الورى بسهامهـــا

ومن فوائده رحمه الله تعالى فى شرح البديعية مانصه : ومن غريب ما فى «لدى» أن أبا على حكى فى تذكرته عن المفضل أنها أتت بمعنى « هل » وأنشد :

لَدَى مِنْ شَبَاب يُشْتَرى بمشيب   وكيف شبابُ المرء بعد ذهاب ؟

رجع ـ وقال رحمه الله تعالى يتشوّق إلى حَمْراء غَرْناطة :

دامت على الحمراء حمر مدامعى   والقلب فيما بين ذلك ذائب
طال المـــدى بى عنهم ولربما   قد عاد من بعد الإطالة غائب

وقال :

ما هَبَّ من نحو السبيكة بارق   إلا غدا شوقى لقلبى سالـــكا
والله ما اخترت الفراق لربعها   لـكن قضاء الله أوجب ذلـــكا

وقال :

منازل سلمى إن خلت فلطالما   بها عمرت فى القلب منى منازل

---

(١) وريق فى صدر البيت : وصف معناه الكثير الورق ، و «وريق» فى آخر البيت مؤلف من واو العطف و « ريق » وهو ماء الفم

رسائل شوقى كل يوم تزورها وماضُيِّعتْ عند الكرام الرسائل

وقال :

بجور الوداع لنا موقف أذاب الفؤاد لأجل الوداع
فما أنا أنسى غداة النوى وحادى الركائب للبين داعى

قال : وجور الوداع موضع بظاهر غرْناطة عادةُ من سافر أن يودع هناك .

وقال :

ناولته وردة فاحمرّ من خجل وقال : وجهىَ يغنينى عن الزهر
الخد ورد ، وعينى نرجس ، وعلى خدى عذار كريحان على نهر

وقال رحمه الله تعالى فى التشريع (١) :

يا راحلا يبغى زيارة طيبة نلت المنى ، بزيارة الأخيار
حَىِّ العقيق إذا وصلت وصف لنا وادى منى ، بأطايب الأخبار
و إذا وقفت لدى المعرّف داعيا زال العنا ، وظفرت بالأوطار

وقال :

يا أولا فى المرسلين وآخرا الله خصك بالكمال ليرضيك
من قَبْلِ آدم قد جعلت نبيه قدما فقدّمك الإله ليعليك
أوحى إليك لكى تكون حبيبهُ ويتم نعمته عليك ويهديك

وقال :

صيرتنى فى هواك اليوم مشتهرا لاقيسُ ليلى ولاغيْلاَن فى الأول (٢)
زعمت أن غرامى فيك مكتسب لا والذى خلق الإنسان من عجل

---

(١) التشريع : أن تبنى القصيدة على أن يكون كل بيت منها بحيث إذا حذف بعضه صار بيتا من ضرب آخر ، وقد بينا لك فى ثلاثة الأبيات مكان القافية التى تبنى عليها الأبيات لو حذف بعضها .

(٢) قيس : مجنون ليلى ، وغيلان : هو ذو الرمة صاحب مية

وقال :

لا تعادى الناس فى أوطانهم قلما يُرْعى غريب الوطن
وإذا ما شئت عيشا بينهم «خالق الناس بخلق حسن»

وقال :

نسختى اليوم فى المحبة أصْلٌ فعليها اعتماد كل عميد
نقلوا مرسل المدامع منها وصحيح الهوى بغير مزيد
قد رواها قبلى جميلٌ وقيس حين هاما بكل لحظ وجيد

ومن فوائده : أنه لما أنشد فى « طراز الحلة » قولَ سعد الدين محمد بن عربى فى ابن مالك * إن الإمام جمال الدين فضله * إلى آخره » قال ما ملخصه : ولما أورده الصفدى فى « فض الختام » قال : هذا فى غاية الحسن لو كان الكتاب المذكور يسمى « الفوائد » وإنما هو « تسهيل الفوائد » فذكر المضاف إليه دون المضاف، وهى تورية ناقصة ، قلت : ابن مالك له كتابان : أحدهما « الفوائد » صنعه أولا ثم صنع « تسهيل الفوائد » بعده ، وكأنه سَهَّل فيه كتابَ الفوائد ، وكنت وقفت على هذا الكتاب المسمى بالفوائد ببلدنا غَرْناطة فلما وصلنا إلى هذه البلاد بَحَثْنَا عنه فلم نجده ، وتمادى الأمر على ذلك إلى سنة ٧٦٠ ، فوجدناه فى حلب ، وهو الآن عندنا ، وهو عزيز الوجود ، ولذلك خفى على القاضى صلاح الدين ، انتهى و بعضه بالمعنى .

وقال أبو جعفر أحمد المترجم به : كتبت إلى صاحبنا الشيخ بدر الدين خليل الناسخ :

مَدَدْتَ النوى وقَصَرْتَ اللقا أترضى بهذا وأنت الخليل [1]

---

(١) هذا من مصطلح النحاة ، الممدود الاسم الذى آخره همزة منقلبة ألف بعد ألف زائدة مثل «حمراء» ومنه « اللقاء » والمقصور : الاسم الذى آخره الف لازمة قبلها فتحة ولكنه أراد المعنى اللغوى ، مددت : أى طولت ، وقصيرت اللقا : أى جعلت أوقات اللقاء قصيرة .

وتترك أحمد ذا وحشة لديك وأنت له ابن جليل

وقال :

قد كان لى أنس بطيب حديثكم والآن صار حديثكم برسول
ولقد مددت من النوى مقصورهُ إن الخليل يراه غير جميل (١)

وله رحمه الله تعالى :

ما للنوى مدّت وأنت خليلنا ولقبل قد قصرت برغم الكاشح
أتبعت فى ذا مذهبا لا يرتضى أبدا وليس الرأى فيه بصالح

وله :

ولما رأى الحساد منك التفاتة إلى جانب اللهو الذى كان مرفوضا
أضافوا إلى عَلْياك كل نقيصة حقيق لدينا بالإضافة مخفوضا

وله :

حُسْنُكَ ما بين الورى شائع قد عرّف الآن بلام العذار
فجاء منه مبتدا للهوى خبره الآس مع الجلنار

ولنقتصر على هذا المقدار إلى هنا .

عود إلى ذكر على بن لسان الدين بن الخطيب

رجع إلى أولاد لسان الدين رحمهم الله تعالى :

وقد قدمنا أن على بن لسان الدين كان نديم السلطان وخاصَّتَه ، كما ذكرنا فى مخاطبته لابن مرزوق فى الباب الخامس قوله : فالسلطان يرعاه الله تعالى يوجب ما فوق مزية التعظيم ، والولد هداهم الله تعالى قد أخذوا بحظ قل أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصة والعامة تعامل بحسب مابَلَتْه من نصح سليم ، وترك لما بالأيدى

---

(١) فيه تورية بالخليل بن أحمد شيخ النحاة ، وأراد بالخليل الصديق ، ويزيد ملاحة التورية أن يكون اسم المكتوب إليه « خليلا »

وتسليم ، وتدبير عاد على عدوّها بالعذاب الأليم ، إلا مَنْ أبدى السلامة وهو من إبطان الحسد بحال السليم ، انتهى .

ولقد صدق رحمه الله تعالى فيما ذكره من النصح وغيره .

ومن نصائحه رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان السلطان ، ونصه : من عبد الله أمير المسلمين محمد وَصَلَ الله تعالى سعده ، وبلغه من فضله العميم قَصْدَه ، إلى أوليائنا المخصوصين منا ومن سَلَفنا بذِمَام الجوار القريب ، والمساكنة التى لايتطرق إلى حقها الذى بنى استرابة المستريب ، المعتمدين إذا عُدَّتِ الرعايا ، وذكرت المزايا ، بمزيد الاعتناء والتقريب ، من الأشياخ الجِلَّة الشرفاء والعلماء ، والصُّدور الفقهاء ، والعدول الأذكياء ، والأعيان الوزراء ، والحُماة المدافعين عن الأرجاء[1] ، والأمناء الثِّقات الأتقياء ، والكافة الذين نصل إليهم عوائدَ الاعتناء ، ونسير فيهم بإعانة الله تعالى على السبيل السَّوَاء ، من أهلِ حضرتنا غرناطة المحروسة بفضل الله تعالى وربَضِها ، شَرَحَ الله تعالى لقبول الحكمة والموعظة الحسنة صُدُورَهم ، وكَنَفَ بنتائج الاستقامة سرورهم ، وأصلح بعنايته أمورهم ، واستعمل فيما يرضيهم أميرهم ومأمورهم .

سلام كريم عليكم أجمعين ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعدَ حمدِ الله الذى إذا رضى عن قوم جعل لهم التقوى لباسا ، والذكرى لبناء المَتَاب أساسا ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد رسوله الذى هدانا إلى الفوْز العظيم ابتغاء لرحمته والتماسا ، والرضا عن آله الذين اختارهم له ناسا ، وجعلهم مصابيح من بعده اقتداء واقتباسا ، فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله تعالى إعزازكم ! وحرس أحوازكم ! وجعل للعمل الصالح اهتزازكم[2] ! وبقبول النصائح امتيازكم ! ـ من مستقرنا بمحروسة

---

(١) الأرجاء : جمع رجا ، وهو الناحية

(٢) اهتزازكم ، هنا : ارتياحكم ومسرة أنفسكم

الحمراء ، حَمَاها الله سبحانه ، ولا متعرف بفضل الله تعالى إلا هـداية تظهر على الأقوال والأعمال ، وعناية تحف من اليمين والشمال ، وتوكل على الله يتكفل لنا ببلوغ الآمال ، وأنتم أولياؤنا الذين لا نَدَّخر عنهم نصحا ، ولا نُهمل فى تدبيرهم ما يثمر نُجْحًا ، و بحسب هذا الاعتقاد لا نغفل عن نصيحةٍ ترشدكم إذا غفلتم ، وموعظة نقصُّها عليكم إذا اجتمعتم فى بيوت الله واحتفلتم ، وذب[١] عنكم تارة بسلم نَعْقِدُها ، ومطاولة نُسَدِّدُها ، وتارةً بسيوف فى سبيل الله تعالى نحدّدها ، وعساكر للشهادة نرددها ، ونفوس بوعد الله نعدها[٢] ، ونرضى بالسهر لتنام أجفانكم ، وبالكَدِّ لتستريح صبيانكم وولْدَانُكم ، وباقتحام المخاوف ليتحصل أمانكم ، ولو استطعنا أن نجعل عليكم وقاية كوقاية الوليد لجعلنا ، أو أمكننا أن لا تفضلكم رعية بصلاح دين أو دنيا لفعلنا ، هذا شغْل زماننا منذ عرفنا ، ومَرْمَى همنا مهما استهدفنا ، وقد استرعانا الله تعالى جماعتكم ، ومَلاَّنا طاعتكم ، وحرّم علينا إضاعتكم ، والراعى إذا لم يقصد بسائمته المراعى الطيبة ، و ينتجع مَسَاقط الغمائم الصيِّبة ، و يوردها الماء النمير ، و يبتغ لها النماء والتثمير ، و يُصْلح خللها ، ويُدَاوِ عللها ، قل عَدَدُها ، وعدمت غلتها وولدها ، فندم على ماضيعه فى أمْسِهِ ، وجنى عليها وعلى نَفْسِه ، وألفيناكم فى أيامنا هذه الميامن عليكم قد غمرتكم آلاء الله تعالى ونعمه ، وملأت أيديكم مواهبه وقِسَمُه ، وشغل عدوّكم بفتنة قومه فنمتم للعافية فوق مِهَاد ، و بعد عهدكم بماتقدم من جَهْد وجهاد ، ومخمصة[٣] وسُهَاد ، فأشفقنا أن يجركم توالى الرخاء إلى البَطَر ، أو تحملكم العافية على الغفلة عن الله تعالى وهى أخطر الخطر ، أو تجهلوا مواقِعَ فضله تعالى و كرمه ، أو تستعينوا على معصيته بنعمه ، فمن عرف الله تعالى فى الرخاء وجده فى الشِّدَّة[٤] ، ومن استعد فى المهَل وجد منفعة

---

(١) ذب : دافع (٢) كذا (٣) المخمصة : المجاعة

(٤) هذا من حديث رواه ابن عباس ، وفيه « تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة »

العدة ، والعاقلُ من لا يغتر فى الحرب أو السلم بطول المدة ، فالدهر مُبْلى الجِدَّة ، ومستوعب العِدَّة ، والمسلمون إخوانكم اليوم قد شُغِلوا بأنفسهم عن جبركم ، وسلموا لله فى نصركم ، ونشبت الأيدى ولا حول ولا قوّة إلا بالله بثَغْرِ كُمْ ، وأهمتهم فتن تركت رسومَ الجهاد خالية خاويه ، ورياض الكتائب الخضر ذابلة ذاويه ، فإن لم تشمروا لما بين أيديكم فى هذه البرهة فماذا تنتظرون ؟ وإذا لم تستنصروا بالله مولاكم فبمن تستنصرون ؟ وإذا لم تستعدوا فى المهل فمتى تستعدون ؟ لقد خسر من رضى فى الدنيا والآخرة بالدون ، فلا تأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ومن المنقول عن المِلَل ، والمشهور فى الأواخر والأول ، أن المعصية إذا فشت فى قوم أحاط بهم سوء كَسْبهم ، وأظلم ما بينهم وبين ربهم ، وانقطعت عنهم الرحمات ، ووقعت فيهم المَثُلَاتُ[1] والنقمات ، وشَحَّتِ السماء وغِيض الماء ، واستولت الأعداء ، وانتشر الداء ، وجَفَّت الضُّرُوع ، وأخلفت الزروع ، فوجب علينا أن نستميلكم بالموعظة الحسنة ، والذكرى التى توقظ من السِّنَه[2] ، ونقرع آذانكم بقوارع الألسِنة ، فأفزعوا الشيطان بوَعْيها ، وتقربوا إلى الله تعالى برَعْيها ، الصلاة الصلاة فلا تهملوها ، ووظائفها المعروفة فكملوها ، فهى الركن الوثيق ، والعَلَم الماثل على جادَّة الطريق ، والخاصة التى يتميز بها هذا الفريق ، وبادروا صفوفَها الماثلة ، وأتبعوا فريضَتَها النافلة ، وأشرعوا إلى تاركها أسنة الإنكار ، واغتنموا بها نواشىء الليل وبوادى الأسحار ، والزكاة أختها المنسوبه ، ولدتها المكتوبة المحسوبه ، فمن مَنَعها فقد بخل على مولاه ، باليسير مما أولاه ، وما أحَقَّه بذهاب هبة الوهاب وأولاه ، فاشتروا من الله تعالى كرائم أموالكم بالصَّدَقات ، وأنفقوا فى سبيله يربحكم أضعاف النفقات ، وواسُوا سؤالكم كلما نصبت

---

(١) المثلات : ما أصاب القرون الماضية من العذاب ، واحدها مثلة ، بفتح الميم وضم الثاء المثلثة (٢) السنة ـ بكسر السين ـ النوم

الموائد ، وأعيدت للترفُّه العوائد ، وارْعَوْا حق الجوار ، وخذوا على أيدى الدَّعرة[١] والفجار ، وأخرجوا الشَّنَآن[٢] من الصدور ، واجعلوا صِلَةَ الأرحام من عَزْم الأمور ، وصونوا عن الاغتياب أفواهكم ، ولا تعوّدوا السفاهة شفاهكم ، وأقرضوا القرض الحسن إلهكم ، وعلموا القرآن صبيانكم ، فهو أسُّ المبنى ، وازرعوه فى تراب ترائبهم فعسى أن يُجْنَى ، ولا تتركوا النصيحة لمن استنصح ، وردوا السلام على مَنْ بتحية الإسلام أفصح ، وجاهدوا أهواءكم فهى أولى ما جاهدتم ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ، وثابروا على حلق العلم والتعلم ، وحفوا بمراقى التكلم ، وتعلموا من دينكم مالا يَسَعُكم عند الله تعالى جهله ، ويتبين أنكم أهْلُه ، فمن القبيح أن يقوم أحدكم على وقاية بُرِّه وشعيره ، ورعاية شاتهِ وبَعيره ، ولا يقوم على شىء يخلص به قاعدة اعتقاده ، ويُعِدُّه منجاة ليوم مَعاده ، والله عز وجل يقول ولقوله يرحل المنتجعون (أفحسبتم أنما خلقناكم عبَثًا وأنكم إلينا لا تُرْجَعُون) وانْفُوا من الحوادث الشنيعة ، والبدع التى تفت فى عَضُد الشريعة ، فقد شن علينا الملتبسة بأهل التصوّف الغار ، ونال حملتها بل جملتها بإغماضهم الصغار ، وتؤوّل المعاد والجنة والنار ، و إذا لم يَغر الرجل على دينه ودين أبيه فعلى مَنْ يَغَار ، فالأنبياء الكرام وورثتهم العلماء ، هم أئمة الاقتداء ، والكواكب التى عينها الحق للاهتداء ، فاحذروا مَعَاطب هذا الداء ، ودسائس هذه الأعداء ، وأهم ما صرفتم إليه الوجوه ، واستدفعتم به المكروه ، العملُ بأمره جل وعلا فى الآية المتلوّة ، والحكمة السافرة المجلوّة ، من ارتباط الخيل و إعداد القوّة ، فمن كان ذا سَعَة فى رزقه ، فليَقُم لله بما استطاع من حقه ، وليتخذ فرساً يعمر محلته بصهيله ، ويَقْتنه من أجل الله وفى سبيله ، فكم يتحمل من عيال يلتمس مرضاتهن باتخاذ الزينة ، ويتنافس فى أن

(١) الدعرة : جمع داعر — بالدال المهملة — وهو الخبيث ، ووقع فى ب «الذعرة» بالذال معجمة (٢) الشنآن : البغض والكراهية

يكون من أشراف المدينة ، ومؤنة الارتباط أقل ، وعلى الهمة والدين أدل ، إلى ما فيه من حماية الحَوْزَة[1] ، و إظهار العِزَّة ، ومن لم يحسن الرمى فليتدرب ، و باتخاذ السلاح إلى الله فليتقرب ، وقبل الرمى تُرَاش السِّهام ، وعلى العباد الاجتهاد وعلى الله التمام ، والسكة الجارية فى حوادث نواديكم ، وأثمان العُروض التى بأيديكم ، من احتف حروفها ، ونكّر معروفها ، أو سامح فى قبول زَيْف ، أو مبخوس حيف ، فقد اتبع هواه ، وخان نفسه وسواه ، قال الله عز وجل (أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) ولتعلموا أن نبيكم صلوات الله عليه إنما بعثه الله مجاهداً وبالحق قاضيا ، وعن الهفوات حليما متغاضيا ، فتمسكوا بحَبْله ، ولا تعدلوا عن سُبْله ، يُرْوِكم الله تعالى من سَجْله ، ويراعكم من أجله ، مُراعاة الرجل لنَجْلِه ، فهو الذى يقول (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) وإن كان فى وطنكم اليوم سَعَه ، وقد ألحفكم أمن من الله تعالى ودَعَه ، فاُحسبوا أنكم فى بلد محصور ، وبين لحيى أسَدٍ هَصُور ، واكتنفكم بحر يعب عُبَابه ، ودار بكم سُورٌ بيد عدوّكم بابه ، ولا يدرى متى ينتهى السِّلم ، وينشعب الكَلْم[2] ، فإن لم تكونوا بناءً مَرْصُوصا ، وتستشعروا الصبر عموما وخصوصا ، أصبح الجناح مقصوصا ، والرأى قد سلبته الحيره ، والمال والحريم قد سلبت فيه الضغانة والغيره ، وإن شاء الله تَهُبُّ ريح الحمية ، ونصرة النفوس على الخيالات الوهمية ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله مُتِم نوره على رغم الجاحدين وكره الكافرين ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، واعتقدوا أن الله تعالى لم يجعل الظهور مقرونا بعدد كثير ، ولو مثل جراد مزرعة

---

(١) الحوزة ـ بفتح الحاء وسكون الواو ـ الناحية ، وبيضة الملك

(٢) ينشعب : ينصدع وينفتق ، والكلم : الجرح

أثارها مثير ، بل بإخلاص لا يبقى لغير الله افتقارا ، ونفوس توسع ما سوى الحق اقتدارا ، ووعد يصدق ، وبَصَائر أبصارها إلى مَثَابة الجزاء تحدق ، وهذا الدين ظهر مع الغُرْبه ، وشَظَف التربه ، فلم تَرُعْه الأكاسرة وفيولها ، والقياصرة وخُيُولها ، دين حنيف ، وعلم مُنِيف ، من وُجُوه شطر المسجدالحرام تولى ، وآيات على سبعة أحرف تتلى ، وزكاة من الصميم تنتقى ، ومعارج ترتقى ، وحج وجهاد ، ومَوَاسم وأعياد ، ليس إلا تكبير شهير ، وأذان جَهير ، وقوّة تعد ، وثغور تسد ، وفىء يقسم ، وفخر يرسم ، ونصيحة تهدى ، وأمانة تؤدى ، وصدقة تخفى وتبدى ، وصدور تشرح وتشفى ، وخلق على خلق القرآن تحذى وتقفى [(١)] ، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا العقد قد سجل ، والوعدُ به قد عجل (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا) ولا ينقطع لهذا الفرع عادة وَصْلِهِ ، ما دام شبيها بأصله ، وإنما هو حلب لكم زبدته المخوضة ، وخلاصته الممحوضة ، والعاقبة للمتقين ، ولتعلمُنَّ نبأه بعد حين ، وحضرتكم اليوم قاعدة الدين ، وغاب [(٢)] المجاهدين ، وقد اخترعت بنا أيامنا هذه وأيام والدنا المقدس الآثار الكبار ، والحسنات التى تنوقلت بها الأخبار ، وأغفلت إلى زمنكم الحسنة المذخورة ، والمنقبة المبروره ، وهى بيمارستان يقيم منكم المرضى المطرحين ، والضعفاء المغتربين منهم والمعترضين فى كل حين ، فأنتم تطؤنهم بالأقدام ، على مر الأيام ، ينظرون إليكم بالعيون الكليلة ، ويعربون عن الأحوال الذليلة ، وضرورتهم غير خافية ، وما أنتم بأوْلى منهم بالعافية ، والمجانين تكثر منهم الوقائع ، وتفشو منهم إماتة العهد الذائع ، عار تحظره الشرائع ، وفى مثله تُسَدُّ الذرائع ، وقد فضلتم أهل مصر و بغداد ، بالرباط الدائم والجهاد ،

---

(١) حذا حذوه : اتبع طريقه وسلك نهجه ، ومثله قفاه واقتفاه وتقفاه

(٢) الغاب : جمع غابة ، وهى فى الأصل مأوى السباع

فلا أقل من المساواة فى معنى ، والمنافسة فى مَبْنى ، يذهب عنكم لؤم الجوار ، ويزيل عن وجوهكم سِمَات العار[١] ، ويدل على همتكم ، وفضل شيمتكم ، أهل الأقطار ، وكم نفقة تلفت على الرجل فى مشروع ، وحرص اعتراه على ممنوع ، فأسرعوا فالنظر فى هذا المهم خير مشروع ، ولولا اهتمامنا بمرتزقة ديوانكم ، وإعدادنا مال الجباية للمجاهدين من إخوانكم ، لسبقناكم إلى هذه الزُّلْفة ، وقمنا فى هذا العمل الصالح بتحمل الكُلْفة ، ومع ذلك فإذا قدناكم إلى الجنة ببنائه ، وأسْهَمْنَاكم فى فريضة أجره وثنائه ، فنحن إن شاء الله تعالى نعين له الأوقاف التى تجرى عنها المرفقه ، وتتصل عليه بها الصدقه ، تأصيلا لفخركم ، وإطابة فى البلاد لذكركم ، فليشاور أحدُكم هِمَّتَه ودينه ، ويستخدم يساره فى طاعة القصد الكريم ويمينه ، ونسأل الله تعالى أن يوفق كلا لهذا القصد ويُعينه ، ومن وراء هذه النصائح عزم ينهيها إلى غايتها ، ويجبر الكافة على اتباع رأيها ورايتها ، فأعملوا الأفكار فيما تضمنته من الفصول ، وتلقوا داعى الله تعالى فيها بالقَبُول ، والدنيا مزرعة الآخره ، وكم معتبر للنفوس الساخره ، بالعظام الناخره (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرنكم بالله الغرور) وأنتم اليوم أحَقُّ الناس بقبول الموعظة نفوسا زكيه ، وفُهُوماً لا قاصرة ولا بَطِيَّه ، وموطن جهاد ، ومستسقى غمام من رحمة الله تعالى وعِهَاد ، وبقايا السلف بالأرض التى فتحوا فيها هذا الوطن ، وألقوا فيها العَطَن ، فإلى أين يذهب حسن الظن بأديانكم ، وصحة إيمانكم ، وتساوى إسراركم وإعلانكم ؟ إللهم إنا قد خرجنا لك فيهم عن العهدة المتحمَّلَه ، وبلغناهم نصيحتك المكمله ، ووعدناهم مع الامتثال رحمتك المؤمله ، فيسِّرْنَا وإياهم لليسرى ، وعرفنا لطائفك التى خفى فيها المَسْرَى ، ولا تجعلنا

---

(١) السمات – بكسر السين – جمع سمة ، وهى العلامة ، ووقع فى ب « سيمات العار » بزيادة الياء بين السين والميم

ممن صَمَّ عن النداء ، وأصبح شماتة الأعداء ، فما ذَلَّ من استنصر بجنابك، ولاضل من استبصر بسنتك وكتابك ، ولا انقطع مَنْ توسل بأسبابك ، والله سبحانه يَصِلُ لكم عوائد الصنع الجميل ، ويحملكم وإيانا من التوفيق على أوضح سبيل ، ويصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، انتهى .

ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى على لسان السلطان بعد كلام :

الله الله فى الهمم فقد خمدَت ريحُها ، والله الله فى العقائد فقد خَبَتْ[1] مصابيحُها ، والله الله فى الرجولية فقد فُلَّ حَدُّها ، والله الله فى الغيرة فقد تعسر جَدُّها ، والله الله فى الدين فقد طمع الكفر فى تحويله، والله الله فى الحريم فقد مد إلى استرقاقه يدَ تأميله ، والله الله فى الملة التى يريد إطفاء سَنَاها[2] ، وقد كمل فضلها وتناهى ، والله الله فى الحريم ، والله الله فى الدين الكريم ، والله الله فى القرآن ، والله الله فى الجيران ، والله الله فى الطارف والتالد ، والله الله فى الوطن الذى توارثه الولد عن الوالد ، اليوم تستأسد النفوس المَهِينه ، اليوم يستنصر الصبر والسكينة ، اليوم ترعى لهذه المساجد الكرام الذِّمَم ، اليوم يسلك سبيل العزم والحزم والشدة والشَّمَم ، اليوم يرجع إلى الله المصرُّون ، اليوم يفيق من نوم الغفلة المغترون ، قبل أن يتفاقم الهول ، ويحق القول ، ويسد الباب ، ويحيق العذاب ، ويسترق الكفر الرقاب ، فالنساء تقى بأنفسهن أولادهن الصغار ، والطيورُ ترفرف لتحمى الأوكار[3] ، إذا أحست العَيْثَ بأفراخها والإضرار ، تمر الأيام عليكم مر السحاب ، وذهابُ الليالى لكم ذهاب[4] ، فلا خبر يفضى إلى العين ، ولا حديث فى الله تعالى يسمع بين اثنين ، ولا كد إلا لزينة يُحَلَّى بها نحرٌ وجيد ، ولا سعى إلا الامتاع لايغنى فى الشدائد ولا يفيد ،

---

(١) خبت : سكنت (٢) السنا الضوء (٣) الأوكار : جمع وكر وهو عش الطائر (٤) أخذ هذا من قول الشاعر :

يسر المرء ما ذهب الليالى وكان ذهابهن له ذهابا

وبالأمس نُدِبْتُم إلى التماس رُحْمى مسخِّرِ السحاب ، واستقالة كاشف العذاب ، وسؤال مرسل الدِّيمة ، ومحيى البشر والبهيمة ، وقد أمسكت عليكم رحمة السماء ، وأغبرَّتْ جوانبكم المخضرة احتياجا إلى بلالة الماء (وفى السماء رزقكم وما توعدون) وإليها الأكف تمدون ، وأبوابها بالدعاء تقصدون ، فلم يُصْحِر[1] منكم عدد معتبر ، ولاظهر للإنابة ولاالصَّدَقة خبر ، وتتوقون من إعادة الرغبة إلى الولى الحميد ، والغنى الذى إن يَشَأْ يذهبكم و يأتِ بخلق جديد ، وايم الله لو كان لهواً لارتقبت الساعات ، وضاقت المتسعات ، وتزاحمت على أنديته الجماعات ، أتعززاً على الله وهو القوى العزيز ؟ أتلبيسا على الله وهو الذى يميز الخبيث من الطيب والشَّبَه من الإبريز ؟ أمُنابَذة والنواصى فى يديه ؟ أغروراً بالأمل والرجوع بعدُ إليه ؟ مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ من ينزل الرزق و يفيده ؟ مَنْ يُرْجَعُ إليه فى الملمات ؟ مَنْ يُرْجَّى فى الشدائد والأزماتِ ؟ من يوجد فى المحيا والممات ؟ أفى الله شك يختلج القلوب ؟ أثَمَّ غيرالله يدفع المكروه وييسر المطلوب ؟ تفضلون على اللجأ إليه موائد الفضل ، وتره الجهل ، وطائفة منكم قد برزت إلى استسقاء رحمته تمد إليه الأيدى والرقاب ، وتستكشف بالخضوع لعظمته العقاب ، وتستعجل إلى مواعيد إجابته الارتقاب ، وكأنكم عن كرمه قد استغنيتم ، أو على الامتناع من الرجوع إليه بنيتم ، أما تعلمون كيف كان نبيكم صلوات الله من التبلُّغ باليسير ، والاستعداد للرحيل إلى دار الحق والمسير ، ومُدَاومة الجوع ، وهجر الهجوع ، والعمل على الإياب إلى الله تعالى والرجوع : دخلت فاطمة رضى الله تعالى عنها و بيدها كسرة شعير فقال : ماهذا يافاطمة ؟ فقالت : يارسول الله خبزت قرصة وأحببت أن تأكل منها ، فقال : يافاطمة أما إنه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاث ، وكان صلى الله عليه وسلم يستغفر فى اليوم سبعين مرة يلتمس رحماه ، و يقوم وهو مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حتى ورمت قدماه ، وكان

(١) أصحر : برز للصحراء ، وخرج عن الأبنية .

شأنه الجهاد ، ودأبه الجد والاجتهاد ، ومواقف صبره تعرفها الربا والوهاد ، ومقامات رفقه تحوم على مراتبها الزهاد ، فإذا لم تقتدوا به فبمن تقتدون ؟ وإذا لم تهدوا به فبمن تهتدون ؟ وإذا لم ترضوه باتباعكم فكيف تعتزون[1] إليه وتنتسبون ؟ وإذا لم ترغبوا فى الاتصاف بصفاته غضبا لله تعالى وجهاداً ، وتقللا من العرض الأدنى وسهاداً ، ففيم ترغبون ؟ فابتروا حبال الآمال فكل آت قريب ، واعتبروا بمثلات من تقدم من أهل البلاد والقواعد فذهولكم عنها غريب ، وتفكروا فى منابرها التى يعلو عليها واعظ وخطيب ، ومطيل ومطيب ، ومساجدها المتعددة الصفوف والجماعة ، المعمورة بأنواع الطاعة ، وكيف أخذ الله تعالى فيها بذنب المترفين من دونهم ، وعاقب الجمهور بما أغضوا عنه عيونهم[2] ، وساءت بالغفلة عن الله تعالى عقبى جميعهم ، وذهبت النقمات بعاصيهم ومن داهن فى أمره من مطيعهم ، وأصبحت مساجدهم مناصب للصلبان ، واستبدلت مآذنهم بالنواقيس من الأذان ، هذا والناس ناس والزمان زمان ، فما هذه الغفلة عمن إليه الرجعى وإليه المصير ؟ وإلى متى التساهل فى حقوقه وهو السميع البصير ؟ وحتى متى مد الأمل فى الزمن القصير ؟ وإلى متى نسيان اللجأ إلى الولى النصير ؟ قد تداعت الصلبان مترا كمة عليكم ، وتحركت الطواغيت من كل جهة إليكم ، أفيخذلكم الشيطان وكتاب الله قائم فيكم ؟ وألسنة الآيات تناديكم ، لم تمح سطورها ، ولا احتجب نورها ، وأنتم بقايا من فتحها من عدد قليل ، وصابر فيها كل خطب جليل ، فوالله لو تمحض الإيمان ، ورضى الرحمن ، ما ظهر التلبس فى هذه الجزيرة على التوحيد ، ولا عدم الإسلام فيها عادة التأييد ، لكن شمل الداء ، وصم النداء ، وعميت الأبصار فكيف الاهتداء ؟ والباب مفتوح ، والفضل ممنوح ، فتعالوا نستغفر الله جميعا فهو الغفور الرحيم ،

---

(١) اعتزى فلان إلى فلان : انتسب إليه

(٢) أغضى عينه : أغمض

ونستقل مُقِيل العثار فهو الرؤف الحليم ، ونصرف الوجوه إلى الاعتراف بما قدمت أيدينا فقبول المعاذير من شأن الكريم ، سدت الأبواب ، وضعفت الأسباب ، وانقطعت الآمال إلا منك يا فتاح يا وهاب (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ، ويثبت أقدامكم) (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ، ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) أعدوا الخيل وارتبطوها ، وروضوا النفوس على الشهادة وغبطوها ، فمن خاف الموت رضى بالدنية ، ولا بد على كل حال من المنية ، والحياة مع الذل ليست من شيم النفوس السنية ، واقتنوا السلاح والعدة ، وتعرفوا إلى الله تعالى فى الرخاء يعرفكم فى الشدة ، واستشعروا القوة بالله تعالى على أعدائه وأعدائكم ، واستميتوا من دون أبنائكم ، وكونوا كالبناء المرصوص لحملات هذا العدو النازل بفنائكم ، وحوطوا بالتعويل على الله تعالى وحده بلادكم ، واشتروا من الله جل جلاله أولادكم .

ذكروا أن امرأة احتمل السبع ولدها وشكت إلى بعض الصالحين ، فأشار عليها بالصدقة ، فتصدقت برغيف ، فأطلق السبع ولدها ، وسمعت النداء : يا هذه لقمة بلقمة ، وأنا لما استُودِعناه لحافظون .

واهجروا الشهوات ، واستدركوا البقية من بعد الفوات ، وأفضلوا[1] لمساكينكم من الأقوات ، واخشعوا[2] لما أنزل الله تعالى من الآيات ، وخذوا نفوسكم بالصبر على الأزمات ، والمواساة فى المهمات ، وأيقظوا جفونكم من السِّنات ، واعلموا أن رضعاء ثدى كلمة التوحيد ، وجيران البلد الغريب والدين الوحيد ، وحزب التمحيص ،

---

(١) أفضلوا : أبقوا

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق)

ونفر المَرَام العويص ، فتفقدوا معاملاتكم مع الله تعالى ومهما لقيتم الصدق غالبا ، والقلب للمولى الكريم مراقبا ، وشهاب البنين ثاقبا ، فثقوا بعناية الله التى لا يغلبكم معها غالب ، ولا ينالكم لأجلها عدو مطالب ، فإنكم فى الستر الكثيف ، وكنف الخبير اللطيف ، ومهما رأيتم الخواطر متبددة ، والظنون فى الله مترددة ، والجهات التى تخاف وترجى متعددة ، والغفلة عن الله ملامسها متجددة ، وعادة دواعى الخذلان دائمة ، وأسواق الشهوات قائمة ، فاعلموا أن الله تعالى منفذ فيكم وعده ووعيده فى الأمم الغافلين ، وأنكم قد ظلمتم أنفسكم ولا عُدْوَان إلا على الظالمين ، والتوبة تردُّ الشارد إلى الله تعالى والله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، وهو القائل (إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) :

وما أقرب صلاح الأحوال مع الله تعالى إذا صحت العزائم ، وتوالت على حزب الشيطان الهزائم ، وخملت الدنيا الغريبة فى العيون ، وصدقت فيها عند الله الظنون (يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وثُوبُوا سراعا[1] إلى طهارة الثوب ، وإزالة الشَّوْب[2] ، واقصدوا أبواب غافر الذنب وقابل التوب ، واعلموا أن سوء الأدب مع الله تعالى يفتح أبواب الشدائد ، ويسد طرق العوائد ، فلا تمطلوا بالتوبة أزمانكم ، ولا تأمنوا مكر الله فتغشوا إيمانكم ، ولا تعلقوا مَتَابكم بالصَّرائر ، فهو علام السرائر ، وإنما علينا أن ننصحكم وإن كنا أولى بالنصيحة ، ونعتمدكم بالموعظة الصريحة ، الصادرة – علم الله تعالى – عن صدق القريحة ، وإن شاركناكم فى الغفلة فقد سبقناكم إلى الاسترجاع والاستغفار ، وإنما لكم لدينا نفس مبذولة فى جهاد الكفار ، وتقدم قبلكم إلى مواقف الصبر التى لا ترضى بالفرار ، واجتهاد فيما يعود بالحسنى وعُقْبَى

(١) ثوبوا – بالثاء المثلثة – أى ارجعوا

(٢) أراد بالشوب كل ما خالط القلوب من الأدران

الدار ، والاختيار لله ولى الاختيار ، ومصرف الأقدار ، وها نحن نسرع فى الخروج إلى مدافعة هذا العدو ونفدى بنفوسنا البلاد والعباد ، والحريم المستضعف والأولاد ، ونَصْلَى من دونهم نار الجِلاد[1] ، ونستوهب منكم الدعاء لمن وَعَدَ بإجابته ، فإنه يقبل من صرف إليه وَجْهَ إنابته ، اللهم كن لنا فى هذا الاهتمام نصيرا ، وعلى أعدائك ظهيرا ، ومن انتقام عَبَدَة الأوثان كفيلا ، اللهم قوّ مَنْ ضَعُفَت حيلته فأنت القوى المعين ، وانصر من لا نصير له إلا أنت فإياك نعبد وإياك نستعين ، اللهم ثبت أقدامنا وانصرنا عند تزلزل الأقدام ، ولا تُسْلِمْنَا عند لقاء عدو الإسلام ، فقد ألقينا إليك يدَ الاستسلام ، اللهم دافع بملائكتك المُسَوَّمين ، اللهم اجعلنا على تيقظ وتذكر من (قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) .

وقد وردت علينا المخاطبات من إخواننا المسلمين الدين عرفنا فى القديم والحديث اجتهادهم ، وشكرنا فى ذات الله تعالى جهادهم ، بنى مَرِين أولى الامتعاض لله تعالى والحمية ، والمخصوصين بين القبائل الكريمة بهذه المزية ، بعزمهم على الامتعاض لحقّ الجوار ، والمصارخة التى تليق بالأحرار ، والنفرة لا نهتاك ذِمار بيتهم المختار ، وحركة سلطانهم بتلك الأقطار والأمصار ، ومدافعة أحزاب الشيطان وأهل النار ، فاسألوا الله تعالى إعانتهم على هذا المقصد الكريم الآثار ، والسعى الضمين للعز والأجر والفخار ، والسلام الكريم يخصكم أيها الأولياء ورحمة الله وبركاته ، انتهى .

---

(١) تقول « صلى فلان حر النار يصلى — مثل رضى يرضى » وفى القرآن الكريم (لا يصلاها إلا الأشقى) والجلاد ـ بكسر الجيم ـ مجالدة الكفار

ومما كتبه ابنُ لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان سلطانه الغنى بالله تعالى والنظر إليهم بعين الشفقة ما صورته :

هذا كتاب كريم أصدرناه بتوفيق الله تعالى شارحا للصدور ، مصلحا بإعانة الله تعالى للأمور ، مُلْحفا العدل والإحسان الخاصة والجمهور ، يعلم من يسمعه أو يقف عليه ، ومَنْ يقرؤه و يتدبر ما لديه ، ماعاهدنا الله تعالى عليه من تأمين النفوس وحقْن الدماء ، والسير فى التجافى عنها على السَّنَن السَّواء[1] ، ورفع التثاور عن البعيد منها والقريب ، والمُساواة فى العفو والغفران بين البرىء منها والمريب ، وحمل من ينظر بعين العداوة فى باطن الأمر محمل الحبيب ، وترك ما يتوجه بأمر المطالبات ، ورفض التبعات ، مما لايعارض حكما شرعيا،ولا يناقض سننا فى الدين مرعيا ، فمن كان رهن تبعة أو طريد تُهَمَة ، أو منبوزا فى الطاعة بريبة توجب أن نريق دَمَه ، فقد سحبنا عليه ظلال الأمان وألحفناه أثواب العفو والغفران ، ووعدناه من نفسنا مواعد الرفق والإحسان ، حكما عاما ، وعفوا تاما ، فاشيا فى جميع الطبقات ، منسحبا على الأصناف المختلفات ، عاملنا فى ذلك من يتقبل الأعمال ، ولا يضيع السؤال ، واستغفرنا عن نفسنا وعمن أخطأ علينا من رعيتنا ممن يدرأ الشرع غلطته ، ويقْبَل الحق فَيْأَته ، ومن يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ، لما رأينا من سر اتفاق الأهواء والضمائر ، وخلوص القلوب والسرائر ، فى هذا الوطن الذى أحاط به العدوّ والبحر ، ومَسَّه بتقدم الفتنة الضر ، وصلة لما أجراه الله تعالى على أيدينا ، وهيأه بنا فى نادينا ، فلم يخف ما سكن بنا من نار فتنة ، ورفع من بأسٍ وإحنة ، وكَشَف من ظُلْمة ، وسَدَل من نعمة ، وأصفى من مورد عافية ، وأولى من عصمة كافية ، بعد ماتخربت الثغور،وفسدت الأمور ،

(١) السنن ـ بالتحريك ـ الطريق ، والسواء ـ السوى المستقيم

واهتضم الدين ، واشتد على العباد كَلَبُ الكافرين المعتدين ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس فله الحمد دائبا ، والشكر واجبا ، ومن الله نسأل أن يتمم نعمته علينا كما أتمها على أبوينا من قبل إن ربك حكيم عليم ، ونحن قد شرَعْنا فى تعيين مَنْ ينوب عنا من أهل العلم والعدالة ، والدين والجلالة ، للتطوّف فى البلاد الأندلسية ، ومباشرة الأمور بالبلاد النَّصْرية ، يُنْهُونَ إلينا مايستطلعونه، و يبلغون من المصالح ما يتعرفونه ، و يقيدون ماتحتاج إليه الثغور ، وتستوجبه المصلحة الجهادية من الأمور ، ونحن نستعين بفضلاء رعيتنا وخيارهم ، والمراقبين الله تعالى منهم فى إيرادهم و إصدارهم ، على إنهاء ما يخفى عنا من ظلامة تقع ، أو حادث يبتدع ، ومن اتخذت بجواره خمر فاشية ، أو نشأت فى جهته للمنكر ناشية ، فنحن نقلده العهد ، ونطوّقه القلادة ، ووراء تنبيهنا على ما خفى من الشكر لمن أهداه ، و إحماد سعى من أبلغه وأداه ، ما نرجو ثواب الله تعالى عليه ، والتقرب به إليه ، فمن أهدى لنا شيئا من ذلك فهو شريك فى أجره ، ومقاسم فى مثوبته يوم ربح تجره ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، انتهى .

و إذ أجرينا طرف القلم ملء عنانه فيما للسان الدين رحمه الله تعالى من النصائح والمواعظ والوصايا ، وما يرجع بالنفع على الخاصة وجمهور الرعايا ، ما كَلَّ[1] دون شأوه ، وقصر عن أمده مَدِيدُ خَطْوه ، وقد تقدم فى هذا الكتاب من ذلك جملة وافرة ، فلتراجع فى محالها المتكاثرة ، وقد آن أن نسرد فى هذا المحل الوصية التى أوصى لسانُ الدين رحمه الله تعالى بها أولاده ، وهى وصية جامعة نافعة ، يحصل بها انتعاش ، لاشتمالها على ما لابد منه فى المعاد والمعاش ، ونصها :

وصية لسان الدين لأولاده

الحمد لله الذى لا يروعه الحمام المرقوب[2] ، إذا شيم نجمه المثقوب ، ولا يبغته

---

(١) كل : ضعف وفتر ، والشأو ـ بالفتح ـ الغاية والطلق

(٢) لايروعه : لايخيفه ، والحمام ـ بالكسر ـ الموت

الأجل المكتوب ، ولا يفجؤه الفراق المعتوب ، مُلهم الهدى الذى تطمئن به القلوب ، ومُوضِح السبيل المطلوب ، وجاعل النصيحة الصريحة من قسم الوجوب ، لا سيما للولى المحبوب ، والولد المنسوب ، القائل فى الكتاب المعجز الأسلوب ، (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب) (وأوصى بها إبراهيم بنيه و يعقوب) .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله أكرم من زرت على نورهِ جيوبُ الغيوب ، وأشرف مَنْ خلعت عليه حلل المهابة والعصمة فلا تقتحمه العيون ولا تَصِمُه(١) العيوب ، والرضا عن آله وأصحابه المثابرين على لسان الاستقامة بالهوى المغلوب ، والأمل المسلوب ، والاقتداء الموصل [إلى] المرغوب ، والعز والأمن من اللغوب .

و بعد ، فإنى لما علانى المشيب بقمته ، وقادنى الكبر برُمَّته(٢) ، وادكرت بعد أمته ، أسفت لما أضعت ، وندمت بعد الفطام على ما رضعت ، وتأكد وجوب نصحى لمن لزمنى رَعْيُه ، وتعلق بعينى سَعْيه ، وأملت أن تتعدى إلى ثمرة استقامته وأنا رهين فوَات ، وفى برزخ أموات ، و يأمن العثور فى الطريق التى اقتضت عثارى ، إن سلك وعسى أن لا يكون ذلك على آثارى ، فقلت أخاطب الثلاثة الولد ، وثمرات الخلد ، بعد الضراعة إلى الله تعالى فى توفيقهم ، و إيضاح طريقهم ، وجَمْع تفريقهم ، وأن يمن على منهم بحسن الخلف ، والتلافى من قبل التلف ، وأن يرزق خلفهم التمسك بهدى السلف ، فهو ولى ذلك ، والهادى إلى خير المسالك .

أعلموا هداكم الله تعالى الذى بأنواره تهتدى الضلال ، و برضاه ترفع الأغلال ، و بالتماس قربه يحصل الكمال ، إذا ذهب المال ، وأخلفت الآمال ، وتبرأت من يمينها الشمال — أنى مُودعكم و إن سالمنى الردى ، ومفارقكم و إن طال المَدَى ،

---

(١) وصمه يصمه — من باب ضرب — عابه ونقصه

(٢) الرمة — بضم الراء — الحبل ، ويقال « أخذ الشىء برمته » أى أخذه كله لم يبق منه شيئا ، وأصله الجمل يأخذه بخطامه

وما عدا مما بدا ، فكيف وأدوات السفر تجمع ، ومنادى الرحيل يسمع ، ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر ،وعجالة مقتصر ، ورتيمة[1] تعقد فى خنصر ، ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر ، تتكفل لكم بحسن العواقب مِنْ بَعْدِى ، وتوضح لكم من الشفقة والحنوّ قصدى ، حسبما تضمن وعدُ الله من قبلِ وعدى ، فهى أرُبكم الذى لا يتغير وقفه ، ولا ينالكم المكروه مارف عليكم سقفه ، وكأنى بشبابكم قد شاخ ، وبراحلكم قد أناخ ، وبناشطكم قد كسل ، واستبدل الصاب من العسل ، ونصول الشيب تروع بأسل ، لابل السام من كل حدب قد نسَل ، والمعاد اللحد ولا تسل ، فبالأمس كنتم فراخ حجر ، واليوم أبناء عسكر مَجْر[2] ، وغداً شيوخ مضيعة وهجر ، والقبور فاغرة ، والنفوس عن المألوفات صاغرة ، والدنيا بأهلها ساخرة ، والأولى تعقبها الآخرة ، والحازم من لم يُتَّعظ به فى أمر ، وقال : بيدى لا بيد عمرو ، فاقتنوها من وصية ، ومرَام فى النصح قَصِية ، وخصوابها أولادكم إذا عقلوا ، ليجدوا زادها إذا انتقلوا ، وحسبى وحسبكم الله الذى لم يخلق الخلق هَمَلا ، ولكن ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، ولارضى الدنيا منزلا ، ولا لطف بمن أصبح عن فئة الخير منعزلا ، ولتلقنوا تلقينا ، وتعلموا علماً يقيناً ، أنكم لن تجدوا بعد أن أنفرد بذنبى ، ويفترش الترابَ جنبى ، ويسح انسكابى ، وتهرول عن المصلى ركابى ، أحرص منى على سعادة إليكم تُجْلَب ، أو غاية كمال بسببكم تُرْتاد وتطلب ، حتى لا يكون فى الدين والدنيا أوْرَفَ منكم ظلا ، ولا أشرف محلا ، ولا أغبط نَهلاً وعَلاًّ ، وأقل ما يوجب ذلك عليكم أن تصيخوا إلى قولى الآذان ، وتستلمحوا صُبْحَ نصحى فقد بان ، وسأعيد عليكم وصية لقمان (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لاتشرك بالله إن

---

(١) الرتيمة ــ ومثله الرتمة ، بالفتح ــ خيط يشد فى الإصبع لتتذكر به الحاجة

(٢) عسكر مجر : كثير

الشرك لظلم عظيم ، يابنى أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وأنْهَ عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تُصَعِّر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغْضُضْ من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وأعيد وصية خليل الله وإسرائيله ، حكم ما تضمنه حكم تنزيله (يا بنىّ إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون) والدين الذى ارتضاه واصطفاه ، وأكمله ووفاه ، وقرره مصطفاه ، من قبل أن يتوفاه ، إذا أعمل فيه انتقاد ، فهو عمل واعتقاد ، وكلاهما مقرر ، ومستمد من عقل أو نقل محرر ، والعقل متقدم ، و بناؤه مع رفض أخيه متهدم[1] ، فالله واحد أحد ، فرد صمد ، ليس له والد ولا ولد ، تنزه عن الزمان والمكان ، وسبق وجوده وجود الأكوان ، خالق الخلق وما يعملون ، الذى لا يُسْأل عن شىء وهم يُسْألون ، الحى العليم المدبر القدير (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) أرسل الرسل رحمة لتدعو الناس إلى النجاة من الشقاء ، وتوجه الحجة فى مصيرهم إلى دار البقاء ، مؤيدة بالمعجزات التى لا تتصف أنوارها بالاختفاء ، ولا يجوز على تواترها دعوى الانتفاء ، ثم ختم ديوانهم بنبى ملتنا المرعية الهمل ، الشاهدة على الملل ، فتلخصت الطاعة ، وتعينت الإمرة المُطَاعة ، ولم يبق بعده إلا ارتقاب الساعة ، ثم إن الله تعالى قبضه إذ كان بشراً ، وترك دينه يضم من الأمة نشراً ، فمن تبعه لحق به ، ومن تركه نوّط عنه فى منسبه ، وكانت نجاته على قدر سببه ، روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لم تضلوا بعدى : كتاب الله ، وسنتى ، فعضوا عليهما بالنواجذ » فاعملوا يابنى بوصية من ناصح جاهد ، ومشفق شفقه والد ، واستشعروا حبه الذى توفرت دواعيه ، وَعُوا

---

(١) يريد أن العمل بما يقتضيه العقل مع رفض ما صح مما ورد به السمع غير مقبول ، والحكم كذلك بإجماع أئمة المسلمين الذين يعتد بإجماعهم

مَرَاشدهديه فيافوزواعيه ، وصِلُوا السبب بسببه، وآمنوا بكل ماجاء به مجملاأومفصلا على حسبه ، وأوجبوا التجلة لصحبه الذين اختارهم الله تعالى لصحبته ، واجعلوا محبتكم إياهم من توابع محبته ، واشملوهم بالتوقير ، وفضلوا منهم أولى الفضل الشهير ، وتبرؤا من العصبية التى لم يدعكم إليها داع ، ولا تَعِ التشاجر بينهم أذن واع ، فهو عنوان السداد ، وعلامة سلامة الاعتقاد ، ثم اسحبوا فضل تعظيمهم على فقهاء الملة ، وأئمتها الجِلَّة ، فهم صَقَلة نصولهم (١) ، وفروع ناشئة من أصولهم ، وورثتهم وورثة رسولهم ، واعلموا أننى قطعت فى البحث زمانى ، وجعلت النظر شانى ، منذ برانى الله تعالى وأنشانى ، مع نبل يعترف به الشانى ، وإدراك يسلمه العقل الإنسانى ، فلم أجد خابط وَرَق ، ولا مصيب عرق ، ولا نازع خطام ، ولا متكلف فطام ، ولا مقتحم بحرطام ، إلا وغايته التى يقصدها قد نضلتها الشريعة وسبقتها ، وفرعَتْ ثنيتها وارتقتها ، فعليكم بالتزام جادَّتها السابلة ، ومصاحبة رفقتها الكاملة ، والاهتداء بأقمارها غير الآفلة ، والله تعالى يقول وهو أصدق القائلين (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين) وقد علت شرائعه وراع الشكوك رائعه ، فلا تستنزلكم الدنيا عن الدين ، وأُبذلوا دونه النفوس فعل المهتدين ، فلن ينفع متاع بعد الخلود فى النار أبد الآبدين ، ولا يضر مفقود مع الفوز بالسعادة والله أصدق الواعدين ، ومتاع الحياة الدنيا أخس ما ورث الأولاد عن الوالدين ، اللهم قد بلغت فأنت خير الشاهدين ، فاحذروا المَعاطب التى توجب فى الشقاء الخلودَ ، وتستدعى شَوْه الوجوه ونضج الجلود ، واستعيذوا برضا الله من سخطه ، وارْبَؤا بنفوسكم عن غَمْطه ، وارفعوا آمالكم عن القنوع بغرور قد خدع أسلافكم ، ولا تحمدوا على جيفة العرض الزائل ائتلافكم ، واقتنعوا

---

(١) صقلة : جمع صاقل ، وهو اسم الفاعل من « صقل فلان سيفه يصقله » من باب نصر ــ إذا جلاه ، والنصول : جمع نصل ، وهو هنا السيف .

منه بما تيسر ، ولا تأسَوْا على ما فات وتعذر ، فإنما هى دُجُنة ينسخها الصباح ، وصفقة يتعاقبها الخسار أو الرباح ، ودونكم عقيدة الإيمان فشدوا بالنواجذ عليها ، وكفكفوا الشبه[1] أن تدنوا إليها .

واعلموا أن الإخلال بشىء من ذلك خرق لا يرفؤهُ عمل ، وكل ما سوى الراعى همل ، وما بعد الرأس فى صلاح الجسم أمل ، وتمسكوا بكتاب الله تعالى حفظاً وتلاوة ، واجْعَلُوا حمله على حمل التكاليف علاوة ، وتفكروا فى آياته ومعانيه ، وامتثلوا أوامره ونواهيه ، ولا تتأولوه ولا تَغْلُوا فيه ، وأشرِبوا قلوبكم حب من أنزل على قلبه ، وأكثروا من بواعث حبه ، وصونوا شعائر الله صون المحترم ، واحفظوا القواعد التى ينبنى عليها الإسلام حتى لا ينخرم

الله الله فى الصلاة ذريعة التجلة ، وخاصة الملة ، وحاقنة الدم ، وغنى المستأجر المستخدم ، وأم العبادة ، وحافظة اسم المراقبة لعالم الغيب والشهادة ، والناهية عن الفحشاء والمنكر إن عرض الشيطان عرضهما ، ووطأ للنفس الأمارة سماءهما وأرضهما ، والوسيلة إلى بل الجوانح ببرود الذكر ، وإيصال تحفة الله إلى مريض الفكر ، وضامنة حسن العشرة من الجار ، وداعية للمسالمة من الفجار ، والواسمة بسمة السلامة ، والشاهدة للعبد برفع الملامة ، وغاسول الطبع إذا شانه طَبَع[2] ، والخير الذى كل ما سواه له تبع ، فاصبروا النفس على وظائفها بين بدء وإعادة ، فالخير عادة ، ولا تفضلوا عليها الأشغال البدنية ، وتؤثروا على العلية الدنية ، فإن أوقاتها المعينة بالانفلات تيبس ، والفلك بها من أجلكم لا يحبس ، وإذا قورنت بالشواغل فلها الجاه الأصيل ، والحكم الذى لا يغيره الغدو ولا الأصيل ، والوظائف بعد أدائها لا تفوت ، وأين حق من يموت من حق الحى الذى لا يموت ، وأحكموا أوضاعها إذا أقمتموها

---

(١) كفكفوا : امنعو ، والشبه : جمع شبهة ، بالضم

(٢) الطبع ـ بفتح الطاء والباء ـ الدنس مطلقا ، فى جسم أو خلق ، وهو أيضا الكسل

وأتبعوها النوافل ما أطقتموها ، فبالإتقان تفاضلت الأعمال ، وبالمراعاة استحقت الكمال ، ولا شكر مع الإهمال ، ولا ربح مع إضاعة رأس المال ، وذلك أحرى بإقامة الفرض ، وأدعى الى مساعدة البعض البعض ، والطهارة التى هى فى تحصيلها سبب موصل ، وشرط لمشروطه محصل ، فاستوفوها ، والأعضاء نظفوها ، ومياهها بغير أوصافها الحميدة فلا تصغوها ، والحجول والغرر فأطيلوها[1] ، والنبات فى كل ذلك فلا تهملوها ، فالبناء بأساسه ، والسيف بمراسه .

واعلموا أن هذه الوظيفة من صلاة وطهور ، وذكر مجهور وغير مجهور ، تستغرق الأوقات ، وتنازع شتى الخواطر المفترقات ، فلا يضبطها إلا من ضبط نفسه بعِقَال ، واستعاض صدأه بصِقَال ، وإن تراخى قهقر الباع ، وسَرَقته الطباع ، وكان لما سواها أضيع فشمل الضياع .

والزكاة أختها الحبيبة ، ولِدَتها القريبة ، مفتاح السعادة بالعرض الزائل ، وشكران المسئول على الضدّ من درجة السائل ، وحق الله تعالى فى مال مَنْ أغناه ، لمن أجهده فى المعاش وعَنَّاه ، من غير استحقاق ملء يده وإخلاء يد أخيه ، ولا علة إلا القدر الذى يخفيه ، وما لم ينله حظ الله تعالى فلا خير فيه ، فاسمحوا بتفريقها للحاضر لإخراجها ، فى اختيار عرضها ونتاجها ، واستحْيُوا من الله تعالى أن تبخلوا عليه ببعض ما بذل ، وخالفوا الشيطان كلما عذل ، واذكروا خروجكم إلى الوجود لا تملكون ، ولا تدرون أين تسلكون ، فوهب وأقْدَر ، وأورد بفضله وأصدر ، ليرتب بكرمه الوسائل ، أو يقيم الحجج والدلائل ، فابتغوا إليه الوسيلة بماله ، واغتنموا رضاه ببعض نوَاله .

وصيام رمضان عبادة السر المقربة إلى الله زُلْفَى ، الممحوضة لمن يعلم السر

---

(١) الحجول والغرر : أراد بهما إسباغ الوضوء وتوفير الغسل لكل الأعضاء وخاصة الوجه والقدمين ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول « أنا قائد الغر المحجلين يوم القيامة »

وأخفى ، مؤكدة بصيام الجوارح عن الآثام ، والقيام ببر القيام ، والاجتهاد ، و إيثار السهاد على المهاد ، و إن وسع الاعتكاف فهو من سننه المرعية ، ولواحقه الشرعية ، فبذلك تحسن الوجوه ، وتحصل من الرقة على ما ترجوه ، وتذهب قسوة الطباع ، و يمتدّ فى ميدان الوسائل الباع .

والحج مع الاستطاعة الركن الواجب ، والفرض على العين لا يحجبه الحاجب ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم قدره فيما فَرَض عن ربه وسَنَّه ، وقال ليس له جزاء عند الله إلا الجنه ، و يلحق بذلك الجهاد فى سبيل الله تعالى إن كانت لكم قوّة عليه ، وغنى لديه ، فكونوا ممن يسمع نفيره و يطيعه ، و إن عجزتم فأعينوا من يستطيعه .

هذه عمد الإسلام وفروضه ، ونقود مهره وعروضه ، فحافظوا عليها تعيشوا مبرورين ، وعلى من يناويكم ظاهرين[1] ، وتلقوا الله لا مُبَدِّلين ولا مُغيرين ، ولا تضيعوا حقوق الله فتهلكوا مع الخاسرين .

واعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب ، وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب[2] ، فعليكم بالعلم النافع ، دليلا بين يدى السامع ، فالعلم مفتاح هذا الباب ، والموصل إلى اللُّباب ، والله عز وجلّ يقول (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب) والعلم وسيلة النفوس الشريفة ، إلى المطالب المنيفة ، وشَرْطُه الخشية لله تعالى والخيفة ، وخاصة الملأ الأعلى ، وصفة الله فى كتبه التى تتلى ، والسبيل فى الآخرة إلى السعادة ، وفى الدنيا إلى النحلة عادة ، والذخر الذى قليله يشفع ، وكثيره ينفع ، لا يغلبه الغاصب ، ولا يسلبه العدوّ المناصب ، ولا يبتزه الدهر إذا نال ، ولا يستأثر به البحر إذا هال ، من لم ينله فهو ذليل و إن

(١) ظاهرين : غالبين قاهرين

(٢) أصل الانتقاب ستر الوجه بالنقاب ، والمراد هنا مجرد الاستتار

كثرت آماله ، وقليل وإن جم ماله ، وإن كان وقته قد فات اكتسابكم ، وتخطى حسابكم ، فالتمسوه لبنيكم ، واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم ، واحملوهم على جمعه ودَرْسِه ، واجعلوا طباعهم ثرًى لغرسه ، واستسهلوا ما ينالهم من تعب جَرَّاه ، وسهر يهجر له الجفنُ كَرَاه[1] ، تعقدوا لهم ولاية عز لا تعزل ، وتحلوهم مثابة رفعة لا يحط فارعها ولا يستنزل ، واختاروا فى العلوم التى يتعقبها الوقت ، فلا يناله فى غيره المقت .

وخير العلوم علوم الشريعة ، وما نجم بمنابتها المَرِيعة ، من علوم لسان لا تستغرق الأعمار فصولها ، ولا يضايق ثمرات المعاد حصولها ، فإنما هى آلات لغير ، وأسباب إلى خَيْر منها وخير ، فمن كان قابلا للازدياد ، وألفى فهمه ذا انقياد ، فليخص تجويد القرآن بتقديمه ، ثم حفظ الحديث ومعرفة صحيحه من سقيمه ، ثم الشروع فى أصول الفقه فهو العلم العظيم المنة ، المهدى كنوز الكتاب والسنة ، ثم المسائل المنقولة عن العلماء الجلة ، والتدرُّب فى طرق النظر وتصحيح الأدلة ، وهذه هى الغاية القصوى فى الملة ، ومن قصر إدراكه عن هذا المرمى ، وتقاعد عن التى هى أسمى ، فليرو الحديث بعد تَجْوِيد الكتاب وإحكامه ، وليقرأ المسائل الفقهية على مذهب إمامه ، وإياكم والعلومَ القديمة ، والفنون المهجورة الذميمة ، فأكثرها لا يفيد إلا تشكيكا ، ورأيا ركيكا ، ولا يثمر فى العاجلة إلا اقتحام العيون ، وتَطْريق الظنون ، وتطويق الاحتقار ، وسِمَة الصَّغَار[2] ، وخمول الأقدار ، والخسف من بعد الإبدار ، وجادة الشريعة أعرق فى الاعتدال ، وأوفق من قطع العمر فى الجِدَال ، هذا ابن رشد قاضى المصر ومُفْتيه ، وملتمس الرشد ومُولِيه ، عادت عليه بالسخطة الشنيعة ، وهو إمام الشريعة ، فلا سبيل إلى اقتحامها ، والتورُّط

---

(١) الكرى ـ بالفتح مقصورا ـ النوم

(٢) السمة : العلامة ، والصغار ـ بفتح الصاد ـ المذلة والمهانة

فى ازدحامها ، ولا تخلطوا جامكم بجامها ، إلا ما كان من حساب ومساحة ، وما يعود بجدوى فلاحة ، وعلاج يرجع على النفس والجسم براحة ، وماسوى ذلك فمحجور[١] ، وضَرَم مسجور ، وممقوت مهجور ، وأْمُرُوا بالمعروف أمرا رفيقا ، وانهوا عن المنكر نهيا حَريا بالاعتدال حقيقا ، واغبطوا من كان من سِنَةِ[٢] الغفلة مُفيقا ، واجتنبوا ما تُنْهَوْنَ عنه حتى لا تسلكوا منه طريقا .

وأطيعوا أمر من ولاه الله تعالى من أموركم أمرا ، ولا تقربوا من الفتنة جَمْرا ، ولا تُدَاخِلوا فى الخلاف زيدا ولا عمرا .

وعليكم بالصدق فهو شعار المؤمنين ، وأهم ما أضرى عليه الآباء ألسنة البنين ، وأكرم منسوب إلى مذهبه ، ومَنْ أكْثَرَ من شىء عرف به .

وإياكم والكذب فهو العورة التى لا تُوارَى ، والسوأة التى لا يرتاب فى عارها ولا يُتَمَارَى ، وأقل عقوبات الكذاب ، بين يدى ما أعد الله له من العذاب ، أن لا يقبل صدقه إذا صدق ، ولا يعول عليه إن كان بالحق نَطَق .

وعليكم بالأمانة فالخيانة لُوم ، وفى وجه الديانة كُلُوم[٣] ، ومن الشريعة التى التى لا يعذر بجهلها ، أداء الأمانات إلى أهلها ، وحافظوا على الحشمة والصِّيانة ، ولا تجزوا من أقرضكم دين الخيانة ، ولا توجدوا للغدر قَبُولا ، ولا تقروا عليه طبعا مجبولا ، وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤلا ، ولا تستأثروا بكنز ولا خَزْن ، ولا تذهبوا لغير مناصحة المسلمين فى سهل ولا حَزْن ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم فى كيل أو وزن ، والله الله أن تعينوا فى سفك الدماء ولو بالإشارة أو بالكلام ، أو ما يرجع إلى وظيفة الأقلام ، واعلموا أن الإنسان فى فُسْحة ممتدة ، وسبل الله تعالى غير مُنْسدة ، مالم ينبذ إلى الله تعالى بأمانِهِ ، ويمس الدم الحرام بيده

---

(١) محجور : ممنوع

(٢) السنة ـ بكسر السين ـ النوم ، أو أوله ، وفى القرآن الكريم : (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم)

(٣) الكلوم : الجروح

أو لسانه ، قال الله تعالى فى كتابه الذى هدى به سننا قويما ، وجلى من الجهل والضلال ليلا بَهِيماً (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) .

واجتناب الزنى وما تعلق به من أخلاق من كرمت طباعه ، وامتد فى سبيل السعادة باعه ، لولم تتلق نور الله الذى لم يهد شعاعه ، فالحلال لم تضق عن الشهوات أنواعه ، ولا عدم إقناعه ، ومن غلبت غرائز جهله ، فلينظر هل يحب أن يُزْنَى بأهله ، والله قد أعد للزانى عذابا و بيلا ، وقال : (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) .

والخمر أم الكبائر ، ومفتاح الجرائم والجرائر ، واللهو لم يجعله الله فى الحياة شرطا ، والمحرم قد أغنى عنه بالحلال الذى سوّغ وأعطى ، وقد تركها فى الجاهلية أقوامٌ لم يرضوا لعقولهم بالفساد ، ولا لنفوسهم بالمضرة فى مرضاة الأجساد ، والله تعالى قد جعلها رجساً محرما على العباد ، وقَرَنَها بالأنصاب والأزلام فى مباينة السَّداد .

ولا تقربوا الربا فإنه من مَنَاهى الدين ، والله تعالى يقول : (وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) وقال : (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) فى الكتاب المبين ، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق يبيحه ، وانزعوا الطمع عن ذلك حتى تذهب ريحه ، والتمسوا الحلال يسعى فيه أحدكم على قدمه ، ولا يكل خياره إلا للثقة من خدمه ، ولا تلجؤا إلى المتشابه إلا عند عدمه ، فهو فى السلوك إلى الله تعالى أصل مشروع ، والمحافظ عليه مغبوط ، و إياكم والظلم فالظالم ممقوت بكل لسان ، مجاهر الله تعالى بصريح العصيان ، والظلم ظلمات يوم القيامة كما ورد فى الصحاح الحسان ، والنميمة فساد وشتات ، لا يبقى عليه متات[1] ، وفى الحديث « لا يدخل الجنة قتّاتٌ »[2] واطرحوا الحسد فما ساد حسودٌ ، و إياكم والغيبة فباب الخير معها

(١) متات : مصدر « مت فلان إلى فلان » أى توسل وتقرب ، وكل شىء توسلت به إلى غيرك فهو ماتة ، وجمعه موات ، بتشديد التاء الأخيرة

(٢) القتات : النمام قت الحديث يقته : نقله

مسدود ، والبخل فما رؤى البخيل وهو مودد ، وإياكم وما يعتذر منه فمواقع الخزى لا تستقال عثراتها ، ومظنات الفضائح لا تؤمن غمراتها ، وتفقَّدوا أنفسكم مع الساعات ، وأفشوا السلام فى الطرقات والجماعات ، ورقوا على ذوى الزمانات والعاهات ، وتاجروا مع الله بالصدقة يربحكم فى البضاعات ، وعوّلوا عليه وحده فى الشدائد ، واذكروا المساكين إذا نَصَبتم الموائد ، وتقربوا إليه باليسير من ماله ، واعلموا أن الخلق عيال الله وأحب الخلق إليه المحتاط لعياله ، وارعوا حقوق الجار ، واذكروا ما ورد فى ذلك من الآثار ، وتعاهدوا أولى الأرحام ، والوشائج[1] البادية الالتحام ، واحذروا شهادة الزور فإنها تقطع الظهر ، وتفسد السر والجهر ، والرُّشَا فإنها تحط الأقدار ، وتستدعى المذلة والصَّغَار ، ولا تسامحوا فى لعبة قمر ، ولا تشاركوا أهل البطالة فى أمر ، وصونوا المواعيد من الإخلاف ، والأيمان من حِنْث الأوغاد والأجلاف ، وحقوقَ الله تعالى من الازدراء والاعتساف ، ولا تلهجوا بالآمال العِجَاف ، ولا تكلفوا بالكَهَانة والإرجاف ، واجعلوا العمر بين معاش ومَعَاد ، وخصوصية وابتعاد ، واعلموا أن الله سبحانه بالمِرْصَاد ، وأن الخلق بين زَرْع وحَصَاد ، وأقلوا بغير الحالة الباقية الهموم ، واحذروا القواطع عن السعادة كما تحذر السموم ، واعلموا أن الخير أو الشر فى الدنيا محال أن يدوم ، وقابلوا بالصبر أذاية المؤذين ، ولا تعارضوا مقالات الظالمين ، فالله لمن بُغِىَ عليه خير الناصرين ، ولا تستعظموا حوادث الأيام كلما نزلت ، ولا تضجوا للأمراض إذا أعضلت ، فكل منقرض حقير ، وكل مُنقَض وإن طال قصير ، وانتظروا الفرَج ، وانتشقوا من جناب الله تعالى الأرَج ، وأوسعوا بالرجاء الجوانح ، واجنحوا إلى الخوف من الله تعالى فطوبى لعبد إليه جانح ، وتضرعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، والجؤا إليه

---

(١) الوشائج : جمع وشيجة ، وهى فى الأصل عرق الشجرة وليف يفتل ثم يشد به خشبتان ، ويراد به كل ما يربط بين اثنين من قرابة أو مصاهرة أو نحوهما

فى البأساء والضرّاء ، وقابلوا نعم الله تعالى بالشكر الذى يقيد به الشارد ، ويَعْذُب الوارد ، وأسهموا منها للمساكين وافْضُلوا عليهم ، وعينوا الحظوظ منها لديهم ، فمن الآثار « يا عائشة ، أحسنى جوار نعم الله ، فإنها قلما زالت عن قوم فعادت إليهم » ولا تطغوا فى النعم فتقصروا عن شكرها ، وتلقيكم الجهالة بسكرها ، وتتوهموا أن سعيكم جلبها ، وجدكم حَلَبها ، فالله خير الرازقين ، والعاقبة للمتقين ، ولا فعل إلا لله إذا نظر بعين اليقين ، والله الله لاتنسوا الفضل بينكم ، ولا تذهبوا بذهابه زينكم ، وليلتزم كل منكم لأخيه ، ما يشتد به تواخيه ، بما أمكنه من إخلاص وبر ، ومُرَاعاة فى علانية وسر ، وللإنسان مزية لا تجهل ، وحق لا يهمل وأظهروا التعاضد والتناصر ، وصِلُوا التعاهد والتزاور ، تُرْغِمُوا بذلك الأعداء ، وتستكثروا الأوداء ، ولا تتنافسوا فى الحظوظ السخيفة ، ولا تتهارشوا تهارش السباع على الجيفة ، واعلموا أن المعروف يكدر بالامتنان ، وطاعة النساء شر ما أفسد بين الإخوان ، فإذا أسديتم معروفا فلا تذكروه ، وإذا برز قبيح فاستروه ، وإذا أعْظَمَ النساء أمراً فاحْقِرُوه .

والله الله لا تنسوا مقارضة سَجْلى ، وبروا أهل مودتى من أجلى ، ومن رزق منكم مالا بهذا الوطن القَلِق المهاد ، الذى لا يصلح لغير الجهاد ، فلا يستهلكه أجمع فى العَقَار ، فيصبح عرضة للمذلة والاحتقار ، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده فى الافتضاح والافتقار ، ومعوقا عن الانتقال ، أمام النُّوَب الثقال ، وإذا كان رزق العبد على المولى ، فالإجمال فى الطلب أوْلَى ، وازهدوا جهدكم فى مصاحبة أهل الدنيا فخيرها لا يقوم بشرها ، ونفعُهَا لا يقوم بضرها ، وأعقاب من تقدم شاهدة ، والتواريخ لهذه الدعوى عاضدة ، ومَنْ بلى بها منكم فليستظهر بسعة الاحتمال ، والتقلل من المال ، وليحذر معاداة الرجال ، ومزلات الإدلال ، وفساد

الخيال ، ومداخلة العيال ، و إفشاء السر ، وسكر الاغترار فإنه دأب الغِر ، ولْيَصُنِ الديانة ، ويؤثر الصمت ويلازم الأمانة ، و يَسِرْ من رضا الله على أوضح الطرق ، ومهما اشتبه عليه أمران قصد أقربهما إلى الحق ، وليقف فى التماس أسباب الجلال دون الـكمال غير النقصان ، والزعازع تسالم اللَّدْن اللطيف من الأغصان (١) ، و إياكم وطلب الولايات رغبة واستجلاباً ، واستظهاراً على الخطوب وغِلَابا ، فذلك ضرر بالمروآت والأقدار ، داع إلى الفضيحة والعار ، ومن امتحن بها منكم اختياراً ، أو جبر عليها إكراهاً و إيثاراً ، فليتلَقَّ وظائفها بسعة صدره ، و يبذل من الخير فيها ما يشهد أن قدرها دون قدره ، فالولايات فتنة ومحنة ، وأسر و إحْنَه ، وهى بين إخطاء سعادة ، و إخلال بعبادة ، وتوقع عزل ، و إدالة بإزاء بيع جد بهزل ، ومزلة قَدَم ، واستتباع نَدَم ، ومآل العمر كله موت ومعاد ، واقتراب من الله وابتعاد ، جعلكم الله ممن نفعه بالتبصير والتنبيه ، وممن لا ينقطع بسببه عمل أبيه .

هـذه أسعدكم الله وصيتى التى أصدرتها ، وتجارِبى التى لر بحكم أدرتها ، فتلقوها بالقبول لنصحها ، والاهتداء بضوء صبحها ، و بقدر ما أمضيتم من فروعها ، واستغشيتم من دروعها ، اقتنيتم من المناقب الفاخرة ، وحصلتم على سعادة الدنيا والآخرة ، و بقدر ما أضعتم لآليها النفيسة القِيَم ، استكثرتم من بواعث النَّدَم .

ومهما سئمتم إطالتها ، واستغزرتم مقالتها ، فاعلموا أن تقوى الله فذلكة الحساب ، وضابط هذا الباب ، كان الله خليفتى عليكم فى كل حال ، فالدنيا مناخ ارتحال ، وتأميل الإقامة فرض محال ، فالموعد للالتقاء ، دار البقاء ، جعل الله من وراء خطته النجاة ، ونَفَّقَ بضائعها المزجاة ، بلطائفه المرتجاة ، والسلام عليكم من حبيبكم المودع ، والله سبحانه يلئمه حيث شاء من شمل متصدع ، والدكم محمد

---

(١) هذا من قول الشاعر :

هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أو الـكسوف لغير الشمس والقمر ؟

ابن عبد الله بن الخطيب ، ورحمة الله و بركاته ، انتهت الوصية الفريدة فى حسنها ، الغريبة فى فنها ، المبلغة نفوس الناظرين فيها فوق ظنها ، ولأجل ذلك كان شيخ شيوخنا المؤلف الكبير الفقيه الإمام قاضى القضاة العلامة سيدى الشيخ عبد الواحد ابن الشيخ الإمام عالم المالكية صاحب التآليف العديدة كالمعيار المعرب ، والجامع المغرب ، عن فتاوى إفريقية والأندلس والمغرب ، وهو فى ست مجلدات لكان كافيا ، وله مصنفات كثيرة غيره أكثرها فى مذهب مالك ، ولم يؤلف فى المذهب مثلها .

رجع إلى ما كنا فيه :

أقول : لم تزل عادة الأكابر من العلماء والملوك الوصية لأولادهم وعمالهم باقتفاء النهج الذى يرون فيه السلوك ، وقد وقفت للفقيه الكاتب أبى عبد الله محمد ابن الجيان المرسى الأندلسى رحمه الله تعالى على وصية ضمن رسالة كتبها عن ابن هود ملك الأندلس إلى أخيه اشتملت على مالا بد منه ، فرأيت أن أذكرها هنا تتميما للفائدة ، ونصها بعد الصدر :

وصية من إنشاء ابن الجيان المرسى

من مجاهد الدين ، وسيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود ، أيده الله تعالى بنصره ! وأمده بتمكينه ! وأعانه على ما ينويه من إحياء معالم دينه ! إلى صِنْوِنا المبارك ، وقسيمنا المخصوص بتبجيلنا وتكريمنا ، وحُسامنا المنتضى المرتضى لإمضاء عزمنا وتصميمنا ، الأمير الأعلى ، الموقر الأسمى ، الميمون النقيبة المحمود السجيَّة ، الأحب النية ، الأعز علينا ، المتيم بمساعيه الصالحة كل ما نَوَيْنَا ، أدام الله تعالى تظفيره وإسعاده ! وأمضى فى الحق قَوَاضبه وصِعَاده [1] ! ووالى معونته وإنجاده ! وتولى توفيقه وإرشاده !

سلام طيب كريم زاك يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

(٢) كذا ، وسقط خبر « كان » من الكلام ، ولعل أصل العبارة « كان يحض الناس عليها ، ويحثهم على العمل بمقتضاها شيخ شيوخنا — إلخ

(١) القواضب : السيوف القاطعة ، واحدها قاضب ، والصعاد : جمع صعدة وهو الرمح

أما بعد ، فالحمد لله الذى أوضح للحق سبيلا ، ومد ظل رحمته على الخلق ظليلا ، وجعل العدل بحفظ نظام الإسلام كفيلا ، ونزل الأحكام على قدر المصالح تنزيلا ، ونَصَب معالم الهدى عَلَمًا لمن اقتدى ودليلا ، وألهم إلى ما يرضاه عملا ومعتقدا وقيلا ، وصلواته الطيبة ، وبركاته الصَّيِّبة[1] ، على سيد العالمين ، وخاتم النبيين ، محمد رسوله الذى فضله بخلته واصطفائه تفضيلا ، وبعثه بالحنيفية السمحة فبينها تبيينا وفصلها تفصيلا ، ورتبها كما أمره ربه إباحة ونَدْبا وتحريما وتحليلا ، حتى ثبتت سنة الله فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، وعلى آله وصحبه الذين فهموا ما جاءهم به عليه الصلاة والسلام نصا وتأويلا ، وأبقوا من سيرتهم الفاضلة ، وأحكامهم العادلة ، أساسا للمتقين جليلا ، ومآثر للمقتفين تَسْبَح الأفهام والأقلام فى بحارها سَبْحاً طويلا ، وأمضوا عزائمهم تنسخ بالحق باطلا وبالهدى تضليلا ، ورضوان الله تعالى يتوالى على خليفته ، وحامل أمانته إلى خليقته ، الذى كمل الله تعالى له موجبات الإمامة تكميلا ، وأناله من هدى النبوّة أفضل ما كان للهداة منيلا ، سيدِنا ومولانا الإمام المنتصر بالله تعالى أبى جعفر المنصور أمير المؤمنين المتبوّئ من ساحة الشرف والجلالة محلا شريفا جليلا ، والمنتخب من بحبوحة بيت الرسالة الذى وجد الوحى عنده مُعَرَّسا[2] ومقيلا ، والدعاء له من لدن العزيز القوى بنصر يأتى لإمداده بعدد الملائكة قبيلا ، وفتح يولى الآمال من الظهور بغية وتأميلا .

كتبناه إليكم كتب الله تعالى لكم عزما لا يزال عَضْبه صقيلا ، وعزا يروق بإظهار الحق غرّة وتحجيلا ، ورأيا لقداح السداد والنجاح مُجِيلا ، وسعدا يوصل إلى الإسعاد برضاه توصيلا ، من حضرتنا بمرسية حرسها الله تعالى ! ونحن

---

(١) صاب المطر يصوب : نزل متتابعا

(٢) المعرس : مكان النزول ليلا ، والمقيل : المكان الذى تستريح فيه وقت القائلة .

نحمد إليكم الله الذى لا إلهَ إلا هو على فضله الذى أنا له جسيما جزيلا ، ونتوكل عليه ، توكل من يلجأ فى كل أحواله إليه ، وكفى بالله وكيلا ، ونستعينه على أمور المسلمين التى حملنا منها أمانة كبيرة وعِبْئًا ثقيلا ، ونقف بالضراعة بين يديه ، طَلَبا لما يخلصنا لديه ، عساه أن يجعل لرغبتنا قَبُولا وتوسيلا ، ونعوذ به من كل عمل لا يكون حاصله إلا ما آلا و بيلا ، وعَرَضا من الدنيا قريبا ومتاعا قليلا ، إنا ـ واللهُ المرشدُ ـ لنعلم أن هذا الأمر الذى قلدنا الله تعالى منه ما قَلَّده ، وأسنده إلينا من أمور خلقه فيما أسنده ، قد ألزمنا من حقوقه الواجبة ، وفروضه الراتبة ، ما لا يستطاع إلا بمعونته أداؤه ، ولا يستتبُّ إلا بتوفيق الله تعالى انتهاؤه وابتداؤه ، فهو المشكور عز وجهه على نعمته ، والمستعان على ما يدنى من رضاه و يقرب من رحمته ، وأن كل امرئ بشأنه مشغول ، وعن خُوَيِّصَّة نفسه مسئول ، ونحن بما استرعانا الله تعالى مشغولون ، وعن الكبير والصغير مسئولون ، وعلينا النصيحة لله فى عباده و بلاده ، والنظر لهم بمنتهى جدّ المجتهد واجتهاده ، ولا قوّة إلا بالله عليه توكلنا ، و به إليه توسلنا ، فعيننا تسهر لتنام الرعية عيونهم ، وتحركنا يتصل ليحصل لهم سكونهم ، وأملنا أن لا نقر فيهم بحول الله تعالى ظلما ولا هضما ، ولا نخرم لهم فى إقامة حقوق الله ما استطعنا نظما ، وأنى ينصرف عن هذا القصد بعمله ونيته ، من يعرف أن الله جل جلاله لا يجوّز ظلم ظالم فى بريته ، ولعل الله الذى حملنا ما حملنا ، واستعملنا بمشيئته فيما استعملنا ، أن يَهَبَ لنا توفيقه ، و يسلك بنا إلى هداه طريقه .

ألا و إن مَنْ وَلَّيناه أمرا من أمور المسلمين فهو مطلوب به ، وموقوف عليه عند ربه ، فلينظر امرؤ فى جزئية ما نيط به[1] وكليته ، وليراقب فيما لديه عالم خفيته وجليته ، ألا وكلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، فمن حفظ الله حفظه الله

---

(١) نيط به : علق به

فى نفسه وماله ، وقضى له بالسعادة فى حاله ومآله ، وأنجاه يوم عرضه وسؤاله ، والخلق عيال الله فأحبهم إليه أحبهم لعياله ، العدلَ العدلَ فبه قامت السموات والأرض ، و بإقامته أقيمت السنة والفرض ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، وأقوى ما تشتد به أركان الدين وتقوى ، أمَا إن الحق فى أن لا تتعدى أساليبَ الشرع وقوانينه ، وأن لا يتجاوز فى قضية من القضايا إفصاحه وتبيينه ، وأن يجازى بحكمه المسيئون والمحسنون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ، ألا و إنا قد عثرنا لبعض قوّاد الجهادية وحكامها ، على أمور أنكرنا معرفاتها واستقبحنا مستوصفاتها ، و برئنا إلى الله تعالى من متغيراتها ومحرفاتها ، وعلمنا أن منهم أقواما لا يتورَّعُون عن الأموال والدماء ، ولا يحذرون فيما يأتون ويَذَرون جبار الأرض والسماء ، فأزلنا بحمد الله ذلك ونحوه ، وعجلنا ابتغاء رضاه محقه ومَحْوَه ، وانبعثنا لنظر جديد ، واستئناف لإصلاح أحوال وتسديد ، وتغليظ فى المحرمات وتشديد ، واستقبلنا ما يوسع الأمور ربطا وضَبْطا ، ويفيض على الأمة بعون الله تعالى عدلا وقسطا ، وتعين علينا فيما رأيناه إنفاذ الخطاب إلى كل من استكفيناه بالبلاد ، ووليناه النظر عنا فى مصالح العباد ، بما يكون إن شاء الله تعالى الاعتماد على فُصُوله ، والاستناد إلى محصوله ، والاجتهاد بحسب فروعه وأصوله .

فأوّل ما نوصيكم به وأنفسَنا تقوى الله فى كل حال ، ومراقبة أوامره ونواهيه عند كل انتحاء[1] وانتحال ، والوقوف عند حدود الله التى حدها ، وأرصدها بإزاء موجباته وعدها ، فإنه لا يتعداها إلا من رام تَعَفِّىَ رسمها وطَمْسَه ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ، والمحافظة على ما به تحفظ الشريعة ، والملاحظة لما يضم الرعايا من حوزة أولى الحياطة المنيعة ، والمُثابرة على ما تكف به أكف الاعتداء ،

(١) انتحاه : قصده ، والانتحاء : مصدره ومعناه القصد

والمبادرة إلى الاهتمام بالسلف الصالح والاقتداء ، والطريقة المثلى ، وآيات الله التى تُتْلَى ، وهداياته التى لأبصار البصائر تجلى ، وخَفْضَ الجناح ، والأخذ بالرفق والإنجاح ، وتوخى الحق الذى هو أوضح انبلاجا من فلق الإصباح ، والحلم والأناة ، والمذاهب المستحسنات ، والأمور البينات

والله الله فى الدماء فإنها أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فيها ، ولا سبيل لاستحلالها إلا بعد ثلاث : كفر بعد إيمان ، أوزنى بعد إحصان ، أو قتل المسلم لأخيه ، وقد قال مالك الأمر والخلق (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) فتثبتوا فيها فأمرها جليل ، وتحريمُها لا يدخله تحليل ، وإياكم أن تجعلوا فيها لأحد من ولاة الجهاد حكما أو نظرا ، أو تَكِلُوا إليهم منها مستكثرا أو مستنزرا ، فإنه إذا استبدّ بالقضاء فيها كل وال ذهبت هَدَرا ، واستباحها الجاهل والجائر أشَرا وبَطَرا ، وربما كان فيهم من فى طباعه سَبُعية فيقتل بها الناس قتلا ذريعا ، ويستسهل من ذلك بجوره صعبا ويرتكب بجهله شنيعا ، ويذهل عن قول الله تعالى (من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومَنْ أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) فأنَّى تحل المسامحة فى هذا الشان ، أو يحكم به كل إنسان فى نفوس أهل الإيمان ؟ معاذ الله أن يكون هذا ونحن نعرفه ، أو ينصرف إليه نظر نافلا نزيله ولا نصرفه ، فسدّوا هذا الباب سَدًّا ، وصدوا عنه مَنْ أمه صدا ، وكفوا كل ما كان من الأيدى للدماء ممتدا ، ومَنْ وجب عليه القتل شرعا وتعين ، واتضح موجب القصاص فيه وتبين ، فليس لكم إلا القاعدة الكبرى ، تتحرَّى فيها الأحكام عليه بمحضر القاضى والشهود كما يجب أن يتحرَّى[1] ، بعد أن يتثبت فى نازلته و يستحل ويُسْتَبْرا[2] ، فلا تحل القضية

---

(١) تحرى الأمر ، وتوخاه : قصده

(٢) يستبرا : أصله يستبرأ — بالهمز — فسهل الهمز بقلبها ألفا

إلا على بصيرة، وحقيقة مستنيرة، فقد يلوح فى اليوم ما خفى بالأمس، ويتعذر بعد الإفادة إعادة النفس

ومِلاَكُ الأمر فى انتقاء من يتصرف، وتولية من لا يضيم ولا يتحيف، فتخيروا للأنظار والجهات، مَنْ ترتَضَى سيرته من الولاة، ولا تستعملوا أهل الفظاظة والجهالة، والمصرين على الراحة والبطالة، فإنهم إذا استرعوا أضاعوا، وإذا دعاهم شيطان الهوى أطاعوا، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا، وميلوا باختياركم إلى المتّسمين[1] بالصلاح، المرتسمين فى ديوان الكفاة النصاح، وأطيلوا مَعَ ذلك التنقير عنهم والتنقيب، ولا تغفلوا عن التعهد بالبحث البعيد منهم والقريب، ومَنْ عثرتم له على منكر من استباحة دم أو مال، وإضاعة للحقوق وإهمال، فخذوا على يده، وجازوه بفاسد مَقْصِده، وأنزلوه بالمنزل الأقصى، وعاملوه معاملة من أُوصِيَ بتقوى الله فما استوصى.

واصرفوا نظركم إلى القُضَاة فإن مدار الشريعة إنما هو على ما يستند إليهم، ويقصر من الأحكام عليهم، فإذا كانوا من أهل العلم والديانة، وذوى النزاهة والصيانة، أمسكهم الورع بزمامه، وبلغ العهد بهم غاية تمامه، وإذا كانوا بضد هذا قبلوا الرشوة، وأوطئوا العشوة[2]، وأطالوا النشوة، وأحلوا من الدماء والفروج محرمها، وطمسوا من السنة بالميل والمين معلمها، وحكموا بالهوادة والهوى، وطووا من الحق ما انتشر ونشروا من الباطل، ما انطوى فانتقوهم فهم أوْلى بالانتقاء[3]، وشَرُّ جاسِرِهم وجاهلهم أحق بالاتقاء، ولا تقدموهم ولا غيرهم بالشفاعات والوسائل، ولكن قدموهم بتورعهم فى القضايا وعلمهم بالمسائل.

ومما نؤكد عليهم فيه أمر الشهود؛ فإن شهادة الزور هى الداء العُضَال، والظلمة التى يتستر بها الظلمة والضلال، والحجة الداحضة التى بها يحلل الحرام ويحرم

---

(١) المتسمين بالصلاح : أى الذين جعلوا الصلاح علامة لهم

(٢) فى ب «وأوطئوا العشرة» تحريف (٣) الانتقاء : الاختيار

الحلال ، وقد كثر فى هذا الزمان أهل الشهادة الفاسدة ، ونفقت بهم سوق الأباطيل الكاسدة ، فتقدموا إلى القضاة وفقهم الله تعالى أن لايقبلوا إلا مشهورا بزكاء وعدل ، مُوَفى حظه من رجاحة وعقل ، ومن كان مغموزا عليه فى أحواله ، منبوزا بالاسترابة فى شهادته وأقواله ، فلتُرَدَّ شهادته على أدراجها ، وليبطل مايكون من حِجاجها .

وأكدوا عليهم عند تعارض العقود فى الترجيح ، والنظر فى التعديل والتجريح ، لتجرى أمور المسلمين على سنن الحق المستبين ، وتبدو المعدلة مشرقة الغرة مؤتلقة الجبين .

ومما نأمركم به أن تبحثوا عن العمال ، ولا تولُّوا منهم إلا الحسن الطريقة المرضيّ الأعمال ، ومن لم يكن منهم جاريا على القوانين المرعية ، ناصحاً لبيت المال رفيقاً بالرعية ، وكان فى أمانته حائداً عن الجادة[1] السوية ، قائلا كما قال قبله ابن اللتبية ، فليُعَوَّض منه غيره ، وليُرْفع عن الجانبين ضيره ، فإنه ما كانت الخيانة قط فى شىء إلا أهلكته ، ولا وضعت فى إنسان طبيعة سوء إلا ملكته

وإنما هو مال الله تعالى الذى يرزق منه الحماة ، وبه تسد الثغور[2] المهمات ، فينبغى أن يختار له محتاط فى اقتضائه وقبضه ، حافظ لدينه ومروءته فى كله وبعضه ، فخذوا فى انتقاء هذه الأصناف المسمين ، واطلبوا بهذه الأوصاف المصرفين والموالين ، واجمعوا من الاجتهاد الحميد والقصد والاعتماد الأثر والعين ، وأنصفوا منهم إن تظلم من أحدهم متظلم ، واشفوا شكوى كل متشك وألم كل متألم ، واعلموا أن حرمة الأموال بحرمة الدماء لاحقة ، وأن إحدى القضيتين للأخرى مساوية ولاحقة ، ومن أكبر ماورد فى ذلك وأعظمه ، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حرمة مال المسلم كحرمة دمه » .

---

(١) الجادة : الطريقة ، والسوية : المستقيمة

(٢) الثغور : جمع ثغر ، وهو كل موضع تخشى غارة العدو من جهته

وليكن الناس فى الحق سواء لا محاباة ولا مفاضلة ، ولا محاورة فى تغليب قوى على ضعيف ولا محاولة ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وإن دلائل الشرع بمراد الله سبحانه وتعالى لشاهدة ، ولا يؤخذن أحد بجريرة[1] أحد ، ولا يجن ولد على والد ولا والد على ولد ، فكتاب الله تعالى أولى بالاتباع وأحرى ، لقول الله عز وجل (ولا تزر وازرة وزر أخرى) اللهم إلا من آوى محدثا فإنه مأخوذ بما أجرم ، وملعون على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارفعوا - أعاننا الله تعالى وإياكم ! - للعدل بكل علم منارا ، واتخذوا الرفق بالإمامة شعارا ، فقد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه ، ولا ينزع من شىء إلا شانه[2] » وقد نص الكتاب والسنة على مواضع اللين والاشتداد، ونبها على منازع المقاربة والسَّدَاد ، فلا غضب لأمر إلا بما غضب له الله عز وجل ، ولا رِضًا به إلا إذا استقر فيه رضا الله تعالى وجل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الذى يجلد فوق ما أمر الله تعالى به يقول له الله عز وجل : عبدى ، لم جلدت فوق ما أمرتك به ؟ فيقول : رب غضبت لغضبك ، فيقول : أكان ينبغى لغضبك أن يكون أشد من غضبى ؟ ثم يؤتى بالمقصر فيقول : عبدى ، لم قصرت عما أمرتك به ؟ فيقول : رب رحمته ، فيقول : أكان ينبغى لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتى ؟ » قال : فيأمر فيهما بشىء قد ذكره لم يحفظه الراوى ، إلا أنه قال : صيروهما إلى النار، أعاذنا الله تعالى منها بفضله ورحمته ! فليوقف بالقضايا حيث وقف بها الشرع ، ويحفظ الأصل من هذه الوصايا والفرع ، واحتاطوا فى الرعية فإنه رأس المال ، والأمانة التى لا ينبغى أن يكون فيها شىء من الإهمال ، ومع توفيقكم لما سطرناه ، فى هذا الكتاب وشرحناه ، من أبواب الخير المسعد فى المآب والمآل ، فاستوفوا ضروب

---

(١) الجريرة : الذنب والخطيئة

(٢) شانه : عابه ونقصه

الصالحات واستقصوها ، واعملوا أعمال البر وخصوها ، واذكروا آلاء الله وقصوها ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها ، واشتدوا فى تغيير المنكرات كلها ، واحسموا أدواءها من أصلها ، ورغبوا الناس فى الطاعات واندبوهم إليها ، ووضحوا لهم أعمالهم وحرضوهم عليها ، وانتهوا فى كل سعى ناجح ، ورأى راجح ، إلى أفضل ما ينتهى إليه المنتصحون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون .

وخذوا بعمارة مساجد الله التى هى بيوت الأتقياء ، ومحلّ مناجاة ذى العظمة والكبرياء ، إنما يعمر مساجد الله مَنْ آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين

ومُرُوهم بأن يعلموا أولادهم كتاب الله تعالى فإن تعليمه للصغار يطفىء غضبَ الرَّب ونعم الشفيع هو يوم القيامة ، والمتوسل فيما يتوج القارىء وأباه تاجَ الكرامة ، وأرشدوا للخير ما استطعتم ، واتبعوا سبيله فهو أشرف ما اتبعتم ، والله ولى التوفيق والإرشاد ، والملجىء بالهداية إلى طريق الفوز والسداد

وهذه أوامرنا إليكم امتثلنا أمر الله تعالى فامتثلوها ، وأحضروها فى خواطركم مع كل لحظة ومثلوها ، وإنا لما يكون منكم فيها لمستمعون ، ولآثاركم فيما يوفيها لمتطلعون ، وقد خرجنا لكم عن عهدة لزمتنا فى التذكير ، ونهجنا لكم منها التقديم والتأخير ، والله تعالى يعلم أنا إنما قصدنا ما نرجو الخلاص به يوم الحساب ، وأردنا رضاه فيما أوردناه من هذا الحظر والإيجاب [1] ، لنرعى حقه سبحانه فيمن استرعانا ، ونسعى فى صلاح الأمة عسى الله تعالى أن ينجح فيه مسعانا ، اللهم عَبْدُك يضرع إليك ، ويخضع بين يديك ، فى أن تلهمه إلى ما يجمل قصدا ومعتمدا ، وتهب له من لدنك رحمة وتهيىء

(١) الحظر : المنع ، وأراد به التحريم ، وقابله بالإيجاب

له من أمره رشدا ، اللهم منك المعونة على ما وليت ، ولك الشكر على ما أوليت ، فالمهديُّ من هَدَيْت ، والخير كله فيما قضيت ، اللهم من أعاننا على مرضاتك فكن له مُعينا ، وأورده من توفيقك عذبا مَعينا ، إنك الولى النصير ، العلى الكبير .

وإذا وصلكم كتابنا هذا فقصُّوه على الناس مفصلا ومجملا ، وأظهروا مضمونه لهم قولا وعملا ، واسلكوا بهم من مراشدهِ سننا مستجملا ، إن شاء الله تعالى ، والله سبحانه يديم علاكم ، ويصل إعادتكم فى كل مجد وإبداكم ، ويجزل حظوظكم من السعادة وأنصباكم[1] ، بمنه وكرمه لارب سواه ، والسلام الأكرم الأزكى يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكتب فى الرابع والعشرين لجمادى الأولى سنة أربع وثلاثين وستمائة ، انتهى

وهذا ابن الجيان له الباع المديد فى النظم والنثر ، ومن شعره رحمه الله تعالى فى مرضه الذى توفى فيه ، وهو آخر كلامه :

من شعر ابن الجيان

جهل الطبيب شكايتى وشكايتى ... إن الطبيب هو الذى هو ممرضى
فإن ارتضى برئى تدارك فضله ... وإن ارتضى سقمى رضيت بما رضى
مالى اعتراض فى الذى يقضى به ... لكن لرحمته جعلت تعرضى

ومن نظمه رحمه الله تعالى ملغزا فى بطيخة :

وحُبْلَى بأبناء لها قد تمخضوا ... بأحشائها من بعد ما ولدوها
كسوها غداة الطلق بُرْدًا معصفرا ... على يَقَق أزرارها عقدوها
ولما رأوها قد تكامل حسنها ... وأبدر منها طالع حَسَدُوها
فقدُّوا قميص البدر بالبرق واجتلوا ... أهِلّتها من بعد ما فقدوها
ولو أنصفوا ما أنصفوا بدرتمها ... ولا أعدموا الحسناء إذ وجدوها

---

(١) أنصباكم : أصله أنصباءكم ، فحذف الهمز حين سهلها فانقلبت ألفا ، تخلصا من اجتماع الساكنين ، والأنصباء : الحظوظ ، واحدها نصيب

وقال أيضاً ملغزا فى الميل ، وهو المِرْوَد :

مسترخص السوم غال عال له أى حظوه
ما جاوز الشبر قدرا لـكنه ألف خطوه

وهذا استخدام مابه باس ، لأنه اكتسى من الحسن خير لباس ، وكم لهـذا الـكاتب من محاسن ، ماؤها غير آسن .

من ترجمة ابن الجيـان عن « الإحاطة »

وقد عرّف لسان الدين فى الإحاطة بابن الجيان ، وأطال فى ترجمته ، ونشير إلى بعض ذلك باختصار .

وهو محمد بن محمد بن أحمد ، الأنصارى ، من أهل مرسية ، أبو عبد الله ، ابن الجيان .

كان محدثا راوية ضابطا ، كاتبا بليغا شاعرا بارعا ، رائق الخط ، دينا فاضلا ، خيرا ذكيا ، استكتبه بعض أمراء الأندلس فكان يتبرم من ذلك ويقلق منه ، ثم خلصه الله تعالى منه ، وكان من أعاجيب الزمان فى إفراط القَمَاءة[1] ، حتى يظن رائيه الذى استدبره أنه طفل ابن ثمانية أعوام أو نحوها ، متناسب الخلقة ، لطيف الشمائل ، وقورا ، خرج من بلده حين تمكن العدوّ من قبضته سنة ٦٤٠ ، فاستقر بأريولة إلى أن دعاه إلى سبتة الرئيسُ أبو على بن خلاص ، فوفد عليه ، فأجل وفادته ، وأجزل إفادته ، وحَظِىَ عنده حُظْوة تامة ، ثم توجه إلى إفريقية ، فاستقر ببجاية ، وكانت بينه وبين كتاب عصره مكاتبات ظهرت فيها براعته ، وروى ببلده وغيره عن أبى بكر بن خطاب وأبى الحسن سهل بن مالك وابن قطرال وأبى الربيع بن سالم وأبى عيسى بن أبى السداد وأبى على الشلوبين وغيرهم ، وكان له فى الزهد ومدح النبى صلى الله عليه وسلم بدائع ، ونظم فى المواعظ للمذكرين

---

(١) القماءة : القصر ، وهو مما يذمه العرب ، قال الشاعر :

تبين لى أن القماءة ذلة وأن أعزاء الرجال طوالها

كثيراً ، انتهى مختصرا ، وإلا فترجمته فى الإحاطة متسعة ، رحمه الله تعالى ! .

ولما كتب له أبو المطرف بن عميرة برسالته الشهيرة التى أوّلها « تحييك الأقلامُ تحية كسرى ، وتقف دون مَدَاك حَسْرَى » وهى طويلة ، أجابه بما نصه : ما هذه التحية الكسروية ؟ وما هذا الرأى وهذه الروية ؟ أتنكيت من الأقلام ؟ أو تبكيت من الأعلام ؟ أوكلا الأمرين توجَّهَ القصدُ إليه ، وهو الحق مصدقا لما بين يديه ؟ وإلا فعهدى بالقلم يتسامى عن عكسه ، ويترامى للغاية البعيدة بنفسه ، فمتى لانت أنابيبُه للعاجم ، ودانت أعاريبه للأعاجم ؟ واعَجبَا لقد استنوق الجمل[1] ، واختلف القول والعمل ، لأمرٍ ماجَدَعَ أنفه قصير[2] ، وارتد على عقبِهِ الأعمى أبو بصير ، أمْسِ أستسقى من سَحَابِهِ فلا يسقينى ، وأستشفى بأسمائه فلا يشفينى ، واليوم يحلنى محل أنوشروان ، ويشكو منى شكوى الزيدية من بنى مروان ، ويزعم أنى أبطلت سحره ببئر ذروان ، ويخفى فى نفسه ما الله مبديه ، ويستجدى بالأشر ما عند مستجديه ، فمن أين جاءت هذه الطريقة المتبعة ، والشريعة المبتدعة ؟ أيظن أن مُعَمّاه لا ينفك ، وأنه لا ينجلى هذا الشك ؟ هل ذلك منه إلا إمحاض التِّيه ، وإحماض تفَنّيِه ، ونشوة من الهزل ، ونخوة من ذى ولاية أمِنَ من العَزْل ؟ تالله لولا محله من القسم ، وفضله فى تعليم النَّسَم ، لأسلمته ما ينقطع به صَلَفه ، وأودعته ما ينصدع به صَدَفه ، وأشرت بطرف المشرفى ومجده ، وأشرت إلى تعاليه عن اللعب بجده ، ولكن هو القلم الأوّل ، فقوله على أحسن الوجوه يُتَأَوّل ، ومعدود فى تهذيبه ، كل ما لسانه يهذى به ، وما أنسانى إلا الشيطان أياديه أن أذكرها ، وإنما أقول * ليت التحية كانت لى فاشكرها[3] * ولا عتب إلا على الحاء ، المبرحة بالبُرَحاء ، فهى التى أقامت قيامتى فى الأندية ،

---

(١) استنوق الجمل : كانت له بعض صفات الناقة ، والمراد تغيرت الطباع

(٢) مثل قيل فى قصة قصير واحتياله على الزباء ملكة الجزيرة حتى أخذ منها بالثأر

(٣) هذا صدر بيت ، وعجزه قوله * مكان « ياجمل » حييت يارجل *

وقامت على قيام المتعدية ، يتظلم وهو عين الظالم ، ويلين القول وتحته سم الأراقم [1]
ولعمر اليراعة وما رضعت ، والبراعة وما صنعت ، ما خامرنى هواها ، ولا كلفت
بها دون سواها ، ولقد عَرَضَتْ نفسها على مراراً ، فأعرضت عنها ازوراراً ، ودفعتها
عنى بكل وَجْه ، تارة بلطفٍ وأخرى بنَجْه [2] ، وخفت منها السآمة ، وقلت : انكحى
أسامه ، فرضيت منى بأبى جهل وسوء ملكته ، وابن أبى سفيان وصَعْلكته ،
وكانت أسرع من أم خارجة للخِطْبة ، وأسمح من سجَاح فى استنجاح تلك الخطبة ،
ولقد كنت أخاف من انتقال الطباع فى عشرتها ، وأستثقال الاجتماع من عترتها ،
وأرى من الغبن والسفاه ، أخذها وترك بنات الأفواه والشفاه ، إذ هى أيسر مؤنة ،
وأكبر معونة ، فغلطنى فيها أن كانت بمنزل تتوارى صونا عن الشمس ، ومن
نسوة خفرات لا ينطقن إلا بالهمس ، ووجدتها أطوع من البنان للكف ، والعنان
للكف ، والمعنى للاسم ، والمغنى للرسم ، والظل للشخص ، والمستدل للنص ، فما
عرفت منها إلا خيراً أرضاه ، وحسبتها من الحافظات للغيب بما حفظ الله ، فعجبت
لها الآن كيف زلت نعلها ، ونشزت فنشرت ما استكتمها بعلها ، واضطربت فى
رأيها اضطراب المختار أبى عُبَيْد ، وضربت فى الأرض تسعى على بكل مكر
وكيد ، وزعمت أن الجيم خدعها ، والآن أخْدَعَهَا ، وأكبرها أن سيبلغ بخبرها
الخابور ، وأحضرها لصاحبها كما أحضر بين يدى قيصر سابور ، فقد جاءت
إفكا وزورا ، وكثرت من أمرها منزورا ، وكانت كالقوس أرنَّتْ وقد أصمت
القنيص ، والمُرَاوِدة قالت (ما جزاء) وهى التى قَدَّتِ القميص ، وربما يظن
بها الصدق وظن الغيب ترجيم ، ويقال : لقد خفضت الحاء بالمجاورة لهذا الجيم ،
وتنتصر لها التى خيمت بين النرجسة والريحانة ، وختمت السورة باسم جعلت ثانيه

---

(١) الأراقم : جمع أرقم ، وهى الحية .

(٢) نجهه ينجهه نجها — من باب فتح — رده أقبح الرد ، واستقبله بما يكره .

أكرم نبى على الله سبحانه ، فإن امتعضت لهذه التكلمة ، تلك التى سبقت بكلمتها بشارة الكلمة ، فأنا ألود[1] بعدلها ، وأعوذ بفضلها ، وأسألها أن تقضى قضاء مثلها ، وتعمل بمقتضى (فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها) على أن هذه التى قد أبدت مَيْنها[2] ، ونسيت الفضل بينى و بينها ، إن قال الحكمان : منها كان النشوز ، عادت حَرورية العجوز ، وقالت : التحكيم فى دين الله تعالى لا يجوز ، فعند ذلك يحصحص[3] الحق ، و يعلم من الأولى بالحكم والأحق ، و يصيبها ما أصاب أروى ، من دعوة سعدية حين الدعوى ، و يا و يحها أرادت أن تجنى على فجنت لى ، وأناخت لى مركب السعادة وما ابتغت إلا ختلى ، فأتى شرها بالخير ، وجاء النفع من طريق ذلك الضير ، أتراها علمت بمايثيره اعوجاجها ، و ينجلى عنه عجاجها ، فقد أفادت عظيم الفوائد ، ونظيم الفرائد ، ونفس الفخر ، ونفيس الدر ، وهى لا تشكر أن كانت من الأسباب ، ولا تذكر إلا يوم الملاحاة والسباب ، و إنما يستوجب الشكر جسيما ، والثناء الذى يتضوع نسيما ، الذى شرف إذ أهدى أشرف السحاآت ، وعرف بما كان من انتحاء تلك الحاء المذمومة فى الحاآت ، فإنه و إن ألم بالفكاهة ، بما أمل من البداهة ، وسمى باسم السابق السكيت ، وكان من أمر مداعبته كيت وكيت ، وتلاعب فى الصفات تلاعب الصفاح والصَّبا بالبانة ، والصَّبا بالعاشق ذى اللُّبانة ، فقد أغرب بفنونه ، وأغرى القلوب بفتونه ، ونفث بخفية الأطراف ، وعبث من الكلام المشقّق بالأطراف ، وعلم كيف يمحض البيان ، و يخلص العقيان ، فمن الحق [أن] أشكره على أياديه البيض ، و إن أخذ لفظة من معناه فى طرف النقيض ، تالله أيها الإمام الأكبر ، والغمام المستمطر ، والحبر الذى يشفى سائله ، والبحر الذى لا يرى ساحله ، ما أنا المراد بهذا المسلك ، ومن أين حصل ذلك النور لهذا

(١) ألوذ بعدلها : ألجأ إليه وأعتصم به ، ومثله أعوذ بفضلها

(٢) أبدت : أظهرت ، والمين ـ بالفتح ـ الكذب

(٣) حصحص الحق : بان بعد اكتتامه ، يشير إلى مذهب الخوارج الذين كفروا عليا بالتحكيم بعد أن كانوا هم الذين ألجؤه إليه .

الحلك[١] ؟ وصح أن يقاس بين الحداد والملك ، إنه لتواضع الأعزة ، وما يكون عند الكرام من الهزة ، وتحريض الشيخ للتلميذ ، وترخيص فى إجازة الوضوء بالنبيذ ، لو حضر الذى قضى له بجانب الغربى أمر البلاغة ، وارتضى ماله فى هذه الصناعة ، من حسن السبك لحليها والصياغة ، وأطاعته فيما أطلعته طاعة القوافى الحسان ، وأتبعته فيما جمعته لكن بغير إحسان ، لأذعن كما أذعنت ، وظعن عن محل الإجادة كما ظعنت ، وأنّى يضاهى الفرات بالنغبة[٢] ، ويباهى بالفلوس من أوتى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة ، وأى حظ للكلالة بالنشب ، وقد اتصل للورثة عمود النسب ، هيهات والله المطلب ، وشتان الدر والمَخْشَلَب ، وقد سيم الغلب ، ورجع إلى قيادة السلب ، وإن كنا ممن تقدم لشدة الظمأ إلى المنهل ، وكمن أقدم إلى عين تبوك بعد النهى للعلل والنهل ، فقد ظهرت بعد ذلك المعجزة عيانا ، وملأ ما هنالك جيانا ، وماتعرضنا بإساءة الأدب واللوم ، ولكن علمنا أن آخر الشُّرْب ساقى القوم ، وإن أسهبنا فما نلنا رتبة ذلك الإيجاز ، وإن أعرقنا فهوانا فى الحجاز ، فلكم قصيرات الحجال ، ولنا قصيرات الخطا فى هذا المجال ، وإكثارنا فى قلة ، وجارنا من الفقر فى فقر وذلة ، ومَنْ لنا بواحدة يشرق ضياؤها ، ويخفى النجوم خجلها منها وحياؤها ؟ إن لم تطل فلأنها للفروع كالأصل ، وفى الجموع كليلة الوَصْل ، فلوسطع نورها الزاهر ، ونورها الذى تطيب منه الأنوار الأزاهر ، لسجدت النيران ليوسف ذلك الجمال ، ووجدت نفحات ريّاها فى أعطاف الجنوب والشمال ، وأسرعت نحوها النفوس إسراح الحجيج يوم النَّفْر ، وسار خبرها وسرى فصار حديث المقيمين والسَّفْر ، وماضرّ تلك الساحرة فى تجليها ، الساحرة بتجنيها ، أن كانت بمنزلة ربيبتها بل تِرْبها ، هذه التى سبقتنى لماسقتنى بسَيْبها ، ووجدت ريحها

---

(١) الحلك — بالتحريك — الظلام الشديد .

(٢) أراد بالفرات النهر الكبير ، والنغبة — بالضم وبالفتح — الجرعة من الماء .

لما فَصَلَتْ من مصر عيرها ، وحين وصلت لم يدلني على ساريها إلا عَبِيرُها ، وكم رامت أن تستتر عني بليل حبرها في هذه المغاني ، فأغراني بهاؤها وكل مغرم مغرى ببياض صبح الألفاظ والمعاني ، وهل كان ينفعها ، تلفحها بمرطها وتلفعها ؟ إذ نادتها المودة ، قد عرفناك ياسَوْدَة ، فأقبلت على شم نشرها وعرفها ، ولَثْم سطرها وحرفها ، وقريتها الثناء الحافل ، وقرأتها فزينت بها المحافل ، ورمت أمر الجواب ، فعزني في الخطاب ، لكن رسمت هذه الرقعة التي هي لديكم بعجزي واشية ، وإليكم مني على استحياء ماشية ، وإن رق وجهها فما رقت لها حاشية ، فمنوا بقبولها على علاتها ، وانقعوا بماء سماحتكم حر غُلَلها ، فإنها وافدة من استقر قلبه عندكم وثَوَى ، وأقر بأنه يلقط في هذه الصناعة ما يلقى للمساكين من النوى ، بقيتم سيدي للفضل والإغضاء ، ودمتم غرة في جبين السمحة البيضاء ، واقتضيتم السعادة المتصلة مدة الاقتضاء ، بيمن الله سبحانه ، انتهى .

ومن نثر ابن الجيان رحمه الله تعالى في شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم : لمحمد خير الأنام ، ولَبِنَةِ التمام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، خيرت المفاخر ، يتضاءل[1] لعظمتها المُفَاخر ، والمعالي ، يتصاغر لعزتها المعالي ، والمكارم ، يعجز عن مساجلتها المكارم ، والمناقب[2] لا تضاهي سناها النجوم الثواقب ، والمحامد ، لا يبلغ مداها الحامد ، والمَمَاجد ، لا يتعاطى رتبهن المُمَاجد ، والمَنَاسب ، سمت بجلالهن المناصب ، والعناصر ، طَيَّبَها الشرف المتناصر ، والفضائل ، تفجرت في أرجائهن الفواضل ، والشمائل ، تأرَّجَتْ بعرفهن الجنائب والشمائل ، فلا مجاري لسيد البشر ، الآتي بالنذارات والبُشَر ، فيما حباه الله تعالى به وخصه ، وقصه علينا من خلقه العظيم ونَصَّه ، عند رسم مدائحه يوجد المعوّل ،

---

(١) يتضاءل : يذل ويقصر ، ومثله « يتصاغر » في الفقرة بعدها .

(٢) المناقب : جمع منقبة ، وهي المحمدة ، وتضاهي : تشابه ، والسنا : الضوء .

وفى الثناء عليه يُسْتَقْصَرُ الكلام المطوّل ، هو الآخر فى ديوان الرسالة والأوّل ، وله فى الفضيلة ، وقبول الوسيلة ، النص الذى لا يؤوّل ، نوره صدع الظلم (١) ، وظهوره رفع لدين الله تعالى العلم ، بدأه الوحى وهو بحراء ، وأسرّ إليه سر تقدم الإسراء ، حتى إذا نصب له المعراج ، وتوقد فى منارة السماء ذاك السراج ، ناجى الحبيب حبيبه ، وجلا عن وجه الجلاء جلابيبه ، فتلقى ما تلقى ، لما علا وترقى ، ثم صدر (٢) عن حضرة القدس ، وجبين هدايته يَبْهَرُ سنا الشمس ، فشق لمعجزاته القمر ، ونهى بأمر ربه وأمر ، وأزال الجهالة ، وأزاح الضلالة ، وكسر منصوب الأوثان ، ونصر من قال واحد أحد على من قال ثالث ثلاثة أوثان ، وبنى الملة على قواعدها الخمس (٣) ، وأحيا دين إبراهيم وكان رُفَاتا بالرمس ، فرفلت الحنيفية البيضاء فى بردة الجدّة ، وبيضت بضياء غرتها أوجه الأيام المسودة ، وانتشرت الرحمة بنبيها ، ومطرت المرحمة من سحب حيها ، وافتنت الآيات البينات فى مساقها واتساقها ، وإشراقها فى آفاقها وائتلاقها ، وشهد الحجر والشجر ، والماء من بين البنان يتفجر ، والظبية والضب ، والجذع المشتاق الصب (٤) ، والشاة والبعير ، والليث إذا هدأ أوسمع منه الزئير ، والحى والجماد ، والقَصْعة والزاد ، بأن محمداً رسول الملك الحق ، والمبلغ عنه بواسطة الملك إلى الخلق ، وصاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، والقول المسموع ، والذكر المرفوع ، والصدر المشروح ، والفخر الباهر الوضوح ، والأنوار المتناقلة ، والآثار المتداولة ، والنبوّة التى عَهْدُها تقادم ، من قبل خلق آدم ، والمزية المعروف قدرها الجليل ، المقبول فيها ما دعا به الخليل ، والرتبة التى استشرف إليها الكليم ، حتى قال له (وكن من الشاكرين) ربّه الكريم ، والبشارة التى كان بها يصيح حين يسيح ، روح الله تعالى وكلمته عيسى

---

(١) صدع : شق ، والظلم : جمع ظلمة ، بالضم .

(٢) صدر : رجع . (٣) يشير إلى قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس — الحديث » . (٤) الصب — بفتح الصاد — ذو الصبابة ، وهى الشوق .

المسيح ، والشفاعة التي يرجوها الرسل والأمم ، ويقرع بها الباب المرتج المبهم ، فما لنبينا المختار ، من علوّ المقدار ، واصطفاء الجبار ، والاختصاص بالأثرة ، والاستخلاص للحضرة[١] ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ، وحسب هذا الوجود من الفضل الربانى والجود الذى لم يزل عظيما ، أن بعث الله تعالى فيه رسولا رؤفا بالمؤمنين رحيما ، عزيزاً على ربه الكريم كريما ، بسره سجدت الملائكة لآدم تعظيما ، وبذكره ينظم سلك المادح لحضرته العلية تنظيما ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما ، صلاة تتصل ما دار كأس محبته على محبيه فكان مزاجه تَسْنيما ، وسلاما ينزل دار دارين فيرسل ببضائعها إلى روضة الرضا نسيما .

ومن خطبه المرتّجلة قوله سامحه الله تعالى :

الحمد لله الذى حَمْدُه من نعمائه ، وشكره على آلائه من آلائه[٢] ، أحمده حَمْدَ عارف بحق سنائه ، واقف عند غاية العجز عن إحصاء ثنائه ، عاكف على رسم الإقرار بالافتقار إليه والاستغناء به فى كل آنائه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المتوحد بعظمته وكبريائه ، المتقدس عما يقوله الملحدون فى أسمائه .

وأصلى على سيد ولد آدم ونخبة أنبيائه[٣] ، محمد المفضل على العالمين باجتبائه واصطفائه ، المنتقى من صميم الصميم وصريح الصريح بجملة آبائه ، المرتضى الأمانة والمكانة بإبلاغ أمر الله وأدائه ، أرسله الله كافة للناس عموما لا يتخصص باستثنائه ، وفضّله بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة على أمثاله من المرسلين ونُظَرائه ، ورقّاه إلى الدرجات العلا وأنهاه إلى سِدْرَةِ المنتهى ليلة إسرائه ، وحَبَاه[٤]

---

(١) سقط خبر ما الموصولة فى قوله « فما لنبينا المختار »

(٢) الآلاء : النعم ، واحدها إلى — بكسر الهمزة مقصورا —

(٣) نخبة كل شىء : المختار منه . (٤) حباه : منحه وأعطاه .

بالخصائص التى لا يضاهى بها بهاء كماله وكمال بهائه ، وردَّاه رداء العصمة فكانت عناية الله تكنفه[١] عن يمينه وشماله وأمامه وورائه ، ووفاه من حظوظ البأس والندى ما شهد بمزيته على الليث[٢] والغيث فى إبائه وانهمائه ، صلى الله عليه وعلى آله مصابيح الهدى ونجوم سمائه ، صلاة تتصل ما سمح البدر بائتلاق أنواره والقطر باندفاق أنوائه ، وسلم تسليما .

ومن نثره رحمه الله تعالى رسالة كتب بها من الأندلس إلى سيد الكونين صلى الله عليه وسلم ، وهى :

السلام العميم الكريم ، والرحمة التى لا تبرح ولا تَرِيم[٣] ، والبركة التى أولها الصلاة وآخرها التسليم ، على حضرة الرسالة العامة الدعوة والنبوة ، المؤيدة بالعصمة والأيْدِ[٤] والقوة ، ومَثَابة البر والتقوى فهى لقلوب الطيبين صَفاً ومَرْوَة ، مقام سيد العالمين طُرا ، وهاديهم عبداً وحراً ، ومنقذهم من أشراك الهلاك وقد طالما ألفوا العيش ضنكا والدهر مُرًّا ، ومقر الأنوار المحمدية ، والبركات السرمدية ، أمتع الله تعالى الإسلام والمسلمين بحراسة أضوائها ، وكلاءة ظلالها العلية وأفيائها[٥] ، وأقر عين عبدها بلثم ثراها ، والانخراط فى سلك من يراها .

السلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، سلام من يمدّ إليك يد الغريق ، ويَرْجُو الإنقاذ ببركتك من نكد المَضِيق ، ويتقطع أسفا ويتنفس صعدا كلما ازدلف إليك فريق ، وعمرت نحوك طريق ، ولا يفتر صلاة عليك له لسان ولا يجف ريق ، كتبته يا رسولَ الله وقد رحل المجدون وأقمت ، واستقام المستعدون وما استقمت ، وبينى وبين لثم تراك النبوى ، ولمح سناك المحمدى ، مَفاوز لا يفوز بقطعها إلا من طهر دنس ثوبه ، بماء تَوْبه ،

---

(١) تكنفه : تحيط به . (٢) الليث : السبع ، والغيث : المطر .

(٣) لا تريم : لاتفارق مكانها . (٤) الأيد ـ بالفتح ـ القوة .

(٥) الأفياء : الظلال ، واحدها فىء .

وستر وَضْم عيبه ، بظهر غيبه ، فكلما رُمْت المتاب رددت ، وكلما يممت[١] الباب صُدِدْتَ وقد أمرنا الله تعالى بالمجيء إليك ، والوفادة عليك ، ومن لي بذلك يا رسول الله والآثام تُدْنِي وتُبْعِدُ ، والأيام لا تُدْنِي ولا تسعد ، و بين جنبي أشواق لا يزال يهزني منها المُقِيم المُقْعِد ، ولئن كنت ممن خَلَّفته عيوبه ، وأوبقته[٢] ذنوبه ، ولم يرض للوفادة وهو مدنس ، على ذلك المقام وهو المطهر المقدس ، فعندي من صدق محبتك ، وحُبِّ صحبتك ، والاعتلاق بذمتك ، ما يُقَدمني وإن كنت مبطئا ، ويقربني وإن كنت مخطئا ، فاشفع لي يا رسول الله في زيارتك فهي أفضل المنى ، وتوسل لي إلى مَوْلًى بَيَّنَ فضيلتك ، وتقبل وسيلتك ، في النقلة من هناك إلى هنا ، واقبلني وإن كنت زائفا[٣] ، وأقبل علي وإن أصبحت إلى الإثم متجانفا ، فأنت عماد أمتك جميعا وأشتاتا ، وشفيعهم أحياء وأمواتا ، ومن نأت به الدار ، وقعدت بعزمه الأقدار ، ثم زار خَطُّه ولفظُه ، فقد عظم نصيبه من الخير وحَظُّه ، وإن لم أكن سابقا فعسى أن أكون مُصَليا[٤] ، وإن لم أعدّ مُقْبلا فلعلي أعد مُوَليا ، ووحقك وهو الحق الأكيد ، والقسَم الذي يبلغ به المُقْسِم ما يريد ، ما وَخَدَت إليك ركاب ، إلا وللقلب أثرها التهاب ، وللدمع بعدها سحّ وانسكاب ، وياليتني ممن يزورك معها ولو على الوجنتين ، ويحييك بين ركبها ولو على المقلتين ، وما الغنى دونك إلا بؤس وإقلال ، ولا الدنيا وإن طالت إلا سجون وأغلال ، والله تعالى يمنّ على كتابي بالوصول والقبول ، وعلي بلحاقي ببركتك ولو بعد طول ، ثم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته عليك ياسيد الخلق ، وأقربهم من الحق ، ولمولاه بإحراز قَصَب السَّبْق ، ومن طهر الله تعالى مثواه وقَدَّسَه ، وبناه على التقوى والرضوان وأسسه ، وآتاه من كل فضل نبوي أعلاه وأسناه وأنفَسه ، وعلى ضجيعيك السابقين

---

(١) يممت : قصدت . (٢) أوبقته : أهلكته .

(٣) الزائف : الذي لا يروج من النقد ، هذا أصله .

(٤) أصل المصلي : الفرس الذي يجيء ثانيا من خيل الحلبة .

لمهاجريك وأنصارك ، الفائزين بصحبتك العلية وجوارك ، وعلى أهل بيتك المطهرين أوائلَ وأواخِرَ ، الشهيرين مناقب ومفاخر ، وصحابتك الذين عزروك ووقروك ، وآووك ونصروك ، وقدموك على الأنفس والأموال والأهل وآثروك ، وأقرئك سلاما تنال بركته مَنْ مضى من أمتك وغَبَر ، ويخص بفضل الله تعالى وجاهك من كتب وسَطَر ، إن شاء الله تعالى ، كتبه عبدك المستمسك بعروتك الوثقى ، اللائذ بحرمك الأمنع الأوقى ، المتأخر جسما المتقدم نطقا ، فلان ، والسلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك وسلم تسليما كثيرا ورحمة الله تعالى وبركاته .

وله من خطبة طويلة : ونشهد أن محمدا عبد الله ورسوله الصفوة المجتبى ، الكريم أما طاهرة وأبا ، المختار من الطيبين مباركا طيبا ، المصطفى نبيا إذ كان آدم بين الماء والطين مُتقلِّبا ، المتقدم بمقام تأخر عنه مقام الملائكة المقربين ، انتخبه الله وانتجبه [١] ، وأظهره على غيب عن غيره حَجَبَه ، وشرفه فى الملأ الأعلى وأعلى رُتَبَه ، وخَطَّ اسمه على العرش سطراً وكتبه ، فهو وسيلة النبيين ، والمرشَّح أزلا لإمامة المرسلين ، بعثه ربه بختم الرسالة ، ونعته بنعت الشرف والجلالة ، وأيده بالحجة البالغة والدلالة ، وجعله نورا صادعا لظلام الضلالة ، وأثنى فى ذكره الحكيم ، على خلقه العظيم [٢] ، فما عسى أن يبلغ بعدُ ثناء المُثْنِين ، بفضله الصريح وإليه الإشارة ، وبه سبقت من إبراهيم الدعوة ومن عيسى البشارة ، وعليه راقت من صفة الرءوف الرحيم الحلية والشارة ، وهو المخير بين المُلْك والعبودية فاختار العبودية بعد الاستخارة والاستشارة ، فبتواضعه حل بمكان عند ذى العرش مكين أسرى به ربه إليه ، ووفده أكرم وفادة عليه ، وأدناه قاب قوسين لديه ، ووضع إمامة الرسالة العظمى فى يديه ، وقال له (اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) فصدع بأمر الله صَدْعا ، وأوتى من المثانى سبعا [٣] ، ومن

---

(١) انتجبه — بالجيم ، وبالحاء — اختاره واصطفاه .
(٢) يشير إلى قوله تعالى فى وصف رسوله (وإنك لعلى خلق عظيم) .
(٣) يشير إلى قوله تعالى : (ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) .

الآيات البينات آلافا وإن كان أوتى موسى تسعا ، فما مشى الشجر إليه يجر عروقه إلا كرجوع العصا حية تسعى ، وما تفجر الحجر بالماء بأعجب من بنانه نبعت بالعذب الفرات نبعا ، فارتوى منه خمسمائة وقد كان يكفى آلافا فكيف المئين ، وكم له عليه الصلاة والسلام من معجزة تبهر ، وآية هى من أختها أكبر ، رجعت له الشمس وانشق القمر ، وكلمه الضب وأخبر به الذئب وسلم عليه الشجر والحجر ، وكان للجذع عند فراقه إعلانا بوجده واشتياقه أنة وحنين[(١)] ، أعطى من المعجزات ما مثله غبط عليه البشر ، وكانت له فى الغار آيات بينات خفى بها على القوم الأثر ، وارتج لمولده إيوان كسرى وخمدت نار فارس وكان ضرمها يتسعر ، وأتته أخبار السماء فما عمى فى الأرض الخبر ، فحدث عن الغيوب وما هو على الغيب بضنين ، وجعل له القرآن معجزة تُتْلَى ، يَبْلَى الزمانُ وهى لا تَبْلَى ، وتعلو كلماتها على الكلم ولا تُعْلَى ، وتجلى آياتها فى عين آيات الشمس حين تجلى ، فيتوارى منها بالحجاب حاجب وجبين ، بهر إعجاز التنزيل العلى ، وظهر به صدق النبى العربى ، فكم نادى لسان عزه فى النَّدِيِّ ، يا أهل البديهة من الفصحاء والرَّوِيِّ ، قل فأتوا بسورة مثله فلم يكونوا لها مستطيعين ، لقد خص نبينا عليه السلام بالآيات الكبر ، والدلالات الواضحة الغُرَر ، والمقامات السامية المظهر ، والكرامات المخلَّدة للمفخر ، فهو سيد الملأ النبوى والمعشر ، وحامل لواء الحمد فى المحشر ، وصاحب المقام المحمود والكوثر ، والشفيع المشفع يوم يقوم الناس لرب العالمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وذريته المباركين ، وصحابته الأكرمين ، وأزواجه أمهات المؤمنين ، صلاةً موصولة تتردد إلى يوم الدين ، وتصعد إلى السموات العلا فتكون كتابا فى عِلِّيِّين ، وسلم تسليما .

---

(١) روى أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يخطب على جذع نخلة ، ثم اتخذ له منبر ، فلما رقاه سمع للجذع حنين ، فنزل عليه الصلاة والسلام ، فالتزم الجذع ، فسكن حنينه ، وقال عليه الصلاة والسلام : « لو لم أفعل لظل يحن إلى يوم القيامة » أو كما ورد .

ومن نثره فى خطبة قوله : أيها الناس ، رحمكم الله تعالى ! أصيخوا أسماعكم لمواعظ الأيام ، واعتبروا بأحاديثها اعتبار أولى النهى[1] والأحلام ، وأحْضِرُوا لفهم موادِّها أوعى القلوبِ وأصَحَّ الأفهام ، وانظروا آثارها بأعين المستيقظين ولا تنظروا بأعين النُّوَّام ، ولا تخدعنكم هذه الدنيا الدنية بتهاويل الأباطيل وأضغاث الأحلام ، ولا تنسينكم خُدَعُها المموّهة وخيالاتها الممثلة ما خلا من مقالاتها فى الأنام ، فهى دار انتياب[2] النوائب ، ومصاب المصائب ، وحدوث الحوادث و إلمام الآلام ، دار صفوها أكدار ، وسلمها حرب تدار ، وأمنها خوف وحذار ، ونظمها تفرق وانتشار ، واتصالها انقطاع وانصرام ، ووجودها فناء وانعدام ، و بناؤها تَضَعْضُعٌ وانهدام ، ينادى كل يوم بناديها منادى الحمام ، فلا قرار بهذه الغرّارة ولا مُقَام ، ولا بقاء لساكنيها ولا دوام ، فبئست الدار داراً لا تدارى ، ولا تُقِيل لعاثِرِها عِثارا ، ولا تقبل لمعتذر اعتذارا ، ولا تقى[3] من جورها حايفاً ولا جارا ، وليس لها من عهد ولا ذِمام[4] ، كم فتكت بقوم غافلين عنها نيام ، كم نازلت بنوازلها من قِباب وخيام ، كم بدلت من سلامة بداء ومن صحة بسَقَام ، كم رمت أغراض القلوب بمُصْميات[5] السِّهَام ، كم جردت فى البرايا للمنايا من حُسَام ، كم بددت بأكف النائبات الناهبات من عطايا جسام ، كم أبادت طوارق حوادثها من شيخ وكهل وغلام ، لا تبقى على أحد ، ولا ترثى لوالد ولا ولد ، ولا تخلد سروراً فى خلد ، ولا يمتد فيها لآمل أمد ، بينا يقال قد وجد ، إذ قيل قد فقد ، بُعْداً لها قد طبعت على نكد وكمد ، فالفرح فيها ترَح ، والحبرة عبرة ، والضحك والابتسام ، بكاء وأدمع سِجام ، تفرق الأحبة بعد اجتماعهم ، وتسكن الوحشة مؤنس رِباعهم ، وتستبيح

---

(١) النهى : العقول ، واحد هانهية ، بالضم ، والأحلام : العقول أيضا .

(٢) انتابته : نزلت به ، مثل نابته ، والنوائب : المصائب .

(٣) تقى : تحفظ وترعى . (٤) الذمام ـ بالكسر ـ العهد .

(٥) المصميات : التى تصيب المقتل .

بالحمام حمى الأعزة فلا سبيلَ إلى امتناعهم ، وتستحث ركائب الخلائق على اختلاف أنواعهم ، إلى مصيرهم إلى الله عز وجل وارتجاعهم ، فيسيرون طوع الزمام ، ويلقون مقادة التذلل والاستسلام ، حتى يلجئوا بالرغام[1] ، وينزلوا بطون الرجام[2] ، ويحلوا الوهد بعد المقام السام ، فلا ناج من خطبها العظيم ولا سليم ، يتساوى فى حكم المنية الأغر والبهيم ، والأعز والمضيم ، ولو أنه ينجو من ذلك مجد صميم ، وجد كريم ، وحظ عظيم ، ومضاء وعزيم ، ومزية وتقديم ، وحديث فى الفضل وقديم ، وشرف لسمك السّمٰوات مُسَام ، وعلا على ساق العرش المجيد ذوارتسام ، لنجا حبيبُ الملك العلام ، وسيد السادات الأعلام ، وصفوة الصفوة الكرام ، وخاتم الأنبياء ولَبِنة التمام ، وصباح الهدى ومصباح الظلام ، والأبيض المُسْتَسْقَى به غيث الغمام ، ثِمال الأرامل وعصمة الأيتام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، لكن مع قدره الجليل وفضله الجلى ، أقدم الموت على جانبه العلى ، وتقدم ملك الموت لقبض روحه القدسى ، وتغيب فى الثرى جمال ذلك الوجه البهى ، وتغيض ماء السماء والندى ، لملك السماحة النبوية والندى ، وأصيب المسلمون وأُعْظِمَ بها مصيبة بنبيهم العربى ، الهاشمى القرشى ، فياله للإسلام ، من مصاب أسلمنا للحزن أى إسلام ، وأسال مياه الدموع عن احتراق للضلوع واضطرام ، وأرانا أن الأسى فى رزية لخير البرية واجب ، وأن التأسى حرام ، وهل يسوغ الصبر الجميل ، فى فقيد بكته الملائكة وجبريل ، وكثر له فى السموات السبع النحيب والعويل ؟ انقطع به عن الأرض الوحى الحكيم والتنزيل ، وعظمت الرزية به أن يؤدى حقيقتها الوصف والتمثيل ، غداة أقفر منه الربع المُحِيل ، وأوحش من أنسه السفح والنخيل ، وكان من تلك الروح الطاهرة الوداع والرحيل ، وقامت البتُولُ تندب أباها بقلب قريح وجفن دام ، وتنادت الأمة مات الرسول ففى كل بيت بكاء وانتحاب ونوح والتزام ، وحارت الألباب

---

(١) الرغام — بالفتح ، بزنة السحاب — التراب ، ومنه قالوا « رغم أنف فلان » أى التصق بالرغام . (٢) الرجام : جمع رجم — بالتحريك — وهو القبر .

والعقول فلا صبر هنالك لقد زلت عن الصبر الأقدام ، ولما نعيت إليه صلى الله عليه وسلم نفسه ، وآن أن تأفل من تلك المطالع شمسه ، آذن أمته[١] بالفراق وأعلمهم ، وناشدهم فى أخذ القصاص وكلمهم ، مخافة أن يمضى إلى الملك الحق ، وعليه تباعة لأحد من الخلق ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ، من صفات جائرٍ للأمة ظَلَّام ، ولكنه تعريف من نبى الرحمة بما يجب و إعلام ، ثم استمر به صلوات الله وسلامه عليه وتمادى ، وزاد به السقم[٢] المنتاب وتهادى ، حتى واراه مَلحَده ، وخلا منه ربعه ومسجده ، فعم الحزن والاكتئاب ، وتوارى النور فأظلم الجناب ، وعاد الأصحاب ، وكأنما دموعهم السحاب ، فقالت فاطمة وقد رابها من دفن أبيها الكريم ماراب: أطابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب ؟ فكأن كلامها للقلوب المفجعة كِلَامَ[٣] ، وللعيون المفجرة بالدموع انسفاح وانسجام ، وفى مثل هذا الشهر شهر ربيع ، المشيد بذكر الأشجان المذيع ، كانت وفاة هذا النبى الهادى الشفيع ، وانتقاله إلى الملأ الأعلى والرفيق الرفيع ، حين ناداه ربه إلى قربه ، فلبى بشوق قلبه تلبية المهطع المطيع[٤] ، وحَنَّ إلى حضرة القدس فانتظم حين حل بها ما كان من شمله الصَّديع ، وانتظر من صنع الرب جميلَ الصنيع ، و إنجاز وعد الشفيع فى الجميع ، إذا أعطى لواء الحمد وقام محمود المقام ، ووقف على الحوض ينادى : هلموا إلى أروكم من العطش والأوام ، اللهم اسقنا من حوضه المورود ، وشرفنا بلوائه المعقود ، وشفِّعه فينا فى اليوم المشهود ، وارحمنا به إذا صرنا تحت أطباق اللحود ، اللهم اجعله لنا تعزية من كل مفقود ، وأوجد لنا من بركاته أشرفَ موجود ، وجازه عنا بما أنت أهله من فضل و إحسان وجُود ، وانفعنا بمحبته ومحبة آله وصحابته الركع السجود ، واجعلنا

(١) آذن أمته : أعلمها .
(٢) السقم : المرض .
(٣) الكلام : الندوب والجروح .
(٤) المهطع : المسرع

معهم فى الجنة دار الخلود ودار السلام ، واخصصهم عنا بأكرم تحية وأفضل سلام، وصل عليهم صلاة تستلم أركان رضوانك أى استلام ، وتنظم له كرامات إحسانك أى انتظام ، فصلوات الله عليه ، وأطيب تحياته ورحمته[1] تتوالى لديه ، وأجزل بركاته ، ما تجدد فى ربيع ذكر وفاته ، وتمهد كهف القبول لطالبى فضله وعُفَاته ، وتعزى به كل مصاب فى مصيباته ، وتَرَجَّى شفاعته كل محب فيه متبع لهداياته ، وتوفرت للمصلين عليه والمسلمين على جنباته ، حظوظ من بِرِّ الله تعالى وأقسام (إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) اللهم صل عليه من نبى لم يزل بالمؤمنين رؤفا رحيما ، اللهم صل عليه من نبى أوجبت حبه وعظمته تعظيما ، اللهم صل عليه من نبى صليت عليه تجِلة وتكريما ، وأمرتنا بالصلاة عليه إرشاداً وتعليما، فلنا بأمرك اقتداء وائتمام ، وبحمدك على ما هديتنا افتتاح واختتام ، وكلامك يا ربنا أشرف الكلام ، ولوَجْهِك وحده البقاء والدوام (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

وترجمة ابن الجيان واسعة جدًّا ، وكلامه فى النَّبَوِيات نظما ونثرا جليل ، رحمه الله تعالى ! .

وقال لسان الدين فى « الإحاطة » بعد أن عرف به وأورد له الرسالة ماصورته : ومحاسنه عديدة ، وآماله بعيدة ، ثم قال : إنه انتقل إلى بجاية فتوفى بها فى عشر الخمسين وستمائة ، انتهى .

ترجمة ابن الجيان عن « عنوان الدراية »

وقال صاحب « عنوان الدراية » فى حق ابن الجَيَّان المذكور ما ملخصه : الفقيه الخطيب ، الكاتب البارع الأديب ، أبو عبد الله بن الجيان ، من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان ، وجودة الخط وحسن الضبط ، وهو فى الكتابة

---

(١) تتوالى : تتتابع ويلى بعضها بعضا .

من نظراء الفاضل أبى المطرف بن عميرة المخزومى ، وكثيرا ما كانا يتراسلان بما يعجز عنه الكثير من الفصحاء ، ولا يصل إليه إلا القليل من البلغاء ، ونثره ونظمه كله حسن ، ونظمه غزير ، وأدبه كثير ، ومن ذلك قصيدته الدالية التى مطلعها :

يا حادىَ الركب قف بالله يا حادى   وارحم صبابة ذى نأى و إبعاد

وله أيضا :

ترك النزاهة عندنا   أدى إلى وصف النزاهه

ما ذاك إلا أنها   تدعو الوقور إلى الفكاهه

و إذا أمرؤ نبس الوقا   رَ فقد تلبس بالسفاهه

ومن بديع نظم ابن الجيان رحمه الله تعالى هذا التخميس فى مدح سيد الوجود ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم :

الله زاد محمدا تكريما   وحباه فضلا من لدنه عظيما(١)

واختصَّهُ فى المرسلين كريما   ذا رأفة بالمؤمنين رحيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

جلت معانى الهاشمى المرسل   وتجلت الأنوار منه لمجتلى

وسما به قدر الفخار المعتلى   فاحتل فى أفق السماء مقيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

حاز المحامد والممادح أحمد   وزكت مناسبه وطاب المحتد(٢)

وتأثلت علياؤه والسؤددُ   مجدا صميما حادثا وقديما

---

(١) حباه : منحه وأعطاه .

(٢) المناسب : أصوله من جهة أبيه وأمه ، وكأنه جمع نسب على غير لفظه كالملامح

صلوا عليه وسلموا تسليما

شمس الهداية بدرها الملتاح قطب الجلالة نورها الوضاح[١]

غيث السماحة للندى يرتاح يروى بكوثره الظماء الهيما[٢]

صلوا عليه وسلموا تسليما

تاج النبوّة خاتم الأنباء صفو الصريح خُلاَصة العلياء

نجل الذبيح سلالة العلماء بشرى المسيح دعاء إبراهيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

فخر لآدم قد تقادم عصره من قبل أن يدرى ويجرى ذكره

سر طوَاه الطين فهم نشره معنى السجود لآدم تفهيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

لله فضل المصطفى المختار ما إن له فى المكرمات مُجارى

ولا مبار باختصاص البارى بالحق قدم مجدهُ تقديما

صلوا عليه وسلموا تسليما

أوصاف سيدنا النبي الهادى ما نالها أحد من الأمجاد

فالرسل فى هدى وفى إرشاد قد سلموا لنبينـــا تسليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

آياته بَهرَتْ سنا وسناء وأفادت القمرين منه ضياء

وعلت بأعلام الظهور لواء فهدى به الله الصراط قويما

صلوا عليه وسلموا تسليما

دنت النجوم الزهر يوم ولادته ورأت حليمة آية لسيادته

---

(١) الملتاح : الظاهر البادى للعيان .

(٢) الظماء : العطاش وزنا ومعنى ، والهيم : جمع أهيم ، وهو الشديد العطش .

وتحدثت سعد بذكر سعادته فتفـــاءلوا نعم اليتيم يتيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

لمـا ترعرع جاءه الملكان بالطست فيها حكمة الرحمن

فاستخرجا القلب العظيم الشان منـــه وطهر ثم عاد سليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

كرمت مناشى أحمد خير الورى وجرى له القلم العلى بما جرى

ما كان ذلكم حديثا يفترى لكنه الحق الجلىّ رسوما[1]

صلوا عليه وسلموا تسليما

ما زال برهان النبى يلوح يغدو به الإعجاز ثم يروح

حتى أتاه بعد ذاك الروح يوحى له وحى الإله حكيما[2]

صلوا عليه وسلموا تسليما

شهدت له بمزية التفضيـل سُوَر وآيات من التنزيل

وصلاة خالقه أدل دليـل فافهمـــه واسمع قوله تعظيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

إن الرسول المعتلى المقدار لمؤيد من ربه القهـــار

بالمعجزات جَلَتْ عمى الأبصار وشفت مِنَ أُدواء الضلال سقيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

كم شـــاهد لمحمد بنبوّته فى أيد تأييـــد الإله وقوته

فبذاك أعلى الله دعوة حجته فمضت حساما صارما وعزيما

---

(١) يفترى ـ بالبناء للمجهول ـ يختلق ، وفى الكتاب الكريم : (ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه) .

(٢) الروح : جبريل ملك الوحى

صلوا عليه وسلموا تسليما

البدر شق له ليظهر صدقه والشمس قد وقفت تعظم حقه

والمزن أرسل إذ توسل ودقه فاخضر ما قد كان قبلُ هشيما (١)

صلوا عليه وسلموا تسليما

والماء بين بنانه قد سالا عذبا معينا سائغا سلسالا

كنداه يمنح رفده من سالا وينيل راجيه النوال جسيما (٢)

صلوا عليه وسلموا تسليما

بركاته أرْبَتْ على التعداد كم أطعمت من حاضرين وبادى (٣)

من قصعة أو حثية من زاد رزقا كريما للجيوش عميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

سجد البعير له سجود تذلل وشكا إليه بحرقةٍ وتململ

والشاة قال ذراعها : لا تأكل منى فإنى قد ملئت سموما

صلوا عليه وسلموا تسليما

والغصن جاء إليه يمشى مُسْرعا والصخر أفصح بالتحية مسمعا

والظبية العجماء فيها شفعا والضب كلم أحمدا تكليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

والجذع حن له حنينَ الوالهِ يبدى الذى يخفيه من بلباله (٤)

أفلا يحنُّ متيم بجماله يشتاق وجها للنبى وسيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ما بالنا نسلو وحب حبيبنا يقضى ببث غرامنا ونحيبنا

---

(١) المزن : السحاب ، والودق : المطر

(٢) الندى ـ بالفتح مقصورا ـ العطاء والجود

(٣) أربت : زادت (٤) الواله : العاشق

لو صح فى الإخلاص عقدقلوبنا لم ننس عهداً للرسول كريما

صلوا عليه وسلموا تسليما

أين الدموع نُفيضُهـا هتانا أين الضلوع نفضها أشجانا

حتى نقيم على الأسى برهانا لمتمم إرشـادنا تتميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

أو ليس هادينا إلى سبل الهدى أو ليس منقذنا مِنَ أشراك الردى

أو ليس أكرم من تعمم وارتدى أو لم يكن أزكى البرية خِيماً[1]

صلوا عليه وسلموا تسليما

ذاك الشفيع مقامه محمود ولواؤه بيـد العلا معقود

فإذا توافت للحساب وفود قالوا : تقـدم بالأنام زعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

فيقوم بالباب العلىّ ويسجد ويقول : يا مولاى آن الموعد

فيجاب : قل يسمع إليك محمد ونريك منـا نَضْرَةً ونعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

أعظم بعز محمـد وبجاهه أكرم به متوسلا لإلٰهِهِ

شربت كرام الرسل فَضْلَ مياهه فغدت تعظم حقـه تعظيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

يا سامعى أخباره ومفاخره ومُطَـالعى أثاره ومآثره

ومؤملى وَافِى الثواب ووافره إن شئتمو فوزاً بذاك عظيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) الخيم ـ بكسر الخاء ـ الطبيعة والسجية

قلت : وكثيراً ما كنت أنشد هذه القصيدة بالمغرب فى مجالس التدريس ، وأضيف إليها قبلها أخرى لبعض أهل المغرب الذين لهم فى منازل الأمداح النبوية مَقِيل وتَعْرِيس ، وهى قصيدة ميلادية كأنما لم ينظمها مؤلفها إلا مقدّمة لهذه القصيدة الفريدة ، وهى :

قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب

اسمع حديثاً قد تضمن شرحه ... روضا من الإيناس أينع دوحه[1]

فيه الشفاء لمن تكاثر بَرْحُه ... وافى ربيع قد تعطر نفحه[2]

أذكى من المسك الفتيق نسيما

شهر حوى بوجود أحمد أسْعُدَا ... بالمصطفى بين الشهور تفردا

يا ما أجل سنا ءُ عِزّه وأمجدا ... لولادة المختار أحمد قد غدا

يزهو به فخراً تراه عظيما

يا من بأدمع مقلتيه يَغْتَذِى ... كم ذا تنادى حسرة : مَنْ مُنْقِذِى

وتقول للزفرات : هل من منفذ ... بشرى بشهر فيه مولده الذى

سر الزمان علوّهُ تعظيما

يا ليلة رُفعت بأحمد حُجْبُهَا ... لما دنا بعد التباعد قربها

وتطلعت للسعد فينا شهبها ... ضاءت لها شرق البلاد وغربها

وتأنقت أرجاؤها تنعيما

أسدى إليك الدهر حسن صنيعه ... وحَبَاك من غض الجنى ببديعه

وافى هلال محمد بربيعه ... فاعتز أمر الله عند طلوعه

وغدا به دين الإلٰه قويما

---

(١) الدوح : جمع دوحة ، بالفتح ، وهى الشجرة العظيمة

(٢) برح السقم : شدته ، والنفح : الريح

نظم الزمان بجيد عمرك دره فاشكر مآثره وواصل بره
وافاك بالسر المصون فسُرَّه واعرف لهذا الشهر حقا قدره
فلقد غدا بين الشهور كريما

يا صاح جاءت بالأمانى أسعد وأطلَّ بالبشرى الكريمة مولد
هذا ربيع فيه أنجز موعد شهر كريم جاء فيه محمد
صلوا عليه وسلموا تسليما

ثم قلت أنا عند ختم دَرْس الشفا ، موطئا لقصيدة ابن الجيان المذكور ولعذب براعتها مرتشفا ، ما نصه والأعمال بالنيات :

مخمسة للمؤلف

انْشَقْ أزاهر عن فنون رياض للعلم واكْرَعْ من عذاب حياض[1]
واسق الرياض بذكره الفياض واحفظ كلاما للامام عياض
قد تممت أقسامه تتميما

لله روض منه أينع دوحه يجنى به منّ الكريم ومَنْحُه
فهو الشفاء لمن تكاثر بَرْحُه مسك الختام به تعطر نفحه
فشذاه فى الأرجاء صار شميما[2]

فاضت علينا من هداه عوارف زهر وأنوار وظلّ وارف
ونمارق مصفوفة ومطارف يا حسن ما أبداه فذ عارف
دررا بأسلاك الحديث نظيما

لم لا وبالملك الشفيع تشرفا خير البرية ركن أرباب الصفا
من أسعد الراجى وقصدا أسعفا طهَ النبى الهاشمى المصطفى
صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) انشق : فعل أمر ، تقول : نشق الطيب - من باب علم - إذا شمه
(٢) الشذى: الريح ، والأرجاء : جمع رجا ، وهوالناحية ، والشميم : المشموم

قصيدة لابن الجيان

وقد رأيت بعد وصولى إلى هذا الموضع من هذا الكتاب أن أذكر قصيدة لابن الجيان المذكور فى روى تلك القصيدة غير مخمسة مستقلة بنفسها ، وهى قوله رحمه الله تعالى :

صلوا على أسنى البرية خِيَما ... وأجل من حاز الفخار صميما
صلوا على من شُرِّفَتْ بوجوده ... أرجاء مكة زمزما وحطيما
صلوا على أعلى قريش منزلا ... بذَرَاه خيمت العلا تخييما
صلوا على نور تجلَّى صبحه ... فجلا ظلاما للضلال بهيما
صلوا على هاد أرانا هديه ... نهجا من الدين الحنيف قويما
صلوا على هذا النبى فإنه ... من لم يزل بالمؤمنين رحيما
صلوا على الزاكى الكريم محمد ... ما مثله فى المرسلين كريما
ذاك الذى حاز المكارم فاغتدت ... قد نظمت فى سلكه تنظيما
من كان أشجع من أسامة فى الوغى ... ولدى الندى يحكى الحيا تجسيما[1]
طَلْقُ المحيَّا ذو حياء زانَهُ ... وسط الندىِّ وزاده تعظيما
حكمت له بالفضل كل حكيمة ... فى الوحى جاء بها الكتاب حكيما
وبدت شواهد صدقه قد قسمت ... بدر الدجى لقسيمه تقسيما
والشمس قد وقفت له لما رأت ... وجها وسيما للنبى وسيما[2]
كم آية نطقت تصدّق أحمدا ... حتى الجماد أجابه تكليما
والجذع حنّ حنين صب مغرم ... أضحى للوعات الفراق غريما
جلت مناقب خاتم الرسل الذى ... بالنور ختم والهدى تختيما

---

(١) أسامة : السبع ، وهو علم جنس

(٢) وجه وسيم : من الوسامة ، وهى الجمال ، وقوله فى القافية « وسيما » مؤلف من واو العطف ، ومن « سيما » بمعنى العلامة

وسمت به فوق السماء مراتب ... بمقام صدق عزَّ فيه مقيما
فله لواء الحمد غير مدافع ... وله الشفاعة إذ يكون كليما[1]
نرجوه فى يوم الحساب ، وإنما ... نرجو لموقفه العظيم عظيما
ما إن لنا إلاَّ وسيلة حبه ... وتحية تذكو شَذًى وشميما
وخير ما أهدى امرؤ لنبيه ... أرَجُ الصلاة مع السلام جسيما
يا أيها الراجون منه شفاعة ... صلوا عليه وسلموا تسليما

قصيدة لإدريس بن موسى القرطبى فى مدح الرسول

وهذه قصيدة بديعة مخمسة من كلام الشيخ الأستاذ أبى العلا إدريس بن موسى القرطبى فى مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقف عليها أبو عبد الله بن الجيان المذكور وقرّظها بما سنذكره قريبا بعدها ، وهى :

أهلا بكم يا أهل هذا النادى ... أهل اعتقاد الوعد والميعاد
أهدوا الصلاة إلى النبى الهادى ... وصِلُوا السلام له مع الآباد
يندى نسيما مذكرا تسنيما

هو أول الشفعاء يوم المحشر ... وسواه بين تقدّم وتأخر[1]
بهت الحضور لهول ذاك المحضر ... والكل فى الخطب العميم الأكبر
قد هيمت ألبابهم تهييما

ذاك المقام الأشهر المحمود ... هو للنبى محمد موعود
فيه الشفاعة ذخرها موجود ... درك المراد وحوضه المورود
فضل الكليم به وإبراهيما

عيسى وموسى والخليل مروّع ... من هول مطلع هنالك يفظع
فيقال أحمد قل فإنك تسمع ... فيقوم يحمد ربه فيشفع

---

(١) ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ حين يري ما عليه الناس يوم الحشر من الكرب ـ يتقدم إلى ربه فيسجد فلا يرفع رأسه حتى يكلمه ربه ويأذن له فيشفع فيشفعه الله تعالى

فضلا من الرب العظيم عظيما

يا أمة المختار أنتم أمه والهول قد عم البسيطة يمه
والأنبياء سواه كل همه تخليص مهجته وليس يهمه
من كان فى الدنيا عليه كريما

صلى الإله على الذى صلى عليه عشراً بواحدة يزكيها لديه
وأراه فى الدارين قرة ناظريه يا قاصدين إلى وصولكم إليه
راجين من أرَجِ القبول نسيما

لولا وصية صاحب التنزيل أن لا يقال له غلو القيل[1]
قول الغلاة لصاحب الإنجيل لغلوت فى التعظيم والتبجيل
عظمُ المكانة يوجبُ التعظيما

طوبى لقلب قد تلالا إذ صفا بالسر منه قد تثبت إذ هفا[2]
خطت به آيات حب المصطفى فغدا لصاحبه بذلك مصحفا
يهدى إلى نهج النجاة قويماً

فاقت علا ذكراه إذ راقت حُلاَ ملأ النبوة أمهم حين اعتلى
فى ليلة الإسراء أعلى معتلى كتب الإله له التقدم فى العلا
وعليهمُ التفويضَ والتسليما

وكذاك يسلم فى الشفاعة كلهم ومحلهم عند الإله محلهم
ظل النبى محمد هو ظلهم يمشون تحت لوائه فيدلهم
يندى عليهم بهجةً ونعيما

أوصافه من كل حسن أبهج العَرْفُ ينفح والسنا يتبلج[3]

---

(١) ورد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ، ولكن عبد الله ورسوله» (٢) تلالا : أصله تلألأ فسهل الهمزتين

(٣) العرف ـ بالفتح ـ الريح ، وينفح : يفوح ، والسنا : النور والضوء

فتأرج الأرجاء منـــه وتبهج فاق الزواهر نورهـا يتوهج
والزهر نفاح النسيم وسيما

طَلْق المحيـــا منهل للنائل أنحى على الدنيا بزهد كامل
هو مَثَّلَ الدنيـا بظل زائل لم ترضه حال النعيم الحائل
ما حاول الترفيـــه والتنعيما

ما ورث المختـار مال مؤمل إلا جواهر فى الكتاب المنزل
أشهى لقلب النـاظر المتأمل وأقر إعجابا لعين المجتـــلى
من كل قيمة مقتض تقويما

وفِّقْتَ يا من لم يخالف نصه حزت الكمال وليس تخشى نقصه
نهج الهدى قول النبى اقتصه بالوحى شرفه الإله وخصه
شرفا على شرف السناء صميمـا

سبحان مُوحٍ لا يحد له الكلام من قال ذات كلام خلاق الأنام[1]
خلق فذلك آثم كل الأثام ذاك الذى فى الدين ليس له ذِمام
إلا ذمام لا يزال ذميمـا

ضَلَّ الذى يبغى الهدى مما سواه وهوى به فى كل مهواة هَوَاه
من فارق الفاروق قد تبَّت يداه حيران لم يهد السبيل إلى هداه
لا يعرف التحليل والتحريما

بالمدح مجـد المصطفى يممته من حلى أوصاف له نظمتـه
لم أبلغ المعشار إذ أحكمته بعضاً نسيت و بعضه ألهمتـه
قلدته جيد الزمان نظيما

(١) يشير إلى مقالة المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن القرآن مخلوق ، وكان لهم خطب فادح فى هذه المسألة ، وفيها أوذى كثير من أئمة الهدى ، وممن أوذى فى هذا السبيل شيخ أهل الحديث أحمد بن حنبل

لو فزت بالإحسان من حسان وسحبت أذيالى على سحبان[1]
أو أيدتنى لُسْنُ كل زمان من كل ذى زعم عظيم الشان
ما كنت بالمعشار منه زعيما

إدريس حفتك الحقوق حفوفا هلا خففت إلى الرسول خفوفا
وقريت بالعزم الهموم ضيوفا وشدوت أن هال الزمان صروفا
مهلا كفاك معلمى التعليما

ثقة بفضل الواحد القهار ملك الملوك مصرف الأعصار
جعل النبى مكرم الآثار وأمَدَّه بالنصر والأنصار
وأتم نعمته له تتميما

هل أجلون بصرى بكحل سناه ياسعد من كحلت به عيناه
ظفرت يداه ، وساعدته مناه لله ذاك الأفق ما أسناه
كرم المحل فيقتضى التكريما

تقريظ لابن الجيان على القصيدة السابقة

ونَصُّ تقريظ ابن الجيان على هذه القصيدة هو قوله :

ما زال كل حليف لله أضحى وليا
وللعلوم خليلا وعن سواها خليا
يصوغ عِقْيان مدح للهاشمىِّ حليا
ويوجب الحق فيه إيجابه الأولِيَّا
ويقتفى فى رضاه نهجاً جليلا جليا
والكل أخطاه حظ فالفوز يلفى مليا
لكن إدريس منهم حاز المكان العليا

---

(١) حسان : شاعر النبي صلى الله عليه وسلم المدعو له بالتأييد ، وسحبان : من خطباء العرب فى الجاهلية وفصحائهم

ولا يخفاك أنه التزم فى هذه القطعة ما لا يلزم من اللام قبل الياء ، رحمه الله تعالى ! .

ولا بأس أن نورد هنا ما حضر من التخميسات الموافقة لتخميس ابن الجيان المذكور السابق أولا فى البحر والروى والمنحى الذى لا يضل قاصده ، وكيف لا وهو مدح الجناب الرفيع العظيم النبوى .

فمن ذلك قول أبى إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلى الإشبيلى فإن بعضاً ذكر أنها من قوله لما أظهر الإسلام ، وهى لا تقتضى رفع الريبة فيه والاتهام :

قصيدة مخمسة لابن سهل الإشبيلى

جعل المهيمن حب أحمد شيمة ... وأتى به فى المرسلين كريمة
فغدا هواه على القلوب تميمة ... وغدا هداه لهديهم تتميما
صلوا عليه وسلموا تسليما

أبدى جبين أبيه شاهد نوره ... سَجعت به الكهان قبل ظهوره
كالطير غرد معربا بصفيره ... عن وجه إصباح يطل نسيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

أنس الرسالة بعد شدة نفرة ... مَنْجَى البرية وهى فى يد غمرة[1]
محيي النبوة والهدى عن فترة ... فكأنما كفل الرشاد يتيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

الله أوضح فضله فتوضحا ... والله بين حبه فى (والضحى)[2]
والجذع حن هوًى له فترنحا ... والماء فاض بكفه تسنيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

فربا الرواية عن رباه زكية ... نجواه ربانية ملكية

---

(١) الغمرة ـ بالفتح ـ الشدة

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى سورة الضحى : (وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى)

أوصافه علوية فلكية فإخال شعرى عندها تنجيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

احتثّ فى السبع الطباق بُرَاقَهُ والأرض واجمة تخاف فراقه[١]
سبحان من أدنى سُرَاه فساقه شخصا على ملك الملوك كريما
صلوا عليه وسلموا تسليما

فاشتم ريحان القلوب الطيبا ودَنَا فأسمع يا محمد مرحبا
إنى جعلتك جار عرشى الأقربا إن كنت قبلك قد جعلت كليما
صلوا عليه وسلموا تسليما

يا ليلة يجرى الزمان فتسبق الحجب فيها والأرائج تفتق
ما كان مسك الليل قبلك يعبق بشرى محمد استفاد نسيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

حتى إذا اقتعد البراق لينزلا نادته أسرار السموات العلا
يا راحلا ودعته لا عن قِلَى ما كان عهدك بالغيوب ذميما[٢]
صلوا عليه وسلموا تسليما

صعد النجود وسار فى الأغوار سمك السما طورا و بطن الغار
متقسما فى طاعة الجبار ما أشرف المقسوم والتقسيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

الشافع المتوسل المتقبل القانت المدثر المزمل
وافى وظَهْرُ الأرض داج ممحل فجلى البهيم به وأروى الهيما[٣]
صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) احتثه : دفعه إلى الإسراع ، والبراق : الذى ركبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج (٢) القلى ــ بكسر القاف مقصورا ــ البغض
(٣) داج : مظلم ، وممحل : مقفر ، والهيم : جمع أهيم ، وهو الشديد العطش

دفعت كرامته الزنوج عن الحرم ودعاه جبريل المنزه فى الحرم
وعزت له آيات نون والقلم خلقا به شهد الإله عظيما[1]
صلوا عليه وسلموا تسليما

طاوٍ يفيض الزاد فى أصحابه غيث ولكن كان يستصحى به
طابت ضمائر قلبه وترابه منه بسرٍ لم يكن مكتوما
صلوا عليه وسلموا تسليما

يا شوقى الحامى إلى ذاكَ الحمى فمتى أقضيه غراما مغرما
ومتى أعانقه صعيدا مكرما بضمير كل موحد ملثوما
صلوا عليه وسلموا تسليما

قصيدة مخمسة لبعض الوعاظ

ومن ذلك قول بعض الوعاظ ، وأظنه فى أهل المشرق

جل الذى بعث الرسول رحيما ليرد عَنَّا فى المعاد جحيما
وبه نُرَجِّى جنة ونعيما أضحى على البارى الكريم كريما
صلوا عليه وسلموا تسليما

ما ضل عن وحى الإله وما غوى حاشا رسول الله ينطق عن هوى
الصادق الثقة الأمين بما رَوى قد نال من رب السماء علوما
صلوا عليه وسلموا تسليما

وافى له الروحُ الأمين مبشرا نادى به يا خير من وطىء الثرى
أجِبِ المهيمن يا محمد كى ترى ملكا كريماً فى السماء عظيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

فأجابه المختار حين دعا به رب السموات العلا لخطابه

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة (ن) فى شأن النبى صلى الله عليه وسلم :
(وإنك لعلى خلق عظيم)

ركب البراق وقد أتى لجنابه أمسى له الروح الأمين نديما

صلوا عليه وسلموا تسليما

فمتى أرى الحادى يبشر باللقا ويضمه بانُ المحصَّبِ والنَّقَا

ورأى ضريح المصطفى قد أشرقا مولى حليما لن يزال رحيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

وأقول للزوّار قد نلتُ المنى يهنيكم طيب المسرة والهنا

فاستبشروا من بعد فقر بالغنى فالله زادكم به تكريما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ثم الرضا عن آله الكرماء وكذاك عن أصحابه الخلفاء

فهواهم دينى وعقسد ولائى قوما تراهم فى المعاد نجوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

قصيدة مخمسة لبعض أهل المغرب

ومنها قول بعض فضلاء المغاربة رحمة الله تعالى :

يا أمة الهادى المبارك أحمد يهنيكم نيل الأمانى فى غد

بمحمد فزتم ومَنْ كمحمد إن شئتمُ أن تدركوا التتميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على البدر المنير الزاهر صلوا على المسك الفتيق العاطر(١)

صلوا على الغصن البهى الناضر وتنعموا بصلاتكم تنعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ بالنبوّة زُيِّنَا صلوا على من بالكمال تمكنا

بمحمد فزنا بإدراك المنى فضلا منحنا حادثا وقديما

---

(١) مسك فتيق : هو الذى استخرجت رائحته بشىء يدخل عليه

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على البـــدر المنير اللائح   صلوا على الهادى الحبيب الناصح

صلوا على المسك الفتيق الفائح   للرشـــد فهم والهدى تفهيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صـلوا على مَنْ مجده قد أسسا   والماء بين بنانه قد بجسـا(٢)

وأتت إليه سَرْحَة حتى اكتسى   بفروعهـا إذ خيمت تخييما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من كان يبصر من قَفَا   وعليه سلمت الجنادل والصَّفَا

والذئب قال صدقت أنت المصطفى   وشكا إليـه بازل قد ضِيمَا(٣)

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من قد شفى بالريق   عين الضرير ولدغة الصدّيق

وأعاد طعم المـاء مثل رحيق   إذمج فيـه العنبر المختوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من بالملائك جيشا   وغـدت تظلله الغمام إذا مشى

حُرِسَتْ سماء الله لما أن نشا   ليكون سر حبيبه مكتوما(٣)

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا عليه كل حين تربحـوا   وبهديه مهما اهتديتم تفلحوا

والأجر يشملـكم فجدوا تنجحوا   وإذا أردتم أن يكون عظيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا بجمعكم على شمس الهدى   صـلوا على بدر يزين المشهدا .

---

(١) بجس الماء — بتشديد الجيم هنـا ، ويأتى مخفف الجيم من بابى ضرب ونصر — أى فجره   (٢) ضامه يضيمه : أنزل به الضيم

(٣) يشير إلى قوله تعالى حكاية عن الجن : (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا)

صلوا عليـــه به الرشاد تمهداً والذكر بين فضــله تفخيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا بإخلاص على خير البشر صلوا على من فاق حسناً واشتهر

ونمت فضــائله وشُقَّ له القمر ولَـكَمْ دليــل فى علاه أقيما(١)

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من قد رأى الرحمانا بالقلب أو بالعين منـــه عيانا

من قاب أو أدنى مقام كانا فخذ الفوائد كى تفــاد علوما(٢)

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا عليـه كلـكم لا تسأموا وتبركوا بصــلاته وتنعموا

فعليه صلى الأنبيـــاء وسلموا شرفا لهم إذ أمهم تقــديما

صلوا عليه وسلموا تسليما

يا حاضرين بَلَغْتمُ كل المنى عن جمعكم من فضلِهِ ذهب العنا

وإليكم والله قد وجب الهنــا بمحمد كرمتم تكريمــــا

صلوا عليه وسلموا تسليما

قولوا برغم معاندين وحُسَّـــدِ كى ترغموا أنفا لـكل مفند

صلى الإله على النبى محمـــد أبدا وزاد لقـــدره تعظيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

يا رب ياذا المن والإحســان جُـــدْ بالرضا والعفو والغفران

للوالدين ومنشـــد الأوزان والسامعين أنلهمُ تنعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) نمت : زادت

(٢) يشير إلى قوله تعالى فى شأن معراج النبى صلى الله عليه وسلم : (ثم دنا فتدلى ، فـكان قاب قوسين أو أدنى)

صلى عليه الله ما قطع الفَلَا   صلى عليه الله ما اجتمع المَلَا

أبدا وما رعت السَّوَامُ هَشِيماً الكَلَاَ[1]   صلى عليه الله ما انتجع الكلاَ

صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن ذلك قولُ الإمام العالم الشهير الأديب مالك ابن المرحل المالقى ثم السبتى ، وهى من غرر القصائد ، وفيها لزوم مالا يلزم من ترتيبها على حروف المعجم بجعلها بدأ ورويا على اصطلاح المغرب :

قصيدة مخمسة فى مدح النبى لمالك بن المرحل المالقى ، السبتى

ألف ، أجل الأنبياء نبىء   بضيائه شمس النهار تضىء

وبه يؤمل محسن ومسىء   فضلا من الله العظيم عظيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

باء ، بدا فى أفق مكة كوكبا   ثم اعتلى فجلا سناه الغيهبا

حتى أنار الدهر منه وأخصبا   إذ كان فيض الخير منه عميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

تاء ، تبينت الهدى لما أتى   فنفى الشريكَ عن القديم وأثبتا

أحَدِيَّةً مَنْ حاد عنها قد عَتَا   وتلا كلاما للكريم كريما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ثاء ، ثوى فى الأرض منه حديث   فى كل أفقٍ طيبُـــهُ مبثوث[2]

داع بأنواع الهدى مبعوث   يتلو نجوما أو يهز نجوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

جيم ، جلا بسراجه الوهاج   ما جن من ليل الظلام الداجى

وسقى القلوب بمائِهِ الثجاج   فأصارها بعد الغموم غميما

(١) الكلاَ : العشب ، أو ماليس له ساق منه ، وانتجعه : طلبه ، والسوام : السائمة التى ترعى ما تشاء   (٢) ثوى : أقام ، ومبثوث : ذائع منتشر

صلوا عليه وسلموا تسليما

خاء ، حمى دين الهدى بصفائح وسما بِشُمٍّ كالجبال أراجح[١]

من كل أزهر هاشمى واضح لولا نداه غدا النبات هشيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

خاء ، خبت نيران جهل شامخ آيات علم للرسالة راسخ[٢]

من مثبت ماح ومنس ناسخ قد خص بالذكر الحكيم حكيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

دال ، دعا فأجاب كل سعيد وأتى بوعد صادق ووعيد

حتى أقر الناس بالتوحيد وتجنبوا الإشراك والتجسيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ذال ، ذباب حسامه مشحوذ للناكثين ، وعهدهم منبوذ

أما السعيد فبالنبىِّ يلوذ فيدال من ذل الشقاء نعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

راء ، روينا عن ذوى الأخبار أن الندى والبأس مع إيثار

بعض صفات المصطفى المختار كم قد تقدم بالأنام زعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

زاى ، زعيم بالنزال عزيز وبليغ معنى فى المقال وجيز

فلقوله من فعله تعزيز ولربما عاد الكلام كُلُومَا[٣]

صلوا عليه وسلموا تسليما

سين ، سلام كالنفيس تنفسا وقد اجتنى وردا وصافح نرجسا

---

(١) الصفائح : السيوف ، واحدها صفيحة ، والشم : جمع أشم ، وهو وصف من الشمم ، وهو ارتفاع فى قصبة الأنف ، وهو من علائم العزة عند العرب

(٢) خبت : سكنت ، والراسخ : الثابت (٣) الكلوم : الجروح

أهدى إليه فى الصباح وفى المسا　　بقصائد كادت تكون نسيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

شين ، شمائله الكريمة تعطش　　من كان من سكر المحبة يرعش

لكن أضاع العمر فيما يوحش　　فغدت ندامته عليه نديما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صاد ، صَفِيٌّ للإلهِ ومخلص　　ومقرب ومفضل ومخصصُ

ذهب سبيك وزنه لا ينقص　　قد طاب خِيماً فى الورى وأرُومَا

صلوا عليه وسلموا تسليما

ضاد ، ضمين نصحه ممحوض　　ضافى القراءة بالعلوم يفيض

إن غاض ماء البحر ليس يغيض　　لما استمر زلاله تسنيما(١)

صلوا عليه وسلموا تسليما

طاء ، طويل السيف متسع الْخُطَا　　رحب الذراع ومن يمد لهم سَطَا

يردى العدا و إذا ارتدى متخمطا　　يبرى عذابا إذ ألام أليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ظاء ، ظهير للعباد حفيظ　　حظ له أدب العباد حظيظ

حق له التأبين والتقريظ　　ميتا وحيا ظاعنا ومقيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

عين ، عزيزٌ ذكرُهُ مرفوع　　فى الأنبياء وقوله مسموع

مشروح صدر ، حبه مشروع　　من لا يدين بذاك كان ذميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) غاض : غار فى الأرض ، والزلال ـ بالضم ـ الماء العذب السائغ ، والتسنيم : من مياه الجنة

غين ، غزا من زاغ عنه ومن طغى وغدا يشب لمن طغى نار الوغى
حتى أقامت من عصى بعد الصغا وتُقَوِّمُ النارُ العصَا تقويما[(١)]
صلوا عليه وسلموا تسليما

فاء ، فواتح سورة الأعراف وبراءة والرعد والأحقاف
أحْظَتْهُ بالأقسام والأوصاف فمتى توفِّى حقه منظوما
صلوا عليه وسلموا تسليما

قاف ، قوافى النظم عنه تضيق أيطيقه الإنسان ليس يطيق
فالخلق فى التقصير عنه خليق ولَوَ أنهم ملؤا الفضاء رقوما
صلوا عليه وسلموا تسليما

كاف ، كريم العنصرين مبارك متفرد بالجاه ليس يشارك
فهو الذى بمقامه يتـدارك والهول يغـدو مُقْعِدًا ومقيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

لام ، له عقـد اللواء الأحفل وله الشفاعة فى غد إذ تسأل
وإذا دعا فدعاؤه متقبـل حق الرحيم بأن يرى مرحوما
صلوا عليه وسلموا تسليما

ميم ، ملائكة الإله تسـلم فَوْجًا عليـه إذ بدا وتعظم
ويمر جبريل بهـا يتقدم فيضاعف التعظيم والتكريما
صلوا عليه وسلموا تسليما

نون ، نبى جاءنا ببيان وبمعجزات أبرزت لعيان
وبحسبه أن جاء بالقرآن يشفى قلوبا تشتكى وجسوما

---

(١) الصغا ـ بالفتح مقصورا ـ الميل والاعوجاج ، ومتى أردت تثقيف رمح أو أو تعديل عصا عرضتها على النار لتلين

صلوا عليه وسلموا تسليما

هاء ، هو الهادى الذى اقتدح النهى فتفكرت فى ملك من رفع السُّهَا[1]

وقضى بحـــد للأمور ومنتهى فأفادها النظر الســديد عموما

صلوا عليه وسلموا تسليما

واو ، وَهَى ركن التجلد ، بل هوى لما ثوى فى التراب من بعد التوى[2]

فحوى الضريح الرحب نجماغوى أجرى من الدمع السجوم سجوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

لام ، لأجلك فاض دمعى جدولا فاخْضَرَّ آس أساك إذ يبس الكَلاَ

يا خير من كلأ المــكارم والعلا وحمى الحمى ورمى فأعمى الروما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ياء ، يحييه و يسقيه الحَيَــا ربُّ العباد مجازيا وموفيا

ومشرفا ومسلما ومصليا يا مسلمين ورثتمو التسليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

قصيدة مخمسة فى مدح النبى لأبى العباس أحمد بن محمد المغربى

ومن ذلك قولُ الفقيه الــكاتب أبى العباس أحمد بن محمد بن عباس المغربى حسبما نقلته من المجلد الخامس والعشرين من كتاب « منتهى السول ، فى مدح الرسول » للحسن بن عبد الرحمن بن عبـد الرحيم بن عذرة المغربى الأنصارى رحمه الله تعالى ورضى عنه ونفعنا بقصده ! وهى أيضا مرتبة على حروف المعجم ما عدا الابتداء و بيوت الانتهاء ، غير أن ترتيب حروف المعجم فى آخر الأشطار ولم يلتزم صاحبها الابتداء كما التزم مالك بن المرحل ، رحمه الله تعالى :

الله زاد المصطفى تعظيما وقضى له التفضيل والتقديما

---

(١) النهى : العقول ، واحدها نهية ــ بالضم ــ والسها : نجم بعيد خفى

(٢) وهى : ضعف ، والتوى ــ بالتاء المثناة ــ الموت

وأناله شرفا لديه جسيما فهو المتمم فخـــره تتميما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من خُصّ بالأنباء وأبوه ما بين الثرى والمـــاء

ثم استمر النـــور فى الآباء فتوارثوه كريمة وكريما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على بدر بدا من يثرب فأضاء بالأنوار أقصى المغرب

وجلا عن الدنيا دياجى الغيهب فبدا لنـا نهج الرشاد قويما (١)

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من بالشرائع قد أتى وأباد أحْزَاب الطغاة وشَتَّتَا

وأبان أسباب النجاة ووقَّتَا للأمــة التحليل والتحريما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من بالغيوب يحدث وبروعه الروح المقدس ينفث

محبوبنا وشفيعنا إذ نبعث فى يوم لا يدرى الحميم حميما (٢)

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على صبح الهدى المتَبَلج صلوا على بحر الندى المتموج

صلوا على روض الجمال المبهج كيما تنالوا الفوز والتنعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على غيث الأنام السافح صلوا على المسك الذكى النافح

أزرت روائحه بكل روائح فالأرض طبقها شذاه نسيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) الدياجى : الظلم ، كأن واحدها ديجاة ، والغيهب ــ بزنة جعفر ــ السواد الشديد ، والظلمة

(٢) الحميم : الصديق ، وفى القرآن الكريم فى صفة هول القيامة : (ولا يسأل حميم حميما)

صلوا على مَنْ عهده لا يفسخ　　صلوا على من شرعه لا ينسخ
صلوا على من حِزْبه لا يمسخ　　نبأ يفهم فضله تفهيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من فخره لا ينفد　　صلوا على من فضله لا يجحد(١)
أنَّى وكتب الرسل طُرًّا تشهد　　تنبى اليهود بفضله والروما
صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ قد حَمَى عنا الأذى　　ومن الغواية والضلالة أنقذا
صلوا على من ذكره نعم الغذا　　وبمدحه نروى القلوب الهيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا بإخلاص على خير البشر　　من قبل نشأته المباركة اشتهر
كم كاهن عنه أبان وكم خبر　　ولكم دليل فى علاه أقيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من جل مولده وعز　　ضاءت قصور الشام لما أن برز
وتدانت الشهب الثواقب كالْخَرَزْ　　أو كاللآلى نظمت تنظيما
صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من مجده قد أسسا　　والماء بين بنانه قد بجسا(٢)
وأتت إليه سرحة حتى اكتسى　　بفروعها إذ خيمت تخييما(٣)
صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ بالملائك جيشا　　وغدت تظلله الغمام إذا مشى
حرست سماء الله لما أن نَشَا　　ليكون سر حبيبه مكتوما

---

(١) نفد الشيء ينفد ـ من باب علم ـ أى ذهب وانقضى
(٢) بجس : تفجر
(٣) السرحة ـ بالفتح ـ الشجرة العظيمة

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ بالتحية خصصا والقلب منه حين شق تخلصا[١]

من حظ إبليس اللعين ومحصا وأعيد ما إن يشتكى تثليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من يوم مولده سطا بجميع آلهة الضلالة والخطا

وهوى له عرش اللعين وأسقطا والفرس هدَّم صرحهم تهديما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من ليس فظا غالظا لأخيه فى الإرضاع كان محافظا

فاُعجب لذلك كيف كان ملاحظا للعدل فينـــا مرضعا وفطيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ كَلَّمته ذراع و بفضله كَفَتِ المئينَ الصاعُ

والجذع حنّ له وما الأجذاعَ بأرقَّ منـــا أنفسا وفُهُومَا

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من مدحه لا يفرغ ماذا عسى مدّاحه أن يبلغوا

فإلهنَا يثنى عليـــه و يبلغ فاقرأ تجده محكما تحكيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا من كان يبصر بالقفا وعليه سلمت الجنادل والصَّفَا

والذئب قال صدقت أنت المصطفى وشـكا إليـــه بازل قد ضيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من قد شفى بالريق عين الضرير ولدغة الصدّيق

---

(١) يشير إلى حادث شق صدره صلى الله عليه وسلم وإخراج علقة سوداء منه وهى حظ الشيطان من ابن آدم ، وقد رواه أهل الحديث والسير وقد سقطت من جميع الأصول أبيات حرف الضاد المعجمة

وأعاد طعم الماء مثل رحيق   إذ مج فيه العنبر المختوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ شأوه لا يدرك   صلوا على من شأوه لا يشرك[١]

موسى وعيسى والخليل تبركوا   بلقائه وعَنَوْا له تسليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ خَلْفَه صلى الرسل   شرف على تمكين عزته يدل

فإذن فقل هو سيد لهم ودل   لا تخش توبيخا ولا تحشيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من قد سَرَى نحو السما   ليلا وعاد وما برحنا نوّما

بالروح والجسم المطهر قد سما   قُلْهُ وراغِمْ من أبى ترغيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا عل من قد رأى الرحمانا   بالقلب أو بالعين منه عيانا

من قاب أو أدنى مكان كانا   فخذ الفوائد واحذر التجسيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من قد حَبَاه إلهُهُ   بالكوثر المروى لنا أمواهه

فى يوم حشر الخلق يظهر جاهه   إذ يقدم الرسل الكرام زعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من خص بالحوض الرِّوَى   وكذاك خصص بالمقام وباللوا

نوحا وآدم والكليم قد احتوى   وابن البتول حوى وإبراهيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) الشأو - بفتح الشين وسكون الهمزة — الغاية والأمد ، ويقال « فلان لايدرك شأوه » أى لا يبلغ مداه أحد

صلى عليـــه الله ما قُطِع الفلا   صلى عليـــه الله ما اجتمع المَلاَ

صلى عليه الله ما انتجع الـكلا   أبدا ، وما رعت السوام هشيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

صلى عليه الله ما هطل الحيـــا   صلى عليه الله ما التمع الضـــيا

فلقد شفى الدنيا من الداء العيَـا   ولقد حَمَى عنــا لظى جحيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

لله سيدنا النبى الأكمل   لله برق جبينــــه المتهلل

لله جود يمينـــه المتهطل   أحيا وأغنى بالنوال عديما

صلوا عليه وسلموا تسليما

لله منـــه ذاته وحقيقته   لله منه خلقـــه وخَلِيقَتُهْ

لله منه شرعه وطريقتـــه   فلقدجلت بشموسها التغييما

صلوا عليه وسلموا تسليما

يا أمة الهادى النبى المصطفى   بالله لو كنا نعامل بالوفا

متنا عليه حسرة وتلهفا   حتى نؤدى حقه المحتوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ما كان أولاَنَا بطول نحيبنا   ما كان أوجبنا بفرط وجيبنا[1]

أفنستطيع الصبر عن محبوبنا   ما الصبر عن لقياه إلاّ لوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

لم لا نُفِيضُ على الدوام دموعنا   لم لا نقض من الغرام ضلوعنا[2]

---

(١) النحيب : البكاء ، والوجيب : خفقان القلب واضطرابه

(٢) أقض مضجع فلان : حرفيته أن مكان نومه امتلأ بالحصى فلم يستطع الهجوع

لم لا نخـــلى أهلنا وربوعنا حتى نعاين من ذَرَاه رســوما (١)

صلوا عليه وسلموا تسليما

أو لم يكن يحنو علينا مشفقا أولم يكن متعطفا مترفقا

أو لم يعالجنا بأنواع الرقى حتى اغتدى منا العليل سليما

صلوا عليه وسلموا تسليما

من مثله ما إن يضر وينفع من مثله يدْرَا العذاب ويدفع (٢)

مَنْ مثله لذوى الكبائر يشفع من مثله بالمؤمين رحيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

يا ويح نفسى كم أرى ذا صبوة ومسامعى عن واعظى فى نبوة

فعسى الرسول يُقِيلنى من كبوة فلكم رجاه عاثر فأقيمـــا

صلوا عليه وسلموا تسليما

يا رب بالهادى الرفيع المحتد اغفر لعبدك أحمد بن محمد

فلقد توسل إذ رجاك بسيد ما رُدَّ معتلق به محروما

صلوا عليه وسلموا تسليما

ناشدتكم يا سامعى هذا الثنـــا قولوا متى أسمعتموه تدينـــا

اغفـــر لقائله المقصر ما جنى بمديحه خـير الورى المعصوما

صلوا عليه وسلموا تسليما

قلت : وإنى لأسأل الله تعالى بلسان لم أعص به وهو لسان هذا المادح ، إذ قال « يارب بالهادى » فإنى أحمد بن محمد بَلَّغه الله أمله من غفرانه بمنه وكرمه ! آمين .

رجع ـ ومن ذلك قولُ الفقيه الكاتب الأديب أبى العباس أحمد بن القاسم

---

(١) ذراه ـ بفتح الذال مقصورا ـ موضعه العالى

(٢) يدرا : أصله يدرأ ـ بالهمز ـ ومعناه يدفع ، وفى القرآن الكريم : (ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله)

قصيدة مخمسة في مدح النبي لابن القصير

الإشبيلى الشهير بابن القصير ، وطريقه هذه مخالفة للطريق المتقدّمة من بعض الوجوه ، رحم الله تعالى الجميع :

الله أكرم أحمدا تكريما فغدا رسولا للعباد كريما
فاشكر غفور الذنوب رحيما أرضى النبى بقوله تعليما
صلوا عليه وسلموا تسليما

لله منه هـدى نبى مرتضى بالبعث منه لنا قضى لطف القضا
ملأت فضائله المَهارق والفضا ودجا الوجودُ فعند مبعثه أضا[1]
صلوا عليه وسلموا تسليما

عجبت لنا منه ملائكة السما أن كان بالإسراء ليلا قدسما
ورقى البراق به وجبريل لما قد سره سرا وجهرا سلما
صلوا عليه وسلموا تسليما

أَعْظِمْ به من مرسل قد بشرا بوجوده عيسى المسيح وقد سرى
ليسر فهو أجل مبعوث يرى بهداه أمته زَهَتْ بين الورى
صلوا عليه وسلموا تسليما

مَنْ جاء بالقرآن معجزة له أعيا الورى من بعده أو قبله
الله كرّمه وفضل فضله وأجل منه فرعه وأصله
صلوا عليه وسلموا تسليما

مَنْ سبحت صُمُّ الحصا فى كفه والبدر شقق نصفه عن نصفه
ليرى به إعجاز من لم يصفه حزنا بمفخر ذكره أو وصفه
صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) المهارق : جمع مهرق ؛ وهى الورقة التى يكتب فيها ، ودجا : أظلم ، وأضا : أصله أضاء ، فسهل الهمزة بقلبها ألفا ثم حذفها

يكفيه أن يتلى اسمه ويكرّر   مع إسم خالقه إذا ما يذكر
هذا الذى بمقاله لا يفجر   أبدا ولا لخلافه يتصوّر

صلوا عليه وسلموا تسليما

العبد أسرف يا نبى الله   فى الذنب ساه عن تُقَاه لاَهِى
فاشفع له من مذنب أوّاه   يرجو كريما منك جَمَّ الجاه

صلوا عليه وسلموا تسليما

أنأى الزمان وصوله أو ســـوله   فاستصحب الأبيات منه رسوله
فأنِلْ بفضلك للمراد حصوله   حسبى ثَنَاً وازنت منه فصوله

صلوا عليه وسلموا تسليما

ابن القصير أطال فيك نظامه   ليرى بذاك مسلما إســـلامه
وترى مطاوع أمره وكلامه   لا زال يقريك الإلهُ ســـلامه

صلوا عليه وسلموا تسليما

وما أَحْسَنَ قولَ جمال الدين بن جلال الدين الجوزى رحمه الله تعالى :

لجمال الدين بن جلال الدين الجوزى

فَضَلَ النبيين النبىَّ محمـد   شرفا يزيد ، وزادهم تعظيما
در يتيم فى الفخار ، وإنما   خير اللآلى ما يكون يتيما(١)
ساد النبيين الكرام وكلهم   صلوا عليه وسلموا تسليما
والله قد صلى عليه كرامة   صلوا عليه وسلموا تسليما

ومن ذلك هذا التسديس البديع الذى هو من نظم الإمام العارف بالله تعالى علاء الدين محمد بن العفيف الأيجى الحسنى الصفوى الزينبى ـ رحمه الله تعالى ! ـ

---

(١) اليتيم من الدر : الذى لا نظير له

تسديس في مديح الرسول لمحمد بن العفيف الحسني الصفوي

مما رتبه على حروف المعجم والتزم الحرف أول الأشطار الأربعة وآخرها :

الله أحمد أحمــدا إذ يبرأ ... أوْضَى وضيء نوره يتلألأ
أنواره كل العوالم تمــلأ ... أكوانه لولاه لم تك تنشأ
إن كنتم أُنقدتم له تسليما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

بدر بدا من نوره يتطلب ... بحر بحورُ الجود منه تركب
بر و برهان جــلا يتقلب ... بالمصطفى ممن صـفا أتقرب
بادوا بما يجدى لـكم تنعيما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

تالله مثل محمـــد لا يثبت ... تم الـكلام ببعثه ونبـوّة
تاج العلا بالمصطفى يتثبت ... تاهت عقول للذى هو ينعت
تحف الصلاة به عليه أديما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

ثق بالذى يوما يقوم و يبعث ... ثبـــة البرية بالنبي تغوّث(١)
ثبت الشفاعة للورى يتحدث ... ثرة الطوائف للذى يتشبث
ثبت لزام الباب فيـه مقيما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

جاء النبي عوالمـــا يتباج ... جاهٌ له مَنْ جاه يتبهج
جاهٌ ينجِّى من لظى تتوهج ... جاءت له الأشجار أرضا تفرج
جاور نبي الله نلت نَعِيَما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

حقاً هو الحق المبين الأوضح ... حب حياء حبـه يترنح
حسناته حَسَنَاتُهُ تُسترجحُ ... حتى القلوب بحبه تترجح
حوت العلوم لذاته تـكريما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

خير البرايا دينه هو ناسخ ... خير له خير الخيور رواسخ

---

(١) الثبة — بضم الثاء وفتح الباء مخففة — الجماعة ، وتغوث — بالبناء للمجهول — تغاث

خرالذى عن دينه هو بازخ | خال خلى عن نقائص باذخ[1]
خـذ باتباع فعـاله ترسيما | صلوا عليـه وسلموا تسليما
دل الأنامَ على الإله محمـدُ | دامت سعادة من بأحمد يسعد
دار له مأوى المحامد تحمد | دان الوجود به ومن هو أحمد
داوم على باب له تخييما | صلوا عليـه وسلموا تسليما
ذكر الحبيب أحق ما يتأخذ | ذخرا ليوم بالنواصى يؤخذ
ذاك الشفيع لمن به يتعوّذ | ذاك الذى بجنابه يستنقذ
ذلوا له ولبابه تغنيما | صلوا عليـه وسلموا تسليما
رب النبى محمد هو يذكر | رتب الحبيب كتابه متذكر
رأى محيا أحمد هو ينظر | روح القلوب ولاؤه هو ينصر
روّح بذكراه المريح نديما | صلوا عليـه وسلموا تسليما
زين البرايا بالوجود معزز | زان العوالم حسنه يتفوّز
زن فضله عن كلهم يتميز | زد ذكره عن زلة يتحرز[2]
زلفى أنله بالمـنى تتميما | صلوا عليه وسلموا تسليما
سبق الأنام بفضله هو أنفس | ساد الجميع بسؤدد يترأس
سبحان من أسرى به يتأنس | سر الحبيب بسره يتقدس
سمع الـكلام من الإلهِ كليما | صلوا عليه وسلموا تسليما
شمس الهدى بدر الدجى يتبشش | شرف الحبيب من الوجوه يفتش
شكراً لمولانا عليه وأبهش | شوقى إليـه وافر أتعطش
شغل للبك بالحبيب أديما | صلوا عليـه وسلموا تسليما

---

(١) خر : سقط ، والبازخ : المتقاعد المتقاعس ، والباذخ : الطويل

(٢) تحرز عن الشىء : تمنع منه وجعل لنفسه حرزا دونه

صفة الكلام لذاته هو أخلص صفة الكتاب كماله يتلخص
صفة القلوب بحبه تتخلص صفه صفاصب وأنى يخلص
صل بالصلاة جنابهُ تكليما صلوا عليه وسلموا تسليما
ضَفَتِ الفيوض من الحبيب تفيض ضعفى إليه آملا يتعوّض
ضرى وضيرى كله يتقوّض ضل الذى فى بابه لا ينهض
ضمن الحبيب لذاكريه زعيما صلوا عليه وسلموا تسليما
طوبى لمن بحبيبه يتنشط طابت به أحواله والمنشط
طال اشتياقى طيبة أتبسط طال الإله على طولا يبسط
طوبى بمدحته يطيب نسيما صلوا عليه وسلموا تسليما
ظل الهدى بهُدَاه قد يتحفظ ظلمات شرك قد جلت تتدلظ(١)
ظلى لظل وداده يتحفظ ظهرى ظهيرى حبه أتحفظ
ظنى به يغدو العقاب عديما صلوا عليه وسلموا تسليما
علت المعالى بالنبى وترفع عز علاه للذى هو يتبع
عمت عطاياه لكل ينفع عرش العظيم قد ارتقى يترفع
عَرَجَ الإلهُ به إليه عليما صلوا عليه وسلموا تسليما
غوث الورى ذا المصطفى هو سابغ غيث الندى هو فى البرايا سائغ
غمر الندى أقصى النهاية بالغ غزر الحيا شمس وبدر بازغ
غنما نما بالمؤمنين رحيما صلوا عليه وسلموا تسليما
فخر وذخر بالمفاخر يشرف فرد وحيد فى العوالم أشرف
فتح الوجود وكل كون مردف فاز الفقير بلطفه يتلطف

(١) يقال « دلظه دلظا » من باب ضرب ـ إذا دفعه فى صدره ، ويقال « دلظ فلان فى سيره » إذا مر سريعا ، والدلظى ـ بفتحات ـ من تحيد عنه ولا تقف له فى الحرب

فاح النسيم من الحبيب جسيما … صلوا عليه وسلموا تسليما

قسم الإله بعمره فيفوق … قسمت وجوه الحسن منه فيسبق[١]

قمر وشمس نوره متألق … قمن بذكراه الدعاء معلق

قطب لدائرة الوجود كريما … صلوا عليه وسلموا تسليما

كتب الإله ثناءه ما يدرك … كتب اسمه قرب اسمه يتبرك

كل الكمال له به يستدرك … كُنْهُ الكمالات التى لا تدرك[٢]

كيف كفى در الثناء يتيما … صلوا عليه وسلموا تسليما

لمعات نور محمد هى تخجل … للشمس والبدر المنير فتخجل

لذات ذكر محمد هى أكمل … لذوى الحوائج لائذ متكفل

لذ خذ بجد منك تُلْفَ حكيما … صلوا عليه وسلموا تسليما

من مثله فى العالمين معظم … من مثله فى العالمين مكرم

مَنْ للإله لَدَى اللقاء يكلم … مَنْحًا حباه منه قد يتعلم

مَنٌّ الإله لديه صار عميما … صلوا عليه وسلموا تسليما

نور له فى آدم يتبين … نقلا إلى آبائه يتعين

نأى العوالم إذ أتى متعين … نار المجوس تخمدت تتهوّن

نعماه جمت إذ تعم كريما … صلوا عليه وسلموا تسليما

وجه به كل الوجوه إليه هو … وجه الوجاه بكله يتوجهوا

ووجاهه وجه المرام فوجهوا … وجه إليك نبينا فتوجهوا

وَجِّهْ إلينا نظرة تكريما … صلوا عليه وسلموا تسليما

هو مصطفى عند الإله الأوجه … هَادٍ لنا وبوجهه من أوجه

---

(١) أقسم الله تعالى بعمره فى قوله سبحانه : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون)

(٢) كنه الشىء : حقيقته

ها إنه وجهى لهذا أوجـــه هيه هنيئا وجهه بالأوجـــه
هام الفؤاد بحبــــه تيميا صــــلوا عليه وسلموا تسليما[١]
لا مثل للمختار أعلى من علا لا جيه ناج قد نجا كل البلى
لاذ الصفىُّ به يتوب فأقبلا لاقى النبى محمد أن يقبلا
لازم محبــــا للحبيب نديما صلوا عليــــه وسلموا تسليما
يا أكرم الخلق الذى هو ملجئى يأتى محمــــد العنيفى الذى
يده يمد إليك مرتجيــــا وفى يقن بصفوته الصفى ويكتفى
يمنا لذكرك يبتــــدى تختيما صلوا عليــــه وسلموا تسليما

تسديس آخر لابن العفيف الحسنى الصفوى

وله أيضا رضى الله تعالى عنه قصيدة أخرى على طريقة هذه ، وقد نظمها بعدها نفع الله تعالى بنيته ، وبلغه غاية قصده وأمنيته ، وهى هذه :

أحسن بطلعة أحمد هى أضوأ أعلن بلمعته العوالم تمــــلأ
أزين به لما أتى يتــــلألأ أبين بآيات له فتنبــــأ
الله قدمه بها تقــــديما صــــلوا عليه وسلموا تسليما
بدأ الإلٰهُ بنــــوره فيعقب بدء الذى بالمصطفى يتقلب
فيه لذى الحاجات إذ يتطلب بدء بذكراه به يستــــوهب
بل هو إلى الأربِ انتفع تعميما صلوا عليــــه وسلموا تسليما
تلت العلامات التى هى تثبت تبَّ العدا تبًّا وعنــــه تقتبت
تمت له الآيات فيك تبكت توراة موسى ناطقا هى تنعت
توقيع حاجات صفوا تسليما صلوا عليــــه وسلموا تسليما
ثبت الكمال له ومنه يورث ثبت الورى لو لم تكن لا تحدث

(١) فى ب « هام الفؤاد بحبه تتميا »

ثبت بذكرى المصطفى يتحنث	ثبت الذى بجنابه يتشبث (١)
ثبت بذكر قد تراه قديما	صلوا عليه وسلموا تسليما
جاء العـــوالم نوره يتبلج	جاد العوالم بحره يتموج
جاز السموات العلا يتعرج	جاب الجميع بسامه يتفرج
جار له جاري له تنعيـــما	صلوا عليه وسلموا تسليما
حار العقول لمدحه إذ يمدح	حيا الحياء بريه يستروح
حى له فضل به يسترجح	حى له حامى حمى فتروح
حى الحمى الحامى تصير سليما	صلوا عليه وسلموا تسليما
خلق له كل به يتشمخ	خلق له بالنقص لا يتلطخ (٢)
خلق به أحسن به هو أبذخ	خلق يحق له الثناء الأرسخ
خلق إلهى بذاك تمـــيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
دار الحبيب أحق ما يتعمد	دارت بها كل السعادة تسعد
دانت أهاليها بما هو يرشد	دار بحسنى طيبة لا تبعد
دارك سكونا بالسكون مقيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
ذكر الحبيب محمد هو ينقذ	ذكر لما ينسى رسولا ينفذ
ذكر الإله ثنـــاؤه و يلذذ	ذكراه تنفع سامعا يتلذذ
ذيل النبى خذ اعتصم تعظيما	صلوا عليه وسلموا تسليما
رب الورى سبحانه هو أكبر	رب النبى محمد فيــكبر
رب الرؤف حبيبـــه فيدبر	ربى اصطفاه من الورى فأكبر
رب ارتجـــاء للمنى قدويما	صلوا عليه وسلموا تسليما

---

(١) يتشبث : يتمسك ويتعلق

(٢) يتشمخ : يتعاظم ويتعالى

زان العوالم إذ أتاها يبرز زاد الإله عروجـه فيبرّز
زادت معاليه عروجا ينشز زاد لأخرى حبـه يتحرز
زعم الشفاعة ذا كريه زعيما صلوا عليـه وسلموا تسليما
ساد الجميع إذا أتى هو أنفس سار السموات العلا يستأنس
سأل الإله وزاد ما يتنافس سامى ذراه للمحب تؤنس
سارع إلى ذاك الذرا تخييما صلوا عليه وسلموا تسليما
شرف لأمتـه به يتغابش شرق لأشرق شرقه يتفرش
شرقا وغربا فيه عقل يدهش شوقا إليه قد إليـه أجهش
شكرا على النعمى تزيد نعيما صلوا عليـه وسلموا تسليما
صفة له ذات له هو أخلص صفتا عن الشيء الذي يتنقص
صفة له حارت عقول تفحص صفة شريعته النقائص تخلص[1]
صفة له وبربه لقـديما صلوا عليه وسلموا تسليما
ضاع المديح لأحمد يتروّض ضاع الذي عن ذكره هو يعرض
ضاف حباه كفه ليفضفض ضاف بذكراه المنى يتعرض[2]
ضاعف له الآمال صلهُ مديما صلوا عليه وسلموا تسليما
طال العوالم إذ أتى هو يقسط طابت مدائحه فطاب المغبط
طابت به النعمى وطاب المنشط طام له بحـر الألى يتنشط
طالب مطالب كلها تتميما صلوا عليـه وسلموا تسليما
ظهر النبي ورب [أحمد يلحظ] ظهر لأمته ظهـير ملحظ
ظهروا على الأمم افتخار ملحظ ظـل له ظلوا به يتحفظوا

(١) تفحص : تبحث
(٢) ضاف : سابغ

ظلت الظلال إذا ذكرت نديما   صلوا عليـــه وسلموا تسليما
عـــدّ المحاسن للنبى يستتبع   عـــدّله آياته تتنوّع
عدّاه مولاه إليـــه فيطلع   عد لذكراه غداة يشفع
عُدْ باب مَنْ المؤمنين رحيما   صلوا عليـــه وسلموا تسليما
غزرت له الآيات هن نوابغ   غزر الحيا عز الورى هو سائغ
غمر الرِّدا بحر الندى يترفغ   غمر البلاد بذكره يتفرغ (١)
غمر بذكراه الفؤاد وسيما   صلوا عليه وسلموا تسليما
فاض الجمال وفاض منه يوسف   فاز المحب بذكره لا يوسف
فاضت عليه فيوضه يتزلف   فاشٍ له الآيات لا يتكلف
فاد له كل بهم تقـديما   صلوا عليه وسلموا تسليما
قمر بدا من أفقـــه هو فائق   قمر يجاب بذكره و يعلق
فمقام كل الأنبيـــاء وسائق   فمقـــام جودعم كل يرفق
قم بابه مستنجحا ومقيمـــا   صلوا عليه وسلموا تسليما
كلابه فتح الوجود ويدرك   كل الـكمالات احتوى لا يشرك
كَلَّ اللسان عن البيان ويمسك   كُلِئْ الذى بجنابه يتمسك
كل مرتجاك إليه ثق تكريمـا   صلوا عليـــه وسلموا تسليما
لمحمد هو مصطفى ومؤمل   لمحمد بن محمـــد ما يأمل
لمحت عليـــه بروقه يتحمل   لمعان نور وداده يستكمل
لم لا أصيب من الحبيب شميما   صلوا عليـــه وسلموا تسليما
من مثل ذاك المصطفى يتعظم   من كل وجه للـكمال ليعظم

---

(١) غمر الرداء : كناية عن الجود والـكرم ، وأصله فى قوله الشاعر :
غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا   غلقت لضحكته رقاب المال

مَنَّ علينا من إلهٍ أعظم منه العروض إليه وهو يعظم
من كان للرب العظيم كليما صلوا عليه وسلموا تسليما
نور الإلهِ حبيبه يتمكن نادى الإله حبيبه يتمكن
نال نوالا شرحه لا يمكن ناد له طوبى لمن يتمكن
نادى الحبيب بذكره تكليما صلوا عليه وسلموا تسليما
والله مثل محمد لا يشبهو والله مولاه العوالم كيف هو
وجد الوجود بذاته وبه له وجد علا وبوجهه فتوجهوا
وجدوا وجاد من النجاة مقيما صلوا عليه وسلموا تسليما
هو أكمل من كل وجه أوجه هو ذا الحبيب القلب منه أوجه
فأولى طيبه واوجهو هو من الأرض المكثر أوجه[1]
هانا بنار الشوق صرت سقيما صلوا عليه وسلموا تسليما
لا ريب لا مثل له والله لا لاحت له الآيات عرشا قد علا
لاقى ارتقاء ربه فتوصلا لاج به نال المنى إلى الْألا
لازم لباب جنابه تقسيما صلوا عليه وسلموا تسليما
يا أكرمًا كل إليه يلتجى يأتى محمدك العفيفى الذى
يقفنا توسل بالصفى ويحتذى يده إليك [يمدُّ] فقرا ترتجى
يمن افتتاح باسمه تختيما صلوا عليه وسلموا تسليما

قلت : وإنما أثبت هاتين القصيدتين فى جملة ما سردته ، وإن كان فيهما من التكلف مالا يخفى لأوجه : أحدها : أن صاحبهما من الصالحين يسلم له ويتبرك بكلامه ، ومن اعترض على مثله يخشى عليه من تسديد السهام لملامه ، الثانى :

---

(١) كذا فى ب ، خ ، وليس بشىء ، وأصلحه ناشرب بقوله :
هو أفضل هو أجمل هو أوجه هو من ترى فوق المعالى أوجه

أنهما [فى] مدح النبى صلى الله عليه وسلم وعليه من الله أزكى صلاته وأتم سلامه ، الثالث : أن المراد جمع ما وقفت عليه فى البحر والروى والمعنى ، لأن بعضا من العلماء ذكر لى أنه لم يطلع فى ذلك إلا على قصيدة ابن الجيان ، فأحببت أن أتعرض لتعريفه بهذا العدد وإعلامه ، على أن القصد الأعظم ما هو إلا التلذذ بذكر أمداح المصطفى صلى الله عليه وسلم ، خصوصا المقتبس فيها قوله تعالى (صلوا عليه وسلموا تسليما).

وقد كنت نويت أن أؤلف فى ذلك بالخصوص كتابا أسميه « روضة التعليم ، فى ذكر الصلاة والتسليم ، على من خصه الله تعالى بالأسراء والمعاينة والتكليم » والله تعالى المسئول فى التيسير ، فلنزد عليه يسير .

تسديس فى مدح النبى لأبى عبد الله ابن العطار الجزائري

ومن ذلك هـذا التسديس الذى وجدته فى كتاب « درر الدرر » للشيخ الإمام أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن أبى بكر العطار الجزائرى من جزائر بنى مرغنة ، وهى المشهورة الآن بالجزائر :

أنوار أحمد حسنها يتلألأ ... المصطفى بحلى الكمال يحلأ
الشمس تخجل وهو منها أضوأ ... النور منـه مقسم ومجزأ
قد زان ذاك النور إبراهيما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

صلوا على المسك الفتيق الأطيب ... صلوا على الورد المعين الأعذب
صلوا على نور ثوى فى يثرب ... صلوا عليه بمشرق وبمغرب
مازال فى الرسل الكرام كريما ... صلوا عليـه وسلموا تسليما

صلوا على زهر الكمال النابت ... صلوا على طود البهاء الثابت[1]
صلوا على من فاق نعت الناعت ... خير الورى من ناطق أوصامت

---

(١) الطود ـ بالفتح ـ الجبل

وأعزهم نفسا وأطهر خِيَمَا صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على طيب يفوح ويمكث صلوا على من عهده لا ينكث
صلوا على من بالهدى يتحدث عنه المعارف والحقائق تورث
أضحى يعلمنا الهدى تعليما صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على من نوره يتبلج صلوا على من عَرْفه يتأرج
للحضرة العلياء ليلا يعرج صلوا على من حاز مجدا يبهج
وبها على العرش المجيد مقيما صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على البدر المنير اللائح صلوا على صبح الرشاد الواضح
صلوا على المسك الذكى الفائح صلوا على الهادى النبى الناصح
الرشدَ فهَّمَ والهدى تفهيما صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على من شرعه لا ينسخ صلوا على من عهده لا يفسخ
صلوا على مَنْ بالثناء يضمخ علياؤه عليا الكمال تؤرخ
نال المفاخر والكمال قديما صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على الهادى لأعذب مورد صلوا على خير الأنام الأوحد
صلوا على بدر التمام الأسعد بمحمد فزنا ، ومن كمحمد
الله عَظَّمَ قدره تعظيما صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على من بالنبوة ينفذ صلوا عليه فللسعادة يجبذ
صلوا على من حبه لا ينبذ أبصارنا طرا بأحمد لوّذ[1]
فى موقف يُنْسِى الحميمَ حميما صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على البدر المنير الزاهر صلوا على الروض البهى الناضر

---

(١) لوذ : جمع لائذ أو لائذة

صلوا على مُزْن العلوم الماطر صلوا على المسك الفتيق العاطر
وتنعموا بصـــلاتكم تنعيما صلوا عليـه وسـلموا تسليما
صلوا على نور يلوح ويبرز صلوا على مسك يفوح ويحرز
بمحمد حلل الكمال تُطَرز ولمجده درر السيادة تفرز
قد نظمت لـكماله تنظيما صلوا عليـه وسـلموا تسليما
صلوا على الدر النفيس الأنفَسِ صلوا عليه فهو روض الأنفُسِ
صلوا عليه فهو زين المجلس ومنى الجليس ونزهة المتأنس
راق النفوس شذًا وطاب شميما صلوا عليه وسـلموا تسليما
صلوا على المختار أفضل من مشى صلوا على النور الذى قد أدهشا
بمحمد عَرْفُ القرنفل قد فشا ورد لظمآن إليـــه تعطشا
يُبْرِى الضنا أبدا و يروى الهيما صلوا عليه وسـلموا تسليما
صلوا على من بالكمال يخصص صلوا على مَنْ نورُهُ لا ينقص
صلوا عليه على الدوام وأخلصوا ظل ضفا بالأمن لا يتقلص[1]
شمل الورى طرا وطاب عميما صلوا عليه وسـلموا تسليما
صلوا على صبح تبلج بالرضا وقضى على ليل الضلالة فانقضى
صلوا على مَنْ بالنجاة تعرضا صبح تذهَّبَ نوره وتفضضا
وعـــلا وخَيَّم ضوءُهُ تخييما صلوا عليـــه وسلموا تسليما
صلوا على من بالبهاء يخطط صلوا على وَرْدٍ بمسك يخلط
للمصطفى بُسُطُ الكرامة تبسط وله يواقيت السناء تقسط
و بنوره أضحى الزمان وسيما صلوا عليـــه وسلموا تسليما

---

(١) ضفا : زاد ، ووقع فى ب « طفا » بالطاء ـ تحريف ، وتقلص : نقص

صلوا على من بالمهابة يلحظ ... صلوا على من بالنبوّة يلحظ

صلوا على من بالهداية يلفظ ... لعصاته نار الجحيم تغيظ

ورضاه هَبَّ لنا وطاب نسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على البدر المنير الساطع ... صلوا على الروض الأنيق اليانع

صلوا على الصبح المنير اللامع ... صلوا على المسك الفتيق الذائع

ووقاه فى وهج الهجير مغيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على النور الأعم السابغ ... صلوا على البدر الأتم البازغ

صلوا على المسك الذكى البالغ ... صلوا على الوِرْدِ المَعينِ السائغ (١)

للواردين به غدا تتميما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من بالتقرب يوصف ... صلوا على من بالمحبة يعرف

صلوا على من بالعلا يتشرف ... صلوا عليه به الكمال يزخرف

المجد فخَّمَ ذكره تفخيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على مسك يطيب لناشقِ ... صلوا على الروض الأنيق الرائق

إشراقه بمغارب ومشارق ... صلوا على البدر الأتم الفائق

بادٍ تنسم حسنه تنسيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من قدره لا يدرك ... صلوا على من باسمه يتبرك

صلوا على من جسمه لا يترك ... صلوا على من للهدى يتحرك

وبه تحلى ظاعنا ومقيما ... صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على البدر المنير الأكمل ... صلوا على الروض البهى الأجمل

صلوا على الهادى النبى الأحفل ... المصطفى الأرقى لأنزه محفل

---

(١) السائغ : الذى يجرى فى الحلق سهلا

فيــه تقدم وحده تقديما صلوا عليـه وسلموا تسليما

صلوا على زهر أنيق باسم صلوا على عَرْفٍ ذكى ناسم

صلوا عليه فهو بدرُ مواسِم من جوده نلنا بخير مقاسم

أنواره قــد تممت تتميما صـلوا عليه وسـلموا تسليما

صلوا على من بالنبوّة زينا صلوا على من بالكمال تمكنا

صلوا على هاد أبان وبينا بمحمد فزنا بإدراك المــنى

للخلق أرسل رحمة ورحيما صـلوا عليه وسـلموا تسليما

صلوا على الهادى النبى الأنزه بدر التمام وروضــة المتنزه

فى فضله كل الشهادة تنتهى أبدًا بلثم ثراه فخر الأوجه

فى حبه أضحى الغرام غريما صـلوا عليه وسـلموا تسليما

صلوا على نور بطيبة قد ثوى فعلا وفاض على البسيطة واحتوى

صلوا عليه فليس ينطق عن هوى صاوا عليه فهو يُنْجى مَنْ هَوَى

فى موقف يذر السليم سليما صـلوا عليه وسـلموا تسليما[1]

صلوا على نور تلألأ واعتلى صلوا على صبح مبين يجتلى

صلوا على مسك يخالط مَنْدَلاَ صلوا على در تزان به الحلى

وبه المعالى خيمت تخييما صـلوا عليـه وسلموا تسليما

صلوا على مَنْ نال مجدا عاليا وسمــا وحاز مفاخراً ومعاليا

صلوا على نور تبدّى حاليا وبمدحـه الرحمنُ زين حاليا

وإذا سما المخدوم زان خديما صلوا عليــه وسلموا تسليما

وقد توارد فى بعض هذا التسديس مع بعض بيوت القصيدة السابقة التى أولها

(١) يذر : يدع ويترك ، والسليم الأول : بمعنى الصحيح السالم من الأدواء ، والسليم الثانى : اللديغ ، وفى أمثالهم « السليم لا ينام ولا ينيم » أى الذى لدغته الأفعى ، مثلا

* يا أمة الهادى المبارك أحمد *

حسبما يعرفه المتأمل ، والذى فى ظنى أن صاحب « يا أمة الهادى » متأخر عن ابن العطار فهو الذى أخذ منه ، والله سبحانه أعلم .

وتوارد أيضاً فى عدّة أبيات مع تخميس الكاتب أبى العباس بن جمال الدين المتقدم ذكره وأوّله :

* الله زاد محمداً تعظيما *

وهما على منوال واحد ، غير أن ذلك تخميس وهذا تسديس ، وابن جمال الدين أقدم من ابن العطار تاريخا ، فيحتمل أن يكون ألم بكلام ابن جمال الدين ، أوذاك من توارد الخاطر .

تسديس آخر فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

ورأيت فى هذا الكتاب تسديسا آخر لم يرتبه على حروف المعجم ، وجعل روى الشطرين الأخيرين حرف اللام ، فأحببت ذكره هنا زيادة فى التبرك بمدح المصطفى عليه أجل الصلاة والسلام ، وهو :

نور النبى المصطفى المختار ... أربت محاسنه على الأنوار (١)
مرآه يُخْجل بهجة الأقمار ... نور ينجى من عذاب النار
قد زان ذاك النور إسمعيلا ... صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على البدر المنير المشرق ... صلوا عليه بمغرب وبمشرق
صلوا على غصن الكمال المورق ... بالمصطفى المختار برق الأبرق
يهدى غراما للنفوس دخيلا ... صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على من قد تناهى فخره ... صلوا على من قد تعاظم قدره
صلوا على من قد تأرج نشره ... صلوا على من قد تناسق دره (٢)

---

(١) أربت : زادت

(٢) تأرج : فاح ، والنشر ــ بالفتح ــ الريح

عقد الثناء لمجده إكليلا ... صلوا عليـــه وسلموا تسليما

صلوا على خير الأنام المرسل ... صلوا على البدر المعين السلسل

صلوا على أسنى سَنَا المتوسل ... صلوا على نور الهدى المسترسل

ظل علينا لا يزال ظليلا ... صلوا عليـــه وسلموا تسليما

صلوا على النور الأنم الأكبر ... صلوا على مَنْ فاق عَرْف العنبر

صلوا عليه فهو أصدق مخبر ... كم زان ذكر المصطفى من منبر

وأراح من داء الضلال عليلا ... صلوا عليـــه وسلموا تسليما

صلوا على النور الأنم الأكبر ... صلوا على من فاق كل مبشر

صلوا عليه هديتمُ من معشر ... صلوا على بدر يرى فى المحشر

حاز الجمال فلا يزال جميلا ... صلوا عليـــه وسلموا تسليما

صلوا على النور البهىِّ المغرب ... صلوا عليه بمشرق و بمغرب

صلوا على الوِرْدِ الشهى المشرب ... بالفكر يشرب ويح من لم يشرب

منه ، و ينقع بالورود غليلا ... صلوا عليـــه وسلموا تسليما(١)

صلوا على من فخره لا ينكر ... صلوا على من فى النجاة يفكر

صلوا على من بالنبوّة يذكر ... صلوا على من بالهداية يشكر

شكرا على مر الزمان حفيلا ... صلوا عليـــه وسلموا تسليما

صلوا على من بالسيادة قد سما ... صلوا على من فى الكمال تقسما

صلوا على صبح بدا متبسما ... صلوا على طيب سرى وتنسما

وغدا وراح معطرا و بليلا ... صلوا عليـــه وسلموا تسليما

صلوا على مسك يخالط عنبرا ... صلوا عليه سرى وفاح وما انبرى

---

(١) الغليل : حرقة الباطن ، ونقعه ـ من باب فتح ـ أى أبرده و بلله وأذهب حرقته

صلوا عليه حوى الكمال الأكبرا … لبس الجمال مطرزا ومحبرا
وبذاك قد خص الجليل جليلا … صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على من بالنبوّة توّجا … صلوا على صبح بدا وتبلجا
صلوا عليه لقد أضاء وأبهجا … ومحا برونق نوره ظُلَم الدجا
نور يعود الطرف منه كليلا … صلوا عليه وسلموا تسليما(١)
صلوا على نور تبلج لائحا … صلوا على نور تبلج واضحا
صلوا على مسك تأرج فائحا … وبطيبه ملأ الوجود روائحا
وبحبه يستوجب التبجيلا … صلوا عليه وسلموا تسليما(٢)
صلوا على من نورهُ ملأ الفضا … صلوا عليه لقد أضاء وماانقضى
صلوا على من حُفّ حقا بالرضا … لنجاتنا خير الأنام تعرّضا
وهدى إلى نيل الرشادِ سبيلا … صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على بدر يدوم كماله … باق على مر الزمان جماله
صلوا على من قد تعاظم حاله … ودنا إلى ورد الرضا تَرْحَاله
وإلى الورود به أجدّ رحيلا … صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا بأجمعكم على شمس الهدى … صلوا على بدر يزين المشهدا
صلوا عليه فمن رآه تشهدا … صلوا عليه به الرشاد تمهدا
أرضى التنزيل وبين التنزيلا … صلوا عليه وسلموا تسليما
صلوا على من قد تأثل مجده … فسما به غَوْرُ الحجاز ونَجْدُه
ما زهره لولاه أو ما وَرْدُه … بالمصطفى المختار يعذب وِرْدُه
فى تربه ما أعذب التقبيلا … صلوا عليه وسلموا تسليما

(١) كليلا : ضعيفا
(٢) التبجيل : التعظيم

صلوا على محبوبنا مطلوبنا صلوا عليه فهو روض قلوبنا

صلوا عليه فهو عطر جيوبنا صلوا على مطلوبنا محبوبنا

لا نرتضى من حبه تبديلا صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على خير الأنام الأطهر صلوا على النور الأتم الأبهر

صلوا على الصبح المنير الأشهر صلوا عليه باتصال الأشهر

الله فضلنا به تفضيلا صلوا عليه وسلموا تسليما

صلوا على من قد تناهى فى العلا صلوا على من كان أكمل أجملا

صلوا على در تزان به الحلى المجد ألبسه الكمال فأجزلا

والله كمل مجده تكميلا صلوا عليه وسلموا تسليما

وأظن أنى رأيت بعض هذه القصيدة فى كتاب العروسى المغربى ، وهو متأخر .

قصيدة فى مدح الرسول لابن العطار، المغربى

ومن قصائد هذا الكتاب قصيدة صرح فيها بابن المغربى ، وهى :

أهدت لنا طيبَ الروائح يثربُ فهبوبها عند التنسم يطرب

رقت فرقَّ من الصبابة والأسى قلب بنيران البعاد يعذب

شوقا إلى أسنى نبى حبه كنز النجاة فنعم هذا المطلب

المصطفى أعلى البرية منصبا قد جل فى العلياء ذاك المنصب

فُزْنَا به بين الأنام بديمة أبدا علينا بالأمانى تسكب

حاز السيادة والكمال محمد فإليه أشتات المحامد تنسب

محبوبنا ونبينا وشفيعنا يدنى إلى روض الرضا ويقرب

بضيائه الملتاح أشرق مشرق وبنوره الوضاح أغرب مغرب [١]

وبه وردنا الأمن عذبا صافيا وبه ترقى فى المعالى يشجب [٢]

---

(١) الملتاح : البادى الظاهر

(٢) يشجب : جد العرب القحطانية

صبح الهدى أنواره بنبينا صبحا تروق الناظرين وتعجب
إن طابت الأنفاس من زهر الربا رَيَّاه أذكى فى النفوس وأطيب (١)
صيرت أمداح النبى المصطفى لى مذهبا يا حبذاك المذهب
فعلىّ من أمداح أحمد خلعة مَوْشِيَة ولها طراز مذهب
وبمدحه شمس الرضا طلعت على أفقى تضىء ونورها لا يغرب
أترى يبشرنى البشير بقربه وأبث أشواق الفؤاد وأندب
ويقال لى بشراك قد نلت المنى يا مغربى إلى متى تتغرب
هذا مقرّ الوحى هذا المصطفى هذا الذى أنواره لا تحجب
رِدْ وِرْدَ طيبة واشف من ألم النوى قلبا على جمر الأسى يتقلب
كم ذا التوانى عن زيارة مورد عذب المقام به ولذ المشرب
منا السلام على النبى محمد ما أسفرت شمس وأشرق كوكب

وقد سمى هذا الكتاب « بنظم الدرر، فى مدح سيد البشر » و « الورد العذب المعين ، فى مولد سيد الخلق أجمعين » وليس هو بابن العطار المشرقى الذى كان معاصرا لابن حجة الحموى ، فإن ذلك متأخر عن هذا ، وهذا مغربى وذاك مشرقى ، فلم يتفقا لا فى زمان ولا فى مكان ، غير أنهما اشتركا فى الشهرة بابن العطار .

ووجدت على ظهر أول ورقة من بعد تسميته السابقة ما صورته : مما أنشأه الشيخ الفقيه القاضى العدل الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد ابن أبى بكر بن يوسف العطار ، رواية العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد ابن الأمين الأقشهرى ، قرأت هذا الكتاب وقصائده على حروف المعجم وقصيدتين غيرها على ناظمها القاضى المذكور قراءة ضبط وتصحيح ورواية مقابلة بأصله بموضع

---

(١) الريا ـ بفتح الراء وتشديد الياء ـ الريح الطيبة ، وأذكى : أشد ذكاء وطيب رائحة

الحكم فى مدينة الجزائر من أقصى إفريقية ، حرست ، فى دول متفرقة ، وآخرها يوم الثلاثاء لليلة بقيت من ذى القعدة أواخر عام سبع وسبعمائة ، ونَصُّ ما كتب على نص قراءتى عليه : صحيحٌ ذلك ، وكتبه محمد بن عبدالله بن محمد بن العطار ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

ورأيت أثر ماتقدم بخط الأقشهرى ما صورته : سمع من لفظى جميعَ « نظم الدرر ، فى نسب [1] سيد البشر » لجامعة القاضى المذكور أعلاه القاضى شمسُ الدين محمد بن المرحوم عبد المنعم الشيبى وولدُه أبو محمد عبد الدائم وابنُ أخيه أبو محمد عبد الباقى بن تاج الدين بن حفص بن أبى بكر البورى وغيرهم ، نحو سماعى قراءة منى على مؤلفه أبى عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أبى بكر العطار سنة سبع وسبعمائة ، قاله راسمه الأقشهرى ، انتهى .

ومن قصائد هذا الكتاب قوله :

أبدا تَشُوقُكَ أو تروقك يثرب ... فإلى متى يقصيك عنها المغرب

هى جنة فى النفس يعذب ذكرها ... والقرب منها والتدانى أعذب

المسك معترف بأن نسيمها ... أسمى وأسرى فى النفوس وأطيب

والعنبر الوردى دان لطيبها ... منه التعطر والتأرج يطلب

جيش الصبابة شنّ غارات الأسى ... من بعدها فالصبر منها ينهب

والشوق ينفينا إليها كلما ... وقف الحمام على الأراكة يخطب

حتى النسيم إذا سرى من ربعها ... يثنى من الروض الغصون ويطرب

حيا فأحيا المستهام بطيبه ... فنفوسنا بهبوبه تستطيب

يا حبذا فى رَبْع طيبة وقفة ... بين الركائب والمدامع تسكب

حتى يرقّ للوعتى وصبابتى ... ودموع عينى كُلُّ من يتغرب

شوقا لمن زان الوجود ، وحبه ... يدنى إلى رتب الرضا ويقرب

---

(١) تقدم أن اسم الكتاب « نظم الدرر ، فى مدح سيد البشر »

سـاد الأنام المصطفى بكماله ... فإليـه أجناس السيادة تنسب
بالنـور زاد حُلًى على آبائه ... وبحسن ذاك النور أعرب معرب
الشمس يغرب نورها وضيـاؤها ... أبداً ونور المصطفى لا يغـرب
الله أرسله إلينا رحمـة ... فبجاهه عنـا الرضا لا يحجب
بمحمد فـزنا بإدراك المنى ... فالوقت طاب لنا وطاب المشرب
خير الورى محبوبنا ونبينـا ... حزنا به الجاه الذى لا يسلب
روض النفوس محمد ونعيمها ... وبه يُفَضض حَلْيها ويُذَهَّبُ
شرف تقادم قبـل آدم عهده ... للنور أطناب عليـه تطنب
منا عليه مدى الزمان تحية ... يثنى عليهـا المندلىّ ويطنب

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

طلعت ، وقارنها البهاء ، بدورُ ... أبداً على قطب السعود تدور
من نور أحمد يستمد ضياؤها ... وبهاؤها ، يا حبذاك النور
ويزيد ذاك النور حسنا فائقاً ... يوم القيـامة والأنام حضور
محبـوبنا أسمى البرية منصبا ... يوم النشور لواؤه منشور
فزنا بخير العالمـين محمد ... وجرى بوفق مرادنا المقـدور
لاحت لنـا أنواره فزماننا ... نور ، وأنس دائم وسرور
بالمصطفى المختار قابلنـا الرضا ... بين الأنام فسعينا مشكور
الله فضـله على كل الورى ... فهو الحبيب ، وفضله مشهور
القـرب خصصه وعظم قدره ... فسما ببهجـة نوره ناحور
خير النبيين الـكرام نبينـا ... بالنور فى العرش اسمه مسطور
يا صاحبىَّ نداء صب مغرم ... قلبى بحب المصطفى معمور
عوجا علىَّ بوقفـة وبعطفة ... إنى على ألم الفـراق صبور

إن لم أزر بالجسم قبر المصطفى ... فالقلب من بعد المزار يزور

نيران قلبى بالبعاد توقدت ... ومدامعى خدِّى بها ممطور

فمن الفراق الحدم نيران لها ... لهب ، ومن فيض الدموع بحور

فمتى أفوز بوقفة فى طيبة ... والقلب منى فارح مسرور

ويقال لى انزل بأكرم منزل ... وأبشر فأنت على النوى منصور

إن جاد دهرى بالوصول لطيبة ... بعد المطال فذنبه مغفور

هى جنة مَنْ حَلَّها نال المنى ... وسما وساد وصافحته الحور

حتى النسيم إذا سرى من نحوها ... يصبو إليه المسك والكافور

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

أما النسيم فقد حَيَّاك عاطره ... وبارق المُنْحَنى أحياك ماطره

خاطِرْ بروحك فى نيل الوصال فكم ... من نازح نال طيب الوصل خاطره

زهر الربا باسِمٌ تَنْدَى كمائمه ... رق النسيم بها إذ راق ناظره

ماحل روض المنى الغض الجنى دنف ... فاستضحكت فيه من عجب أزاهره

والنهر أبرز للبدر الأتم حلًى ... والبدر طرز ماء النهر زاهره

والغصن تلعب أنفاسُ الرياح به ... والطل قد نثرت منه أزاهره

والليل قد رقمت بالشهب حلته ... والبرق يبسم فى الظلماء ساهره

والنور مَحْضُ جنًى فوق الندى درر ... وعقدها زين الأبصار دائره

وملبس الروض قد زانته خضرته ... والليل بالفجر قد زالت غدائره

والصبح سَلَّ على جيش الظلام ظُبًا ... وعندما سلها ولت عساكره

للزهر سر وعَرْفُ الروض فاضحه ... والمسك إن فض لا تخفى سرائره

هل زار طيبه ذاك العرف حين سرى ... فتربها أبداً مسك يخامره

طابت بطيب رسول الله فهى به ... سَمَتْ وفاقت بمن فاقت مفاخره

به مَعَد تَسامى للعلا ، و به حاز المكارم واعتزت عشائره
أسنى النبيين قدراً نوره أبداً يزيد حسنا على الأقمار باهره
وأفضل الخلق من عرب ومن عجم أربت على الرمل أضعافا مآثره
إن كان للرسل عقد وَهْوَ آخرهم نظما فقد زان عقدَ الرسل آخِرُه
روض من الحلم غضّ راق منظره بحر من العلم عذب فاض زاخره
إن جاد صَاحِ بلقياه الزمان فَمِلْ إلى مقام حبيبٍ أنت زائره
وصِفْ له حال صب مغرم دنف رام الدنو فأقصته جرائره[1]
واذكر هناك بعيدَ الدار غربَه غرب فما غائب من أنت ذاكره
أهدى السلام بلا حد ولا أمدٍ إلى محلّ رسولُ الله عامره

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

أمنزلنَا جادت ثَرَاكَ السحائبُ و إلا فجادته الدموع السواكب
ووشَّاكَ وَسْمِيُّ الغمام بدره وحَلَّى محلا حل فيه الحبائب
وحيا نسيم الريح بالجزع آنسا فما عاب ذاك الأنس بالجزع عائب
فيا عهدنا بالخيف هل أنت عائد و يا أنسنا بالجزع هل أنت آئب
وهل راجع عصر الشَّبَابِ الذى انقضى وقد شيبت سود الشعور الشوائب
وهيهات أن تقضى لنا برجوعه كما كان غصنا مورقا وهو ذاهب
وقد سلب الدهر المفرق أنسنا وأودى به والدهر للأنس سالب
فما وهب الأنفاس إلا مغالطا وأى بخيل للنفائس واهب
أطالب أيام العقيق بعَوْدة وقد عز مطلوب له أنا طالب
فياصاحبي كن مُسْعِدِى فى صبابتى و إلا فما أنت الصديق المصاحب
إذا ما بدا برق الحجاز فأدمعى تفيض إلى الوراد منها المشارب
أعاتب أيام البعاد ، وقلما يبرد حر الشوق بالعتب عاتب

(١) الجرائر : الذنوب والآثام ، واحدها جريرة

وأبخل بالصبر الجميـــل ، و إنه ... لينهبه من وارد البـــين ناهب
ولما بدت أعلام طيبة قصرت ... من الشوق ماقد طولته السباسب
وقفنـــا وسلمنا وفاضت دموعنـــا ... وحنت إلى ذاك الجناب الركائب
نزلنا وقبَّلنا من الشوق تربها ... وطابت بذاك الترب منا الترائب
فللعين من تلك المعاهد نزهـــة ... وللقلب فى تلك الرسوم المآرب
حوَتْ سيدالرسل الذى جل قدره ... له فى مقام القرب تقضى المطالب
به غالبٌ حاز المفاخر ســـالفاً ... ولا شرف إلا الذى حاز غالب(١)
بهادى الورى طرا مَناصبه سمت ... وراقت بخير الرسل تلك المناصب
محمد الهـــــادى بإشراق نوره ... تمزقُ من ليل الضلال غياهب
ترقَّى إلى السبع الطبـاق وما بدا ... له فى ترقِّيه من الحجب حاجب
وخاطبـه فى حضرة القدس ر به ... وأدناه فى حال الخطاب المخاطب
نبى بدت أنواره وتلألأت ... فمنهـــا تضىء النيرات الثواقب
لقد أشرقت شمس النهار بنوره ... و بدر الدجى لمابدَا والكوا كب
أعلل قلبى بالوصول لقـــبره ... و إن غبت ما قلبى وحقك غائب
و إنى أناديه و إن كنت نازحا ... نداء غريبٍ غربتـه المغارب
إذا كنت لى ياسيد الرسل شافعا ... فما أنا من نيـل السعادة خائب
بمدحك يا من جل قدرا وحظوة ... وجاها وتمـكينا تُنَالُ المواهب
فيامعشر الأحباب إن نبينـــا ... إلى فوزنا داع وساع وخاطب
ألا فاذ كروه كل حين وسـلموا ... عليه بذاك الذ كر تَسْمُ المراتب
وقوموا على أقدامكم عند ذ كره ... فذلك فى شرع المحبـة واجب

ومنها قوله رحمه الله تعالى :

---

(١) غالب : من أجداد النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو أبو لؤى

شمس الهدى وضحت بأشرف مرسل وزجت دُجَى ليل الضلال المسبل
من وجه عبد الله كان ظهورها للخلق طـرا فى ربيع الأول
خلعت على الآفاق أشرف ملبس وبدت فأى دُجُنَّـة لم تنجل
فالنيران المشرقان كلاهما للمصطفى اعترفا بعجـز مجمل
فالشمس لما أنْ بدت أنواره أومت إليـه بالسلام الأحفل
والبدر قابله بحسن كامل فانشق للبـدر الأتمِّ الأكمل
ولليـلة الإسراء أجمل منظر بجمال إسراء الحبيب الأجمـل
فضلت على الأيام من شرف لما حازته من شرف النبى الأفضل
وبها بدا نور النبى المصطفى وبدت لنا نار الـكليم المصطلى
إذ جاءه الروح الأمين مسلمـا ومبشرا بورود أعـذب منهل
فسرى إلى أسنى محل وارتقى والجفن منه بنومه لم يكحل
رفعت له حجبُ الجلال بأسرها فرأى جـلالا لم يكن بممثل
حتى انتهى الروح الأمين لحده وبحيث يذهل عقل من لم يذهل
ناداه لما أن ترقى وحـده : لك يا محمد ذا التقرب ليس لى
ارقا إلى الأفق السنى مشـاهدا واترك حظوظك بالحضيض الأسفل
وأسعد بزورة من تعاظم ملـكه واصعد إلى عرش الحبيب الأول
فسما فشاهد حضرة القدس التى سَبُحَاتها تغشى حِجَا المتأمـل
وبدا الـكمال له ونودى مقبلا : أهلا وسهلا بالحبيب المقبـل
أنت المـراد لسرنا ولوحينا أقبل إلينـا يا محمد تقبل
وألْبَسْ بحضرة قد سنا خلع الرضا منا وجُرَّ الذيل منهـا وارفل
ولك الوسيلة يا محمد عنـدنا وبها نجيب وسـيلة المتوسل
فاحكم بما يوحى إليك من الهدى وانزل بأنوار الـكتاب المنزل
فيه شفاء للصـدور فبرؤها بمفصـل منه وغير مفصل

يا نفس هل تشفيك زورة طيبة فرسـومها برء لـكل مقبل
وَلّى زمانك فى التصابى والمنى فدعى التصابى والأمانى وارحلى
يا قلبُ ، روعات الجوى هل تنقضى عنى ؟ ولوعات الجوى هل تنجلى ؟
وأزور قبر الهاشمى محمد قبل الرحيل وقبل عذل العُذَّلِ
إنى و إن بخل الزمان بقربه فبلوعتى وبدمعتى لم أبخل
أسقى الثرى تسكابها ، فمعينها يهمى ، ونار صبابتى ماتأتلى
لهفى على بعد المزارمتى أرى يقضى الزمان بقرب ذاك المنزل ؟
ومتى أبشر بالمنى ، ويقال لى : هـذا مقرالوحى دونك فانزل ؟
وتهب تلقائى نواسمُ طيبة إنى أجود بها إليك وحق لى
فلقد بليت بلوعة وبدمعة وهبوبك الأزكى شفاء المبتلى
خيلت قربك برء داء صبابتى ضن البعاد به فطال تخيلى
شوقا إلى خير الأنام بأسرهم سؤلى وأسنى مقصدى ومؤملى
فبه أنا متوسل فى مقصدى أسنى التوسل بالرسول المرسل
و بجاهه عند الأنام مآربى ووسائلى تقضى و إن لم أسأل
و به الأمانى قد حللن بساحتى وحوادث الحدثان صرن بمعزل
بشراك نفسى فالأمانى أعجلت نحوى تبشرنى بخير معجل
بمديحه أضحى الزمان مُسَالمى تندى أسرة وجهه المتهلل
فبه إلهِى قد رجوتك راغبا دون الأنام فباب جودك موئلى
و إليك ربى رغبتى وتوسلى وعليك فى كل الأمور توكلى

وثبت فى آخر هذا الكتاب ما صورته : قال محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن أبى بكر بن يوسف بن العطار نفعه الله تعالى بالعلم : كان الفراغ من إكمال هذا الفصل و إتمامه ، حسب نثره ونظامه ، ضَحْوة يوم الجمعة الثانى من شعبان المكرم

سنة ست وتسعين وستمائة ، ما عدا أربع قصائد اشتمل عليها ، فإنها تقدمت على إنشائه ، أودعتها فيه ، والله سبحانه المستعان ، وذلك بمدينة الجزائر جزائر بنى مرغنة من أقصى إفريقية من أرض متيجة ، صانها الله تعالى ! انتهى .

وثبت فى آخره بخط بعض الأكابر ما نصه : تأليف الفقيه العالم الأديب البارع أبى عبد الله محمد بن العطار الجزائرى ، انتهى .

وهو كتاب نفيس جمع فيه بين حسن النظم والنثر ، فالله تعالى يجازى صاحبه أفضل الجزاء ! بمنه وكرمه .

ولا بأس أن نورد هنا من كلام أهل الأندلس بعض الأمداح النبوية زيادة على ما ذكر هنا فنقول :

لابن العريف فى مدح الرسول

قال العارف بالله تعالى ابن العريف فى كتاب « مطالع الأنوار ، ومنابع الأسرار »

وحقك يا محمد إن قلبى ... يحبك قربة نحو الإله

جرت أمواه حبك فى فؤادى ... فهام القلب فى طيب المياه

فصرت أرى الأمور بعين حق ... وكنت أرى الأمور بعين ساهى

إذا شغف الفؤاد به ودادا ... فهل ينهاه عن ذكراه ناهى ؟

يهيم بذكره ويحن شوقا ... حنين المستهام إلى الملاهى

يخامره ارتياح منه حتى ... يقول أولو الجهالة : ذاك لاهى

وما هو حق فضل قد رآه ... فصار يجدّ فى طلب الملاهى

فسوف ينال فى الدنيا سرورا ... وفى الدار الأخيرة كل جاه

ويعطى ما تمنى من أمان ... كما قد حب محبوب الإلهِ

وقال أيضا رحمه الله تعالى :

يا عاذلى فى طلابى ... دعنى من العذل دعنى

سأُعمِلُ العِيسَ شوقا ... بالعزم دون التأنى

إلى ضريح رسـول — مصدق حسن ظنى
أشدو على كل فج — حين الحمـام يغنى
يا أطهر الخلق إنى — بذِلتى عبدُ قِنٍّ
فأعتق اليوم رقى — وانظر بعطفك منى
فأنت أنت مَلاذى — إياك إياك أعنى
إن غبت عن عين جسمى — ماغبت عن عين ذهنى
لولاك كنا أناسا — أشر من كل جنّ
فإذ بعثت رسـولا — فخير فضـل ومَنٍّ
لله خالص شكرى — عساه يصفح عنى
فإننى عبدُ سـوء — قلبت ظهر المجنّ

وقال فى خاتمة ذلك الكتاب :

صَلَّى الإله على النبى الهادى — مالاذت الأرواح بالأجساد
صلى عليه الله ما اُسود الدجا — فكسا مُحَيّا الأفق بُرْدَ حِداد
صلى عليه الله ماانبلج السنى — فاُبيض وجه الأرض بعد سواد
صلى عليه الله ما همع الحيا — فسقى البلاد برائح أو غادى
صلى عليه الله ماهفَتِ الصَّبَا — وشدا على فنن الأراكة شادى
صلى عليه الله ماألف الكرى — جفن لخامره لذيذ رقاد
صلى على المختار أحمدَ ربُّه — ما استمسكت نار بطَىّ زناد
صلى على خـير الأنام محمد — مَنْ خصه بالنور والإرشاد
صلى الإله على رسول حاشر — حشر الأنام لديه فى الميعاد
صلى الإله على رسول عاقب — فى الدهر وهو بفضله كالهادى
صلى الإله على رسولٍ خاتم — خَتَمَ النبوة بالكتاب الهادى
صلى الإله على المقفى ما اقتفى — بشر نبوّته بغـير عناد

صلى على ماحى الضلال إلٰهه ما غردت طير على الأعواد

صــلى الإلٰه على نبى طالع بملاحم قَصَمَتْ فؤاد العادى

صــلى عليه الله فهو نبيه ناداه بالإرشاد خيرُ منادِ

صلى عليه الله فهو رسوله أعطاه رايةَ عزمـة ورشاد

صلى عليـــه الله فهو خليله أسدى إليه منـــه كل سداد

صــلى عليه الله فهو صفيه صَفَّى سريرته من الأحقاد

صلى عليه الله فهو وليـــه والاه فى الإصدار والإيراد

صلى عليه الله فهو المصطفى من كل حُضَّار العباد وبادى

صــلى عليه الله فهو المجتبى يُجْبَى إليه الخيرُ دون نَفَاد

صــلى عليه الله فهو المنتقى نور الزمان وواحد الآحاد

صلى عليه مَنْ بَرَاه مطهرا واختاره طودا من الأطواد

صلى عليه من براه بفضله وأعاده حيا لغـــير معاد

صلى عليــه من أراه جلاله وأنا له من ذاك كل مراد

صلى عليه من أحل فؤاده فى ظل عرش ثابت الأوتاد

صلى عليه مَنْ غذاه بنعمة فتضاعفت كتضاعف الأعداد

صلى عليه من كساه عوارفا واختصه منـــه بخير أياد

لأبى عبد الله ابن عمران

وقال الشيخ أبو عبدالله بن عمران مادحا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرتبا على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب ، كما تقدم :

ألف ، أيا خير البرية هٰـذِى مِدَحِى ، وما أنا فى مقامى هاذى

باء ، بها أظهرت صدق محبتى وبذلك الجاه الـكريم لِيَاذى

تاء ، تَخِذْتُ وسيلة ما حُـكْتُهُ وجعلته يوم المعـــاد عياذى

ثاء ، ثنائى ليس يحصر فضلك الـــزاهى ولا يحويه باستحواذ
جيم ، جلالك جل طور فخاره عن شبه مثل أو لحاق مُحَاذى
حاء ، حُبِيتَ بمعجزات ذكرها يولى ذوى الإيمان كل لذاذ
خاء ، خصصت بها بفضل عناية منها لجأت إلى أُجَلِّ ملاذ
دال ، دحضت بحقها مستقريا إبطـــال زور مشعر بملاذ
ذال ، ذراع الشاة أفصح مخبرا عمـــا يحاذر ضره بنفاذ
راء ، رميت عصائبا قد ألبوا فعَمُوا ولمـــا ينصروا بلواذِ
زاى ، زعيم بالوجاهة أنت إذ كل بجاهك عاذ كُلَّ عياذ
سين ، سبقت بكل فضل يغتدى جفنُ المعالى منـه ليس بقاذ
شين ، شأوت مفاخرا كل الورى وتركتهم غرقى بلجة آذى
صاد ، صعدت ذرا لموقف زلفة ترك السعود مقطع الأفلاذ
ضاد ، ضويت إلى جلال كافل لك بالرضا دَرَّ الجلالة غاذ
طاء ، طلابيك لديك شفاعـة فيهـا بذذت الجميع أى بذاذ
ظاء ، ظماؤهم بحوضك سوّغوا ريًّا كأن به مذاقةَ ماذى
عين ، علا ذكر افتخارك وارتقى عن غمر مغتاب وزور الباذى
غين ، غمام قد عـــلاك مظللا يمشى بمشيك دائما ويحاذى
فاء ، فصاحتك البليغة أعجزت للقوم من قربى ومن شُذَّاذِ
قاف ، قواعد صرح كسرى زلزلت لولادة أوهت قوى ابن قباذ
كاف ، كفلت بماتلته (والضحى) لجماعـــة الجارين باستنقاذ
لام ، لدعوتك المجابة أسبلت ثروات هتان الحيا بهماذ
ميم ، معين يديك إذ غلب الظّما أروى الورى من توأم وفذاذ
نون ، نجارك أصـــله متخير من بطن ذات علا وأظهُرِ حاذى

هاء ، هتفتُ على تنائى شقتى | بعلاك هٰذِى ما نجلتك هٰذِى
واو ، ولو أنى استطعت لسابقَت | قلمى خطا قدمىّ بالإغـذاذ
لا ، لا أُكيِّفُ قدر شوق باعث | لعـزائمى مستنهض شحاذ
ياء ، يمينا لو قدرت إذَنْ لمـا | أخرت سعى مبادر حذحاذ
دامت عليك صلاة ربك ماهمت | ديم بوبل هاطـل ورذاذ

رجع إلى الكاتب أبى عبد الله بن الجيان الأندلسى .

مدائح فى رسول الله صلى الله عليه وسلم من نظم ابن الجيان

قال ـ تقبل الله تعالى منه ! ـ يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

يا من تقدّس عن أن | يحيط وَصْفٌ بذاته
ومن تعالى جَلالاً | عن مُشْبِه فى صفاته
ومَنْ قبولُ ثنائى | إليـه أسنى هباته
صل على من تبـدَّى | نور الهدى من سِماته
ومَن علا الفخر لما | نمى إلى معـلواته
محمـد خير هـاد | بحلمـه وأناتـه
محمـد خير داع | بالصدق من كلماته
محمـد خير مُبْدٍ | لناسَنـا معجزاته
أكْرِمْ به من نبى | هَمَتْ سما مكرماته
أعزز به من رسول | سمت عُـلاَ درجاته
وخصه الله منـه | بالفضل من تكرماته
لمـا حباه بأوفى | صِلاته فى صَلاتـه

وقال :

يا رب بلغ سلامى | لأحمد ذى الشفاعـه
لخاتم الرسـل أعنى | إمام تلك الجماعـة

لأبهر الخلق مجـدا يحكى الصباح نَصَاعَهْ
لمن صفاتُ علاه تعجز أهـل البراعه
لسيـــد لسَنَاه يزهى السنا واليراعـه
لمرشـــد بهداه قد فاز عبدٌ أطاعـه
وناظم الحسن نظما قد ضم منـــه ثعاعه
وسر سرك يامن أرى العيون اطلاعه
ومن حبـا بذكاء خِلالَه وطباعـــه
ومدّ فى كل فضل لصفوة الرسل باعه
فزده يارب فضلا وزد محبيه طاعـــه

وقال أيضاً [غيره] :

لقـــد رفع الإله عن البرايا ببعث محمـد مِحَنَ الصروف
أتى والناس فى الآفاق نَهْبٌ لسمر الخط أو بيض السيوف
فأنقـــذهم ، ولولاه لـكانوا لَقًى بين الضلالة والحتوف
نبى لا يغـــل عليه إلا سخيف العقل ذو رأى مُؤُوفِ
كأغمار اليهود أو النصارى أو الفلـكى أو كالفيلسوف
فبعض للتجاهـل والتعامى و بعض للتحير والوقوف
زعانف لا يَهُلْكَ لها رُوَاء فإن الجهل مائحة الظروف
إذا جارى بمختلٍّ ضعيف فإن صحاحنا فوق الألوف
فبرهان النبوّة مستفيض ندل به على رغم الأنوف
شفوف الرسل متضح ولـكن لأحمد الشفوف على شفوف
حروف الخط أصـل للمعانى وللألف التقـدم للحروف

وما أحسن قول القائل :

لولا النبي محمد هلك الورى فى سوء حاله
أعلى الورى قدراً وأكرمهم وأظهرهم دَلاَلَهْ
ختم الإله به النبوّة والطهارة والرساله
واختصه دون البرية بالمكانة والجلاله
بدر الرسالة والصحا بة حَوْلَ ذاك البدر هَالَهْ
قذف الحصا فى أعين الكُفَّار فاعتنقوا الجدالَهْ[1]
وتدرعوا ثوب الكآ بة بعد إظهار الجذاله
فأصخ إلى أنبائه تعلم بأن المنتهى له
وإذا ابتغيت وسيلة ومدحته ومدحت آله
فاقطع بأنك آمن يوم القيامة لا محَالَه

وقال أبو القاسم سعد بن محمد :

أطلق لسانك بالصلاة على النبيّ الأبطحى الهاشمى محمد
واجعل شعارك ذاك تَنْجُ به غدا إن النجاة بذكر يوم للغد

لأبى اليمن ابن عساكر

ولأبى اليمن بن عساكر :

يا رب صل على النبي وآله صلواتنا ما دامت الأيام
واخصص ختوم سلامنا بجنابه كالمسك يعبق فُضَّ عنه ختام
واحرس شريعتَهُ وأوضح سبلها تبدو بها للسالك الأعلام
وأدم كرامته وأعْلِ مناره وأنله أعلى مالديك يرام
وارفع له الدرجات فى رتب العلا فهو الذى للمرشدين إمام
وأقمه بين يديك زلفى موقف للحمد ما لسواه فيه مقام

(١) الجدالة — بالفتح — الأرض

وأنِلْ شفاعته وأورد حوضه مَنْ لوأتاه يشتكى منه أوام
وأتح له مالا يُرام حصوله إلا بلقيــاه وعَزَّ مرام
وله عليه فى الأصائل والضحى تُهْدَى إليـه تحية وسلام
وبه إلى تقبيل موطئ نعله وَجْـد له بين الضلوع أوام

وله أيضا رحمه الله تعالى :

ألا إن الصلاة على الرسول شفاء للقلوب من الغليل
فَصَلِّ عليه ؛ إن الله صلى عليه ولا تكونَنْ بالبخيل
وصل عليه قد صلت عليـه ملائكة السماء بجبرئيل
ألا إن الصلاة عليه نور لدى الظلمات فى اليوم المهول
وتثقيــل لميزان خفيف وتخفيف من الوزر الثقيل
إذا صليت صلى الله عشرا بواحدة عليك على الرسول
وتحظى بالشفاعة يوم تجفى ومالك من مقيل أو منيل
فأكثر أو أقلَّ فأنت تجزى بذلك من كثير أو قليل
فصل عليه تُجْزَ جزَاء ضعف وتجز مضاعف الأجر الجزيل
وأولى الناس أكثرهم صلاة عليه به وأحرى بالقبول
وأنجاهم من الأهوال عبد بها لهج بدل قال وقيل
فكن لهجا بذكراه حفيا بلقياه ومنصبه الجليل
وصل مدى الزمان على رسول كريم مصطفى برٍّ وصول
وصل على حبيب حاز فضلا مدى شأو الكلام مع الجليل
وآتاه الوســيلة مستجيبا وبلغه نهاية كل سُولِ
وأزلفه وشفعــه ليأوى إليه الناس فى ظل ظليل
وأطَّدَ شرعه وحمى حماه وأيده بواضحة الدليل
وشرَّفه ولم يبرح شريفا فيجمع جملة المجد الأثيل

وزاد محبَّـهُ شرفا وفخرا بتفضيل وتنويل جزيل
وزاد علاه منه بطول عمر قصى من مواهبه طويل
وأوردنا عليه الحوض وَفْدًا لنروى بالرِّوَى من سلسبيل

وله رحمه الله تعالى :

أدم الصلاة على النبي المصطفى تخلص بذاك من الجحيم ونارها
وتولَّ إقبالا عليهـا كلما هتف المؤذن مشعرا بشعارها
فالفخر أجمعـه له فتلقَّه من نوبة الأسحار فوق منارها

فهذه عدة قصائد فى مدحه صلى الله عليه وسلم ، أرجو من الله سبحانه أن تكون مكفرة لما ارتكبته على وجه الفخر والشهرة من الهزل واللهو ، فإن ذلك والله قول لا فعل له ، وإنما هو على نهج أهل الأدب كالحافظ شيخ الإسلام ابن حجر وغير واحد ممن ألف فى الأدب وجمعه .

ولا بأس أن نعززها بمقطوعات تكون للتكفير زيادة ، وحُقَّ لمن توسل بسيد الوجود صلى الله عليه وسلم أن لا تضيع وَسَائله ، وكيف وهو صاحب المقام المحمود والشفاعة والسيادة ، فمنها قول ابن الجيان المذكور آنفا رحمه الله تعالى :

لابن الجيان فى مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى أحمد المختار نهدى تحية تفاوح روض المزن بلله المزن
إذا نافحت مغناه زاد تأرجا وإن لثمت يمناه قابله اليمن
أسير أشواقى رسـولا بعرفها لتسعدها منه العوارف والمن
وأرجو إليه الفضل فهو منيله وما خاب لى فيه الرجاء ولا الظن
عليه اعتمادى حين لا لىَ حيلة إليه استنادى حين ينبو بىَ الركن
به وثقت نفسى الضعيفة بعدما أضر بها من ضعف قوتها الوهن
إليه صلاتى قد بعثت ومشفعا سلامًا به الإحسان ينساق والحسن

وقوله رحمه الله تعالى :

أيذهب يوم لم أكفر ذنوبه ... بذكر شفيع بالذنوب مشفع

ولم أقض فى حق الصلاة فريضة ... على ذى مقام فى الحساب مرفع

أرجِّى لديه النفع فى صدق حبه ... ومن يرتج المختار لا شك ينفع

وأهدى إلى مَثْوَاه منى تحية ... إذا قصدت باب الرضا لم تُدَفَّع

وقوله رحمه الله تعالى :

يا أرحم الخلق يوم الحشر والندم ... ارحم عبيدك ياذا الطَّوْلِ والنعم

إنى توسلت بالمختار سيدنا ... الطاهر المجتبى من خيرة الأمم

إليك مِنْ سيآتى إنها عظمت ... يا واحدا لم يزل فَرْدًا ولم ينم

عليه منك صلاة كلما طلعت ... شمس وما خط فى الأوراق بالقلم

فهو الشفيع الذى أرجو النجاة به ... من الجحيم إذ الكفار كالحُمَمِ (١)

وقوله أيضاً رحمه الله تعالى :

بحبيب القلوب معتمد الخلـــق ... أبى القاسم النبى الشفيع

قد تشفَّعت من ذنوبى إلى ذى الـــعزة ... الواحد العلى السميع

فاشفع اشفع يا خاتم الرسل يوم الـــحشر ... والمشهد العظيم الفظيع

لظَلُومٍ لنفســـــه قد تناهى ... فى الخطايا وكل فعل شنيع

فإذا ما تذكر الذنب فاضت ... مقلتاه واغرورقت بالدموع

لا تُخَيِّبْ رجاءه إنه مِنْ ... ربه خائفٌ كثير الخشوع

وعليك الصلاة بدأ وعودا ... ما أضاءت ذُكَاءُ عند الطلوع (٢)

وقوله أيضاً عفا الله تعالى عنه :

يا رب إن شفيعى من ذنوبى فى ... يوم القيامة خيرُ الخلق والنسمِ

---

(١) الحمم : جمع حمة ـ بالضم ـ وهى الفحم

(٢) ذكاء ـ بالضم ـ الشمس

محمد خاتم الرسل المبلغ للـدين الحنيفى والإسلام للأمم
عليه منى صلاة كلما سجع الـحمام فوق غصون البان والسَّلَمِ
و بعد ذلك أعداد الجبال ورمـل الأرض والطير والحيتان والنعم
كذاك أيضاً سلامى طيب عَطِر عليـه ما قام عبد فى دُجَى الظلم
لله وهو كئيب خائف وَجِل من الذنوب حزين القلب ذو ألم

لأبى زيد الفازازى

وقول الشيخ الإمام أبى زيد الفازازى رحمه الله تعالى :

كملت بنعت محمد خير الورى غرر القصائد كلها وحجولها
واختص دون الأنبياء بدعوة وسع العباد عمومها وشمولها
فاضت على الثقلين منه أشعة طلعت وما عقب الطلوعَ أفولُها
فالإنس تعلم أنه مقصودها والجن توقن أنه مأمولها
كم آية بالصدق كان ظهورها كم آية بالسبق كان نزولها
وكفاك هـذا الوحى فهو شهادة لمحمد لزم العبـاد قبولها
جمع الإله المكرمات لأمة هـذا النبى الهاشمى رسولها

وقوله رحمه الله تعالى :

أى نور كشف الله به سُدَفَ الباطل عنا أجمعين
خـتم الله به أنواره عند ما أكمل سنّ الأربعين
وأتانا بدليـل بين عجزت عنه دواعى المدعين
فهو للناس جميعا مرشد وهو بالله تعالى مستعين
تركت دعوتُه وَهْو الرضا سائر الخلق إليها مُهْطعين
فأعِدْ أنباءه فهو مُنَى أنفُسِ القائل والمستمعين
والذى يهدى إلى شرعته فهو مزاح عن عذاب المعين(١)

(١) كذا فى ب ، وفى خ « فهو مجتاح من العذاب المهين » وليس واحد منهما بمستقيم ، وأصلحه ناشرب بقوله « فمزاح عن عذاب المبـدعين » .

والذى يرغب عن سنته | فهو من شيعة إبليس اللعين

وقوله وهو كما قبله لُزُومى :

أصخ فلخير العالمين مناقب | تدل على التمكين والشرف الأسرى
أتى والورى أسرى فكان غياثهم | بنور سماء ينقلوه عن الإسرا
وعَفَّى رسوم الكافرين وأهلها | فلا قيصر من بعد ذاك ولا كسرى
تقدم كل العالمين إلى مَدًى | تظل به الأوهام ظالعة حسرى
وخص بتشريف على الناس كلهم | ومن لم يقل هذا تقوّله قَسْرًا
ترقَّى إلى السبع الطباق ترقيا | حقيقا ولم يعبر سفينا ولا جسرا
وبالجسم أسرى الله وهو دلالة | يمحلها من لا تيسر لليسرى
فسبحان من أسرى إليه بعبده | وبورك فى السارى وبورك فى المسرى
وكم عجب أوحى إلى عبده به | فدونك تجميلا ولا تطلب القَسْرا

وقوله رحمه الله تعالى :

هاك عن هذا النبى المصطفى | خَبَرا يَقْبَله مَنْ سمعه
سبحت صُمُّ الحصا فى كفه | ثم فى كف الهداة الأربعه
وإذا أبدى نبى عبرة | فهو لا ينكر فيمن تبعه
أى نطق قد روى إعجازه | عن سماع كل من كان معه
حُجَجُ الرسل التى قد سلفت | أصبحت فى أحمد مجتمعه
فاعتقد صحتها واعمل بها | فدعاوى ضدها منقطعه
ممكنات العقل لا يجحدها | غيرُ أهل الطبع والمبتدعه

وقوله رحمه الله تعالى :

إذا أملت من مولاك قربا | فجدد ذكر خير الأنبياء
وصل عليه أولَ كل قول | وآخره بصبح والمساء
فإن محمدا أعلى البرايا | محلا فى السيادة والعلاء

لواء الحمد فى يمنى يديه وكل الناس من دون اللواء
فحدث عن دلائله ففيها شفاء للنُّهَى من كل داء
ولست بناقل للعشر منها وهل تفنى الزواخر بالدلاء
فقل للسامعين قفوا فهذا محال ليس يحصر بانتهاء
براهين البسيطة ليس تحصى فدونكم براهين السماء

وقوله رحمه الله تعالى :

أما يمين محمد ويساره فهما سماء
كلتاهما إن صوّح المرعى لنا طعم وماء
وإذا أضرّ بنا السقا م وغيره فهما شفاء
فاُعجب لكف فى الورى فيها عن المزن اكتفاء
فاقطع بأن محمدا فى الخلق ليس له كفاء
فإذا أصخت لآية فالنور فيها والضياء
هذا الصباح الهاشمى بدا فليس له خفاء
فالأرض قد فتِحَتْ بمبعثه وفُتِّحت السماء

وقوله رحمه الله تعالى :

بركات رسل الله غير خفية ومحمد خير البرية أبرك
هذا النبى الهاشمى هو الذى هُدِىَ الأنام به وبان المسلك
كم آية لمحمد كم حجة عز الولى بها وذل المشرك
دعواته مسموعة مرفوعة والحس ليس يصح فيه تشكك
لاشىء أعجب من دليل واضح يحيا به بعض وبعض يهلك
أمسك بحبلِ محمد خير الورى تظفر بقصدك أيها المستمسك
وإذا عجبت لغاية فى رفعة فمحل أحمد غاية لا تدرك

وقوله رحمه الله تعالى :

قَبَحَ الإله الملحــدين فإنهم جحدوا الضرورهْ

والمعجزات تواترت عن أحمد فى كل صوره

والله أعلى كعبه فى خلقه وأتم نوره

كثر الطعام مع الشرا ب بكفه عند الضرورهْ

وتكنفته عناية من ربه أعلت أموره

نادى البرية فالقلو ب إلى أجابته مُصَوره

وحمى الشريعة بالدليـل فدع معاندها وزُورَهْ

قل للمشكك حين يبــدى فى تشككه قصوره

بينى و بينكم الـكتا ب فدونكم فأتوا بسوره

وقال رحمه الله تعالى :

إذا بهرت للهاشمى دلالة فكم حجج فى طيها ودلائل

فكم مرة آتى الغنى كَفَّ سائل وكم مرة أعطى المنى فكر سائل

له تحت أستار الغيوب شهادة مُعَدَّلة لم تبقِ قولا لقائل

يحدث عما كان أو هو كائن فقس آخرا من صدقه بالأوائل

إذا الصدق لم يعوزك فى غدواته فلا شك فى تصديقه بالأصائل

وحسبك فى الأنباء بالغيب أنه ستسمعها بالنقل من قول قائل

وقوله رحمه الله تعالى :

ياذا المعنَّى بهذا الذكر تسمعه فى المدح تأثره فى سيد الناس

هذا النبى ، ومَنْ آيات أثرته فى الطيب والطَّوْل لاتجرى بمقياس

قد انقضت معجزات الغيب وافية صحيحة باستفاضات و إحساس

وهاك نوعا من الإعجاز منتزها عن نقد منتقد أو صفح قرطاس

لا تعدم النقل عن آثار سيدنا فإنما نحن فيها بين أغراس
تَنَقُّلَ الأنف فى النوّار ينشقه من ياسمين إلى ورد إلى آس
إن القلوب إذا اعتلت خواطرها فذكر أحمد فيها المبرىء الآسى

وقوله رحمه الله تعالى :

تأدب إذا ذكر المصطفى بصمت اللسان وغض البصر
فإن التأدب عند السماع يفهم فى النطق أوفى النظر
وردد أحاديثها إنها دليل على صدق خير البشر
وصَلِّ عليه مدى ذكره فذلك أفضل ما يدخر
ولا تسترب فى براهينه فتسلك مسلك قوم أخر
فكم آية ظهرت للنبى وكم أثر عنده قد ظهر
ومن شك فى نور برهانه على أن برهانه قد بَهَر
فكبر على عقله أربعا وقل فوق طورك هذا الخبر

وقوله رحمه الله تعالى :

اعمل بآثار النبى فإنها النور المبين
واقبل نصيحتها ففيها العز والشرف المكين
واشدد يمينك بالشريعة إنها السبب المتين
خير البرية أحمد والحق يصحبه اليقين
ذو قوّة عند الإله مقرب منه مَكين
زان النبيون الورى ومحمد هم مزين
هاد إلى طرق النجا ة مؤيد فيها أمين
والهج بمدح الهاشمى فإنه الحصن الحصين
ولئن فعلت فلن تفو تك بعد ذا دنيا ودين

وهذا تستديس جعلته للكتاب مسك الختام :

وللناس أعمال فخير وضده ... وما يحسن الأعمال غير الخواتم

و إلا فالأمداح النبوية بحر لا ساحل له ، وفيها النثر والنظام ، زاده الله شرفا وحباه أفضل الصلاة وأزكى السلام !.

لأبي الحجاج يوسف ابن موسى المنتشافرى

وهذه القصيدة من نظم الفقيه الأجل أبى الحجاج يوسف بن موسى المنتشافرى الأندلسى — نفعه الله تعالى بنيته ، و بلغه غاية أمنيته ! — وترتيبها على حروف المعجم باصطلاح أهل المغرب فيماعدا الروى فإنه على حرف الميم ، وكذا آخر الشطر لذى قبله فإنه ميم أيضاً ، وهذا نصّه بحروفه ما عدا حرف الواو [1] فإنى لم أجده وكملته على منواله :

حل فى طيبة رسول كريم	فعليه الصلاة والتسليم
صفوة الخلق خاتم الأنبياء	مرشد الناس للطريق السَّوَاء
والعماد الملاذ فى اللأواء	وشفيع العصاة يوم الجزاء
يوم يبدو لديه جاه عظيم	فعليه الصلاة والتسليم
أذهَبَ الغى نورُهُ والغياهب	فأضاءت مشارق ومغارب
وغدا الحق غالبا للأكاذب	وبدت منه للأنام عجائب
صِدْقُ أقواله بها معلوم	فعليه الصلاة والتسليم
لبراهين صدقه معجزات	حينما حل حلت البركات
وسَمَتْ أربُعٌ به وجهات	فبه قد تعرفت عرفات
وبه تاه زمزم والحطيم	فعليه الصلاة والتسليم
لم يزل هادياً صدوق الحديث	ووفيا بالعهد غير نكوث
ومجيباً لدعوة المستغيث	وكريماً نداه فوق الغُيُوث
ونداه بالجود جود سَجُومُ	فعليه الصلاة والتسليم

(١) وليس فيها حرف الخاء المعجمة أيضا

بهج الحق أوضح الابتهاج سيد نوره أضاء الدياجى
خصه الله ليلة المعراج باصطفاء ورفعة ونتاج
وبتكليمه له التكريم فعليه الصلاة والتسليم
مصطفى مجتبى كريم صَفُوحُ للنبيين جاهه ممنوح
فلإكرامه أجير الذبيح ونجا آدم وخُلِّصَ نوح
وكذاك الخليل إبراهيم فعليه الصلاة والتسليم
بعثه كان رحمة للعباد دلهم بالهدى طريق الرشاد
ونفى كل باطل وعناد ودعا للإله دعوة هادى
فإذا الحق واضح مستقيم فعليه الصلاة والتسليم
أمَّهُ بالشَّكاةِ ظَبْىٌ أخِيذُ مُسْتجيرا بجاهِهِ يستعيذ
وبِهِ كانت الوحوش تلُوذ وله خاطب الذراعُ الحَنِيذُ
لا تَذُقْنى فإننى مسمومُ فعليه الصلاة والتسليمُ
أشبع الجيشَ والطعام يسير ودعا نخلة فجاءت تسير
وهَمَى من يديه عذب نمير وله البدر شُقَّ وهو منير
معجزات تحار فيها الفهوم فعليه الصلاة والتسليم
حجب النور فى السموات جازا فاحتوى الفضل والعَلاَء وحازا
فبه فى غد ننال المفازا وكفى أمة الرسول اعتزازا
أن تمنى يكون منها كليم فعليه الصلاة والتسليم
إنما الحكمُ منه عدل وقسط لم يَجُرْ فى القضاء والحكم قطُّ(1)
حبه فى بلوغ قصدىَ شرطُ وبأمداحه ذنوبى تحط
ويزول العنا وتجلى الهموم فعليه الصلاة والتسليم
قد حمى ديننا برعى ولحظ ونفى روعنا بأمن وحفظ
وحبانا بما لدى الرب يُحْظِى هاديا راحما لنا غير فظ

(1) فى ب « إنما حكمه عدل وقسط » وفى ح « إنما حكمه بعدل وقسط »

مثل ما نصه الكتاب الكريم فعليه الصلاة والتسليم

نور برهانه جلا كل شرك وهداه أجار من كل هلك

أخَيْرُ العالمين من غير شك فلكم رامه العداة بشك

وهو فى كل حالة معصوم فعليه الصلاة والتسليم

ماالخير الأنام منهم عديل إنه مُجْتَبًى نبى رسول

ما عسى مادح الشفيع يقول وبأمداحه أتى التنزيل

وثناه خلاله مرسوم فعليه الصلاة والتسليم

نحن لولا اتباعه لشقينا نور برهانه أرانا يقينا

وغدا ما نخاف منه يقينا وكؤسا بحوضه قد سقينا

من رحيق مزاجُه مختومُ فعليه الصلاة والتسليم

أحمد عند ربه ذو اختصاص جاهُه كاملُ بغير انتقاصِ

عدة للمسىء يوم القصاص وشفيع لكل جان وعاصى

يوم يجفو الحميمَ فيه الحميمُ فعليه الصلاة والتسليم

بيديه حوائج الكل تقضى ويجازى الذى أجاز وأمضى

وينادى الحبيب أنت المرضى سوف نعطيك ماتحب وترضى

فتحكم يمضى لك التحكيم فعليه الصلاة والتسليم

فاق بالمولد السعيد ربيع إن فيه بدا الجلال الرفيع

من هو الذخر والعماد المنيع فملاذ المذنبين شفيع

ورؤف بالمؤمنين رحيم فعليه الصلاة والتسليم

أفصح الناس فى حديثٍ وأبلغ بَيَّنَ الوحى للأنام وبلغ

طيب الحل قد أباح وسوّغ ولكم نعمة من الله سوّغ

فلإحسانه علينا عميمُ فعليه الصلاة والتسليم

كان بالحق والهدى معروفا أجود الناس بالندى موصوفا

شرف الله قدره تشريفا هاديا مرشدا رسولا شريفا
مجده فى العلاء مجد صَمِيمُ فعليه الصلاة والتسليم

وجهه بالبها أضاء وأشرق مجده فى صميمه الأصل أعرق
مَسَّ فى كفه قضيبا فأورق بأُصبع قد أشار للبدر فانشق
ثم قد عاد وهو بدر سليم فعليه الصلاة والتسليم

جاءه الوحى أنت خير الناس بلغ الأمر لا تخف من باس
وخذ العفو للأنام وواس وأحمهم من مكايد الوسواس
فعليك البلاغ والتعليم فعليه الصلاة والتسليم

كان فى الله أثبت الناس جاشا ليس من غيره يخاف ويخشى
فبكف من الحصا فَلَّ جيشا وعيونَ العداة بالترب أعشى
فنجا المصطفى وخاب الظلومُ فعليه الصلاة والتسليم

قد سما قدره بغير تناهى وعلا جاهه على كل جاه
آمر بالتقى عن الشر ناهى مَنْ يُطِعه ينل ثواب الإله
وله عنده النعيم المقيم فعليه الصلاة والتسليم

عمدة الخلق للمفاخر حاوى بحماه يلوذ كل وياوى
مبلغ المعتفى الذى هو ناوى كيف يحصى ثناء أحمد راوى
وعليه أثنى الكتابُ الحكيمُ فعليه الصلاة والتسليم

حسنه كالصباح بل هو أجلى وندى كفه من الشهد أحلى
واعْتِلاَ قدرِه من السبع أعلى مدحه فى الكتاب مازال يُتْلَى
فله الفخر والثناء العظيم فعليه الصلاة والتسليم

خصه الله من رسول نبى فى جميع الورى بقدر على
وحَبَاه منه بنورٍ بَهِيّ فهدى الخلق للصراط السَّوِيّ
وصراط الهدى سَوِيٌّ قويم فعليه الصلاة والتسليم

خاتمة الكتاب للمؤلف المقرى

قال مؤلف هذا الكتاب ، العبد الفقير أحمد بن محمد المقرى المالكى - وفقه الله تعالى إلى حسن المتاب ، وحباه الدخول فى زمرة من رفع عنهم بشفاعة المصطفى الإصر والعتاب ! - :

هذا آخر ما سمح به الخاطر الكليل ، من هذا المقصد الجليل ، الذى يكون إلى ماوراءه من الطُّرَف الأدبية خيردليل ، ووضعته والقلب حليف شجن وغربه ، والفكر أليف حزن وكربه ، وأنا أسأل الله تعالى الذى لا يرجى سواه ، أن يجعل بناءه ثابتا بحسن النية حيث البناء الذى فيه حظ النفس واه ، وأن يكون ماطلبته فيه من الهزل بالجد المذكور فيه مكفرا ، وأن ينفع به من وجه إليه وجهته ، فإنى قد جمعت فيه ما يندر جمعه فى غيره وكل الصيد فى جوف الفَرَا .

يا من عليه اتكالى ومن إليه مَتابى
جدلى بعفوك عنى إذا أخذت كتابى

واعلم أن هذا الكتاب معين لصاحب الشعر ، ولمن يعانى الإنشاء والنثر من البيان السحر ، وفيه من الوعظ والاعتبار ، مالم ينكره المنصف عند الاختبار ، وكفاه أنه لم يُرَ مثله فى فنه فيما علمت ، ولا أقوله تزكية له ، ويعلم الله تعالى أنى تبرأت من هذا العارض ومنه سلمت ، ولو لم يحزْ من الشرف إلا ختمه بهذه الأمداح النبوية الشريفه ، ذات الظلال الوريفه ، لكان كافيا شافيا ، وها أنا أجعل آخره تنبيها للَّبيب ، قول ابن حبيب :

يا خـــير مبعوث له طلعة نور الهـدى منها أقر العيون
جئت إلى ناديك أرجو القرى من غيث كَفَّيْكَ المغيث الهَتُونْ
كن لى شفيعا فارتكاب الهوى أوقعنى بين الشَّجا والشجون
صــلى عليك الله سبحانه ما هزت الريحُ قُدُودَ الغصون

وقال النواجى :

لقد أفرطت فى حسن ابتداء ورمت تخلصى يوم الزحام
فبالمختار أرجو عفو ربى ليرشدنى إلى حسن الختام

وكان الفراغ منه عشية يوم الأحد المُسْفِر صباحُها عن السابع والعشرين لرمضان سنة ثمان وثلاثين وألف ، بالقاهرة المحروسة ، والحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وألحقت فيه كثيراً فى السنة بعدها ؛ فيكون جميعه آخر الحجة تتمة سنة تسع وثلاثين وألف ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ، دائما أبدا إلى يوم الدين ، آمين

تم بحمد الله تعالى طبع كتاب « نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب » لمؤلفه علامة المغرب الشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى ، بتحقيق الأستاذ الكبير العلامة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، بمطبعة السعادة ، فى ليلة العاشر من شهر رمضان المبارك عام ١٣٦٩ ، وهو الشهر المبارك الذى أتم المؤلف فيه تصنيفه ، والحمد لله رب العالمين ؟

مدير المطبعة

على محمد اسماعيل

فهرس الجزء العاشر من كتاب

« نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب »

للشيخ أحمد بن محمد المقرى ، المغربى ، التلمسانى

وهو آخر أجزاء الكتاب

تمت فهرس الجزء العاشر من كتاب «نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب» وبه تمام جميع الكتاب ، والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا ، وصلاته وسلامه على سيدنا ومولانا رسول الله ، وعلى آله وصحبه .



